تلمسانيات في أعمال الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات

1

بغية الرواد

في ذكر الملوك من بني عبد الواد

تأليف

أبي زكرياء يحيى ابن خلدون

تقديم وتحقيق وتعليق

الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات

الجزء الثاني

عالم المعرفة

للنشر والتوزيع

الجزائر

Scanned by CamScanner

بغية الرواد

في ذكر الملوك من بني عبد الواد

تأليف

أبي زكرياء يحيى ابن خلدون

تقديم وتحقيق وتعليق

الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات

الجزء الثاني

عالم المعرفة

للنشر والتوزيع

الجزائر

Scanned by CamScanner

الناشر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع
الجزائر

69 تجزئة المندرين تاماريس المحمدية-الجزائر

هاتف وفاكس : 021219296

e-mail: alemelmaarifa@hotmail.fr
website: www.algerianbooks.com

الإيداع القانوني: 2011-1655

ردمك: ISBN 978-9947-912-68-3

جميع الحقوق محفوظة

طبعة خاصة

2011 م

تلمسان 2011 عاصمة الثقافة الإسلامية

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

Scanned by CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثالث

فيما حازه أمير المسلمين مولانا أبو حمو من الشرف الشاهق الاطواد

أوج الملوك العالي، والسجدة في فرقان المعالي، وقبلة الآمال المضروبة إليها آباط البُخْت، لالتماس الحظ والبَخْت، وآية الله التي رأيناها أكبر من الأخت والأخت[1]، طَوْدٌ قد أرساه الوقار، وجُودٌ ظهر بالأرض[2] إليه الافتقار، وكسْرَى السياسةِ بالمَغْرب، والآتي من آياته الموسَوِيَّة بالمُعْجِز المُغْرب، ضرب بعصا حزمه[3] بحرَ الخطوب حتى فرَّقه، ثم أطبقه على فِرْعَوْنِ الأَزمات فأغرقه وأخرج قومَه بعد يأسهم من التيهِ، وقبس لهم من طور العناية نورًا والله مُؤْتِيهِ، ثم أنالهم السؤل بما يذره في سياستهم أو يأتيه، إلى أن حرَّك منهم السكون، وألقى عَصَا حزمه إلى سحرة عداهم حية تلقَّف ما يأفكون[4]، ومن قبل ما اقتحم الأهوال في طلب حقه المغصوب، حتى انفرد بتاجه المعصوب، فأدال النعيم من البُوس، والبِشْرَ من العبوس، ثم قارَعَته الحوادث، ونازلته الصروف الكوارث، وماجت بسفينة أمره بُحورُ الأهوال أول وثان وثالث[5].

لكنَّه ما تشينُ الحُرَّ مُوجعةٌ وطالما فالمِسكُ يُسْحَق والكافورُ مفتوتُ
أُصْلِيَ الياقوتُ جَمْرَ غَضًى ثم انطفى الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

Scanned by CamScanner

فلم تفلَّ الحوادثُ له حدًّا، ولا أضرع[3] التمحيض له خدًّا، كلّا بل الدين نسيجُه سابِريٌّ، والتفويض إلى الله من الاعتراض بَرِيٌّ، إلى أن جلَّى ظلامَ الشدة صباحُ الفرَج، وجاء رَوْحُ الله من حيث لم يحتسبه طيبَ الأرَج، وعاد ذلك التمحيضُ والمنةُ لله، تخصيصًا ساميَ الدَّرَج.

أَخرج أبو داود في سننه عن مصعب بن سعيد[7] عن أَبيه قال: قلت يا رسول الله أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل. وأخرج أيضًا عن أنس قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضِيَ فله الرِّضَى، ومن سخط فله السخط. وأَخرج أَيضا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: " حُفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ".

فأي مجد لم يُطَنبْ عليه بُرْدُه، أم أي شجاعة لم تسْرَج[8] إليها جُرْدُه، أم أي متعدد من الكمال لم يجمَعْه فَرْدُه، أم أيِ وقار لم يتحلَّ به طودُه، أم أي أمل لم يغمره جودُه، دام بقاؤُه، واتصل عزه وارتقاؤه، ولا زال وملوك العباد ماليكه وأرقَاؤُه. وسآتي من التعريف بخبره[9]، وذكر أوَّليته وسِيَرِه، وما جمعَته أيامَه من أثره، بما أمكن القلم الإتيان به حسب الوسع، ومن الله أسأل العون والتوفيق، والإرشاد إلى سواء الطريق، إنه ولي ذلك والقادر عليه[10].

(1) اقتباس من القرآن، سورة الزخرف، الآية 48.

(2) ع: في الأرض.

(3) ع: الحزم.

(4) اقتباس من القرآن، سورة الشعراء، الآية 45.

Scanned by CamScanner

(5) ع +: ولله در القائل حيث قال.

(6) ل: ولا أضرم. وأضرع يعني: أذلّ.

(7) س -: بن سعيد.

(8) في ل: لم يسرح؛ وفي ط، ب: لم تسرح.

(9) ع: بقدره.

(10) ل، ب -: والقادر عليه.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

الباب الأول[1]

في ذكر سجاياه الكريمة وسيَره الحميدة

اشتمل هذا الخليفة، أيده الله، من خِلال الكمال، وكمال الخِلال، على آي لا تحصى، وانفرد من عوالي المعالي والمعالي العوالي بالمطمح الأقصى، عيص ريحاني الشجار، وخُلُق طالبي النِّجار، وخَلْق للمحاسن في آيات فرقانه آي اشتجار، فما شئت من شرف ملتفّ الوشيج، ودين سابري النسيج، وفضل علي أئمة الأمة ليس بالمريج، فالمعارف واضحة البرهان، والمفاخر مسلَّم لجيادها السبق في يوم الرهان، والسراوة مُغلَمةُ البُرْد، والمجادة مُحْكَمة السَّرْد، والمعالي تَقاصَرُ عن حِسبانها مدارك الزوج والفرد، إلى النائل والحِلم الواضح الدلائل، والعدل المتفيئة ظلاله عن اليمين والشمائل، في حزم ماضي الشباة، ودهاء يشرق نور السياسة منه بالمشكاة، مع الجنان العطوف، والهمة العزوف[2]، والفضل المشهور المعروف، فالإصابة خصل، والقضاء فصل، والمستخدَم يراعة أو نَصْلٌ، قلت:

خــلالٌ نمَــتها للكمـــال عِــصابةٌ	فمــنهم وصـــي طاهــر وبـــتولُ
تـــرنح عِطفـــاه إذا ذكـــرت عُلًـــى	ولـيس سـوى حـب الفخـار شـمول
صَفوح عن الجاني كظوم لغيظه عَطوف	قـؤول بمـا شــاء الكمــال فَعــول
علـى الراجـي رؤوف بقـومه نهـوض	فـصول لأجــل الله فــيه وَصــول
لكـــسب الحمـــد يـــنظم شـــملَه	وقـور إذا هــول الخطــوب مَهُــول
غمـــام إذا أعطـــى هُمـــام إذا سَـــطا	فــلا صــعب إلّا فــي يديــه ذلُــول
مراقــي ســناءٍ[3] دونهــا[4] الأوجُ رفعــة	ومَرْمَــى عَــلاءٍ مــا إلــيه وصــول
ولا عَـــيْبَ الا أنّ غـــزبَ[5] مــضائِه	لتـشديخ هـامِ الخَطْـب فـيه فُلُـول

فلمقامه الكريم مَثَل المحامد الأعلى، ولسلطانه الشريف جِيزَ قدح المفاخر المعلَّى، وفي فرَاتِ أخلاقه تكرع ظِماءُ المعالي نهلا وعلًا، ولتداول بشره

Scanned by CamScanner

وإعراضه[6] تقرأ "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى"[7]، فإنْ سفرَ فالقمرُ ليلةَ تمامه، أو التثم فذكاء من وراء غمامه، أو ركب فالعسكر اللجب مهابةً وجلالاً، أو مشى فالروض المعجب نضارة وجمالا، ويقتعد سرير الخلافة فكأنما هو الضرغام، ويقضي بكتاب الله وسنة رسوله، فتمضي بفصل خطابه الأحكام، لا يرسل لسوى مرضاة الله سهما، ولا يقطع إلّا في السياسة والنفاسة[8] يقظة ولا حُلمًا، قد نبذ الرياض المزهِرات، والقصور المحبّرات، اكتفاء بالبيضِ الصِفاح، عن بيضِها تلك[9] الصِباح، وبالسمر الردينيات الرماح، عن سمر مقصوراتها[10] الفِصاح، وبصهوات العراب المسروجة، عن نمارق الأرائك المنسوجة، وبمطلق الصهيل والصليل، عن نغمات المثالث والمثاني في البكرة والأصيل، وبمثار السنابك من العِثيَر، عن دخاني المندَل والعنبَر، وبعَرْف الإذخِر والجليل، عن شذا رياحينها الجليل.

لـه الله مِـن ذي همـةٍ هَمُّـهُ العُلَـى فليس له سغيٌ[11] على الحرب زائدٌ قطًا
كـأَنَّ عِـداه إذ تحـشُ ببأسـه قـد أثارتهـا صـقورٌ صـوائدُ

قلت أيضا:

لـو أن أهـل الأرض شخص جمّعت فـيه العلـى مـا كـان مـن أكفائـه
لله فـيه سـر غـيبٍ كـامنٌ قـد دق عـن أَلْبابـنا بخفائـه
الله يكـلأ نفـسه العلـيا فمـا للـدين محـبوب سـوى حَـوْبَائِه[12]
قـد حَمّـل الأعـداءَ مـن وطآتـه مـا حمّـل الأيـامَ مـن أَغـبائه

فاقتاد بزمام مهابته[13] الدنيا الحرون، ودمّث بسنابك آرائه حوادثها الحزون، وعلم بصحة تجاربه ما يكون فيها قبل أن يكون، فهو كما قال جَدُّهُ علي بن أبي طالب لابن عمه عبد الله بن العباس رضي الله تعالى عنهم[14]: لله أنت من رجل فلقد تنظر إلى الغيب من ستر رقيق.

فليقظة حربه نام عمرو الحروب، وبصرامة أقدامه تجلت عن معدي كرب غمرات الكروب، فمَنْ زيد الخيل؟ وأين عامر بن الطفيل؟ وما ابن المكدَّم وأيَدُه؟

Scanned by CamScanner

وعمرو بن العاصي وكيدُه؟ كلا إنْ هي إلَّا الشجاعة الغَلوية تعضدها عناية الله الغُلْوية، وليوم سلمه خُلِقَ الرخاء، والجُود والسخاء، والبأو في العز والانتخاء، ثم الحلم والإغضاء، والطاعة لله ورسوله والإرضاء. فَمَن الأَحْنف يومئذ أو إياس[15]؟ ومَن للسَّمَوْءَل بن عاديا بالقبض على ذلك الرياس؟ وأَيْنَ ابن مامة وحاتم طَيِّءٍ عند القياس؟

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شرودا في الندى والبَأسِ
فالله قد ضرب الأَقل لنوره مَثلاً من المشكاة والنبراس

وله، أيده الله، نَظمٌ ارتفعَتْ طبقته عن شعر الملوك، وسياسة تكفل بتعريف[16] فضلها تأليفه المسمى بنظم السلوك، وعِلْمٌ جلا نورُه عن الدنيا مُدْلَهِمَّاتِ الحلوك، وخضوعٌ إلى الله لا تطمَس معالِمُ نهجه المسلوك، واختصَّه الذي يزيد في الخلق ما يشاء[17] بأَخلام كأنما هي فلق الصباح، وأَلْمَعِيَّةٌ تُزرِي في مشكاة حجره بضوء المصباح، ورأي يحط عُصْمَ الأَهْواء من مَعقِل[18] إبائها إلى صعيد الاسْتِبَاح.

يأوي إلى عِزَّة قَعْساء مُرْغِمَةٍ أَنفَ الزَّمان على ما فيه من أُشُرِ أو
لا تفلت الحرب من أيدي عزائمه يجعل الهام أجفان الظبى البُتُرِ أسْدٌ
جار على شأو آباء غطارفة على الخيل أقمار على السُّرُرِ والنبع
لا تستلين المَنايا عجم عودهم ليس بمنسوب إلى الخَوَرِ

ذلك فضلُ الله يوتيه من يشاء[19]، واختصاصُه المرتب على قواعده الإنشاء، فهو الإمام الذي شرف أصلاً وفرعًا، ووجبت خلافته الهاشمية طبعًا وشرعًا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخلافة في قريش والأَئِمَّة من قريش. وقال للأنصار: منكم الوزراء ومنا الأمراء. وروى الأعمش عن أبي سفيان عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الناس تبع لقريش في الخير والشر.

Scanned by CamScanner

وروى عبد الأعلى عن معمر الزهري عن سهل بن أبي حثمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تعلموا من قريش ولا تعلموها، وقدموا قريشا ولا تؤخروها.

وروى يزيد بن عمرو عن محمد بن يوسف عن أبيه عن إبراهيم بن أبي إبراهيم عن مكحول أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: لا يقومنّ أحدٌ إلّا لهاشمي. وروى حميد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المؤمل عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا اختلف الناس فالحق في مضر، إلى أحاديث متعاضدة في فضل قريش واستحقاقها الخلافة.

فإن قلتم[20]: المراد من الخلافة حفظ نظام الأمة، وإقامة شرائع الملة، والذب عن بيضة الإسلام، فأيما رجل اضطلع بذلك لوفور شروطه فيه، وقوة عارضة حاميته، كان خليفة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين، قلنا: سلمناه، لكن إذا حضر رجلان جمع كل واحد منهما شروط الخلافة إلّا إن أحدهما ليس بقرشي، كان القرشي أولى، عملاً بمقتضى الأحاديث النبوية، وتوخيًا للكمال. ولا يرتاب كل منصف نابذ لهواه في استحقاق هذا الإمام الأعلى، أيده الله، الخلافة بدينه وفضله، وسياسته وعدله، وعلمه وبره، وذاته وقدره، وحلمه وخصله، وفرعه وأصله[21]، فهو المعني بقول أبي العتاهية:

أتـتـه الخلافـة مـنقادةً ... إلـيـه تجـرّ أذيالَهـا
فلـم تـك تَـصْلُحُ إلّا لـه ... ولـم يـك يَـصْلُحُ إلّا لهـا
ولَـوْ رامَهـا أحـدٌ غيـرُه ... لَزُلْـزِلَتِ الأَرْضُ زِلْـزالَها[22]

فَلْيَكفِ الملكَ شرفاً ارتباعُه برَوْضِ فِنائِه، وتجلّيه على[23] الدنيا وسكانها من ريع سَنائِه. وحسب الرعايا ما أظلهم من سِيَره الحسنى، وشملهم من قسطاس عدله الأسنى، فلقد قسّم، أيده الله، زمنه فيهم بين حكم يقضيه، وحق يمضيه، وعاف يرضيه، وسيف لحماية الدين ينضيه، وجفن عن عوار الأمة يغضيه، وسبيل إلى

Scanned by CamScanner

مرضاة الله ومرضاة رسوله يفضيه. يبدأ، خلد الله ملكه، بقضاء حق الله تعالى مطفف الكيل، ثم بضرورات ذاته الكريمة منزورة النيل، ويجلس لمصالح العباد طرفي النهار وزُلفى من الليل، مصطفيًا من أغلام قومه أولي الشهرة والفضل جُلَساء[24] قد عُرِف لهم الحق، وسلم إليهم بميدان السن والمعرفة السبق، يظللهم بين يديه الجلال، ويغض من أبصارهم المهابة والإجلال، فكأنما على رؤوسهم الطير، فمن كتائب للحروب تجهّز، وآمال من المفاخر تنهز، ومواعيد في سبيل المعالي تنجز، ورسائل توقيعها لأجل السياسة يوجز، ومال يجبى فيخزن، وأرزاق تنفذ وتوزن.

وعيَّن، أعلى الله مقامه، أصائل عَرُوبة[25] للشاكين، فياتونها من كل فجّ عميق، ركبانا وعلى كل ضامر أوفنيق، فإذا صلى العصر واقتعد سرير الخلافة بمشواره[26] الأعظم، فتحت الأبواب، وأَذِنَ لهم فدخلوا لا يَخوِيهم الكَتُّ والحساب، ثم اصطفوا شاخصة أبصارهم تجاهه، يذكر مرآهم العرضَ الأكبر، فيقدمون[27] إليه واحدا بعد واحد، سَواءٌ في ذلك الشريف والمشروف، والقوي والمضعوف، فينصف المظلوم ويعدي المستجير، ويهدي العائل ويرحم المسكين، إلى غروب الشمس، سُنة متصلة غير منفصلة، وعادة مبتدعة لا تهمل، وقد وسع الناسَ عدلُه، وشملهم فضله وبذله، فهم بين راجٍ أو خائفٍ، فلا الراجي يفوته الغِنى، ولا الخائف يُنجيه الحَذر.

ذي[28] المعالي فليعلُوَنْ مَن تَعالى ... هكذا هكذا وإلّا فلا لا

شرفٌ يمتطي النجوم بنعلَيْهِ وعِزٌّ يقلقل الأَجْبَالا[29]

قال ابن عبد البر، قال النابغة لعبد الله بن الزبير أيام إمارته بمكة، شرفها الله، وقد أحسن إليه: أشهد لقد سمعت رسول الله صلعم يقول: ما وليت قريش فعدلت، وحدَّثت فصدقت، ووعدت خيرا فأنجزت، إلّا وذكر كلمة معناها أنهم تحت النبيئين بدرجة في الجنة. وأنا أشهد أن هذه الصفات المشروطة مجتمعة في هذا الخليفة الهاشمي أيده الله، فهو الكامل في الحياة الدنيا، والمجاور للنبيئين إن

Scanned by CamScanner

شاء الله في الجنة، فالحمد لله الذي جعلنا من أهل إيالته، وشرفنا بطاعته، ونظمنا في سلك جماعته، أدام الله أيامه، ونصر أعلامه، وحلى كلامه، وأعلى مقامه، بمحمد وآله[30].

---

(1) س +: من القسم الثالث.

(2) في ب، س: العروف؛ وفي ط، ع: الغروف.

(3) ط: سناه.

(4) ع: دونه.

(5) ج، ز: عرف؛ ع، ط: عضب.

(6) ع: واعتراضه.

(7) قرآن، سورة الليل، الآيتان 1 – 2.

(8) ع: أوالنفاسة.

(9) ط، ع: عن بيض هاتيك.

(10) ط، ع: مقصورات.

(11) ل: بغي.

(12) الحوباء هي: النفس.

(13) س -: بزمام مهابته.

(14) س: عنهما.

(15) النص من "ثم الحلم" إلى "أو إياس": ساقط في ل.

(16) ل: لتعريف.

Scanned by CamScanner

(17) اقتباس من القرآن، سورة فاطر، الآية 1.

(18) ع: معاقل.

(19) اقتباس من القرآن، سورة الحديد، الآية 21.

(20) ل: فإن قلت.

(21) ر: وفصله.

(22) اقتباس من القرآن، سورة الزلزلة، الآية 1.

(23) ع: عن.

(24) ل:حلفاء؛ ع: خلفاء.

(25) أي يوم العروبة، وهو يوم الجمعة.

(26) ع: بمشوره.

(27) س: فيقومون.

(28) ل: ذو.

(29) ل: الأحيالا.

(30) ع: بحمد الله. النص من "وحلى كلامه" إلى "وآله": ساقط في ر، س.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

الباب الثاني[1]

في أوليته ومصير الملك إليه[2]

هو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يَغْمَراسَن بن زيّان بن ثابت ابن محمد بن يندوكسن[3] بن طاع الله[4] بن علي بن يمّل بن يزجن بن القاسم بن محمد ابن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن[5] بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم.

نسبٌ كأن عليه من شمس الضحى   نورا ومن فلق الصَّباح عَمودا

وقد مرّ التعريف بأمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان[6]، قدسه الله تعالى. وأما ولده يحيى، رضي الله عنه[7]، فشريف ولد أبيه، وولي عهده، لو فسح في عمره، وبه يكنى. وكان رحمه الله يقول إذا رآه: بعقب ولدي هذا تحيا دولة بني عبد الواد وفيهم يبقى مُلكنا إلى آخر الدهر. مولده بتلمسان سنة تسع وثلاثين وستمئة، وكان ما كان من الفضل والشهامة والإقدام، تأمّر بسجلماسة[8] عن أبيه سبع سنين، وتوفي بتلمسان سنة ستين، فخرج والده رضوان الله عليه في جنازته راجلا. وقبره، رحمه الله تعالى، بدار الراحة[9] من الجامع الأعظم.

وأما ولده عبد الرحمن فمُحسِّد آل بيته فضلا معروفًا، ومجدا مشهورا، ودينًا متينًا وحصافة. أجازه عَمُّه السلطان أبو سعيد بن يغمراسن إلى الأندلس بولده، حذرًا منه على سلطانه، لمكان بنوّته من ولي العهد، سنة أربع وتسعين وستمئة، فأقام بها مكرمًا، موفى البر، معروف القدر، إلى أن جاجأ به ملك المغرب، لإشجاء ابن عمه السلطان أبي حَمُّو[10] ابن أبي سعيد عثمان[11] به، فقدم عليه وأقام بالمغرب معظَّم الجناب مرعي الذمام أياما قلائل، ثم ظهر ملك المغرب على نعرة الرجل لقبيله، وإيعازه إلى ابن عمه بكل مرأى ومسموع، فصرفه عن قطره بخير، ولحق بتلمسان سنة اثنتي عشرة وسبعمئة، فلما بَصُر به صدر موكب بنيه الغُرِّ لم

Scanned by CamScanner

يأمن على ملكه منه، فاقتدى في إجازته وإياهم البحر إلى الأندلس بأبيه[12] سنة ثلاث عشرة وسبعمئة، لِمَا كتِبَ له من فضل الشهادة، وأعِدَّ له من الفوز بالسعادة.

فاستقر ثانية بأغرناطة معظَّم القدر معروف الحق، طاهر الجَنْبِ[13]، مشهور الغَناء في الجهاد، حتى اذا استنصر أبو الجيوش، مخلوع بني نصر، بالروم على قريعه في الملك وقسيمه في النسب السلطان أبي الوليد بن فرج، والتقى أهل المِلَّتين بوادي فرتونة سنة ست عشرة وسبعمئة، انهزم المسلمون، وألجأهم الروم إلى وعر مضيق استجَنوا فيه بستة عشر نفرًا من المسلمين، كان الأمير أبو زيد هذا أغناهم في الله، إلى أن استشهد، نضر الله وجهه، بعد مَنال عظيم من عدو الله، وغَناء[14] كبير في مِلَّة رسول الله، وترك بنين كبيرهم المولى أبو يعقوب وأخواه أبو سعيد وأبو ثابت.

فأما المولى[15]أبو يعقوب فزاهد آل هذا البيت الشريف وصقر زناتة أجمعين، والواحد الذي لا نظير له رجولةً وفضلاً وحياءً وكرماً ومجدًا وشرفاً. مولده سنة تسع وثمانين وستمئة، وأقام بالأندلس هو وإِخوته بعد وفاة أبيهم لياليَ وأيامًا آمنين، يتهلل بمرآهم وجه الإسلام، وتَبَأى بآثار سلفهم مواقف الجهاد، وتخفض لأَذِمَّتهم أجنحة البرِ والإكرام، وشهدوا مع المسلمين وقائع جهادية، أحسن فيها المولى الصالح أبو يعقوب، قدسه الله، البلاء، وأجاد في جهاد الكفرة ما شاء، فارتفعت لذلك درجة إعظامه، وتضاعفت أقسام برِه، وهنالك وُلِدَ له مولانا الخليفة أمير المسلمين أبو حمو موسى، أيده الله، سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة، نبعة مجد وشرف، ودرة حسب وعلاء، وفرع شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء[16]، طيب سليل أطايب، وكريم سبط أكرمين.

تخيَّرَه الله اعتناءً بأمره ... لُبابَ لُبابٍ طيِّبًا فرعَ طيِّبِ
وأرشده لمَّا اجتباه وإنَّه ... لَيختارُ للأمرِ العَليِّ ويجتبي

فانتقى سبحانه له الآباء، وارتضى لمولده الدار، واصطفاه لإحياء رسوم

الخلافة. وفي سنة هذا المولد المبارك استقدم السلطان أبو تاشفين، رحمه الله، المولى أبا يعقوب وإخوته، ووفدوا عليه، فرحّب وسَهَّل، وأعز وأكبر، ورفع الرتب، وأعظم الجرايات. فكان ذلك مبتدأ الخبر[17] ومركز دائرة المنال، ووتد نظم هذه الدولة وسببها، والله يَمْحُو ما يَشاءُ ويُثبِتُ، وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ[18].

فنشأ هذا الإمام الأعلى، أيده الله تعالى، بتلمسان مظْأَر[19] عِزٍّ وشرَف، ومكفول طهارة ومجد، ومحضون عفاف وصون، ثمت شب مطمح آمال، وثلج صدور وقرّة أعين ومفخر أعمام وأخوال. ومرت الأَغْصَار وتقلبت كعادتها الصُروف، إلى أن دالت أيام عَمَّيْهِ السلطانَيْن المرحومَيْن أبي سعيد وأبي ثابت، رحمهما الله[20]، كما مرّ.

فقنع والده المولى أبو يعقوب، رضوان الله عليه، من ملك أخويه بسكنى قصبة ندرومة زهدا في الدنيا، وتقللا من متاعها الذاهب، وتخليًا لعبادة الرب والعمل النافع في الأخرى. فكان، أبقاه الله، بها معه محمود السِّيَر، ظاهر الشرف، مشهور الفضل، يحمل الكل ويقري الضيف، ويوثر العفاف فلا يعترض الطيف، وشمائل الخلافة مع ذلك معروفة فيه، ومخائل الملك بادية عليه، والقلوب لإكباره وإعظامه معتقدة، والأفواه بالثناء على مجده قائلة، ولسان دهره بمصير الأمر إليه ناطق، يسمع ذلك عَمَّاه، فلا ينكرانه بل يعترفان بفضله في آل بيتهما ويرجوانه.

وَبِهَا[21]، أوّلَ شهر ربيع الأول سنةَ اثنتين وخمسين وسبعمئة، ولد له المولى أبو تاشفين، كوكب الشرف الوقاد، وهلال الكمال المنقاد، ودرة التاج، وفخر الأخدان والأنتاج، فرع دوحة النبوءة والرسالة، وجامع خصلتي الكرم والبسالة، والآخذ بمجامع القلوب خُلُقًا عظيمًا وخَلْقًا بهيًا، والمحمود بقوله تعالى: وبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ولَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا[22]، حتى إذا كان، بقضاء الله وقدره، وقيعة شلف المتقدمة الذكر، شرّق وفاء مع عمه السلطان أبي ثابت، رحمه الله، معزّزين من يحيى بن داود بن علي بن مجن

Scanned by CamScanner

الوزير بثالثٍ، فلما عثر عليهم بلبزُّو من أحواز بجاية كما مرّ، وجيء بهم في أسحال التنكير، قيل: مَن السلطان أبو ثابت منكم؟ فابتدر هذا الخليفة، أيده الله، موثرًا نجاة صِنوِ أبيه، وباذِلا لفدائه مهجته، وسامحًا دونه من حياته بما لم يسمح بمثله أحد قبله، وقال: أنا. فَاعتوَرَهُ القومُ محمولاً، وصاحباه يتلوانه راجلَيْن، وهو يقول: اتركوهما فقد ظفرتم مني بحاجتكم، إلى أن وصلوا معسكر فارح، علج صاحب بجاية يومئذ، بخميس تِيكلات، وكان به مَن عرف السلطان أبا ثابت، رحمه الله، فانتقلت أيدي الظنة إليه، ومالت عيون الرصد نحوه، وسئل: من الجائدُ دونك بنفسه؟ فقال مُعَمِّيًا لشأن ابن أخيه: هو من خَوَل النعمة وتبع الدولة، وأنشدكم الله إلّا ما سرَّحتموه، فخلُّوا سبيله، وانصرف راشدًا لطِيَّتِهِ[23].

فانظر إلى شرف[24] هذا البيت الكريم، وكرم خِيَم هاذين الملكين، وبعد مُستمَى[25] فخرهما، وما أتى الله تعالى هذا الإمام الأعظم من السبق إلى كل فخر، والامتياز بكل علاء، والاتسام بالشرف الذي لا مبدأ قبله، ولا مرمى وراءه، وهل[26] كان في الأمم الماضية والقرون الخالية، أوعُدِّدَ في ممادح الملوك الغابرة، نظير للتفادي بالمهج، ومثال للكرم بأعلاق النفوس، أو شبيه لتعاطي الحياة، والظن بالفناء، إن هو إلا الحياء المحض، والمجد الصُّراح، والكمال البَحْت[27]، والشرف الموروث والمكتسب.

عن جودهم رُوِيَتْ أحاديث الندى ... وبفضلهم نطق الكتاب المُنْزَلُ
إن كنت تسأل عن تراث قديمهم ... فاسأل بهم يأيها المزمّل
شرفًا بني حَسَنِ بْنِ فاطِمَ شادَهُ ... لكمُ وأعلاهُ النبيُّ المرسَلُ إلّا
ما طاولَتكمُ في الفخار قبيلةٌ ... ومجدُكمُ أتمُّ وأطوَلُ
أنتم مصابيح الهدى والناس في ... طُرُقِ الجهالة حائر ومضلّل

واستقر هذا الخليفة الأعلى بحضرة تونس آمن السرب، معظم القدر، مفترض

الحق، مرفعًا عن النظير، على أكمل هيئات الأشراف، جمالَ شارةٍ وبهاء سمت وكمال وقارٍ وتؤدة، قد اتخذ تقوى الله شعارًا، وانتظار الفرج بالصبر دِثارًا، وزيَّ الجلال والكرم[28] ظهارًا، فأنوار الخلافة تلوح بآفاق أساريره، وأزهار السعادة تفوح من خمائل شمائله، وألسِنة الدهور تبوح بأسرار اصْطِفَائه، فكم ألقِي إليه من كتاب في الحدثان كريم، وكم بشرى همس له بها أولو قرعة أو تنجيم، وكم رؤيا سمعها المعبّرُ، فقرأ: وَمَا يُلَقَّاها إِلَّا ذو حَظٍّ عَظِيمٍ[29].

ومَلِك المغرب السلطان أبو عنان أثناء ذلك يسأل عن خبره، ويدين بالثناء عليه، ويتطاول إلى ما أباه الله تعالى من المكروه فيه، علمًا بما يكون بعد ذلك من شأنه، فيراسل ملك تونس يومئذ الأمير أبا إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى ابن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي إسحاق ابن السلطان أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص، ووزيره أبا محمد عبد الله بن أحمد بن تيفراجين التينملي في أمره، ويحض والده المرحوم[30] أبا يعقوب، رضي الله عنه، إذ كان مقره بحافده المولى أبي تاشفين، بعد ذهاب ملك أخويه، بفاس، على الكتب إليه واستقدامه نحوه.

حتى إذا بلغ الكتاب أجله وحكمت نصبة التحويل باقتراب الميقات، ونظرت السعود إلى دليلها نظر مودة واتصال، تأذن الله بحركة ملك المغرب أبي عنان المذكور إلى الشرق، فملك قسنطينة وبلد العناب، وصبّح أسطوله حضرةَ تونس، فارتحل أميرها أبو إسحاق المذكور تلقاء الجريد، في أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وسبعمئة، مرافقا هذا الخليفة أسماه الله في الموكب والفسطاط ومقاسمه في الحلو من أمره والمرّ، إشجاءً لصدر العدو بإكباره، وكبْحًا من جماحه بحكمة الزيانية[31] دعوته، وحلُّوا بعد القفول من الجريد بكورة تبسّة من إفريقية، ومعهم سُلَيْم كافة، وملك المغرب بتجيس، على قدر[32] رحلة أو اثنتين منهم، لا يستطيع الإقدام عليهم، ثم ولّى غير متلوّم ولا لاوٍ على متعذر، وهم في أثره، إلى أن كعّ الموحدون عن التمادي وانثنوا إلى وطنهم.

Scanned by CamScanner

فمرّ مولانا الخليفة في أتباعه بمن حضره من قومه، وعشائر زناتة يشنون الغارة على أطراف ركابه، ويذيقون من تخلّفه وبالَ أمره، وأصحر فعاج الخليفة نصره الله، بجمعه تلقاء قسنطينة للتضييق على مخلف المغرب بها، وإضرام نار الفتنة في قطرها، فنازل ميلة من قراها، ففتحها آخر شوال السنة المذكورة واستبدّ بأمرها، وأصمد رابع يوم فتحها قومه لمثاقفة حصة مرينية كانت بجبل بني ثابت، ونصرهم الله عليها، فاقتلعوا الفرسان، وسلبوا الأنفس والأموال، وجاؤوا إلى الخليفة أيده الله بالخيل العديدة[33] والمتاع الكثير، فاستركب مترجلي قومه[34]، وقسم السعي عدلا بين الجميع، ثم أخذ أيضا قرية بني ورار[35] من كور بجاية، واستولى على محلة قائدها الوزجوني بما حوته.

ولم يزل هنالك وقومه مضايقين لبني مرين الذين بقسنطينة، منعًا للمرافق عنهم، وسدًّا للمسالك دونهم، سنة أو دونها بأيام، وربما استألف رياحًا، فنازلهم وأخذ بمخنَّقهم، وشفى صدور عوامله من حربهم، إلى أن قدم على ذلك القطر سليمان بن داود بن اعراب العسكري وزير ملك المغرب، في شهر رمضان المعظم سنة تسع وخمسين وسبعمئة، بجنود لا قبل لهم بها.

فارتحل مولانا الخليفة أيده الله عن ميلة بقومه، ونازل صولة بن[36] يعقوب بن علي بن أحمد بن محمد بن مسعود، شيخ رياح، وهو إذ ذاك مخالف عن القوم، فشرّقوا أجمعين عند نزول الوزير المذكور بظاهر قسنطينة. فلما انتهوا إلى تبسّة ثاب إلى الخليفة نصره الله رأيه، وأخذ الحظ بعنان عزمه، وتقدم هادي القدر بين يديه، فثنى الركاب مغرّبًا، ورافقه صولة بن يعقوب بن علي المذكور وكافة أولاد عثمان بن سباع ابن يحيى بن مسعود من أعلام ذلك الرهط، فلقيه قبيل بني عامر عرب وطنه وشيعة ملكه والجار الجنب لحاضرة خلافته، حلفاء جلاء، وطرداء خوف، وشيخهم يومئذ سقير[37] بن عامر بن إبراهيم بن يعقوب بن معرف، وكان مصنوعًا له، مهابًا في قبيله، ممدوحًا بالوفاء بين نظرائه.

Scanned by CamScanner

فاستبشر الفريقان واستروحوا أرج الفرج، واستشعروا إدالة اليُسْر والتمزوا، ثم نهضوا لمحاربة الوزير المذكور، وهو بفحص بازر من عمل قسنطينة، فنزلوا ماء السمارة قريبًا منه وأصابتهم فيه سماء[38] أجفل بين أيديهم في خفارتها الوزير ولجأ إلى معقل بني وَرَار[39] من كور بجاية، فلما أصحَوْا استمروا في حركتهم مغرِّبين تلقاء جبل عياض من كُوَر بجاية، وصبَّحوا أهله غازِين، فاستباحوا الأموال واستأصلوا الحلل، وفرعوا على القوم مشمخرّات المعاقل.

وفي أثناء ذلك وفد[40] على الخليفة أيده الله[41] الملأ من أولاد سوّاق، حامية ذلك الوطن وشوكة الحروب فيه، راغبين منه الكون عندهم والحركة بهم على بني مرين، لاستنقاذ بلاد الموحدين من أيديهم، فأبت ذلك عليه بنو عامر. ثم جاء من جبل عياض الشيخ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر سبط عبد المؤمن بن علي مضْطِبنًا[42] إثارة حدثان معينة الوقت مؤكدة بالأمارات الراهنة والمُنتظَرة، تهدر بذلك شقاشقه، وتشهد بصحته صحفه، قد نبذ الولد والأهل بالعراء، واختار ملازمة الخليفة لاستثمار علمه بعمله.

فارتحل مولانا الخليفة نصره الله وخلد ملكه[43] بعد الفطر من السنة يجر البحر الزاخر ثاغية وراغية والخميس العرموم، أبطالا عامرية ورياحية، في فئةٍ صُبُر أَنجاد من قومه، فأخذ على ثنية غنيَّة بين جبلي عياض وأوراس مُصحِرا، فنزل الزاب ثم رحل لريغ فوارجلا[44]، ثم غرَّب إلى جبل مصاب ثم إلى وادي زرقون، ومنه بعد موسم الأضحى نهض لاهتبال الغرّة في أولاد عريف، شيع بني مرين وأنصار كلمتهم يومئذ، ومِجَن حصصهم بكوَر[45] تلمسان، فبعد مشي عشرة أيام ولياليها، لم يحل بها ولا قومه سرجًا، ولا خَطُّوا فيها قتبًا، صبّح حيَّ القوم بوادي ملّال، وقد عميت عليهم الأنباء، فاستبيح المال، وقتل عثمان بن ونزمار بن عريف في مشاهير كثيرين من قومه، كائنة مشهورة الخبر وملحمة عظيمة الأثر، كانت لمولانا الخليفة أيده الله وحزبه باكورة الجنا وطليعة الملك وأُولى بشائر الفتح، فسبحان الفاعل لما يريد والقادر على ما يشاء، لا إله إلّا هو.

Scanned by CamScanner

وألفى أيده الله ذلك الوادي مُمْرِعًا، فأراح به الظهر أيامًا أهل فيها هلال شهر الله المحرم فاتح سنة ستين وسبعمئة. وفي اليوم السادس منه وافت البشرى بموت السلطان أبي عنان ملك المغرب، فوضح لساري أمل الخليفة نصره الله الصباح، وهبّت لنصر كلمته الصّبا، وجاءه من الفرج ما لم يكن في حساب، فكبّر الشيخ أبو زكرياء المذكور لظهور كبرى آياته، وسرّ بوضوح غرّة حدثانه، وابتهج أشياع الإمام، أيده الله ونصره، بنجح السعي، وامتدت أيدي آمالهم إلى[46] التي لا يَدَ فوْقها[47]، وتيامنوا برأي مولانا الخليفة، نصره الله، وأيقنوا بنجح طلابه، ومن تسبّق إليه عناية الله تتضح مراشده، وتجمع على حبه القلوب، وتسهّل لمآربه السبل، وإذا أراد الله أمرًا يسّر أسبابه، فإنما يقول للشيء كنْ فيكون.

فأرهَفَ مولانا الخليفة، أيده الله، شَبَاةَ[48] الإقدام، وشحذ بعد استخارة الله غرب العزم، وأجاب سؤال رياح الذين اتبعوه في الانقلاب إلى وطنهم، سوى شبل بن ملوك ابن عثمان بن سباع ودغار بن عيسى بن رحاب السعيدي، فإنهما آثرا البقاء معه، والحركة في خدمته. ثم أعمل الركاب تلقاء حضرته الكريمة لانتهاز الفرصة في ردّ مغتصبيها.

فيخضراء كَبُود أهَلَّ صَفَرُ السنة. وفي خامسه بين ماءَيِ[49] الخضراء والأخضر، بايعت العرب أمير المسلمين وخليفة رب العالمين أبا حمو، أيده الله، بيعة الرضوان، على الوفاء له في المنشط والمكره، والعُسْر واليُسْر. وبماء شعيب وفد عليه، أيده الله، أشياخ بني يبقى، عَمَرَة كورتي يَسْر والقصبات المصاقبتين لكورة الحضرة، بطاعة قومهم، ثم رُسُل حيزيَّة[50] العرب أجمعين، يستقدمونه ويجأجئون به نحوهم. فقطع، أيده الله، سبخة كَبُود، وتلوّم لإراحة الركاب يومًا.

ثم جدّ السير، وجنود العناية الربانية تحفه، وكواكب السعد تهديه، وألوية الفتح المبين تظلله. وبماء تيسَمْرين[51] ثلج العرب، ومن عادتهم تحامي التلول في إبّانه. فما هلعوا للقائه ولا أحجموا عن مساقطه، ولا جزعوا لرؤوس أموالهم من مصايبه.

ورحل أمير المسلمين، أيده الله، بعد إقلاع سمائه فاتبعوه، واجتاز بهم ثنية فرتون، كأنما تطأ بها المناسمُ والأَخفافُ على منبت العهن، وخيَّم بأُومَاكَرًا من تلّ بني راشد سبعة أيام، يستألف القبائل، ويستنفر الراكب والراجل.

ثم ارتحل إلى عين الحجر شرقي وادي يَسَّر، فهنالك ورد على بابه العلي أهل القَصَبات ببيعتهم، وكتاب الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي، من بيوتات الحضرة وأسباط خَدَمَة الملوك الأُوَل، مثيرًا عزمه، أيده الله، بما شرح من حب الناس في مقامه الكريم، وإجابتهم داعِيَةُ، ودعائهم في ظهر الغيب بنصره. فارتحل، نصره الله، وعسكر ببطن الوادي في رجل الدَّبا من نشر قومه، وأعياص زناتة نسلوا من كل حدب إليه، وانهالوا بكل فجّ ومعلم عليه.

وكان سقير بن عامر بن إبراهيم، المتقدم الذكر، أحظى العرب لدى أمير المسلمين أيده الله وأقربهم منزلة عنده، فأنف له علي بن عمر بن إبراهيم، قسيمه في البيت، وقريعه في الشياخة، وامتلأ صدره حقدا، وأشاط الحسد من غيظه، فأظهر كامن نفاقه بالفرار من هنالك إلى تلمسان، مظاهرا بني مرين الذين بها، فوهن لذلك من قبيله العظم، وخارت له قواهم وكادت ريحهم تذهب لولا شهامة أمير المسلمين، أيده الله، وإقدامه وصبره عند النوازل، فأرسى جبال حلومهم وأثار زعازع حميّاتهم، وأرحلهم بعد إزماعهم المُقام، وذلك في يوم السبت الخامس والعشرين من صفر، ووعد رَبَّ الخدر السابق بإجازة الوادي إحسانه إليه ببلد، فاقتحمه الناس من كل جهة. فخيم، أيده الله، ليلته تلك شرقي تيزي واجمار[52] بمرأى من الحضرة.

وتقدم الحاج موسى بن علي بن برغوث في رعلة من بني عبد الواد، أعزهم الله، والعرب بأمر الإمام، أيده الله، إلى وادي اضطفصيف[53]، فبرزت إليه حامية البلد، وهم زهاء ثلاثة آلاف، أميرهم محمد ابن السلطان أبي عنان، صغيرا مكفولا ليغمراسن بن عثمان الورسيفاني، وأطمعتهم طيارة الخيل بانقلابها،

فاستمروا في طلبها حتى إذا وافت المراكز انعطفت عليهم معضودة منها بالأضعاف، فانهزموا، وقتل فارسهم يومئذ علي بن مسعود الونجاسني[54] في نفر كثيرين سوى من أرجل، وانحجروا بالمدينة عشاء، يعضون الأنامل من الغيظ، وتعدهم الأماني الكاذبة[55] الكرّة، فيقولون: إنّ موعدهم الصُّبح، أليس الصُّبح بقريب[56].

وراح أولياء أمير المسلمين بالغنائم المنوّعة والنصر العزيز، فأصبح، أيده الله، مقيمًا لإجمام الجنود، ورحل صبيحة الاثنين، فخيّم إزاء تيط ان وشقوف[57]، ثم من الغد شرقي جبوب[58] جبل الحديد. وفي صبيحة يوم الأربعاء رحل، وسار في كتيبته الخضراء، تخفق عليها بنود السعادة، وتقدمها جنودُ ملائكة الله وروحه، آخذا على قنطرة وهران، واجتاز عرب مَيْسَرته المنعقدة على شعيب بن عامر، أخي الشيخ، بقنطرة اضطفصيف، فبرز بنو مرين بقضّهم وقضيضهم، فأخذوا بالثَّنية مَصافهم، ورتبوا مراكزهم، وحمي بين الطائفتين الوطيس، وفار للوغى التنور، وانجلت المعركة عن هزيمة بني مرين، وأخذ ما كان بعسكرهم من طبل وأعلام[59]، وراحوا روحة مذكورة عندهم حتى الآن، فاستجنوا أسوار المدينة، وخيّم أمير المسلمين، أيده الله، بموقفهم من المنية.

وجنّ الليل وقد أهلّ هلال ربيع[60] (الأول) المبارك، فبرز تحت خفارة ظلمائه الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي المذكور آنفًا، وبنو زاغو نظراؤه في النجدة والبيت، فدلُّوا أمير المسلمين، أيده الله، على عورات[61] البلد ومخادعه، وأغروه بأجادير لقرب مناله بشيع[62] أهله، فأسرى أيده الله بموسى بن علي بن برغوث إليه في الجراد المنتشر من رجال زناتة وفرسانهم، وتقدم إليه بالكمون في جناته، وقرّعه غدًا إذا وقف هو أيده الله بجانب المدينة الغربي.

فلما بدت لصباح يوم الخميس السعيد التباشير، ووضحت به من الشهر المبارك الغرّة، وأشرقت بسماء السعادة شمسُه، عبّأ أمير المسلمين، أيده الله، عساكره الشاكية السلاح قلباً وميمنةً وميسرةً ومطاردة، وسار صدرهم الهوينا تلقاء

Scanned by CamScanner

باب كشوطة[63]، لا يعدو الفارسُ منهم الفارسَ، ولا يسبق السنانُ السنانَ، كأنما وضعوا على متن خط مستقيم، وغلق بنو مرين الأبواب، واستلأمت جمرتهم بالمطمر، وعمرَ السائرُ[64] شراريفَ الأَسوار، وتنادوا بالذل من وراء الحجرات، يضربون في الحديد البارد، رجاء منع ما الله مُعْطِيهِ.

وبصر الحاج موسى بن علي بمكان الخليفة، فزحف الى باب العقبة بجنوده، ولم تستوِ عساكر أمير المسلمين بصعيد الملعب حتى فتح أهل أجادير لموسى بن على بابهم، فدخله على مرين بجنوده[65]، واحترب الفريقان، وتجاولوا الطعنات، إلا أن الصَّبا هابَّة مع الداخلين، والدبور آخذة بحَجْر[66] الآخرين، وما النصر إلَّا من عند الله يوتيه مَن يشاء والله عزيز حكيم[67]. فملك على القوم أجادير عنوة، وانحاز فلُّ ملحمته الى قبيلهم وأجمعوا رهبة على تسليم البلد لربه، فاستأمنوه لأنفسهم مُسْتَسْلِمين لأَمره[68].

جنحوا إلى السِّلم التي سَلِموا بها لمَّا انبَرَى ليثُ الشَّرى ليَصُولَا
وتوهَّموا شُهْبَ النجوم أسِنةً وتخيَّلوا لمعَ البروق نصولا
حملوا شروطاً لم تكن محمولةً لكنَّ مَنْ خاف استخَفَّ ثقيلا

وفتحوا[69] له أيده الله باب كشوطة فدخل نصره الله في نفر قليلين، وجمرة القوم شاكية السلاح مصطفة خَفافَيْ طريق المَطْمَر، فلم يُرَعْ لها جنانُه، ولا هابُها إقدامُه، بل اجتاز فيما بينهم رابط الجأش، قوي العارضة، غير مبال بآلافهم الحنقة[70].

اذا أنت أعطيت السعادة لم تبَلْ ولو نظرت شزرا إليك القبائلُ
تقتلكَ على أكتاف أبطالها القنى وهابَتْك في أغمادهن المناصل نكضن
وإن سدَّد الاعداءُ نحوَك أسهمًا على أفواقهنَّ المعابل

واعترضه محمد ولد السلطان أبي عنان وكافله يغمراسن بن عثمان وأخوه عمر وأعلام القوم فبايعوا له بالخلافة، ودخل داره الكريمة في أيمن المطالع وأسعد

Scanned by CamScanner

الأوقات، فلله الحمد والشكر ملء السماوات وملء الأرض. وفي هذا الفتح المبارك[71] والوقائع الكائنة قبله يقول مولانا أمير المسلمين أبو حمو أيده الله تعالى:

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسِم ... لما شحطتها من هبوب الرواكِم
وقفت بها مستفهمًا[72] لخطابها ... وأي خطاب للصلاد الصلادم
وسِرْتُ على جون أقبّ مضمَّر ... كلمعة برق أو كلمحة صارم
وجُلتُ بطرف الرف في عرصاتها ... كجولة واهٍ أو كوقفة هائم
وصفقت ما بين الطلول خوامسي ... وفاضت سواقي الدمع مثل الأراقم
وقلت لصحبي لا تملوا من السرى ... ولا يزدريكم في السرى لوم لائم[73]
سلوا عن أُهَيْلِ الحي أين تحملوا ... فقد عيل صبري بين تلك المعالم
ديار عهدناها بها الشمل جامعٌ ... مع الغانجات الآنسات النواعم
وكم ليلة بات السرور مساعدي ... بسعدى وسلمى والمنى أم سالم
فعادت رسوم الدار بعد أنيسها ... هشيما ولا تخفى بقايا المراسم
وكم نسجتها من جنوب وشَمْأَلِ ... وكم سجعتها من لغات الحمائم
كأني بهم والله يوم تحمَّلوا ... وحادي النوى يحدو بذات المباسم[74]
قطعت[75] الفيافي بالقلاص وإنما ... تجاب الفلا بالخف أو بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعًا ... تسابق في البيدا ظليم النعائم
مكحلة الأحداق فيها هشاشة ومَغْها ... مهملجة الأطراف سود المباسم يرون
أسود الحرب تطوي بها الفلا[76] ... المنايا بعض تلك المغانم
وخضت الفيافي فَدْفَدًا بعد فدفد ... لنيل العلى والصبْرُ إذ ذاك لازمي نراقب
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى ... نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهَّال أغرّ محجَّل ... مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم

تسربلتُ كردوسَيْن من آل عامر ومن آل ادريس الشريف بن قاسم أسود
رجال إذا جاش[77] الوطيس تراهم الوغى من كل ليث ضُبارِمِ
وجُبتُ الفيافي بلدة بعد بلدة وطوّعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لأرض الزاب تذرف أدمعي[78] لتذكار أطلال الربوع الطواسم
وشبكت عشري فوق رأسي فلم أجد بها مخبرًا غير الربى والمعالم
وجاوزتها ما بين هوج هجائن رقاق الهوادي عاليات القوائم
وجزت بأرض الريغ راغت بأهلها ببلقعة قفر قفتها عزائمي
سألت ربوع الدار فيها[79] فلم أجد بها معلمًا يأتي إليَّ بعالم
شددت عرى للنجع من كل جانب وصيرتها مثل الرياح الرواكم
تخيلتها مثل القطا في مسيرها وفوق ذراها كل شهم وحازم
وحفت بنا الأبطال من كل جانب يذكرها عهد الهوى بالصماصم
وجئت لِوَارجلَا وجزت مِصابَها ولا مخبر غير الصلاد الاعاجم
وما زلت أطوي سَهْلَها وإكامَها[80] وأحطمها بين الربى والهضائم
قطعت الحمادَى والسراب غديرها على هيكل عبل الذرَا عَيْنَ هاجم
مِكَرٍّ بيوم الحرب لا يشتكي الونى مِفَرٍّ اذا طالت عظام الهزائم
إلى أن بدا لي واد زرقون أزرقًا وبانت عليه شاحبات الغياهم
طرقت برأسي واستفزيت بالكرى[81] وكم من ليال بتّها غير نائم
وجدَّدْتُ في طِلْب السرايا مسربلاً بسير حثيث أو سُرَى متداوم
وكم من بلاد[82] قد قطعت إكامها وكم نسمة جادت عليها نسائمي
وبين ضلوعي زفرة مستكنَّة يصعدها فيض الدموع السواجم[83]
وبتنا نسوق النجع في غَيْهَبِ الدجى وخرصاننا فيها كشهب عواتم
الى ملل مِلْنا وما مَلَّت السرى سرايا ركابٍ كالقسي السواهم
ولما بدا لي منزل[84] القوم ظاهرا وحيُّهُم بين الظلال الغياهم

جـبذنا مجابـيذًا وجـدَّتْ جـيادها وجالـت كمـا العقبان بين القشاعم[85]

وضـمر عناجـيج علـى صـهواتها كـرام سـماح[86] بالـنفوس الكـرائم

نطـارد فـيها الخـيل بالخـيل مـثلها فكـان علـى الأعـداء كـرُّ الهـزائم

حملـنا علـيهم حَمْلَـةً[87] مُـضَرِيَّةً فولَّـوْا شـرادًا مـثل جفـل الـنعائم

فكـم خلفـوا مـا بـين بكـر وبكـرة وَ مِـنْ[88] غـادةٍ ملـتفة بالهـدائم[89]

وولَّـت سـويد ثـم خلَّـتْ مجيـرها وشيخ حماهـا فـي الثرى أيّ جاثم[90]

وكـم قـبة طاحـت وطـاح أميـرها على الأرض ما بين الصفا والوثائم[91]

وجالــت خـيول للحجـاز كأنهـا عقـاب تمطَّـى بـين فِـرْقِ الحمـائم

فحـاز الثـنا فـيها سُـقَيْرُ بـنُ عامِـرٍ كمـا حـاز من قـبل ذِيـابُ بنُ غانِمِ[92]

وطاحـت علـى وَادِي مَـلَالٍ هـشائم من القوم صرعى للنسور القشاعم[93]

فكانـت إلـى الطيـر العـشيم فرائـسا وكانـت علـى الأعـداء شـؤم الـذمائم

وهـبَّت ريـاح النصـر مـن كـل جانـب وجــاءت إلـيـنا مـبهجات الغـنـائم

ولمـا قـضينا الأمـر فـي الحـرب منهُمُ رحلـنا بعـون الله نحـو المعـالم[94]

وخـضراء كَـبُّود تـبدَّتْ هـضابُهاَ وهـبَّت ريـاحٌ عاطـرات النواسـم

دَرَجْـنا الـى دَرْجٍ ولاحـت بـشائِرٌ بهلْـكِ الأعـادي التاعـسين الأشـائم

ألا أيهـا الناعـي البـشير الـذي نَعَـى أميـرَ مَـرِينٍ حُـزَتْ أسـنى المقاسـم

لقـد قـرَّب الله البعـيدَ بِهَلْكِـهِ فبـشراك بالخيـرات يـا خيـر قـادم[95]

ولاح لـنا فـرتون فافتـرَّت المنـى إلَيـنا ابتـسامًا للـثغور[96] البواسـم

وصـارت أسـود الغـاب تأتـي مطيـعة وعـادت لـنا الأيـام مـثل المواسـم

قطعـنا الثـنايا والخمـيسُ مـسربلٌ صَلاصِـلَه مـثل الـرياح القواصـم

Scanned by CamScanner

وعُجْنا وعرَّجنا على واد يَسَّر وجُزنا المخاضَ كالليوث الضراغم
وفي يَسَّر آمالنا يُسِّرَتْ لنا فجدَّدْتُ[97] للأوطان فيها عزائمي
وبتنا وبات النوم غير مساعدي وإني على جَدّ السرى جِدّ عازم
وسرنا ضحًى والنصر يهفو أمامنا برايات سعد فوقنا كالغمائم
قَدِمْنا وكان الفتح يرجو قدومنا وكان على الأعداء شر المقادم
وصَفوا صفوفا ثمّ صفت صفوفنا وسالت دموع القوم مثل العنادم
وجالت ليوث الحرب بين صفوفها وخط بها الخطي بين الحلاقم
ولاح شعاع الهند بين خميسها كبرق تبدّى بين درج الأراقم
علونا على اضْطَفصِيفَ واشتد بيننا حروب تشيب الرأس قبل الفطائم
كررنا عليهم كَرَّةً بعد كرة وقد شُعِلَتْ[98] للحرب نيران حاجم
بضرب يزيل الهامَ عن مستقره وطعنٍ مضى بين الكِلَى والحيازم
فهذا أسير صفّدته يد الوغى وهذا قتيل في عجاج المصادم
فطوبي لعبد الواد عند ازدحامهم لقد جدّلوا في الحرب كل مزاحم
وجالت خيول العامرية بينها كأسْدِ[99] الشرى في موجها[100] المتلاطم
وعاد شعاع الشمس في الجو أصفرًا وجال ذباب السيف بين الغلاصم[101]
جعلنا كراديسًا على كل ربوة وطالت رقاب الأسد تحت العمائم
شددنا عليهم شدّة بعد شدّة فولّوا فرارًا والتجوا للمعاصم
وداروا بأسوار المدينة كلها كدور سوار فوقأبهى[102] المعاصم
وقد برزت من خدرها كل غادة درجن على الأسطاح درج الحمائم
وقد عاد ذاك الجمع منهم مكسرا بجمع لنا بين الكتائب سالم

Scanned by CamScanner

فرامت مرين الصلح بعد فرارها … وقد ظلموا عهدًا ولست بظالم

فلا صلح حتى تضرم الحرب نارها … وتساقط الأبدان تحت الجماجم

وتخلى من الأعداء دار عهدتها … مع الآنسات[103] الناعمات الكرائم

دخلت تلمسان التي كنت أرتجي … كما ذكرت[104] في الجفر أهل الملاحم

فخلّصت من غصّابها دار ملكنا … وطهّرتها من كل باغ وجارم[105]

لقد أسلموها عنوة دون عدّة … لقد طلّقوها بالقنا والصوارم

ولم يغنهِم ما شيّدوا من معاقل … ولم يُجدِهم ما حصّنوا من معاصم

ولا كثرة الجيش اللهام ولا الظبى … ولا ما أعدُّوا من قسيّ سواهم

إذا لم يكن للمرء سَعْدٌ مساعِد … فما يُغنِيهِ عَدّ[106] الجيوش الخضارم

نظمنا شتيتَ الملك بعد افتراقِهِ … وكم بات نهبًا شمله دون ناظِم

شددنا له أزرًا وشدنا بناءه … بأوثق أركان وأقوى دعائم

فصارت ملوكُ الأرض تأتي مُطيعة … إلى بابنا تبغي التماس المكارم

وجاءتْ لنا من كل أوبٍ ووجهة … تبايعنا طوعًا وفودُ العمائم

أنا الملك الزابي ولست بزابي … ولكنني مفني الطغاة الطماطم[107]

إذا ما أتتْ من بعد ستين سبعة … نبيدُ مَرينًا كل طاغ وجارم

و إني لمُفنيهم ومُفني جموعهم … وهادمُ ما قد شيّدوا من معاصم[108]

سطيح وشق[110] خبروا في جفورهم … بذلك حقا تحت حسن التراجم[109]

فقمنا بأمر الله في نصر دينه … وفي كف ما قد أحدثوا من مظالم

فلله منا الحمد والشكر دائما … وصلى على المختار من آل هاشم

Scanned by CamScanner

(1) س +: من القسم الثالث.

(2) س +:أيده الله.

(3) ز: يندكوس؛ ع: سدوكسن.

(4) ع: بن اطاع الله.

(5) وهو الحسن المثنى ابن الحسن السبط.

(6) س -: بن زيان.

(7) رضوان الله عنه.

(8) ع: في سجلماسة.

(9) ز: بدار الرحمة.

(10) ل، ب، ع -:أبي حمو.

(11) س -: ابن أبي سعيد عثمان.

(12) ع -: بأبيه.

(13) ع: ظاهر الغيث.

(14) ع: وعناه.

(15) س -: المولى.

(16) اقتباس من القرآن، سورة إبراهيم، الآية 24.

(17) س: الخير.

(18) اقتباس من القرآن، سورة الرعد، الآية 39.

(19) ع: مضطأر. واظّأر عليه يعني: عطف عليه.

Scanned by CamScanner

(20) ع: رضي الله عنهما.

(21) ع: ولما كان.

(22) اقتباس من القرآن، سورة مريم، الآية 14.

(23) س: إلى طيته؛ ز، ط: إلى وطنه.

(24) ل +: أهل.

(25) ل، ر: مسمى.

(26) ع: فهل.

(27) ر، ع: البخت.

(28) ل: والكمال.

(29) اقتباس من القرآن، سورة فصّلت، الآية 35.

(30) ع: المولى.

(31) ع: بحكمة دعوته الزيانية.

(32) ل: على قيد.

(33) ع -: العديدة.

(34) ع: حزبه.

(35) ب، ع: بني ورا.

(36) ب -: صولة بن.

(37) في ع: شيقر؛ وفي ز، ب: سغير.

(38) ل، ع: وأصابتهم مطر فيه كما.

(39) ب، ع: بني ورا.

(40) ع: ورد.

Scanned by CamScanner

(41) ع: نصره الله.

(42) ع: مصطفيا.

(43) ع -: وخلد ملكه.

(44) ع: ثم ريغ ووارجلا.

(45) ل: بكورة.

(46) ع: لنبل.

(47) س، ع: لا فوقها.

(48) الشباة هنا يعني: حد كل شيء.

(49) ع: ماء.

(50) ع -: حيزية.

(51) ع: تيسبرين.

(52) ل، ع: واحجار.

(53) في ل، ب: اصطفطيف؛ وفي ع: الصفصيف؛ (وكذلك فيما بعد).

(54) ل، ع: الونجاسي.

(55) ع: الكواذب.

(56) اقتباس من القرآن، سورة هود، الآية 81.

(57) ع: تيط وشقوف.

(58) ل، ع: جنوب.

(59) ع: وعلم.

(60) كذا في س، ز، ط. وفي النسخ الأخرى: شوال (وهو خطأ).

(61) س: غوار.

Scanned by CamScanner

(62) س: بتشييع. والشيع جمع شيعة، يعني: الأتباع والأنصار.

(63) ع: كشوط. (وكذلك فيما بعد).

(64) ع: وعمروا سائر. والسائر يعني: الكل.

(65) ع: بجموعه.

(66) ع: بمجن. والحجر هو: المنع.

(67) اقتباس من القرآن، سورة الأنفال، الآية 10.

(68) ع +: كما قال القائل.

(69) ع: ثم فتحوا.

(70) ع +: ولله در القائل.

(71) ع: المبين.

(72) زهر البستان: مستخبرا.

(73) زهر البستان: ولا تزدريك اليوم لومة لائم.

(74) واسطة السلوك: هوادي الرواسم. والرواسم هي الإبل التي تمشي مشيا شديدا.

(75) زهر البستان: قطعنا.

(76) نفسه: السرى.

(77) زهر البستان: هاج.

(78) نفسه: فاضت مدامعي

(79) زهر البستان: يوما

(80) نفسه: أطوي سرها بأكامها

(81) هكذا في جميع المصادر والمطبوع: [illegible]

لاجل الوزن.

(82) واسطة السلوك: وكم من قياف.

(83) وفي زهر البستان ورد هذا البيت كما يلي:

وكم زفرة تعلو من القلب صاعدًا جواها وكم دمع على الخد ساجم

(84) واسطة السلوك: غيهب (والغيهب هنا السواد من الخيل).

(85) كذا في ط. وفي واسطة السلوك وزهر البستان ومخطوطات بغية الرواد الأخرى: السقاهم.

(86) زهر البستان: تجود.

(87) نفسه: شددنا عليهم شدة.

(88) نفسه: وكم.

(89) نفسه: في الهدائم.

(90) زهر البستان: في لجوج المصادم.

(91) واسطة السلوك: الرثائم؛ زهر البستان: الزنائم، وكلا المفردتين غير مناسب لغة، ولعل الصواب ما أثبتنا (والوثائم جمع وثيمة وهي الحجارة).

(92) سقطت هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة في بغية الرواد.

(93) وقد ورد هذا البيت في زهر البستان كما يلي:

وطاحت هياشيم على الأرض طعمة بوادي ملال للنسور القشاعم

(94) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

(95) سقط هاذان البيتان في بغية الرواد.

(96) زهر البستان وواسطة السلوك: بالثغور.

(97) واسطة السلوك: وجرحت؛ زهر البستان: وجددت.

(98) وفي واسطة السلوك وزهر البستان: وقد سعرت.

Scanned by CamScanner

(99) وفي واسطة السلوك وزهر البستان: أسود.

(100) زهر البستان: بحرها.

(101) الغلاصم جمع غصلمة، وهي اللحم بين الرأس والعنق.

(102) زهر البستان: حسن.

(103) نفسه: الغانجات.

(104) كذا في واسطة السلوك، وفي سائر نسخ بغية الرواد: كما ذكروا؛ وفي زهر البستان: كما ذكروه في كتاب الملاحم.

(105) زهر البستان: ظالم.

(106) زهر البستان: فما يغن تعداد؛ واسطة السلوك: فما يغني إعداد.

(107) واسطة السلوك وزهر البستان: الأعاظم.

(108) كذا في واسطة السلوك، مخطوط الجزائر؛ وفي زهر البستان: معالم.

(109) سقطت هذه الأبيات الثلاثة من بغية الرواد، ومن واسطة السلوك، النسخة المطبوعة.

(110) سطيح: هو كاهن عاش في الجاهلية، وشق اسم عرافين عاشا كذلك قبل الإسلام.

Scanned by CamScanner

إني ذاكر في هذا الباب ما التزمته من تفصيل ما اشتملت عليه[1] دولته الغرّاء[2] من حربٍ وسلمٍ، وتفريقٍ ولمّ، وحكمةٍ وحكمٍ، ومن الله عز وجل أسأل الاعانة والتوفيق[3].

سنة ستين وسبعمئة

كان استقرار مولانا الخليفة أمير المسلمين أبي حمو خلّد الله سلطانه[4] بدار ملك سلفه الكريم[5] بعد صلاة الظهر من يوم الخميس المبارك، غرّةَ شهر ربيع الاول المشرّف، فاقتعد أريكة الملك، وامتَطَى سرير الخلافة، وأمر لحينه بالنداء على بني مرين بالخروج غير منظرين عن الحضرة، فلم يُفَسْ بها منهم أحد، ولا أصبح لدعوتهم فيها ذكرٌ.

وضبَطَ نصره الله أمر قاعدة ملكه، ورتب مسالحها[6]، وجمع للملك الحامية، وأحصى ما غادرَته الدولةُ الذاهبة من متاع وزرع وسلع بحريّة، وما حَوَتهُ هديّة المَلِك المتوفى إلى مَلِك قَطَلان من خيلٍ عتيقةٍ وسروج مفرغة رُكبُها من ذوب اللُّجين، ولُجُم موشية وأسبابٍ مختارة، وفتح بين يديه الكريمتين، أعلى الله مقامه، صندوقُ الأوقاف المنوّعة مفعمًا ذهبًا وفضةً، فلم تغرِهِ صفراؤه ولا بيضاؤه، شِنشِنَةٌ نعرفها من أخزم، وسنةٌ علويّةٌ عليّة.

ثم صرف، خلد الله ملكه، وجه العناية لإحياء رسوم الخلافة وتوطيد قواعدها[7]، وتشييد مصانع الدولة مضطلعًا بتفصيل أحكام ذلك، وإحكام تفاصيله، عارفًا بتحديد رسومه، ورسم حدوده. فاستوزر الحاج أبا عمران موسى بن علي بن برغوث، وولى الفقيه أبا زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي الأشغال والعلامة، والفقيه أبا عبد الله محمد بن علي بن أحمد العصامي ديوان الإنشاء والتوقيع، والفقيه أبا العباس أحمد بن الحسن المديوني القضاء، فشرقت شمس الدولة بأفقها

Scanned by CamScanner

بعد التكوير[8]، وضاءت نجوم سمائها بعد الانكدار، وثبت مركز سياستها فاستقام المدار، فكأن العفاء لم يطرق لها ساحًا، ولا مدت الصروف لمحو جمالها يدًا، وكل عمل فله رجال، وما من زمن الا وله دوله[9]، والأرْضُ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاء[10] والعَاقِبَة للمُتَّقِين[11].

قلت: وقد يناظر هذا الإقدام وما اشتمل عليه من سياسة وحزم، بأثر عبد الرحمن ابن معاوية بن مروان بن الحكم، لمّا جلاه سيف بني العباس عن الشام، وأجاز البحر الى الأندلس فملكها، ومصّر الأمصار، وجند الأجناد ووضع الدواوين وخلد الآثار، وأقام بها مُلكا عظيما يضاهي ملك سلفه بشامهم، إلّا أنّ بني العباس مقارعو ذلك يومئذ ببغداد، وبينها وبين الأندلس المدى الذي يقطع[12] في السنين، وبني مرين مقارعو هذا الخليفة أيّده الله بفاس، على كَثَبٍ من دار ملكه، وبمرأى ومسمع من حلّه وترحاله، فقد بان الفرق واتضح الحق.

رَجْعَ التاريخ. وفي الثالث أو الرابع من أيام هذا الشهر المبارك، وَفَدَ على بابه الكريم أهل ندرومة وأهل وجدة وأهل هنين ببيعاتهم. وكان أهم[13] ما بدأ، أعلى الله مقامه، به، الإحسان الى أنصار الدعوة ووفود الهناء على بابه الكريم[14] من العرب العامرية والمعقلية، وهم زهاء ثمانية آلاف، فكسا كلًّا منهم على قدره، ونفل خواصهم الخيل المسَوَّمَة والسروج المرفهة والعدد المحلاة بالعسجد أو باللجين[15]، ثم المال المتعدد، فصدروا فرحين بما أوتوه، شاكرين لله سبحانه وتعالى بإظهار دعوته الزيانية، ونصر كلمته العبد الوادية.

والتفت أعلاه الله إلى قبيله الأعز، فأخذ بضبعهم، وراش مهيض جناحهم، فاستركب منهم في يوم واحد ألف فارس، يكسى الرجل منهم بقدره، ويدفع إليه فرس مسرّج ملجّم ومهماز وسيف ورمح، وثلاثة من الذهب وعشرون برشالة من القمح وثلاثون من الشعير، على هذا مضت سنته فيهم إلى أن ركبوا من عند آخرهم، عطاء من أيقن من الله بالخلف، وآثر الفخر والشرف، واعتمد تشييد أركان

الملك، أدام الله أيامه، ونصر أعلامه.

وأظلت ليلة الميلاد النبوي، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فأقام لها بمشوار[16] داره العلية مدعى كريمًا وعرسًا حافلة، احتشدت لها الامم، وحشر بها الأشراف والسوقة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ومشامع كأنها الاسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموّهة، والخليفة، أيده الله، صدر مجلسها ممتطيًا سرير ملكه، يسرّ الناظرين رواؤه، ويثلج الصدور عزه، وتحار في كمالات خِلالِهِ[17] النهى، حفافيه ملأ التجلة من قومه وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عيّنها الاختصاص، ورتب بعضها فوق بعض المناصب، تخالهم قطع الرياض النضرات، قد أغضى الجلال من أبصارهم، وخفضت المهابة من أصواتهم، فلا تبصر إلا جمالا، وتسمع إلا همسًا، يطوف عليهم ولدان أشعِرُوا أقبية الخزّ الملوّن، وبأيديهم مباخر ومرشات يُغيِمُ دخانٌ عنبرٍ[18] تلك المفغم للآناف الجوّ، فتمطر هذه الحفلَ وابلاً من ماء الورد المنسوب إلى نصيبين، وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجَين المحكمة قائمة المصنع تجاهه، بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه، ويخاتله فيهما أرقم خارجٌ من كوّةٍ بجذر الأيكة صُعُدًا. وبصدرها أبوابٌ مُوجَفة عددَ ساعاتِ الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان مُجَفّآن أطولُ من الأولى وأعرَضُ، فوق جميعها، ودُوَيْنَ رأس الخزانة قمرٌ أكمل يسير على خط استواءِ سَيْرِ نظيرهِ في الفلك، ويُسامِتُ أول كل ساعة بابُها المُرتجُ. فينقضّ من البابين الكبيرين عُقابان، بفي كلّ واحد منهما صنجة صفر يلقيها إلى طست من الصُفر[19] مجوّف، بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرنّ. وينهش الأرقم أحد الفرخين فيصفر له أبوه، فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء، بيمناها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوما، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لأمير المسلمين[20]، أيده الله تعالى[21]، جيل أحكمت يد الهندسة وضعها، وراض تدبير الخلافة أعلى الله مقامه شماسها، والمسمع قائم صدر عترته، على بعد من الخليفة مقدر، يردد نغمات الألحان،

ويرتب رنات الإيقاع، وينشد خلال ذلك أمداح سيد الرسل وخاتم النبيئين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. فمما أنشده ليلتئذ لمولانا الخليفة أمير المسلمين أبي حمو أيده الله، قوله:

نام الأحباب ولم تنم ... عَيْني بمصارَعَةِ السندم
والدمع تحدر كالديم ... جرَحَ الخدَّيْن فوَا ألمي
وزجَرْتُ النفسَ فما ازْدَجَرَتْ[22] ... ونهيت القلبَ فلم يرُم
ونذيرالشيب لقد وافى[23] ... وحلولُ الشيب من الهرَم
والعمرتولى منصرما ... آهِ للعُمر المنصرم

وكذا الأيام لها دُوَل[24] ... وليالي الدهر كما الحلم
والدار تغرّ بساكنها ... ويح المغرور بها النهِم
يا نفسُ خدِعْت بزخرفها ... كم ذا تغتر بها وكم
يا ربّ ذنوبي قدعظمت ... فامننْ بالعفو لمُجْترم
فالعفو إلهي منك وإنّ ... الذنبَ وحقك من شيَمي
شأنُ الملوك الذنبُ وشأ ... نُ المولى العفوُ عن الخدَم
إني بذنوبي معترف ... والخوفُ أشد منَ الألم
يارَبّ إذا لم تعصِمنِي ... ما لي بذنوبي من عِصم
كم أجني الذنبَ وتمْهِلنِي ... وتقابل ذلك بالنعم
ولكم أعْصيك وتسترني ... يا ذا الأفضال وذا الكرَم
ما زلتَ بفضلك ترحمني ... وتجود عليّ على القدم
والعبدُ ببابك ملتزمٌ ... وبغير جنابك لم يَحم
ورضَى المحبوب له أرَبٌ[25] ... ورضاكَ الفوزُ لمغتنِم
يا ربّ سألتك تغفرُ لي ... بشفيع الخلق من الأمم
أدعوك إلهي معتذرا ... في ضوء الصبح وفي الظلم

Scanned by CamScanner

قلبـــي انفطـــرًا والدمـــعُ جَـــرَى　والـــركب سَـــرَى نحـــوَ الخـــيَم

قلبـــــي بـــــنواه أســــيرُ هـــــوا　هُ فـــيا شـــوقاه إلـــى العلـــم[26]

سَـــرَتِ الإبـــل لمـــا ارتحلـــوا　قلبـــي حَملـــوا فـــي رَكـــبهم

حملـــوا خلـــدي أفـــنوا جَلـــدي　تـــرَكوا جَـــسَدِي رَهـــنَ الـــسقم

حـــط العـــشاق ركائـــبهم　بـــين العلمـــين وبالحَـــرَم

وصـــروف الدهـــر تعارضـــني　عمـــا أبغـــيه مـــن القـــسم

ســـاروا وذنوبـــي تقعدنـــي　فقـــرعتُ الـــسن مـــن الـــندم

وبَكـــيتُ الدمـــع علـــى زللـــي　و مـــزجتُ الدمْـــعَ بفـــيْضِ دَم

بَـــدَتِ الأنـــوارُ علـــى الـــزوًا　ر[27] مـــن الأقمـــار بـــذِي سَـــلَم

زاروا الهـــادي بهـــوى بـــادي　وحَـــدَا الحـــادِي عـــزما بهـــم

شـــدوا عـــزموا فـــازوا غـــنموا　لمـــا قدمـــوا لِحِمـــى الحـــرَم

طافـــوا بالبـــيت وقـــد وقفـــوا　ودعَـــوا إذ ذاك لـــــربهم

غفـــرَتْ بالبـــيت ذنـــوبهمُ　عـــند الإقـــرار بذنـــبهم

وغـــدا المـــشتاقُ بزفـــرته　فـــي مَغْـــربه يَبْكـــي بـــدَم

جـــسمي بتلمـــسان دَنـــفٌ　والقلـــب رهـــين بالحَـــرَم

قـــد قيدنـــي مـــا قلدنـــي　مِـــنْ أمْـــر[28] حَكـــيم ذِي حِكـــم

وَلَأنـــيَ أمـــرَ الخلـــق فلـــمْ　أسْـــطَعْ[29] سَـــيْرًا مـــن أجْلِهـــم

فأقمـــت لأصـــلح مـــا خَـــرَقتْ　بالغـــرْبِ يـــدُ الفـــتن الـــدهم

وبَعَـــثتُ رســـالة مُكتـــئبٍ　لـــشفِيع العُـــرْبِ مـــع العَجـــم

أرْجُـــو فـــي الحَـــشر جوائـــزَها　مـــن خَيـــر وَفـــيّ بالـــذمَم

نَدَمِي أنْ لم أغمل قدَمِي عِوَضَ القِرطاس أو القلم
بدُعَا عِيسى وبإدريسا يَزجُو مُوسَى كشفَ الألم
ويَخُصّكَ يا أسنى قمر بصلاة فائقة العظم
وسلامٌ يَفضَحُ كل شذى ما دار لِسَانٌ بالكلِم

وللفقيه أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الأندلسي لطف الله به بمنه، قوله:

ذكر الحمى فتضاعفت أشجانه شوقا وضاق بسره كتمانُهُ
دَنِفٌ تذكر من عهود وداده ما لم يكن من شأنه نِسيانه
يهفو لبرق الابرقين تعلة[30] والقلب منه دائم خفقانه
ويسائل الركبان عن ذاك الحمى فتثير كامن وجده ركبانه
ويروم سلوان الهوى فيجيبه إنَّ المحبَّ محرَّمٌ سلوانه
ويشوقه مر النسيم اذا سرى من نحو طيبة طيبا أردانه
أترى أرى وادي العقيق ورامة ويلوح لي رَندُ الحجاز وبَانه عن
وأعاين الحرم الشريف وتنجلي قلب صب مدنف أشجانه
وأطوف بالبيت العتيق ويعتلي بيَ لاستلام الركن شاذرْوَانه
وفدت عله ركاب أرباب التقى والمذنب الخطاء كفَّ عنانه
من لي بزورة روضة الهادي الذي رحم الوجود ببعثه رحمانه
المصطفى خير البرية كلها وأجلها قدرا تعاظم شأنه
هو خاتم الرسل المكين مكانه وهو المقدم والأخير زمانه
وهو الذي سر النبوءة والهدى شرف حواه فؤاده ولسانه
عنوان طرس الأنبياء ختامه والطرس يكمل حسنه عنوانه
لولاه ما وجد الوجود سماؤه أو أرضه أو انسه أو جانه
فجميع ما في الكون كان لأجله شرف الوجود بأن فيه كيانه

Scanned by CamScanner

فالشمس أفق الحمد إصباحه والخلق جفن أحمد إنسانه
بعلوه فوق السماوات العلى وبقاب قوسين استبان مكانه
ما ذا عسى يثني عليه مادح وبمدحه نصا أتى فرقانه
عجز النظام عن الوفاء بمدحه إذ لا يصح لناظم إمكانه
فأعد على المشتاق ذكر محمد يزدد به إيمانه وأمانه
يا حادي الركبان نحو محله تلوي إلى علم اللوى أظعانه
إن جئت أرض منى وبلغت وحللت ربعا شرفت سكانه
المنى أبلغ عن المولى أبي حمو المعتلي في كل فضل شأنه
الرضى أزكى سلام للنبي محمد كالروض صافح روحه ريحانه
فهو الذي حب النبي وآله ما زال منطويا عليه جنانه
كم قام معتنيا بمولده وكم سهرت به شوقا له أجفانه
يرجو شفاعته وسوف ينالها وينال من ربه رضوانه

زان الخلافة بالمكارم والندى ملك نماه إلى العلى زيانه
وحمى حماها بالصوارم والقنا يوم الكفاح إذا التحت فرسانه
موسى بن يوسف لا نظير لمجده مجد يزين حسنه إحسانه
من آل زيان الألى زانوا العلى فالملك إرثهم وهم تيجانه
ملك يسوس برأيه كل الورى فكأنه روح وهم جثمانه(31)
ملك أعاد الملك بعد دثوره لولاه لم تثبت(32) لهم أركانه
ملك وحيد في المعالي ما له إلا المكارم والتقى خلانه
مهما يجد فالغيث دون عطائه ما إن يعارض جوده هتانه
فالجود ينفع في الوجود دوامه والغيث ليس بنافع إدمانه
ملك تخاف الأسد سطوته إذا حمي الوطيس وضمهم ميدانه
وتخفى النهار بليل نقع أغبر وبدت كمثل نجومه خرصانه
تلقى الخليفة عند ذلك باسما يفني الطغاة ضرابه وطعانه أضحى

وحسامه يسنهل بالدم كلما ... يضاحك دره عقيانه
فكأنه روض تفتح زهره ... ودم العدى في صفحه نُعمانه مهما
سيفٌ شعاع الشمس دون فرنده ... تألق ساطعا لمعانه
أمنت تلمسان مخاوفها به ... فلقد حماها سيفه وسنانه
ملك سعيد لا يعاند ملكه ... إلا شقي قد دنا خسرانه
ملك تقر له الملوك بأنه ... مولاهم الأسمى[33] وهم عبدانه
توكل أبدا على مولاه في ... علياه وافق سرُّهُ إعلانه[34]
حكمت له الكتب القديمة أنه ... سيشيدُ ملكا شامخًا بنيانه
من نحو أرض الزاب يقدم طالبا ... ثاراً ومن أنصاره عُزبَانه
فيُمَهد الدنيا ويمتهن العدى ... وجميعُ ذلك قد بدا بُرْهَانه
أدنى البلادَ إليه عزمٌ صادِقٌ ... فالنجحُ موقوفٌ عليه ضمَانه
لا زال في العِز المَكِين مرفعا ... والنجمُ عنه كلِيلة أجفانه
وإليك يا خيرَ الملوكِ قصيدة ... كالسلكِ فصّلَ دُرَّهُ مُزجَانه
من ناظم سحرَ البيانَ بدائِعًا ... لكِنْ يقصِّرُ عن حلاك بيانه
لا يستوي حرُّ الكلام وعبدُهُ ... يوما ولا حصبَاؤه وجُمَانه
والعبدُ مِنْ مَوْلاهُ يلتمِسُ الرِّضى ... إنَّ الخليفة شاملٌ إحسانه
لازال مَوْلانا أبُو حَمُّو حِمًى ... للملك دام مؤيَّدا سلطانه

وللحاج أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي، طبيب الحضرة العلية، قوله:

ترى هل يَعُود[35] الصِّبا بالوسائلْ ... فدمعيَ مُذ بان هامٍ وَسائلْ
وهلْ لزمان مَضى رَجْعة ... كعهدي به أترى الدهر فاعلْ
بدا الشيبُ في مَفرقي قادما ... فقال السُّلوُّ أنا عنك راحلْ
فها أنا أبكي لفقد الشباب ... وعصرِ التصابي بُكاءَ الثّواكلْ

وليس البكاء على فقده … ولكن لتضييع عمري باطل

مضى ضائعا في غي ولعل … وحتى وسوف اعتذار المماطل

أطاوع نفسي في غيها … وأنهى عن الرشد لاه وغافل

فيا ويح نفسي كم ذا ترى … تطيع الغواة وتعصي العواذل

وكم ذا اغترارٌ بطول البقا … ولم يبقَ من العمر طائل

فمن مُنصفي ولمنْ أشتكي … ودهري غدا لي خزيا مقاتل

وهل مِنْ دَواءٍ وهل من شفاء … ولستُ لشيءٍ من النصح قابل

شكوتُ إليكَ إلهي عَسى … تمنُّ وتسمحُ بالتوب عاجل

وتصفح عن زلتي إنني … أتيتُ ذليلا لبابك سائل

فما لي سواك وأنت الإله … الذي لا تخيبُ لديه[36] الوَسائل

توسلت بالهاشمي الذي … بعثت رسولا فأدى الرسائل

نبي الهدى خاتم الأنبياء … شفيع العصاة وزين المحافل

عظيم الجلال كثير النوال … كريم الفعال وبالحق قائل

أتانا ربيع بشيرا به … فحق ربيع على كل عاقل

فحييت يا شهر من قادم … سرور قدومك للخلق شامل

أتيت بمن جاءنا بالهدى … وبالمعجزات أتى والدلائل

له المعجزات التي ليس تحصى … ومَنْ قال تحصى فدعواه باطل

تخيره الله من أمة … تخيرها من جميع القبائل

فيا حادي الركب إن جئت أرضا … بها سيد الخلق ثاو ونازل

وأبصرت نجدا وعاينت سلعا … وتلك المغاني بها والخمائل

فقف عند باب السلام تَرَ … ضريحَ نبيِّ الهدى دون حائل[37]

فبلغ سلامي وبح ثم باسمي … ولا يشغلنك عن ذاك شاغل

لعلي أكون له زائرا … بعاميَ هذا أو العام قابل

أعفر خدي في يثرب … وأذري هناك الدموع الهوامل

وأستغفر الله من كل ذنب | ندمت له وعضضت الأنامل
وأدعو بنصر إمام الهدى | حمى المستجير وقطب الفضائل
مبيد الطغاة ومفني العداة | وكنز العفاة وكهف الأرامل
فذلك موسى الإمام الذي | محا عن رعيته كل باطل
تحلى به الملك درا نفيسا | وما زال مذ كان للخير فاعل
أناف وأربى على من سواه | فما في الملوك له من مماثل
وإن الكرام إذا جمعوا | فكانوا حَيًا كان جدواه وابل
وفي طبعه من بديع الصفات | عفاف وحلم وبأس ونائل
وسَحبان لو راءه لانثنى | يعيره بالفهاهة باقل
فوفى الخلافة أشراطها | وعَدَّلَ من أمرها كل مائل
فبشراه بالفتح والنصر[38] حتى | تدينَ البلادُ له والقبائلْ
حللتَ من الملك أسنى مَحَلِّ | رحمتَ يتيمًا وأغنيتَ عائلْ
وجئت تلمسانَ والمشتري | تبدى وكيوان بالغرب آفل
قد افتخرت حين مُلكتها | وحصنتها بالقنى والقنابل
دع المعتدين فما ظفرتْ | يداهم بما قد حوته بطائل
فلا زال أمركمُ دائمًا[39] | وملككمُ ثابتا غير زائلْ

وجيء آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ، الحافل الملامح والمشام، المتعدد الخوانات مما أرحبت ساحته، وحبرتْ بروده، وناء بالعصبة أولي القوة محمله، ثم الفواكه فالحلواء، وطعم الناس بين يدي الخليفة، وشكروا الله سبحانه، ودعوه لجَابر صدعهم ولامِّ شعثهم. ولم يفارق الخليفة، نصره الله، مجلسه أول الليل إلى أن صلى الصبح في الجماعة، ثم غدا على داره السعيدة، ولسان الحال ينشده:

يا حسنها ليلة تقضتْ[40] | لو مدَّ في باعِها النهارْ
ولم تكن تبتَلَى لتبلى | بنهر فجر له انفجارْ

Scanned by CamScanner

وعلى هذا الأسلوب مرت المواليد النبوية بعد هذا في مدته السعيدة، طالت أيامها، وانتشرت في هضاب المعالي أعلامها.

وفي الرابع والعشرين من أيام هذا الشهر، وصلت بيعات مستغانيم وتمزغران والبطحاء من حواضر القطر، وبعده بأيام أربعة أنهض أيده الله وزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث لحصار وهران، والأخذ بمخنق مرين فيها، فسار إليها في الجنود المتعددة، ونازلها مكثبًا[41] إليها الجوار، فبرزت يومًا حاميتها المرؤوسة بعامر بن إبراهيم بن ماساي، من قواد بني مرين، واقتتل الفريقان مليًا، فخَذَل الوزيرَ موسى بن علي أشياعُهُ، وفرَّتْ عنه حشوده، وولى بعد البلاء الحسن، فكبا به فرسه، وقبض عليه ثامن شهر ربيع الثاني، فحمل أسيرًا في البحر للمغرب، ولله الأمر من قبل ومن بعد[42].

وفي هذا الشهر غرّب إلى بني مرين أولاد عريف بن يحيى شِيَعَهم إذ ذاك بقبيلهم كافة على الصحراء خوف سطوة أمير المسلمين أيده الله تعالى، وقصدًا لاستنهاض بني مرين نحوه، يريدون أن يطفئوا نورَ الله بأفواههم والله متمٌّ نورَهُ[43]. فوصلوا إلى فاس، وأميرها يومئذ السعيد ابن السلطان أبي عنان يفعة محجورًا بقاتل أبيه الحسن بن عمر الفودودي، فبسطوا آمال القوم، وزخرفوا لهم الأحاديث الواهية، ووعدوهم الأماني الضالة.

فتحرك معهم مسعود بن رحّو بن علي بن ماساي الفودودي بأعلام بني مرين وجمرتهم. وجاء إلى الخليفة أيده الله بالخبر عيونه المبثوثة بالمغرب، عادة لا يضلها حزمه، ولا تنساها سياسته. فأمر أولياءه بالاستعداد للقاء عدوهم أو الإصحار عنه إنْ كثرهم، فامتثلوا. ولم يفارق نصره الله حضرته العلية حتى نزل القوم بوادي الزيتون، فأجمع الرأي المبارك على الإفراج عن البلد حتى تذبل شوكة العدو، وتهنَ سَوْرَته، ثم يناجز الحرب.

فارتحل[44] أمير المسلمين، نصره الله، يوم الاثنين ثاني جمادى الأولى، وخيّم

Scanned by CamScanner

بعيون يشر، وأطلّ العدو من ربى الحَنايا يتراءون ألويته المظفرة بعين المجاذم، وتحجم آلافهم العديدة عن الدنو منه، بل انحجروا مرتابين في المدينة. فارتحل هو، نصره الله، وخيّم على ماء مرسيط، ثم من الغد بعيون النشاب، وبعده قرب الجديدة، وتلوم هنالك يومًا، ثم ارتحل إلى درج، فوافى به بني عامر، فتلقته أرهاطهم وعشائرهم بالحميات المحضات، والأهواء المؤتلفة، والعزائم المطرورة. فأنزلوا خباءه السعيد مطافة بقمره هالة حللهم، ولحينه ما[45] أرسل أيده الله من أعيان قبيله رسلا الى المعقل شيعة أمره العزيز، وكانوا برأس العين من قبلة دبدو، يقول انهضوا والموعد وجدة، ثم عرج إليها، فسبقه للحلول بساحها المعقل ورسله. فأنهض إليهم مسعود بن رحو، رئيس بني مرين، ابن عمه عامر بن إبراهيم بن ماساي بالعساكر من عند آخرها، يوم السبت الحادي والعشرين من ذلك الشهر ليناجزوهم القتال، والتقى الفريقان بظاهر وجدة، فهزم الله مرين هزيمة استرجل فيها كثيرهم، وقتِلَ القائد[46] عامر المذكور، وحُمِلَ إلى أمير المسلمين أيده الله رأسه. وطار خبر هذه الوقيعة إليه أيده الله بتاملحت، فجد السير إلى حضرته الكريمة، وراح إلى مسعود بن رحو فله، فاضطرب أمره وماج عسكره ونكثوا بيعة السعيد ملكهم، ثم اختلفوا فبايع منهم رهط يعيش بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق، وبايع الوزيرُ مسعود بن رحو والجمُّ الغفير من بني مرين منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق، فشايعهم[47] الآخرون وفرَّ يعيش المذكور على وجهه.

وارتحل القوم مغربين على طريق الساحل، والعرب تتخَيَّفهم، بعد إرسالهم زكرياء بن يحيى[48] بن موسى الجمي الى الخليفة نصره الله بعقد مشهود التزموا فيه صلحه[49]، فلحق به خلد الله ملكه ظاهر وجدة، والعرب العامرية والمعقلية تعرض أبطالها بين يديه الكريمتين، فارتحل أيده الله من حينه إلى دار ملكه العزيز، فخيم ليلتئذ بأحد بني زيد[50]، ثم من الغد بتافنا، ثم بعين الحجر شمال الحضرة، ودخل داره العلية ليلة الأحد[51] الغرة من

Scanned by CamScanner

جمادى الأخرى لانقضاء ثمان وعشرين ليلة من خروجه.

وبلغ خبره أحمد بن أجانا المتخلف قائدا بوهران، فأسلمها وفرّ خائفا يترقب بمال جباه أيام الفترة، فأخذ بما معه، وجيء به مأسورا إلى الخليفة أيده الله، فأعتقه وصرف عليه المال برمته، وسرحه الى المغرب. وقد كان أيده الله بعث شعيب بن إبراهيم المعطاوي، من كبار قبيله، بجيش لمنازلة مدينة تنس، ففتحها الله عليه وسيق قائدها ابن أحشمي إلى بابه الكريم معتقلا بماله وأسبابه، فأعتقه أيضا ولم يعرض لشيء من دنياه العريضة، خليقة كرم وفعال ماجد سَرِيّ الهمة.

كريم يغض الطرف فضلُ حيائهِ ويدنو وأطرافُ الرماح دَوانِ
وكالسيف إن لاينْتَهُ لان مَتْنُهُ وحدّاهُ إنْ خاشَنْتَهُ خشنانِ

قلت: ولهذه الأفعال الشريفة مثال متقدم فلنأتِ به على جهة الإطراف والإحماض، قال الواقدي: كان إبراهيم بن المَهْدي قد ادَّعى الخلافة لنفسه بالرَّيّ وملكها نحو سنتين[52]، ثم لم يتم له الأمر، فحدثني عن نفسه، قال: لما دخل المأمون الرَّيّ طلبني أشد طلب، وجعل لمن يدله عليّ مائة ألف درهم، وخفت على نفسي، فخرجت من منزل كنت فيه ومضيت على وجهي حتى بلغت سكة غير نافذة، فقلت إن رجعت على أثري فربما يستراب بي[53]، ورأيت عبدًا أسود واقفا بباب دار، فدنوت منه وقلت له: أعندك موضع أستريح فيه ساعة من نهار؟ فقال: نعم، وفتح لي الباب، فدخلت إلى بيت نظيف، فقعدت فيه وخرج، وأغلق عليّ الباب، فتوهمت أنه سمع بالجعل[54] فخرج[55] ليدل عليّ[56]، وبقيت على مثل الجمر.

واني لكذلك إذ أقبل ومعه حمّال بكل ما يحتاج إليه[57]، وقال لي: يا سيدي أنا أسْوَد كما ترى وأنا مع ذلك حجام، ولا محالة أنك تستقذرني، فشأنك بما لم تقع عليه يد، فاصنع لنفسك ما شئت، فطبخت لنفسي طعامًا، وكانت بي إليه حاجة[58]، فأكلت. ثم قال: يا سيدي، هل لك في شيء من الشراب، فإنه يُسلي الهَمَّ، ويُسَرِّي

الغمّ، فقلت: إن شئت. فجاءني بإناء فيه شراب وقال: رَوِّق لنفسك، ثم فتح خزانة له، فأخرج عودًا ظريفًا، ثم قال: يا مولاي، ليس من قدري أن أسألك أن تغني، ولكن قد أوجبت مروءتك[59] لي حرمة، فإن رأيت أن تشرف عبدك بغنائك لنفسك فافعل. فقلت: ومن أين لي أن أحسن الغناء؟ فقال: سبحان الله، أنت أشهر من أن تجهل، ألست إبراهيم ابن المهدي، خليفتنا بالأمس، الذي جعل المأمون لمن دلَّ عليك مائة ألف درهم؟ قال: فلما ذكر ذلك عظمت عندي منته، وجلت مروءته، فأخذت العود، وقد مَرَّ بي فراق أهلي وولدي، فغَنَّيتُ:

وعَسَى الذي أهْدَى ليوسُف أهلَه ... وأعزه في السجن وهو أسيرُ
أنْ يستجيب لنا فيَجْمعَ شملنا ... إن الإله إذا أراد قديرُ

فقال: يا سيدي، اجعل ما تغنيه ما أقتضيه إياك، قلت: نعم. فقال: غنِّ لِي:

إن الذي انعقدت به وبأمره ... عقد المكاره فيك يحسن حلها
فاصبر فإن الصبر يُعقِبُ راحة ... ولعلها أن تنجلي ولعلها

فغنيته وحسن عندي إيراده، وشربنا ساعة، ثم قال: يا سيدي، وإن رأيت أن تغني:

وإذا تنازعني أقول لها اصبري ... موتٌ يريحكِ أو صعود المنبر
ما قد قضي سيكونُ فاصطبري له ... ولكِ الأمانُ مِنَ الذي لم يقدر

فغنيته، وحسن عندي اقتضاؤه وأنست به، ثم قال: يا سيدي، أتأذن لي أن أغني لنفسي وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة؟ فقلت: إن شئت فذاك زائد في أدبك ومروءتك. فغنّى:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ... فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم ... سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا ما دنا الليلُ المضِرُّ بذي الهوى ... جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا

Scanned by CamScanner

فلـو أنهـم كانـوا يُلاقـون مـثل مـا نلاقـي لكانـوا فـي المـضاجع مثلـنا

فوالله لقد أحسست البيت كأنه قد طار بي، فذهب عني ما كان من الهلع وأنست. وعاجلني وإياه السكر، فما أفقت إلا بعد المغرب، فأيقظته وقلت له: إني ماض فخذ هذه الدنانير تستعين بها على شأنك، وأخرجت له خريطة كانت عندي بدنانير، فأعادها متنكرا وقال: يا سيدي، إن الصعلوك لا قدر له عندكم يا ذوي الرياسات، أعَلى ما وهب لي الزمان من البغية برؤيتك آخذ ثمنًا؟ فعزمت عليه، فقال: لا والله، وإن[60] راجعتني لأقتلن نفسي، فتركته. فلما انتهيت إلى باب الدار قال: يا سيدي، سألتك بالله إلا رجعت فأقمت عندي، فوالله ما في ذلك عليّ كبير مؤونة، وهذا الموضع أخفى لك من غيره، فرجعت وسألته أن تكون النفقة من عندي فأبى، وجعل يستمرُّ في برِّهِ كيوم دخولي، فتذممت من المُقام عنده على تلك الحال، وتركته حتى خرج فلبست زيَّ النساء وخرجت[61]، فانتهيت الى الجسر، فعرفني جنديٌّ ممَّنْ كان يخدمني، فصاح بي: هذه حاجة أمير المؤمنين. فحملني الخوف على نفسي ومحبة الروح[62] على أن دفعته دفعة سقط منها هو وفرسه في زَلَق كان هنالك، واشتغل الناس به.

فعبرت الجسر ونجوت حتى انتهيت إلى زقاق، فإذا امرأة في دهليز دار، فقلت لها: استريني لله. فأدخلتني إلى غرفة، وبادَرَتْ بفرش وطعام، وقالت: لا تخف، فلن يعلم بك خلق غيري. ولم يكن إلا قليل حتى أقبل زوجها يسيل وجهه دمًا، فإذا به الجندي، فقالت له: ما شأنك؟ فقال لها وأنا أسمع: ظفرت بالغنى وأفلتَ من يَدِي، لقيتُ إبراهيم بن المهدي الذي جعل أمير المؤمنين لمَنْ دلهُ عليه مائة ألف درهم، فتعلقت به، فدفعني وأفلت من يدي، فأصابني ما ترَيْنَ. فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم غسلت وجهه[63]، وعصبت رأسه، وفرشت له فاضطجع ونام.

فجاءتني وقالت لي: أنت صاحب القصة؟ قلت: نعم، وذلك محبة في الروح. قالت: لا عليك. ثم جددت لي الكرامة. فلما انقضت ثلاثة أيام قالت: يا سيدي،

Scanned by CamScanner

إني خائفة عليك من هذا الرجل، فانظر لنفسك. فلبست زي النساء، وخرجت من عندها ليلاً الى منزل مولاة كانت لنا، فلما رأتني بكت، وقبلت يدي، وقالت: حبيبي[64]، الحمد لله على سلامتك. ثم تركتني وخرجَتْ. فظننت أنها مشت إلى السوق لشراء شيء تتكلفه بسببي. فما كان إلا أن جاءت بإبراهيم الموصلي في خيله ورجله فقبض عليَّ وأدخلني على المامون كما كنت في زيِّ النساء.

فلما دخلت سلمت عليه بالخلافة، فقال: لا سلم الله عليك ولا حيَّاك. فقلت: يا أمير المؤمنين، وَليُّ الثار مُحَكم في القصاص، ومن تناوله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الرضى أمنَ عاديَة الدهر، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن تأخذ فبحقك، وإن تعف فبفضلك.

ذنبـــي إلـــيك عظـــيم وأنـــت أعظـــم مـــنه
فخـــذ بحقـــك أو لا فاصـــفح بفـــضلك عـــنه
إن لـــم أكـــن فـــي فعالـــي مـــن الكـــرام فكـــنه

فقال المامون: القدرة تُذهِبُ[65] الحفيظة والندمُ توبة، وعفو الله بينهما، وهو أكبر مما نحاول، يا إبراهيم، لقد حبب إليَّ العفو حتى خفت ألا أوجر عليه، لا تثريبَ عليكَ يَغفِر الله لكَ[66]، وعفا عني، وأمر لي برَدِّ مالي وضياعي، فقلت:

ردذتَ مالـي ولـم تـبخل علـيَّ بـه وقـبل ردك مالـي قـد حقـنْتَ دمـي
فأبـت مـنك ومـا كافأتهـا بـيد هـي الحـياتان مـن مـوت ومـن عـدم
وقام علمـك بي فاحتج عـندك لـي مقـام شـاهد عـدل غيـر مـتهم
فلـو بـذلت دمـي أبغـي رضـاك بـه والمـال حتـى أسـل الـنعل من قدمي
مـا كـان ذاك سـوى عاريـة رجَعَـتْ إلـيك لـو لـم تهـبها كـنت لـم تلَـم

ثم سألني عن قصتي، فأخبرته بما كان من الحجام والجندي والمرأة والمَوْلاة. فأما المولاة فقال لها: ما حملك على ما فعلت بإبراهيم؟ قالت: حب المال. قال: ألك ولد أو زوج؟ قالت: لا. فأمر بأن تجلد مائتي سوط وتخلد في السجن. وأما

Scanned by CamScanner

الجندي فقال له: أنت أولى بأن تكون حجامًا من أن تكون جنديًا، ووكل به من يلزمه الجلوس في دكان الحجام حتى يتعلم. وأما امرأته فصيَّرها قهرمانة في قصره. وأما الأسود فوَصَله، وخلع عليه، ورتبه في الجند بألف دينار في السنة.

رجع التاريخ. ولما نازل منصورُ بن سليمان، مُبَايَعُ بني مرين، بلدَهم الجديد، ألفى بفاس لمولانا الخليفة أمير المسلمين أبي حمو أيده الله، والده مولانا المقدّس المرحوم أبا يعقوب وولده المولى الكبير الأعلى أبا تاشفين لاستقرارهما بعد كائنة عَمَّيْهِ المرحومين فيها كما مرَّ، فتقمَّنَ مَسَرَّته نصره الله بصرفهما مكرَّمَيْن مبرورَيْن، وقدما فخرج نصره الله للقائهما في يوم أغر مُحَجَّل، وترجَّل في سبيل البرِّ المفترَض، فقبَّل قدمَيْ والده، وعقد سَيِّقته[67] خلفه، وتقدَّم هو بين يدَيْه إلى دار الخلافة. ثم ترجَّل قبله، وأمسك بركابه[68] حتى نزل عن فرسه، ودخلا معًا القصر السعيد، والمولى أبو تاشفين بينهما كوكب بين قمرَيْن، وهِلالٌ متصِلٌ بسَعْدَيْن، وذلك في اليوم السابع عشر[69] من رجب[70]. فرفع يومئذ الفقيه أبو عبد الله محمد بن يوسف الثغري في الهناء بذلك قصيدة، وهي:

سفرتْ فأخجَلت الصباحَ المسْفرَا ... حوراء بدتْ كل ظبي أحْوَرَا
لما بدت عاينتُ بدرًا مقمرَا ... وتمايلتْ فرأيت غصنًا مثمرا
وتبسمت فأضا الدجى من ثغرها ... حسنًا وزانت بالعقيق الجوهرا
فتبعتها قلبي يحاول عندها ... ملك التواصل أو نموت فنعذرا
فمضت به رهنًا على علاته ... متصدعًا من حسنها متفطرا
يا مَن سبته بحسنها وجمالها ... ما كان حقي في الهوى أن أهْجَرا
صلني ولو نفسًا وخذ روحي به ... ثَمَنًا فبالأرواح وصلك يشترى
حيا الإله زمانَ وصلك إنه ... زَمَنٌ يَحقُّ لمثله أن يذكرا
وسقى عهاد السحب عهدَك بل سقتْ ... زَمَنًا بخير خليفة قد بشرا
الأمجدِ الأسنى أبي حَمُّو الرضى ... فمثاله ما إنْ رأيتَ ولا ترى

Scanned by CamScanner

فبفضله نلنا الأمانَ مع المنى ... وبعدله طاب الزمان وعطرا

متهلل طلق الجبين وإنه ... لتهابه في بشره أشد الشرى

من معشر طابوا وطاب سليلهم ... خبرًا يسرّ المكرمات ومخبرا

هم من بني زيان زُيِّنَ ملكهم ... ورثوا الخلافة أكبرًا عن أكبرا

مقدار ما بيْن الملوك وبيْنه ... مقدار ما بين الثريا والثرى

مولاي يا أعلى الملوك مراتبًا ... وأجلهم قدرًا وأعلى معشرا

يهنيك جمعَ الشمْل بالمولى أبي ... يعقوب والولد الأبر الأطهرا

أعطاك ربك فوق ما أمَّلته ... فاحمده حمدًا دائمًا متكررا

عادتْ تلمسان إلى عاداتها ... وبحسنكم حسنت وراقتْ منظرا

حق الهناء لنا وتمَّ سرورنا ... ولنا الفخاربكم على كل الورى

فالله عزَّ وجلَّ يبقي ملككم ... بالسعد منصورَ اللواء مظفرا

ثم الصلاة على النبي وصحبه ... ما لاح بَرْقٌ في الدُّجنة أو سَرَى

قلت: وأذكر هنا كل من ولي الخلافة في المسلمين[71] وأبوه في قيد الحياة[72] ليكون هذا الخليفة[73]، أيده[74] الله، منهم، ومعدودًا في نظمهم العالي. فأولهم أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ورثه أبوه أبو قحافة عثمان. ثم عبد الكريم الطائع ابن الفضل المطيع ابن جعفر المقتدر ابن أحمد المعتضد ابن طلحة الموفق ابن جعفر المتوكل ابن محمد المعتصم ابن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن أبي جعفر عبد الله المنصور ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب، انخلع له أبوه من الخلافة، وعاش بعد ذلك أربعين يومًا. ثم عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية بن مروان بن الحكم، بويع له بالخلافة وأبوه مريض، وعاش بعد ذلك أيامًا عالمًا به. ثم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ابن معاوية، ورثه أبوه وقتل بعده بساعة. ثم أبو الوليد إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر. ثم أبو عنان

Scanned by CamScanner

ابن السلطان أبي الحسن بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق بما هو معروف. ثم أمير المسلمين مولانا أبو حمو أيده الله تعالى. وإذا قايسنا بينه نصره الله في ذلك، وبين من عدا أمير المؤمنين أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ممن سمينا[75]، ألفيناه، خلد الله ملكه، أفضل بكلّ اعتبار، وفاءً ببرّ والده، واعتمالاً في مرضاته، وخفضًا لجناح الذل من الرحمة له[76]، دامت أيّامه، ونصرت أعلامه.

رجع التاريخ. وكانت الفتنة يومئذ تغلي مراجلها بالقطر، والأهواء تخبط في صدور أهله العشواء. فمن مصعد ومصوب، ومشرّق ومغرّب، ضالّ أو مهتد، فتفاوضا بعد في مصالح الملك، واتفقا على أن لا كسل ولا تلوُّم، بل يتداولان الحركات غربًا وشرقًا، ويتعاقبان الظعن والإقامة، ويواصلان مقارعة العدى عجَمًا وعربًا. فنهض المولى[77] المقدس أبو يعقوب، برد الله ضريحه، مشرقًا، لحرب يحيى بن علي البَطوي[78]، أحد القواد المرينية، ولفه من سويد وتوجين في جيش لُهام، يوم الاثنين رابع شعبان المكرم، وأحسوا به فرجعوا القهقرى إلى جبل وانشريس متذممين بمعقله، وفَرَعَه إقدامه رحمة الله عليه، فأخذوا به أخذًا وبيلا، وفرَّ يحيى بن علي المذكور الى مليانة متعصمًا بها، وجَأجأ بحصة الجزائر المرينية فأتته، وسار المولى أبو يعقوب في أثره قبلة الجبال إلى أن دخل التلَّ على خناق وادي شلف من بلاد حصين، فافتتح المَدِيَة وأسرَ مَنْ كان بها من العدو في غرّة ذي القعدة.

وفي أثناء ذلك، صار ملك المغرب للسلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن، فأرسل إلى مولانا الخليفة، أيده الله، أول[79] شوال، في شأن الصلح، ابن روجي، من كبار خدامه، فأجيبت فيه خطبته، وصرف رسوله بخير. ثم جاء عنه أيضًا ابن مساهل، بريدًا بكتاب يقتضي من الخليفة لحصصه الشرقية سلمًا يكف يد المولى المقدس أبي يعقوب عنهم حتى يقع التراوض في شأنهم.

وفي أواسط شوال، وبمرأى منه[80]، كان وصول الشيخ أبي محمد عبد الله ابن مسلم الزردالي إلى باب مولانا الخليفة أيده الله، فارًا من درعة، محل ولايته، إيثارًا لخدمة مولاه بالحقيقة، ونعرة لقبيله، إذ عبد الواد وزردال، فيما يقال، أخوان في زناتة. فاستوزره أمير المسلمين[81] أيده الله، من حينه، لخلال فيه اقتضت ذلك، وأزعجه بعسكر لجب لمظاهرة المولى أبي يعقوب، رضي الله عنه، على تمهيد البلاد الشرقية، وتطهيرها من الأعداء، ثم أجاب ملك المغرب بأننا[82] قد أرسلنا الوزير عبد الله بن مسلم لاقتضاء السِّلم الذي سألتموه لحصصكم من والدنا، إذ لم تجدِ المكاتبة في ذلكم[83] شيئًا، وصرف بَريدَهُ.

ومضى الوزير مغلغلا إلى طِيَّتِهِ، وقدم التعريف إلى المولى أبي يعقوب، قدَّسه الله، بوصوله. فاعترضه جرأة يحيى بن علي المذكور بقومه في غوْر مليانة، فهزمهم الوزير وأخذ بمخنقهم في البلد، وارتحل المولى أبو يعقوب عن المدية نحوه، واجتمعا بوصيد مليانة، فيا سرعان ما دخلتها عنوة سيوفهم في سابع ذي قعدة، وأسر يحيى ابن علي وحاميته، وبعث بهم وبأسرى المَديَّة مُسَلسَلين إلى الباب العَلِي سوى يحيى ابن علي المذكور، فكان وصولهم إلى تلمسان في يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي قعدة، ينيفون على خمسمئة نفر، ثم ارتحل المولى أبو يعقوب والوزير عبد الله ابن مسلم تلقاء الجزائر، وفيها شعيب ابن ميمون بن وادرار وشعيب بن الحسن الوجديجي في كتيبة وافرة من مرين وحلفائهم. فأخذا بمخنقهم أيامًا قلائل قَتلا فيها يحيى بن علي المذكور بمرأى من قومه، واعتاص أمرها، فرجعا إلى مليانة، فلقي الوزير أمرٌ كريمٌ باستقدامه على الباب العلي، فتمادى ودخل الحضرة في عواشر موسم الأضحى. وجدد مولانا أبو يعقوب رحمه الله[84] الحركة[85]، وحشد الأمم واستثار[86] العزم، وعاد إلى حصار الجزائر آخر السنة. والأمر لله من قبل ومن بعد[87].

Scanned by CamScanner

---

(1) ع -: عليه.

(2) ع -: الغراء.

(3) س +: إنه ولي ذلك.

(4) ع -: خلد الله سلطانه.

(5) ع: بدار الملك لسلفه الكريم.

(6) س، ع: مصالحها.

(7) ع: قواعد الملك.

(8) ع: تكويرها.

(9) ل: دولة؛ ع: دولته.

(10) ع +: من عباده.

(11) اقتباس من القرآن، سورة الأعراف، الآية 128.

(12) ر: الذي لا يقطع.

(13) ل: أول.

(14) ع -: الكريم.

(15) ع: أو اللجين.

(16) ع: بمشور.

(17) ر: جلاله.

(18) ل -: عنبر.

(19) ع: من الصفر.

(20) ع: لأمير المؤمنين.

Scanned by CamScanner

(21) ع -: تعالى.

(22) واسطة السلوك: فما الزجرت.

(23) نفسه، مخطوط الجزائر: وفي.

(24) نفسه: عبر.

(25) نفسه: يا رب أبلني منك رضى.

(26) واسطة السلوك: إلى الخيم.

(27) نفسه: على السمار.

(28) نفسه: من حكم.

(29) ع: أستطع.

(30) ع: تعللا.

(31) هذا البيت ساقط في س.

(32) ب، ل، ط، ع: يثبت.

(33) ع: الأسنى.

(34) هذا البيت ساقط في س.

(35) ع: برد.

(36) ل: إليه.

(37) هذا البيت ساقط في ح.

(38) ع: بالنصر والفتح.

(39) ع: ناهضا.

(40) ع: موارده.

(41) ح، ط، ع: مكتب. والكتب إليه يحيى: [illegible]

Scanned by CamScanner

(42) قرآن، سورة الروم، الآية 4.

(43) اقتباس من القرآن، سورة التوبة، الآية 32.

(44) ع: فخرج.

(45) ط، ع: ولحيته.

(46) س -: القائد.

(47) ع: فتابعهم.

(48) ع: أبا زكرياء يحيى.

(49) ع: الصلح.

(50) س: أبي زيد.

(51) ع: صبيحة يوم الاثنين.

(52) س -: بالري وملكها نحو ستتين.

(53) ع: في.

(54) ط، ع +: الذي عمل المأمون في لعن يداه علي.

(55) ط، ع: وظننت أنه خرج.

(56) ط، ع +: فخفت خوفا شديدا.

(57) ع +: من الطعام والشراب وجميع الفواكه.

(58) س: وكنت أحتاج إليه.

(59) ع: فرزقك.

(60) ع: والله أني.

(61) ع +: من داره.

(62) ع: وصحبة البعيالة.

Scanned by CamScanner

(63) ع +: من الدم.

(64) ط، ع -: حبيبي.

(65) ع: تمنع.

(66) اقتباس من القرآن، سورة يوسف، الآية 92.

(67) ط: شيعته؛ ع: ساقته. والسـيِّقة يعني: دابته.

(68) ع +: العلي.

(69) ز، ع: في اليوم السابع.

(70) ما يلي من النص إلى آخر القصيدة، لم يرد إلا في س.

(71) ع: خلافة المسلمين.

(72) ع: في الحياة.

(73) ع: الخليفة هذا.

(74) ع: أسماه.

(75) ع: ممن سميناه.

(76) ع -: له.

(77) ع -: المولى.

(78) ع: البطوي.

(79) ع: أول شهر شوال.

(80) ع: ومرأى منه.

(81) ب، ر، ع: أمير المؤمنين.

(82) ع: بأنا.

(83) ع: في ذلك.

Scanned by CamScanner

(84) ع: مولانا المقدس أبو يعقوب.

(85) ع، ز، ط +: إلى المشرق.

(86) ب، ر، ع: واستشار.

(87) اقتباس من القرآن، سورة الروم، الآية 4.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة إحدى وستين وسبعمئة

في أول هذه السنة، راسل ملك المغرب السلطان أبو سالم مولانا أمير المسلمين وخليفة رب العالمين أبا حمو، أيده الله، في سراح أسرى قومه، فراجعه بأنهم أكفاء عبد الواد المثقفين عندكم من كائنة أنجاد، فإن رضيتم فداء اثنين من قبيلكم بواحد من قبيلنا فعلناه، فوجم لذلك وشمخ بأنفه عنه البَأْوُ، فانحلت عرى السلم، وقامت على قدمها سوق الحرب، وجلبت إليها سماسرة الفتن بضائعَ الزور، وأقبل ليل الشتاء، فأصحر ملك المغرب فيه إلى تاوريرت بطليعة[1] حرب، على عادة سلفه أيام الفتن، وفيها محمد بن عثمان ابن السلطان المرحوم أبي تاشفين ابن السلطان أبي حمو ابن السلطان أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان بَوَّ فتنة، وحَبابَ بغْي في هواء بَأو. فقام بدعوة المذكور شرقًا مغرورُ الأمل زيان بن أبي يحيى الراشدي في قومه، فخرج إليهم ولد الخليفة، نصره الله تعالى، المولى الأمير الأعلى أبو تاشفين، أعَزَّهُ الله، والشيخ أبو موسى عمران بن موسى بن فارس بن حريز اللؤلئي، غرة شهر ربيع الأول، بما لا قِبَل لهم به من شرقية عبد الواد، أعزهم الله، فأجفلوا بين يديه إجفال اليعافير، وتركوا المال والدار، وأولياء الإمام في أثرهم إلى مَعْقِل وَاشيلاس، فامتلأت الأيدي سَبْيًا والصدور شِفاءً، وفرَّ زيان بن أبي يحيى المذكور إلى أولاد عَريف بن يحيى السُّوَيْدِيّ.

وفي أثناء ذلك اجتمع إلى محمد بن عثمان المذكور الطغَام من المَعْقِل وبني يَزْناسَن، ودَلوه بالغرور، فضايق الجبل[2]. فنهض نحوه الوزير أبو محمد عبد الله ابن مُسَلم ليلة الميلاد الشريف بغَزْبيّة عبد الواد والعَرَب وواقَعَهُ[3]، فهزمَه الوزيرُ هزيمة استئصال، قلعَ فيها عَلِيّ أخوه[4]. ووردت على الخليفة، أيده الله، بشارتا الظفَرَين في اليوم الخامس عشر من ربيع المذكور. وكان هذا المولد الشريف النبوي سعيد الغرّة، ميمون الطالع، واحتفل الخليفة أيده الله لبَيْتته كل الاحتفال. فمما أنشده المُسْمِعُ بها من نظمه، أعلى الله مقامه، قوله:

Scanned by CamScanner

قفا بين أرجاء القباب وبالحَيِّ ... وحيّ ديارًا للحبيب بها حَيّ
وعَرِّجْ على نجد وسلع ورامة ... وسائلْ فدتك النفس في الحي عن مَيّ
وقل ذلك المضنى المعذب بالهوى ... يموت ويَحْيا فارْثِ للميت الحَيّ
وبث لهم وجدي وفرط صبابتي ... ورَوِ حديثي فَهْوَ أغربُ مَرْوِيّ
يعذبني شوقي ويضعفني الهوى ... وقلبي على جمْرٍ من الشوق مَحْمِيّ
لبست ثياب السقم في دَوْحَةِ الهوى ... وقد صبغَتْ في حبهم لونَ عوديّ
تحليت في أهل الهوى بهواهمُ ... فما لي سِوَى زِيِّ المحبَّةِ من زِيّ
وصرت إذا هبتْ نسيمات أرضهم ... على شجرات البان أو قضب نَرِيّ
أميل بها شوقًا إليهم وأنثني ... كما ينثني قدُّ الحُسام الفرنديّ
وأصبو إلى أرض الحبيب ومَنْ بها ... متى ما سرَى عَرْف النسيم الحِجازيّ
رعى الله دارًا بالحِمَى قد عهدتها ... وسقَّى[5] ثراها صَوْبُ مزْن سماويّ
وكم نفحة تحيي الفؤاد بنَشْرها ... أتتْ بنسيمٍ عاطِرِ النَشْر مِسْكِيّ
أعلل نفسي بالنسيم إذا سرى ... وبالبرق إذ يَشْرَى[6] وسجع القماريّ
أحِبَّةَ قلبي ما أمَرَّ فراقكم ... على قلب صَبّ لا يطيق على شيّ
حياتي وموتي في هواكم وإنني ... أعلل نفسي فيكمُ بالأمانيّ
لقد أقعدتني عن حماكم قلائد ... وليس عِناني عن هَواكم بمثنيّ
فيا أهل نجد أنجدوني على الهوى ... فإنيَ في بحْرٍ من الشوق لجّيّ
مقيم بأقصى الغرب أشكو به الجَوى ... وحالي على حكم النوى[7] غيرمخفيّ
ويا حاديًا يحدو الركاب إليهمُ ... أنِخْ برُبَى نجدٍ وسَلِّمْ على طَيّ
وأخبرهمُ أني أراعي ذِمامَهمْ ... فما لذِمامي عندهم غير مَرْعِيّ
تَناسَيْتمُ عَهْدِي وطولَ[8] مودَّتي ... وحبُّكمُ في القلب ليس بمَنْسِيّ
فيا ليت شِعْري والديار قصِيَّة ... متى تَسْمَحُ الأيام لي بلقا الحَيّ
عَسَى الدهر يُدْنيني ويَسْمَحُ باللقا ... فيشفي غليلَ القلب من ذلك الرِّيّ
فقد طال هجراني وأعيا تَعَلُّلي ... وأذكى أوار الشوق لاعج جمريّ

Scanned by CamScanner

وقد قطعت قلبي القطيعة والنوى   بأبيَض هِنديّ وأسمَرَ خَطِّيّ
وتالله ما لي غيركم إن هجرتمُ   فهجْرُكمُ يُرْدِي ووصْلكمُ يُحْيِي
سلام على الدنيا إذا لم أراكمُ[9]   فمرآكمُ في الحُسْن أبْدعُ مَرْئِيّ
ويا أسفي يومَ الحساب ويا أسى   إذا كان سعْيي عندكم غيرَ مَرْضِيّ
وما أرتجي إلا شفاعة خير مَن   أتى بالهُدَى يَهْدِي لدِين حَنِيفِيّ
به يرتجي العاصون غفران ذنبهم   وما عَمِلوا في الدهْرِ من عَمَلٍ سَيّ
بمولده قد أشرق الكون كله   وكلُّ سَنا شمْسٍ وبدرٍ ودرِّيّ
سَلام على مَن بالبقيع وبالحمى   سلام على البدر المنير التهامِيّ
سلام على المشتاق موسى بن يوسف   على خيْر خَلق اللهِ هادٍ ومَهْدِيّ
سلام مَشوق أثقلته ذنوبه   وأخَّر عن سَيْر وقيَّد عن سَعْي
بيثرب قلبي والحِجاز مودتي بنفسي   وإن عاقني عن كل رشد به غيّي
وروحي أرض[10] طيبة إنها   شِفاء عن الآثام والزيغ والبَغْي
فيا ليت شِعْري هل أزور محمدًا   وأمنح ما أهْواه من[11]منزل الوحْي
لئن أخَّرتني عن زيارة أحمدٍ   قلائد أمْرٍ قيَّدتني عن السعْي
فرَبِّيَ أرجو أن يَمُنَّ بقرْبه   قريبًا وشوقي لا يقابَل بالنأي
عليه سلام الله ما حَنَّ شيِّق   إلى قبْره يَطوي الفلا أيَّما طَيّ

ولأبي عبد الله محمد بن يوسف الثغري[12] الأندلسي، لطف الله به بمنه، قوله:

أسائل عن نجد ودمعيَ سائلُ   وبين صَبَا نجد وشوقي رسائلُ
ولي عندهم من صدق ودي وسائل   وحاشا لديهم أنْ تَخيبَ الوسائل
نعم لي ذنوب كلما رُمْتُ عزمة   يشاغلني منها[13]عن السير شاغل
ألا إنما كفتْ خطاي عن السُّرَى   أكُفُّ الخطايا والزمان المماطل
ولله قوم أيقظوا عَزَماتهم   كأن سناها في الظلام المَشاعل
إلى عرفات يَمَّموا فتعَرَّفت   لهم[14] نكراتٌ للفلا ومجاهل
وأنَّى لمثلي باللحاق بمثلهم   وقلبيَ في غيّ عن الرُّشْد غافل

سقى ربعهم بالجزع مُنْهَمِلُ الحَيَا   فإن لم يصبْه منه طَلٌّ فوابل
وما ليَ أستسقِي الغمامَ لربعهم   وواكف دمعِي للغمام مساجل
عهدت به سِربًا من الأنس حاليًا   فعاد به سِرْبٌ من الوحش عاطل
بمَسْحَب أذيال وملعب صَبْوة   ومَطْمَح آمَال لِمَنْ هُوَ آمِل
ومَسْرَح غزلان ومسرى أهِلة   تمنى سناهنَّ البدورُ الكوامل
ومَرْبَض آسادٍ وملهى جآذر   تصيد بها الأسْدَ الظباءُ الخواذل
فكم عبثتْ تلك المها بذوي النهى   وكم لعبتْ بالعقل تلك العقائل
تولوا فحالتْ حالة الربع بعدَهم   فما هو إلا مثل جسميَ ناحل
خليليَّ ما قلبي لديَّ وإنما   أقلن به تلك البدورُ الأوافل
ويا صاحبَيْ نجوايَ عهديَ لم يحل   ألا كل عهْدٍ غير عهديَ حائل
و قد أكثر العذال عذليَ في الهوى   ولا حجة فيما ادَّعَته العَواذل
وما هاج شوقي[15]غير ركب تحمَّلوا   بقلبي فمِنْ كلِّ قدَ اقوَتْ منازل
فلم أذر ما أبكيه بعد فراقهم   أقلبيَ أم ذاك الخليط المزايل
فيا ليلَ أشجاني أما لك آخِرٌ   ويا بحرَ أشواقي أما لك ساحل
ومما شجاني أنني بعدَ بعدكم   مقيم على التقصير والعمر راحل
تقلصَ ظِلٌّ للشبيبة إذْ أتى   مشيب به ظِلُّ الشبيبة زائل
عَفاء على[16] الدنيا وإنْ لذ عيشها   فما في نعيم بعده الموت طائل
لعمرك ما الأعمار إلا مراحل   تقضى وأيام الشباب قلائل
ألم يان بعد الشيب أنْ ينبذ الهوى   وتطوى إلى أرض الحجاز المراحل
ولي كلما هبتْ نواسم طيبة   شمائل تبديها[17] الصبا والشمائل
يدافعني عنها عظيم جرائمي   كما دافع[18] الدَّيْن الغريم المماطل
فيا من رآني فوق ظهر شملة   تخب برحلي تارة وتناقل
لخير محلٍّ حله خير مرسل   محلٌّ تحلى بالفضائل أهل
فياليت شعري هل أراني بربعه   أقبل من آثاره ما أقابل

ألا لا تسلني عن سروري بطيبة ... فإني عن عقلي هنالك ذاهل
إذا بلغتني العيسُ قبرَ محمد ... فقد نلت من دنيايَ ما أنا آمل[19]
رسول كريم خاتم الرسْل كلهم ... وأعظم مَنْ تلقّى إليه الرسائل
وأفضل مبعوث وأكرَم شافع ... تناط[20] به يومَ الحساب الوسائل
بَدَا فانجَلى ليل الضلالة بالهدى ... وزاحَ به ما زخرفته الأباطل
وعمَّ جميعَ الخَلق علمًا وحكمة ... فلم يَبْق في عصرالجهالة جاهل
ألم يأت بالآيات تتلى عليهمُ ... يشاكِهُ[21] بعضًا بعضُهَا ويشاكل
صحائف آيِ أيدَتْ بصفائح[22] ... تجالدهم[23] هذي وهذي تجادل
وأجرى لهم من كفه الماء فاعجبوا ... لينبوع ماء أنبطته الأنامل
وما صدروا حتى ارْتَوَوْا وَتوضَّؤوا ... عنَ آخرهم والماء هام وهامل
تجود لهم بالماء والمال كفه ... فتعذب للورّاذ منها المناهل
كما دَرَّ ضرع الشاة وقتَ جفوفه ... له لبَنًا رغدًا به الضرع حافل
وحنَّ إليه الجذع عند فراقه ... حَنينًا كما حَنتْ من الفقد ثاكل
إذا الله رَدَّ الشمسَ بعد غروبها ... إليه وشقَّ البدرُ والبدرُ كامل
فكلُّ جلال دونه متقاصر ... وكل جمال عنده متضائل
وما خصّ بالإسراء إلا محمد ... وما جال فوق العرش إلاّهُ جائل
هو اخترَق السبْعَ الطباقَ لربه ... فأولاه إسعافًا بما هو سائل
وكم معجزات للنبيّ محمَّدٍ ... ظواهر لا تبْغَى عليها دلائل
لنا الفضل إذ كنا به خير أمّة ... نفاخر مَنْ شئنا به ونطاول
بمولده الأيامُ راقَ جَمالها ... فطابت لنا أشحارها والأصائل
أشهْرَ ربيعٍ حزْتَ كل فضيلة ... بأفضل مَنْ تمَّتْ لديْه الفضائل
وليلة ثِنْتي عشرةٍ منك شرِّفت[24] ... ففيها بَدا بدر الهدَى وهْو كامل
بها لأمير المؤمنين مشاهد ... لنا منه فيها أنعم وفواضل[25]
عوائد إحسان وحسنى عوائد ... تنال بها منه هباتٌ جلائل

فما مثلها في الدهر ليلة مولد[26] ... ولا مثله للدين كافٍ وكافل
هو الملك المنصور موسى بن يوسف ... إذا احتفلت يومَ الفخار المَحافل
إمام الهدى ساقي العدى أكؤس الردى ... غمام الجَدى غيثُ الندى المتراسل
أذلتْ له الصعبَ الأبيَّ سياسة ... أرَته وُجوهَ الرأي فيما يحاول
فما كحِجاهُ عقلُ مَن ساسَ أمّة ... إذا اشتبهت يومًا عليك المسائل
يُنَظِّم شملا للعُلى بشمائل ... ثمان فيا لله تلك الشمائل
حياء وأفضال وعدل وعفة ... وعزم وإقدام وحلم ونائل
أيا ملكًا دانت بطاعة أمره ... جميع الورى حتى الملوك العباهل[27]
وحاز تراث المجد لا عن كلالة ... وجاء بما لم تستطعه الأوائل
بعثتَ بجيش النصر كالبحر للعدى ... تدافعُ كالأمواج فيه الجَحافل
وكالسحْب لكنَّ البروق صَوارم ... به منتضاة والرعودُ صواهل
وكالروض إلا أن مشتجر القنى ... به شجَر والمرهفات جَداول
أبو تاشفينَ بدرُه ونجومه ... قبائل عبد الواد نعْم القبائل
و سَعْدُك بعد الله رِدْءٌ لجيشه ... ويا حبَّذا جيش من السَّعْد حافل
به أمِنَتْ سُبْل وكانت مخوفة ... ودانت بلاد واستكانت مَعاقل
وأدبرت الأعداء لمَّا تواردت ... عليهم من الجيش القنا والقنابل
عدوُّك مقهور وسعدُك ظاهر ... وجيشك منصور وسيفك فاصل[28]
ونجلك ميمونُ النقيبة ماجدٌ ... وللعُرف بذال وفي الحرب باسل
بهَديكمُ استهدَى بمجدكم اقتدى ... فلاحتْ عليه من سناكم دلائل
وفي البدر نورمن سَنا الشمس ظاهر ... وفي الشبل من ليث العرين مخائل
جنَيتَ ثمارَ النصر خضرًا نواعمًا ... بما أثمرتْ في الحرب سُمْر ذوابل
فدونك أبكارَ المعاني لباسُها ... برود حُلاكم هنَّ فيها روافل
قوافي جرَتْ بالمجرّة ذيلها ... فقصَّر عن إدراكها المتنازل
ومذ سحبتْ ذيل البيان تيقنوا ... بأني سحبان وغيري باقل

فدامتْ بك الأيام تظهر حسنها   وتَحسد أخراهنّ فيك الأوائل
ولازال صَرْفُ الدهر طوْعَك كلما   أمَرْت بأمر قائلا فهو فاعل

وللحاج الطبيب أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي قوله:

أصبح رأسي منَ الشوائبْ   وَهْوَ منَ الجانبَيْن شائبْ
يا لهْفَ نفسي على زمان   كنت لثوب الشباب ساحبْ
أرفل في حلة التصابي   بين حبيبٍ وبين صاحبْ
حتى بَدا الشيب في قذالي[29]   بادرته بالسّواد خاضبْ
أستره كلّ حين حتى   عمّ مِنَ الرأس كلّ جانبْ
وأقبلت منه لي جيوشٌ   سِهامُها للصِّبا صَوائبْ
فَصَال شَيْبِي على شبابي   صَوْلةَ ذي نَجْدَةٍ محاربْ
وسلّ في العارضين سيفًا   أضحى به للشباب ضاربْ
مازال يَشطو عليه حتى   ظلّ لِمَا قد دهاه هاربْ
وقد مضى معهد التصابي   وأقبل الشيب في كتائبْ
واخْدَوْدَبَ الظهر واعْترانِي   ما ذادَ عن وصْلي الكواكبْ
ومَلَّني الصاحب المُصافي   والعِرْسُ والأهل والأقاربْ
هذا ونفسي لكل شَيْءٍ   مِمَّا يَشِينُ الفتى تقاربْ
مِن قبح قَوْل وسوء فعْل   وتَرْكِ حق عليّ واجبْ
فقلتُ يا نفسُ ليس إلّا   أنْ تنظري اليوم[30] في العواقبْ
ولتستعِدّي لِهَوْلِ يَوْمٍ   تَشِيبُ من بعضه الذوائبْ
يوم[31] يكون الإله فيه   على جميع العصاة غاضبْ
يا نفس بادرْ دع التأبّي   فعيشك عن قريب ذاهبْ
ارجع لمولاك بانكسار   ولترسل الأدمع السواكبْ
وقل أيا مالكي ويا من   كل الأنام إليه[32] آيبْ
يا ربّ إني أسأت جهلاً   يا ربّ إني إليك تائبْ

يا غافر الذنبِ والخطايا	حاشاك أنّي أردُّ خائبْ
يا ربِ يسّرْ ولا تعسّرْ	يا رب سامِحْ ولا تعاقِبْ
إنّي توسّلتُ يا إلهي	بسيّدِ العجْم والأعارِبْ
وخاتم الأنبياء طُرًّا	وخير ماش وخيرِ راكِبْ
الهاشميّ الذي به قد	سَما قصيّ وساد غالبْ
أخبرتِ الأنبياءُ عنه	وقاله كاهِن وراهِبْ
قام بدين الإلهِ حتى	أبطل ما قاله الكواذِبْ
دعا إلى الرشدِ والهدى من	أمته شاهد و غائبْ
أتى رَبيعٌ به بشيرًا	كل ربيع للخير جالبْ
سرى إلى عرْش ذي المَعالي	والليل مُخلولِك الغياهِبْ
فكان في القرْبِ والتداني	كقَابَ قوْسَين في المَراتِبْ
شرّفَه وارتَضاه مَوْلى	أوْحى إليه من غيرِ حاجِبْ
ومعجزاتُ النبيِّ منها	ما صَحّ في سائر المَذاهبْ
نطْق حصَى وانشِقاق بَدْرٍ	وغيرُ هذا من العَجائبْ
يَقْصُرُ عن حَصْرِها يقينًا	كل لبيبٍ وكل حاسبْ
أمْداحه جُنتِي وذُخْري	وذاك من أعظم المَكاسِبْ
يا ليتني زائر إليه	أطْوي له البِيدَ والسّباسِبْ
أعفر الخدُّ في ثراه	و أرسِل الأجْمُعَ السّواكِبْ[33]
وأسأل الله حُسْنَ عَوْن	للمَلِكِ المُعْتَلي المَناصِبْ
مَنْ لم يزَل منذ كان طِفلا	ذا هِمّةٍ تدرِك الكواكبْ
كرّاتُ عَيْنيه في الأعادِي	تُغْني عن السُّمْرِ والقَواضِبْ
إنْ باشرَ الحرْبَ في قِتال	هَيْبَته تَهزم المَواكبْ
وجيْشه لا يمُرُّ إلا	كان على المارِقين غالبْ
بلاده قد حمى حِماها	فلا عَدوٌّ له[34] يقارِبْ

كنا سمعنا به وكانت   أبصارنا نحوها تراقب
فجاء والسَّعْد في صعودٍ   والغيز تحت الشعاع[35] غائب
المُشتري مُشرق منيرٌ   وزُحَلٌ ساقِط وغارِب
عادَ به المُلكُ في قرار   وابْتَزَّه من يَدِ الغواصِب
له تَدين البلاد طرًّا   فلا مُناص ولا مُناصِب
والغَرْبُ لو أمَّه لأضحى   فيمَنْ به تندب النوادِب
لكنه عفَّ عنه حِلمًا   إذ كل مَنْ فيه عنه نائب
معتدل الحُكم في القضايا   ليس يُحاشي ولا يجانِب
طَوْدُ وَقار وبحرُ عِلم   صَعْبُ الذرى طافِحُ[36] الجوانِب
مَنْ يَرْوِ عنه الحديثَ يقطعْ   كل بَليغ وكل طالِب
وحوله من بَنِيهِ جمْعٌ   شواهِنٌ صُيَّدٌ صَوائب
دلائل المُلْكِ قد تبَدَّتْ   فيه رآها أولو التجارِب
منهم أبو تاشَفِينَ شَهْمٌ   للضَّرْب والطعن غيرُ هائب
في الحَزْم والعزم لا يُبارى   والمالَ للمُجْتدين واهِب
وكلهم ضَيْغَمٌ مُهابٌ   يا وَيْحَه مَنْ لهم يُحارِب
كأنهم والإمامُ موسى   بَدْر سما[37] حوله كواكِب
وافى تلمسانَ وَهْيَ مَحْلٌ   فجادَها صَيِّبُ السَّحائب
فَهْيَ به الآنَ ذاتُ حُسْن   منظرُها للعقول سالِب
عادَتْ به جَنة وصارتْ   في الغَرْبِ تحْدَى[38] لها الرَّكائب
طابَ لعَمْري الهواءُ فيها   لمَنْ في طَوْل[39] الإمام راغب
شَيَّدَ بنيانها فأضحَتْ   تلحق بالأنجم الثواقب
لا زال يسمو وفي يدَيْه   مَشارقُ الأرض والمغارب

وأمر الخليفة أيده الله أولياءه بالاستعداد للقاء عدوهم أو الإصحار إن كثرهم، عادة حزمه الماضي الشباة، وسياسته المحمودة العقبى. ثم استقدم

والده مولانا أبا يعقوب، قدسه الله، من مَتيجَة. وفي أول رجب تحرّك صاحب[40] المغرب محتشِدًا محتشرًا، فضمَّ مولانا أمير المسلمين، أيّده الله، قبيله الأعز، وأحلافهم من زناتة، وجميعَ عشائر العرب الغربيّة والشرقيّة، فمن المَعْقِل أولاد حسَيْن والعَمارِنة وأولاد هدّاج وأولاد خرّاج، ومن بني عامر[41] حُمَيْد وبنو[42] يعقوب، وآخى بين الجميع. فنزلوا حلة واحدة بأمِيسون، وأضمَدَ لمنازلتهم فيها وزيره أبا محمد عبد الله بن مسلم في يوم الأحد الرابع والعشرين[43] من جمادى الثانية. وفي التاسع والعشرين منه قدم المولى أبو يعقوب رحمه الله على الحضرة، واستمرَّ لمنازلة العرب مع الوزير المذكور بما اقتضَته المناظرة في الرأي. وعاد أثناء هذا زيان بن أبي يحيى الراشدي إلى وطنه[44] بدعوة ملك المغرب، فأنهض نصره الله إليه الشيخ أبا موسى عِمران بن موسى بالجيش المنصور، فهزمه هزيمة أكبر من الأولى، وجلاه عن القطر[45].

ولم يزل أمير المسلمين، أيّده الله، بالحَضرة العليَّة إلى أن حَلَّ ملك المغرب بتاوريرَت، فخرج، نصره الله، في اليوم التاسع والعشرين بعزيمته الوقادة الشهاب، وحزمه المرهَف الشباة، ومضائه المطرور الغرب، وأسْرَى بني مرين المُتَقَدِّمُو الذكر، يسحبون في السلاسل[46]، ويُذبَحُ مَن تكاسَل منهم[47] دون معذرة.

وفي ليلة تعريسه بين أوليائه[48] الكِرام بأميسون، بات ملك المغرب بوادي إيسَلي[49]، بحيث لو رفع ستر الجبَال لتَراءَى الجَمْعان[50]، وهَزَمَتْ طليعة أمير المسلمين ليلتئذ عَسَس مَحَلةِ صاحب المغرب، واتبعوهم إلى الأبنية. قال المؤلف عفا الله عنه: شهدْتُ هذه الليلة بمعسكر مرين، وأنا فيه[51] من كتَّاب ديوان الإنشاء، روحة العَسَس، فأشهَدُ أنه لم يَبِتْ فيه بها أحد إلا ولجام فرسه بيده يبغي الفرار بنفسه، وملِك المغرب بفسطاطه الجمهوري، وفَرَسُهُ قائم بين يديه[52]، وأهل الدخلات محدقون به عن يمينه

Scanned by CamScanner

وشماله إلى الصبح، فلم أرتَبْ ليلي كله في أنها الهزيمة، والأمر كله لله وحده.

وارتحلت الطائفتان سَحَرًا، فانتحى ملِك المغرب تلمسان، فدخلها يومَ الأحد سادس شعبان، وغرَّبَ أمير المسلمين، أيده الله، ثم دخل التل على ثنِيَّة بلزوز، وخيَّم إزاء أجَرْسِيف من قرى مَلويَة، فأخذتها من الغدِ عُنْوَةُ سيفه، واجتاح الناس ما كان بها من كراع وأمتعة[53] وزروع، ثم أحرقوها فأمست رميمًا. وأدلج، نصره الله، مع الوادي صُعُدًا، ومرَّ بقرى أرجُو ووطاط وتامنصَّرت، فأغرى بها العفاء، وتركها حصِيدًا كأنْ لم تُغْنَ بالأمس[54]. وأمَّ ثنيةَ تاغروطت المفضِية إلى فاس[55] مُصَمِّمًا لحصارها، وتنادى أهل تلك القرى بالثبور حاشرين، وطاروا إلى ملِكهم[56] بالخبر، فلم يَسَعْهُ إلا حماية دار ملكه، فصرف الأمير محمد بن يحيى ابن السلطان أبي يحيى الحفصي، وابن عمه الأمير أبا العباس أحمد بن محمد، إلى بلديهما بجاية وقسنطينة، فهما عُتقاءُ مولانا أمير المسلمين أبي حمُّو أيده الله تعالى[57] عند اعتبار الحق. ثم أوقف[58] بتلمسان يوم الثلاثاء ثالث يوم دخوله إليها، محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين ضدًّا لأمير المسلمين، واستضاف إليه مَنْ كان بمحلته من شرقية زناتة، فكان كمَنْ قابل بسِقط زنده الشمْسَ المنيرة أو ناظر بحصْبائه الدرَّ أو أهدى كريمته إلى غير كفئها. وفي مثلها يقول الشاعر، مفضِّلا بين يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صُفرة ويزيد بن سليم السليمي[59] الغساني، عاملَيْ إفريقية في أيام بني العباس ودولتهم:

حلفتُ يمينًا غير ذي مثنويَّة ... يَمِينَ امرئٍ آلى وليس بآثم
لشتان ما بين اليزيدَيْن في الندى ... يزيد سليم والأغرِّ ابن حاتم
يزيد سليم سالمُ المال والفتى ... أخو الأزد للأموال غير مسالم

Scanned by CamScanner

فهَـمُّ الفتـى الأزديِّ إتـلافُ مالـه   وهَـمُّ الفتـى القَيْـسِيِّ جمـعُ الـدراهم

ورحـل عـن الحـضرة العَليَّة يـوم السبت الثانـي عـشر مـن الـشهر لخمس لـيال مـن دخـوله، يَطْوي المـراحل غيـر لاوٍ علـى مَـنْ تعـذر إلـى وطـنه، وبلـغ خبـرُه أميـرَ المسلمين، أيـده الله، فانثنـى يَجُـذ السَّيْرَ لاعتراضـه، وفاتـه متذمِّمًا بتازاهُ[60]، فغلغـل، أيـده الله، إلـى حـضرته. فـبإزاء وطـاط اشـتجَرَ بـنو عامـر فـي قَسْم الغنـائم، وحَجَـزَهُمْ سَـقِير شيـخُهم، فبَقَـرَ جَـوْفَهُ سِـنانُ رجـل مـنهم خطـأ، فمـات. وذلـك مـن سـعادات[61] الخلـيفة، أعلـى الله مَقامَـه، فقـد كـان المذكـورُ شـايَعَ سِـرًّا ملِـك المغـرب، والله يَحْكُـمُ، لا مُعَقِّـبَ لِحُكْمِـهِ، وهُـوَ سَـريعُ الحِـساب[62]. لكـنه، نـصره الله، احـتفل فـي كفـنِهِ، وأمـر باحـتماله فـي ركابـه ودفـنِهِ بالعُبَّاد، ثـم مرَّ بتاوريـرت، ففرَّ مَنْ كـان بهـا مـن العساكر المرينية. فتـركها أيـده الله خاويـة علـى عروشـها، وقـدم منها وزيـره عـبد الله بـن مُـسَلم فـي أزعَـال مـن الجـيش للقـبض علـى محمـد ابـن عـثمان بالحَـضْرَة. وسـبقهم إلـيه النذيـر العـريان، فخـرج مـنها خائفـا يتـرقب، يـوم الأحـد رابـع رمـضان، قـد رضِـيَ الخـلاص لا لـه ولا علـيه، وأسـرع اللحـاق بـأولاد عَـريف بـن يحيـى مستجيرًا بهـم فأجـاروه، واسـتألفوا أولاد هَـدَّاج وتوجـين وبنـي راشـد وأبعاضًـا مـن شرقية عبد الواد.

ودخـل مـولانا أميـر المـسلمين أبـو حَمُّـو، أيـد الله أمـره[63] وأدام عِـزَّته، حَـضْرَة مُلكِـه الأعـز يـوم الخمـيس ثـامن شـهر رمـضان المُعَظـم، لأربعـين يـومًا من خروجه، كما قيل:

فـتحَ الفـتوحَ وآبَ أوْبَـةَ ظافـر   فـي الله كـان رحـيله وإيابُـه
يَلقـى العـداةَ ولا يَمَـلُّ لِقاءَهـا   فكأنَّمـا أعـداؤه أحـبابُه[64]

ولحـين دخـوله نـصره الله تعالـى حَـضْرَتَهُ، أنهـض الـشيخ أبـا موسـى عمْـران بـن موسـى بـن فـارس لحـصار وهـران، وتـرك بالحـضرة العلية والـده المولى المرحوم أبا يعقوب، رضي الله عنه، وخرج بكافة قبيله الأعز لتشريد

محمد بن عثمان عن الوطن، يوم الأحد ثامن عشر رمضان المذكور، وأخذ موسِم الفِطر بِتاشالة، وسار إلى البطحاء، فرجع المَغْرُورُون القَهْقرى مُضحِرين. فاستجاش، أيده الله، بني عامر وبني يعقوب وأولاد حُسَيْن المعقِل، ونزل منداسًا. فأصْحَرَ أبو بكر بن عَريف بظعون قومه سُوَيْد وأولاد هَدَّاج من المَعْقِل، ونزل السرسُو، واعتصم محمد بن عثمان بزناتتِه[65]، ومحمد بن عريف بزمل من قبيلِه بمَعْقل وانشَريس من بلاد توجين، فصَمَدَ أمير المسلمين، أيده الله، صمد الجبل، فنزل غوره واخذ بمُخَنقِه، فتراسل ولدا عريف بأنْ يتحرَّك كل واحد منهما بلفه من جانبه نحو معسكره المنصور في يوم عيَّناه، وبلغ خبرهما أمير المسلمين، أيده الله، فأرسل يومئذ مَن اعترض أبا بكر بن عريف بالسرسو فهزمه، وركب هو نصره الله تعالى في أوليائه صاعدًا إلى الجبل، ففرعته عنوة سيفِهِ واستباح حلل المنافقين به، وفرَّ محمد بن عثمان ومحمد بن عريف برأس طمرة ولجام إلى ظعن سُوَيْد، فلما وصلوهم أجفلوا إجفال الظلمان معتمدين القفر اليَباب، وكل ذلك في أوائل ذي قعدة.

وأرْجَفَ الناسُ[66] أنَّ مِلِك المغرب جَهَّز إلى تلمسان جيشًا لاهتبال غُرَّتها، فصرف، أيده الله، وزيرَهُ عبد الله بن مُسَلم في كتيبة جَأواء حزمًا إليها[67]، فدخلها يوم الثلاثاء الثالث عشر[68] من ذي قِعْدة، واستمرَّ هو نصره الله في حركته لاستنقاذ المَدِيَّة ومليانة من أيدي مرين الذين خَلَف[69] بها ملِك المغرب آنفًا. فمن منزل يغود صرف العرب إلى مشاتيها، وبتاجروت[70] من وادي شلف بلغه الخبر بفرار مرين عن مليانة والمدية. فجَدَّ، أيَّده الله، السَّيْرَ إلى أن حل بظاهر مليانة، فوجَّه للمدية قائدها، وأسرى بقومه نحو منصور بن الخَلوف اليابانـي بمَتِّيجَة، فصبَّحوه غارًا يوم العشرين من الشهر، فقتِل في عَدَدٍ من حِزْبِهِ وحُزَّ رأسُه، وبُعِثَ إلى الحضرة به.

ونهض أيده الله بعد ذلك لمنازلة تَنَس، وبها من قوَّاد مرين ابنُ أبي

Scanned by CamScanner

تيولي، أحد الحذاق بالرماية، فأعد بمخنقها، وكان من تهيئ السعادة أن أوتر المذكور قوسه، وأسند إليها السهم، ثم أدارها ظهرا فراغه في اللعب بها، فأفلت عقالها وخرج السهم إلى نحره(21) فمات، وملك مولانا أمير المسلمين، أيده الله ونصره، البلد أول(22) ذي الحجة. وغيظ لذلك مغراوة المزتزقون حينئذ بعسكر الخليفة أيده الله، فانتبذوا إلى جبل زاتيمة مجاهرين بالنفاق، فناجزهم به الحرب، وفرع عليهم شماريخه، فافترقوا أيدي سبا(23)، ونزل أيده الله بمجتمع من وادي شلف، فجاءه فيه الخبر بأن محمد بن عثمان وغوغاءه نزلوا القطفة من بلاد حصين، فرحل مشوقا إليهم ونزل مليانة، وأنذروا به فأجفلوا أمام طالعة رعبه، وهنالك نفدت السنة، والبقاء لله وحده.

---

(1) ط: بطائفة.

(2) ط: جبل بني يزناسن.

(3) ب، ع: ووافقه؛ س: وواقفه.

(4) ع: أخوه علي.

(5) ل: ويسقي. وسقى يعني: أكثر السقي

(6) ع: يسري.

(7) ر: الهوى.

(8) ر: وحفظ.

(9) كذا في جميع نسخ بغية الرواد.

(10) ل، ب، ع: أهل.

(11) ر: في.

(12) ع: ولمحمد بن يوسف القيسي.

(13) ع: فيها.

(14) ع: بهم.

(15) ع: كربي.

(16) ع: عن.

(17) ر: نواسم تهديها.

(18) كذا في س. وفي النسخ الأخرى: دفع. ودافَعَ يعني: ماطل.

(19) هاذان البيتان لم يرد ذكرهما إلا في س.

(20) ع: تنال. ويناط به الشيء يعني: يوصل به.

(21) ع: يشابه.

(22) ل، ب، ع: بصحائف. (والصفائح هي السيوف).

(23) ل، ب، ع: تجادلهم (وتجالدهم يعني: تضاربهم)

(24) ع: منه أشرقت.

(25) فواضل المال هي: غلته وأرباحه.

(26) ع: موسم.

(27) ب، ع: القبائل (والملوك العباهل هم المقرّون على ملكهم فلن يزالوا عنه).

(28) ع: ناصل.

(29) القذال هو: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.

(30) ع: الآن.

(31) كذا في س. وفي النسخ الأخرى: يومًا.

(32) ع: إليه كل الأنام.

Scanned by CamScanner

(33) ب، ع: الأساكب.

(34) ع: لها.

(35) ع: الشفاع.

(36) ب، ل، ع: صافح.

(37) ع: بدر دجى.

(38) ع: تحدو.

(39) كذا في ع وكل النسخ، وهو مخل بالوزن. ولعل الصواب أن يقال: لِمَنْ بطَوْلِ.

(40) ع: ملك.

(41) ب، ل، ع: عثمان.

(42) ب، ع: وبني.

(43) ع -: والعشرين.

(44) ط +: بأم العساكر.

(45) ع: عن الوطن.

(46) ع +: والأغلال.

(47) ع -: منهم.

(48) ع: بأوليائه.

(49) س: بإبسلي.

(50) ع -: بحيث لو رفع ستر الجبال لتراءى الجمعان.

(51) ع: وأنا به.

(52) ع: فالم تجاهه.

(53) ل، ب، ع: ومتاع.

Scanned by CamScanner

(54) اقتباس من القرآن، سورة يونس، الآية 24.

(55) ع: إلى مدينة فاس.

(56) ع +: في تلمسان.

(57) ع -: تعالى.

(58) كذا في س. وفي ع والنسخ الأخرى: ثم وقف.

(59) ع: السلمي.

(60) ع: بتازا.

(61) ع: من سعادة.

(62) قرآن، سورة الرعد، الآية 41.

(63) ع: أعلى الله كلمته.

(64) يلي هذا، في النص، حكاية مقتبسة من كتاب " سلوان المطاع في عُذوان الأتباع " لابن ظفَر الصقلي. ونظرًا لطولها فقد رأينا إيرادها في الملحق الأول، ص 223.

(65) ع: بزناتة.

(66) ع: ووصل الخبر لمولانا أيده الله.

(67) ع -: جاؤاه حزمًا إليها.

(68) ع: الثالث والعشرين.

(69) ع: تخلف.

(70) ع: وبتاجزرت.

(71) ع: إلى نحوه.

(72) ع: أوائل.

(73) ع -: أيدي سبأ.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة اثنتين وستين وسبعمئة

أهلَّ محرَّم هذه السنة ومولانا أمير المسلمين أيده الله بظاهر مليانة عاليَ اليد، ماضيَ الحدِّ، فثنى العنانَ معتمِدًا حَضْرته الكريمة. وكان بجيشه المنصور من بقايا مغراوة جَمْعٌ وافر، قد غضَّ أجفانَ البيض عنهم الحياءُ، ووهبَهم أعلاقَ نفوسهم الصَّفحُ، فأظهروا الطاعة والاستكانة، وأبطنوا النفاقَ والخديعة. فلما حل ركابُه العليُّ بظاهر البطحاء سألوا منه، أيده الله، صَرفَهم إلى شلف. ففطنَ لِما أبْطَنوه من كفر النعمة، وإزْماع الثورة عند انصرافه، أيده الله، إلى حضرته، فغُلقَتْ برقابهم أشْرانُ السلاسِل، واستركبوا بعد أدَاهِم الخيْل دُهْمَ[1] القيُود. ورحل نصره الله إلى وادي يَلَّل، فبلغه الخبر[2] أنَّ فلَّ مغراوة المتذمِّمين قد ثار بشَلف فقتَل قاضيَه ودخل تنس غِيلة. فتجرَّد لحينه في الخَيل والرجْل، وجدَّ السيرَ إلى تنس، ففرُّوا أمامَه كاليَعافِير، لا يَلوي أوَّلهم على الآخِر، وراحوا إلى الجزائر متذَمِّمين بحامِيَتها من مرين.

وبات الخليفة أيده الله[3] ليلة واحدة بتنس، ثم قَفَل إلى ركابه، وطوَى المراحل إلى دار مُلكه، فدخلها ثانيَ صفر منصورَ الأعلام مُبَلغَ الأوطار، عزيزَ النصر قد دَوَّخ الأمصارَ، وشرَّد الأعداءَ، وافتتح الأقطارَ، وخلَّف الآثار، واستجدَّ السلطان.

ومتى يُحاربُ كانت العُقبَى له ... والحربُ أحيانا تكون سِجالا
خَذلتْ عِداه روْعةُ أشْياعِها ... وتفقدوا عَزْمَ النفوس مُحالا
وتبرَّأتْ منهم ظِلالهُمُ فإنْ[4] ... عاينْتَ لم تَرَ للشخوص مِثالا
تلقاه أعْظمَ ما يكون تَواضُعًا ... إذْ تُبصِر الإعظامَ والإجلالا
وتراه أخْشَعَ ما ترى ملِكًا وقد ... قَهَرَ الملوكَ وذلَّل الأقيالا
أرْضَى الخلافةَ نَهضَةً وسياسةً ... ووفَى لها بشروطها استقلالا

فأزحل نصره الله[5] والده مولانا المرحوم[6] أبا يعقوب رضوان الله عليه بالجيش الخِضَمِّ[7] لاستفتاح الجزائر بما اقتضاه تدبيرُهم أوّلا. فسار إليها في الثاني

Scanned by CamScanner

والعشرين من صفر المذكور، وكان محمد بن عثمان، بعد إجفاله عن القطفة رهبًا من أمير المسلمين أيده الله، غرَّب إلى عُبَيْد الله، من المَغقِل عرب أنجاد، مستجيرًا بهم فأجاروه. فنهض إليهم الوزيرُ عبد الله بن مسلم بالجنود المتكاثفة وهزمهم وجلاهم عن القطر كله. وأظلتْ ليلة الميلاد الشريف، فاحتفل أعلى الله مَقامه لِبَيْتَيها كل الاحتفال على سَنَنها المعتاد[8] فيها، فكان مما أنشده مُسَمِّعُها من نظمه نصره الله تعالى:

نـزلتم مـن فـؤادي منـزلا حَسَنا ... وكـل مـا سـاءني فـي حبكم حسُنا
بِنتم فلـم أتخِـذ مـن بعـدِكم سَكنا ... و حُبكم فـي صَمِيم القلـب قـد سكنا
ويُعْدكم صار عندي ساعة بسَنا

سِرْتم ولـم تعلمـوا بالبَيْن مـا فعـلا ... بهـائِمٍ مُدنِـفٍ لا يَبْتغِـي بَـدَلا
هـلا رَحِمْـتم مُحِـبا بالـنوى قـتلا ... مُتـيَّمًا صـار فـي أهـل الهـوى مَثلا
لم يتخذ بَعْدكم خِلاًّ ولا وَطنا

يـا راحلـين وللـتوديع مـا عطفـوا ... وسـائلين وبالمـشتاق مـا عـرفوا
قفـوا قليـلا علـى مُضنى الغرام قفـوا ... خـذوا فـؤادَ المُعَنـى الـصبِّ وانـصرفوا
لا أبتغي منكمُ رَهنًا ولا ثمَنَا

هجَـرتمُ دون ذنـبٍ لا ولا سَـببٍ ... قطعـتمُ القلـبَ بالتبـريح والوصـب
فظَلْتُ[9] من حَرِّ نارالشوق في لهَبٍ ... أعاتـب الدهـر فـيما جرَّ مـن نُـوَب
يا دهرُ أفجَعْتَ قلبي بالنَوَى زَمَنَا

لـو أنـصف الدهـرُ مـا فارقـتكم أبـدَا ... ولا رَضِيـتُ سِـواكم فـي الهـوى أحـدَا
لـم يُـبْقِ لـي بُعْـدُكم صبْرًا ولا جَلـدَا ... و الـنوم عـن مُقلتـي مـن بعـدكم شَـرَدَا
وقد حُرِمْتُ لذيذَ العَيْش والوَسَنا

هَـلا كفونـي أهَـيْل الحـب هجـرهمُ ... مـا ضـرَّ لـو أنهـم جـادوا بوَصْـلهمُ
ماكنتُ أدري الهوى حتى عرفتهمُ ... وعبرتـي مـا رقـت مـن بَعْـد بُعْـدِهمُ
والقلبُ في حبّهم ما زال مُرتهنا

يـا حاديَـيْ ظعْنِهم نحـو الـديار قِفـا   نـنـشدْ فـؤادًا بـذاك الحـي قـد تلفـا
و سـائلاً بزُبـى نجْـد لمـن عـرفـا   قـولا لهـم ذلـك المـشتاق قـد شـغفـا
و قلبه بأليم الشوق قد طُعِنا

هـل مُخبِـرٌ كيـف أحبابي ومـا صنعوا   أبالحِمـى خـيَّموا أم عـنه قـد رجعـوا
ساروا بقلبي وشملي بالنوى صدعوا   يـا ليت شِعْري بذاك القلب هـل قنعوا
أم هل أبشر في نجد بألفتنا

يـا هاجـرين وهجـر الـصب مـا وجـبا   أبْعدتمونـــي ولـــم أذر لــــذا سَـــبَبا
وصرتُ في حَيِّكم مـن جملـة الغربا   وقلـتُ يـا دَهْـرُ جُـدْ لـي بالرضـى فأبـى
يا دهرُ هلا كفتك اليوم فرقتنا

شـدوا عـشِيَّة يـوم البَـيْـن وارتحلـوا   ولا دَرَى الـصب بعـد البَـيْن مـا فعلـوا
هـل بالنقـى خـيَّموا أم بالحِمَـى نـزلوا   ناديْـت مـن شِـدة الأشـواق يـا رجـل
رُدَّ[10] الركاب فإن القلب قد ظعنا

أنـا المَـشوق فهـل خِـلٌّ يـساعدني   علـى الـبكاه مَـدَى الأيـام والـزمن
قـد خانني فيكمْ مَـن كـان يَألفني   لعــلَّ دَهْــري بكـم حِيـنًا سَـيَجْمَعُني
فيشتفي قلب صب بالغرام فَنَى

لقـد أضـرَّ بقلبـي لاعِـجُ الـوَهَج   وقــد مَـزَجتُ بدمعــي كـل مُمْتـزَج
والـشوق أثـر فـي الأحـشاء والمُهَـج   فـالله يعقـب بعـد العُـسْر بالفـرَج
فيُسْعِد السَّعْدُ والأيامُ تجْمَعُنا

مـا كـان أحْسَنَ عهـد بالحِمـى سلفا   وطـيبَ عـيْش حَلالـي وزدْهُ وَصَـفا
ضيَّعْت عُمريَ في التسويف وَا أسَفا   فهـا أنـا بعـد شـمْل كـان مُـؤتلِفا
أبكي الربوع وطورًا أندب الدِّمَنا

كـم ذا أكابـد حَرَّ الـشوق فـي كـبدي   وكـل شـيء بعَـوْن[11] الـواحِدِ الـصَّمَدِ
يـا نفـسُ لا تـرجُ غيـرَ الله مـن أحَـدِ   يُغنيك عـن عُـدَدٍ فـي الحـرب أو عَـدَدِ
فلم يزل بجميل اللطف ينصرنا

Scanned by CamScanner

رحماك يا رب إن الذنب من قِبَلي فوَفق العبدَ للإخلاص في العَمَل
وهَبْ له فرَجًا، يأتي على عَجَل بحق أحمد خير الخَلق والرُسُل
مَنْ في غَدٍ مِنْ عظيم الذنْب يُنْقِذنا

يا نفسُ لا تقنطي يا نفس واصطبري و لازمي الجِدَّ في ورد وفي صدر
لِزورة المُصطفَى المُختار من مُضر فإن ختمت بهذا منتهى عُمُري
فقد ظفرت بعِزّ دائم وهَنا

وهبت نفسيَ للحادي إذا قَبِلا كي أبلغ القلبَ من ذاك الحِمى أملا
وأبْصِرَ البيتَ والأركانَ والحِللا أطوف سبعة أشواط به رملا
و أنثني لمِنى قد حُزتُ كل مُنى

يا أكرم الخَلق عند الله منزلة كم لي أرُوم إلى مَغْناك مرحلة
لكنْ أمورٌ عَدَتني عنك مُعْضِلة منها ذنوب غدتْ للظُهر مُثقِلة
وما من الحكم ربُّ العرش قلدنا

يا رب عبدُك موسى ذنبُه عظما فهبْ له العفوَ جودًا والرضى كرمَا
وارحم ضراعته ياخيْرَ مَن رحما يا رب لا تبعد الجاني بما اجترما
أنت الغَنِيُّ وما للخَلق عنك غِنى

أهلا بمولِدِ خيْر الخلق حينَ بَدَا وفاض منه على الآفاق نورَ هُدَى
أرجو شفاعته يوم الحِساب غَدَا يا رب صَلِّ عليه دائمًا أبدا
ما صافحَ الريحُ رَوْضًا أو ثنى غصنا

وللطبيب الحاج[12] أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي موشحة، وهي هذه:

يا ريح صَبّ بان عنه الشبابْ وأودعُوا لهيبَ وجْدٍ عندما ودَّعوا
أوْدَى به الوَجْدُ وفرْط الجَوى
وهدَّ منه الشيبُ كل القوى
ولا له مِمَّا اعتراه دَوا
مَن فقدَ الأحبابَ[13] مثلي وشابْ ما ينفعُ إلا ليالي الوصل لوْ ترجعُ
آهٍ لأيام الصِبا لو تُعَـ ـ ـ ـ ذ

كــــأنَّ بهـــا قـــد لاح بـــذرُ الـــسُّعوذْ
تـــرى بهـــا رَيْـــبَ الـــزمان يعـــوذْ
لهفي عليها ما لها من إيابْ فالأدْمُعُ تنهلُ، والأجفان لا تهجَعُ
ذِكـــري لأيـــام الـــصِّبا لا يفـــيذْ
فمـــدح مـــولانا الإمـــام الـــسعيذْ
أَوْلـــى وأخـــرى فهـــوَ بـــيْتُ القـــصيذْ
له ملوك الأرض كلا[14] تَهابْ وتَخْضَعُ من مِثله حُقَّ لها تَجزَعُ
إنْ ذكِـــرَ الأجْـــواد فهـــوَ الغمـــامْ
أو عُـــدِّدَ الأبطـــال فهـــو الهمـــامْ
أو ســـألوني قلـــتُ موســـى الإمـــامْ
الماجد الأسمى المنيع الجنابْ الأمنعُ عَن مُلكِه الثابتِ لا يُدفعُ
أهْـــل تلمـــسان بـــه آمنـــينْ
أكـــل وشـــربٌ وقـــرار مَعـــينْ
قـــال بهـــا شَـــخْصٌ مـــن التائبـــينْ
اش يخشدوني ويقولوا لي[15]تابْ آش يطمعُوا أنا[16] كنترك عشقي أو نقطعُ

وكان محمد بن عثمان المذكور، بعد كائنة أنجاد، ورجوع عبَيْد الله إلى طاعة أمير المسلمين، فرَّ بذمائِه[17] إلى تاوريرَت، مُتَذَمِّمًا بمَن فيها من الجيوش المرينية، فاستبانَ لسلطان المغرب، من عناية الله تعالى بهذا الخليفة، الصباحُ، وتحقق ألا جَدْوَى لمكابرته، ولا ثَمَرة تجْنى من محاربته، واتضحت لديه براهين فضله عن سائر عَترَتِهِ، كمالَ خِلال، ووفاءَ عهد، وجمال سِيرة.

وهل يبقى على الأذهان[18] شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليل

فثقفَ محمد بن عثمان بتاوريرت، وأمَرَ الشيخ ونَزْمار بن عريف بأن أوْغَرَ إلى أمير المسلمين[19] أبي حمُّو، أيده الله، ببعث ولده لاستقضاء الصلح منه، رغبة من بَأوِه في الطهارة، وجنوحًا إلى السِّلم، ولم تأبَ ذلك سياسة أمير المسلمين، أيَّده الله، فتوجَّه المولى الأميرُ أبو تاشفين أعزَّه الله

Scanned by CamScanner

إلـى المغـرب، فـي أواخـر شـهر ربـيع الأول، مُـزفقًا بالـشيخ أبـي موسى عِمـران بـن موسـى وأعـلام ذوي تجلـة مـن عـبد الـواد بهدِيَّـة مـن عِـتاق الخيل المُـسَوَّمَة، وأعـدَّ ملـك المغـرب الـسلطان أبـو سـالم لإنـزالهم الـدُّورَ الـرحبة والفـرش المـرفهة والقِـرى الجـزيل، وأركـب للقـائهم يـومَ الوصـول أعـلامَ دولـته وكِبارَ قبِيلِه، واحـتفل للـسلام علـيهم كـل احـتفاله، ومهَّـد للأمـير أعـزَّه الله تعالى أريكـة بـإزاء سـريره، ودخلـوا فـتلقاهم بالتـرحيب والبِـشْر، وبالـغ لهـم فـي الإكرام والإكبار، وأظهر لهم الفرح، وبسط الآمال.

وانقـضى المجلـس الجمهـوري، فـدخل بالأمـير أعـزه الله إلـى قـصره، وأطافـه علـى مَقاصـيره إغـياءً فـي بـرِّه، واسـتجلابًا لأنـسِه، وحَـلا لحُبَـى تـرفيعه، وتقمُّـنًا لمَـسَرَّة مـولانا أمـير المـسلمين أبـيه فـيه. فلمَّـا انتهـى أمَـدُ القِـرى، وانعقـد الـصلح علـى الحـدود القديمـة والـشروط المألـوفة، كافـأ الـسلطان أبـو سـالم على الخَـيْل المُهْـداة إلـيه بأضْـعافها مـن الأعـلاق النفيـسة والـبِغال الفارهـة، وأرسـل بـذلك الـشيخَ أبـا يعقـوب ونـزْمار بـن عـريف ومحمـد بـن الـنوار مـع المولـى الأمير أبـي تاشـفين، فانـصرفوا عـنه بمِـلْءِ صـدورهم حـبورًا، ووَقـدِ أقـتادِهم حَـباءً، لـولا ضَنه على الأمير أعزه الله بوهران بعد سؤاله إياها منه.

فقدِمـوا علـى بـاب مـولانا أمـير المـسلمين، أيـده الله، فـي أوائـل جمـادى الأولـى[20]، والـصدورُ لهـا وغـرٌ[21]. فكـتب إلـيه الخلـيفة أيـده الله شـاكرًا فعلـه، ومُعـيدًا القـول فـي شـأن وهـران، لِمُـصاقبَة[22] العـدو فـيها كـورَةَ الحـضرة، وإطلالِـهِ بهـا علـى دار المُلـك، وإشـجائها صـدر الدولـة. فأرسـل إلـيه بمـنعِها عمَـرَ بـن عـبد الله بـن علـي اليابانـي. فاحتفـى أميـرُ المـسلمين أيـده الله بـه، وبالـغ فـي كـرامته، ونـصب لـصَيْدِ هـواه شـركَ المَكائـد إلـى أن اسـتألفه، فأعطـى المَقـادة فـي مباطـنة الخلـيفة، أيـده الله، بإعمـال الحـيلة فـي غَـدْر مُرسِـلِه، وكـان شـهمًا جـريءَ الجَـنان مِقـدامًا. فأجـزل أيـده الله إحْـسانه، وصَـرَفه مُعيدًا الكـتبَ معـه في شـأن وهـران، وقـد تكـدَّر صَـفوُ الـسِّلم بسَبَبِها. فواصـل الخلـيفة، أيـده الله، الأمير

Scanned by CamScanner

محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرَج بن إسماعيل بن نصر المتغلب حينئذ على مُلك بني الرئيس فرج بن نصر بغرناطة، ولاطفه في صَرْف الأمير عبد الحليم ابن الأمير أبي علي ابن السلطان أبي سعيد ابن السلطان أبي يوسف بن عبد الحق إليه، كي يُعينه على مَلك[23] المغرب، فأجابه إلى ذلك. ثم ظهرتْ لأمير المسلمين أيده الله، في وهران، الغرَّة، فلم يبال في اهتبالها بما يكون، ورحل نحوها في الخامس من شوال، فنازلها ثلاثا[24] ودخلتها[25] عنوة سيفِه في يوم الاثنَيْن ثالث عشر شوال، وأمْسَك قائِدُها علي بن أجانا قَصَبَتها يومًا وليلة، ثم أسلمها من الغد مستأمِنا لنفسه. فهدَّم أمير المسلمين أسوارها، وقَفَل إلى دار مُلكه، فدخلها يوم الاثنين تاسع عشر شوال. وفيه وَرَد على بابه الكريم أسماه الله الشيخ ونزْمار بن عريف وسليمان بن عامر بن فتح الله رسولَيْن من قِبَل ملك المغرب بتسليم الجزائر له، فتأزَّرَ النصرُ وعزَّ. وتَسَنى الفتح وبان، والمِنة لله لا لغيره. ومضى سليمان بن عامر المذكور بكتاب ملك المغرب إلى قومه بالجزائر المرؤوسين بعلي[26] بن يعلى وشعيب بن وادرار، بأن يخرجوا عنها لأمير المسلمين، أيده الله، ووصلهم. فتسلم البلد من أيديهم المولى[27] أبو يعقوب، رضوان الله عليه، في اليوم الثامن لذي قِعْدة. وانصرف بنو مرين الذين كانوا بها إلى باب[28] أمير المسلمين، أيده الله.

وفي ليلة تعريسهم بتِيط ان وَشْقوف[29]، آخر ذي قعدة راح الخبر إلى الخليفة أيده الله بثورة عمر بن عبد الله المتقدم الذكر على سلطانه أبي سالم بدعوة أخيه المعتوه أبي عمر وقتله، ومن غدٍ دخلوا الحضرة الكريمة. وفي الغرَّة من ذي الحِجَّة، ورد على الحضرة الكريمة الأمير عبد الحليم ابن الأمير أبي علي المستقدم من غرناطة كما ذكرناه آنفًا، فلقي الجميع بالباب العلي من البرّ والإكرام، وخفض الجناح، وإرحاب المنازل والقرى، ما لم يكونوا يحتسبون. ثم قدم على باب الخليفة أيده الله محمد الشيخ ابن

Scanned by CamScanner

موسى بن إبراهيم اليرنياني[30]، من خواص خدمة ملك المغرب، طريد خوف، فمدحه بقصيدة طويلة أولها[31]:

تطاول دائي[32] فاستفزَّ منامي ... وطال شهادي فاستطال سقامي
وحرَّم سبعًا ليس للنفس بعدها ... مُقام فطِيب العيش جدّ حرام
منامي وعقلي، وفؤادي وعبرتي[33] ... وصبري ولبّي، والتذاذ طعامي

ومنها يخاطب بريده:

وجُز بالفيافي فدفدًا بعد فدفدٍ ... وحاذِرْ ولا لا ترعَوي لمَنام
فإن جئت مولانا فرحلك حطه ... ببابهمُ الأعلى وبُث سلامي
ونادِ بأغلى الصوت من بعد ماترى ... مُحَيًّا إمام فاق[34] كلَّ إمام
لِمُوسَى تخاضَعَتْ رقابٌ لعِزِّه ... فكان لدين الله خيرَ إمام

فأجابه مولانا أمير المسلمين، أيده الله، بقوله:

تذكرت أطلال الربوع الطواسمِ ... وما قد مضى من عهدها المتقادِمِ
وقفت بها من بَعْد بُعْد أنِيسها ... بصبْر مُنافٍ أو بشوق ملازم
أهيم[35] بمغناهم وأندب[36] رَبْعَهم ... وأيُّ فؤاد بعدهم غير هائم
تحِنُّ إلى سَلمَى ومَن سَكنَ الحِمَى ... وما حُبُّ سلمى للفتى بمُسَالِم[37]
فلا تندب الأطلال واسأل عن الهوى ... ولا تغْل في تذكار تلك المعالم
فإن الهوى لا يستفِزُّ ذوي النهى ... ولا يستبي إلا الضعيف العزائم
و كل فتى أعطى الغرام قياده ... و بات على ضيْم فليس بحازم
وما[38] فاز بالعليا سوى كل ماجد ... مشمِّرساق العِزِّ[39]ماضي العزائم
صَبورٌ على البلوَى طهُور من الهوى ... قريبٍ من التقوى بعيدِ المآثم
ومَن يبغ إدراك المعالي[40] ونَيلها ... يُساوِ بحُلو الشهْدِ مُرَّ العلاقِم
ولائمةٍ لمَّا ركبْنا إلى العلى ... بحارَ الرَّدَى في لُجّه[41] المُتلاطم
تقول بإشفاق أتنسى هوى الدمَى[42] ... وتنثر دُرًّا من دموع سواجم
إليك فإننا لا يَرُدُّ اعتزامُنا ... مقالة باكٍ أو ملامة لائم

Scanned by CamScanner

ألـم نـدر أن اللـؤم لـؤم وأنـنا لنجتنب اللـؤم اجتناب المحـارم

فما بسوى العلياء همنا جلالـة إذا هـام قـوم بالحسان النـواعم

بروق السيوف المشرفيات والقنـا أحـب إلينا مـن بـروق المباسـم

وأحسن من قـدّ الفتـاة وخـدّها قـدود العوالـي أوخـدود الصوارم

وأمّا صهيل السابحات لدى الوغى فأشجى لدينـا مـن غـناء الحمـائم

إذا نحن جرّدنا الصّوارمَ لـم تعُـذ لأغمادهـا إلا بحـزّ الغلاصـم[43]

نواصل بين الهندِ والهام[44] والطلى بتفريق ما بين الطلى والجماجم[45]

فيرغب منا السلمَ كل محارب ويرهب منا الحربَ كل مسالم[46]

نقود[47] إلى الهيجاء كل مُضمَّر ونقدِم إقدامَ الأسود الضّراغم

وما كل مَن قاد الجيوش إلى العدى يعـود إلـى أوطانـه بالغـنائم

وننصر مظلـومًا ونمنـع ظالمًـا إذا شيك مظلـوم بشوكة ظـالم

ويأوي إلينا المستجيرُ ويلتجي فيحميه منـا كـل ليث ضُبارم

ألـم تـرَ إذ جـاء الشُبَيّعُ قاصِـدا إلـى بابِنا يَبْغِي التماسَ المكارم

وذلك لمّا أن جفـاه صِحابُه وكـلُّ خليـل ودُّه غيـرُ دائـم

وأزمـع إرسـالا لدينا رِسـالة بإخلاص وُد[48] واجب غير واجم

وكان رأى أن المَهامِـهَ بيننـا فخلى لذات[49] الخفّ ذات المناسم

وقال ألا هل من عليم[50] مجرِّب أبث لـه مـا تحت طـيّ الحيازم

فيبلغ عنـي الآن خيـر رسـالة إلى خير أعلام الملوك[51] الأعاظم

على ناقة وجناء كالحرف ضامر تخيرتها بين القلاص الرواسم

من الـلأء يظلمن الظليمَ إذا عدا ويشبهنه في جيده[52] والقوائم

إذا أتلعتْ فوق السحاب جرانَها[53] تخيّلتها بعض السحاب الرواكم

وإن هملجتْ بالسير في وَسْط مَهْمَهٍ تراءتْ كمثل البرق لاح لشائم

ولـم يأمَن الخِلانَ بعد اختلالهم فأمسى وفي أكباده أي جاحم[54]

فقالوا فخِلها الحمائمَ قال لا لبعد المدى أوخوف صيد الحمائم

Scanned by CamScanner

وما القصد إلا في الوصول بسرعة   فقالوا فحَمِّلها أكف النواسم[55]

فقال لينغمَ المرسَلات وإنما   لها ألسن مشهورة بالنمائم

وكتبِيَ[56] زهرٌ في كمائم طِرْسِه   وبالريح يُفشى سِرُّ زهر الكمائم

فلم يُلفِ فيها للأمانة موضعًا   وكل امرئ للسِّرِّ ليس بكاتم

فحينئذٍ وافى إلينا بنفسه   فكان لدينا خيرَ وافٍ وقادم

يجوب لنا البيداء طوعًا وبشرنا   يُضيء له الظلماء من كل عاتم

لاب العلا يَسْري مع الوَحْش في الفلا   ويصحب منها كل باغ وباغم[57]

على سلهَبٍ ذي صهوَتَين مُطَهَّم   من الصافِنات المُقرَبات الصلادِم

إذا شاء أيَّ الوحش أدركه به   فتحسبه في البيد بعض النعائم

ويقدمه حُبًّا[58] إلينا رجاؤه   حمايتنا إياه من كل ظالم

ألا أيها الآتي لظِلِّ جنابنا   نزلت برحب في عراض المكارم

وقوبِلتَ منها بالتي أنت أهْلُه   وفاض عليك الجودُ فيْضَ الغمائم

وهذا جواب عن نِظامك إننا   بعثنا به كاللؤلؤ المتناظم[59]

ونحن ذوُو التيجان من آل هاشم   لعمرك ما التيجان غير العمائم

بهمتنا العليا سمونا إلى العلى   وكم دون إدراك العلى من ملاحم

شددنا له أزْرًا وشدنا بناءه[60]   بأوثق أركان وأقوَى دعائم[61]

نظمنا شتيتَ المُلك بعد افتراقه   و كم بات نهبًا شمله دون ناظم

ورُضْناجياد[62]الملك بعد جِماحِها   فذلتْ وقد كانت صِعابَ الشكائم[63]

مناقِبُ زيانية مُوسَوِيَّة   يذِل له عِزُّ الملوك القماقم

يُقصِّرُ عن إدراكِها كل مُبتغ   ويعجزُ عن إحصائها كل ناظم[64]

فلله منا الحمد والشكر دائمًا   وصلى على المختارمن آل هاشم

ويختصُّكم منا السلام الأثير ما   تضاحك روضٌ عن بكاء الغمائم

Scanned by CamScanner

وبعد موسم الأضحى انتبذ كافة مرين عن عمر بن عبد الله المتغلب على مَلِك المغرب، قائمين بدعوة الأمير عبد الحليم، وبعثوا رُسُلهم لاستقدامِهِ من تلمسان، فكساه مولانا أمير المسلمين، أيده الله، شارة المُلك، وأمر بني مرين الواصلين من الجزائر ببيعته، وقدم محمد السبيع لوزارته، وأحسن إليه وإليهم بالمال العديد والكِسَى المفخمة والمَراكب الفارهة والعُدَد المُحَلَّاة، وركب نصره الله لوداعهم خارج البَلد، فانصرفوا عن بابه يوم السبت لذي حِجَّة مُصْحَبين بحِصَّة وافرة من قبيل عبد الواد أعزَّهم الله، أجازَتهم واديَ مَلويَة وانثنتْ، فراحوا إلى مَغْربِهم، كما قال[65]:

وعاجوا فأثنوْا بالذي أنتَ أهْلُهُ ولو صَمَتوا أثنَتْ عليك الجَنائِبُ[66]

---

(1) ع: أداهم.

(2) ع: فبلغه فيه.

(3) ع: نصره الله.

(4) ل: فلو.

(5) ع: أيده الله.

(6) ع -: المرحوم.

(7) ع: الضخم.

(8) ع: سُننه المعتادة.

(9) كذا في جميع النسخ، أي ظللت.

(10) ب، ل، ط: ردوا.

(11) ب، ل، ط: بعين.

(12) ع -: الحاج.

Scanned by CamScanner

(13) ع: الخلان.

(14) ع: طرّا.

(15) ل، ع: ويقول لي.

(16) ع: أني.

(17) ع: بذمامه. والذماء يعني: بقية الروح.

(18) ع: وليس يصح في الأفهام.

(19) ع: خليفة الله.

(20) كذا في س؛ الأولى: ساقط في جميع النسخ الأخرى.

(21) كذا في س؛ وغر: ساقط في النسخ الأخرى. ويقال: وغِر صدره على فلان أي توقد عليه من الغيظ. ولعل المعنى أن الصدور غاضبة لفشل طلب تسليم وهران.

(22) ل، ب، ع: إضاقة.

(23) ع: تملك.

(24) ع: ثلاثة أيام.

(25) ع: ودخلها.

(26) س: ورئيسًا بهم علي.

(27) ع +: المقدس.

(28) س -: باب.

(29) ع: بتيط وشقوف؛ ز، ط: وفي ليلة نزولهم تطاون وشقوف.

(30) ع: اليرنياتي.

(31) س: منها.

(32) ع: ليلي.

Scanned by CamScanner

(33) ع: والفؤاد وسلوتي.

(34) ع: فوق.

(35) واسطة السلوك (المخطوط): تهيم.

(36) واسطة السلوك (المخطوط): تندب.

(37) هذا البيت ساقط في ع وفي جميع نسخ بغية الرواد المخطوطة.

(38) واسطة السلوك: فما.

(39) واسطة السلوك: الجد.

(40) وفي زهر البستان ومخطوط واسطة السلوك: ومن يبغ درك المعلوات.

(41) واسطة السلوك: في لجها.

(42) مخطوط واسطة السلوك: الدنى.

(43) الغلاصم: جمع غلصَمَة، وهي اللحم بين الرأس والعنق.

(44) هذه الكلمة غير واضحة في مخطوط واسطة السلوك، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(45) لم يرد هاذان البيتان إلا في واسطة السلوك.

(46) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

(47) وفي واسطة السلوك: نعد.

(48) ع: برد جديد.

(49) واسطة السلوك: بذات.

(50) نفسه: وقال لامري من حليم.

(51) نفسه: تؤدى إلى خير الملوك.

(52) نفسه: في جريه.

(53) أتلعت الناقة في سيرها: مدت عنقها متطاولة، وجران البعير: عنقه.

Scanned by CamScanner

(54) هذه الأبيات الثلاثة ساقطة في بغية الرواد.

(55) النواسم يعني: الرياح.

(56) وفي واسطة السلوك وزهر البستان: كتابي.

(57) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

(58) وفي واسطة السلوك: طوعًا.

(59) هذا البيت ساقط في ع وفي جميع نسخ بغية الرواد المخطوطة.

(60) زهر البستان: شددنا لها أزرًا وشدنا بناءها.

(61) وفي زهر البستان: وكم مكثت دهرًا بغير دعائم.

(62) في زهر البستان: جياح؛ وفي واسطة السلوك: عياد. ولعل الصواب ما أثبتنا.

(63) هذا البيت ساقط في ع وفي جميع نسخ بغية الرواد المخطوطة.

(64) هذا البيت ساقط في ع وفي جميع النسخ المخطوطة لبغية الرواد.

(65) كما قال: ساقط في ع، ومعوض بما يلي: وكملت السنة ولله درّ القائل.

(66) ب، ع: الحقائب. والجنائب يعني: الخيل.

Scanned by CamScanner

سنة ثلاث وستين وسبعمئة

في هذه السنة المباركة اجتمعت لهذه الدولة العلية أسباب الخير، وتأسَّسَتْ بها[1] قواعد المُلك، وارتفعَتْ نحوَها[2] أعلام الظهور، وامتطِيَتْ فيها صَهوات العِز، فتوطدت الخلافة، ودنا من أمانيها المَنال، وبَعُدَ للفخر الصِّيتُ، ولمَّ القبيل شعثه، وجَبَرَ الله تعالى صَدْعَه، كل ذلك بسعادة أمير المسلمين[3] وخليفة رَبِّ العالمين أبي حَمُّو أيده الله، وفضْلِ سياستِهِ، ويُمْن آرائه، ونفوذ عزماته.

إمامٌ يخاف الله سِرا وجهرة ... ويُضْمِرُ تَقوى الله في الحَلِّ والعَقد

يفرِّق ما بين الجماجم والطُّلى ... ويجمع بين الشَّاءِ والأسَدِ الوزد

وتعرِفُ أطرافُ الرماح بلاءَهُ ... مُشِيحًا وأطرافُ المُطهَّمَة الجُرْدِ

يَعُدّ لأطرافِ العِدى كل ليِّن الـ ... ـمَهَزِّ قويم المَتن مُعْتدل القَدِّ

و ذي شطَبٍ كالماء يجري صِقاله ... وسابحَةٍ شمطاءَ كالحجر الصَّلدِ

فيُفري بها[4] قبل اللقاءِ مهابة ... ومن عجب أنْ يقطع السيفُ في الغِمْدِ

فآل إلى تدبيره الرَّأيُ[5] وادِعَ الـ ... ـعزيمة من غيرِ اعترافٍ[6] ولا كدِّ

وحَلَّ بدارالأمْن والخِصْبِ يَرتعِي ... رياضَ الهُدَى والجودِ في مسْرَح المَجْدِ

وفي الحادي عشر من شهر ربيع الأول المبارك وصل إلى بابه العلي أبو يِشُّو بن عبد الله بن الناصر وإدريس بن بَزُّو، في جمع وافر من قبيلهما بني عسكر، فارِّين من المغرب. وأظلتْ ليلة الميلاد، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام[7]، فكان الاحتفال لمَدْعاها المبارك عظيمًا. فممَّا أنشدَ مُسْمِعُها لمولانا الخليفة، أيده الله، قوله:

مَشُوقٌ تزَيَّا بالغرام وشاحَا ... متى ما جرى ذكرُ الأحِبَّةِ باحَا

تعَذِّبُهُ أشجانهُ وهْوَ صابر ... ويُبْدي اشتِياقًا زَفْرَة ونواحَا

محب مشوق قيَّدته يَدُ الهوى ... أسيرٌ لديكم لا يريد سَراحا

Scanned by CamScanner

عذابي صلاح في رضاكم فإنكم رأيتم صُدودي في الغرام صلاحا
رمَيتم بأكبادي سِهامَ نواكُمْ وأودعتمُ قلبي أسًى وجِراحا
فتكتم بألحاظٍ مراض فواتر لقد خِلتها يومَ الصدود رماحا
تقطَّع ما بين الحَشا وبمُقلتي دموعٌ جرَتْ فوق الخدودِ سِفاحا
ركبْتُ إليكم مركبَ الشوق رانضًا كما قد ركبتم للصدود جماحا
مَزَحتم بهجري يومَ جدَّت بيَ النوى فعاد النوى جدًّا وكان مِزاحا
وسُلَّتْ سيوفُ البَيْنِ بيني وبينكم فلم يُغْنِ عني ما اتخذْتُ سِلاحا
أهِيمُ بمَغْناكم وأنْدُبُ رَبْعَكم ويَشْتاقكم قلبي مساءً صَباحا
أكافح دَهْري بالتجَلد فيكم وأفني زَماني بالغَرام كِفاحا
فلا تنكِروا مني التَّنَهُّدَ في الهوى فلم يَرَ أهلُ الحب فيه جُناحا
لكلِّ مُحِب في التأوُّهِ راحة إذا أنَّ من فَرْطِ الغَرام وناحا
فكم زَفرَة في القلب أحرَقَت الحَشا كنار تلاقي في الهُبوبِ رياحا
أبَحتم صُدودي في الغرام ولم تَرَوْا وصاليَ في شَرْعِ الغرام مُباحا
وحُرْمَةِ(*) وَجْدي لا سَلوْتُ هَواكمُ ولا رُمْتُ عنه ما حَيِيتُ بَراحا
أجود بنفسي في رضاكم صَبابَة فهلا مَنَنْتمْ بالوصال سَمَاحا
يخُطُّ كتابُ الشوق دمْعي بوجنتي و يَرْوِي أحاديثَ الغرام صِحاحا
جُفوني بماء الدمْع جادت وأضْلعي بنار غرامي لم يَزَلْنَ شِحاحا
وكم قد شَجاني بارقٌ مِنْ جَنابكم يُذَكر دَهْرًا بالأحبَّة راحَا
ألا ليت شِعْرِي هل أزور بطيبةٍ رُبوعًا بها حَلَّ الهُدى وبِطاحَا
أسَكِّن أشواقي بِقُرْبِ لِقائهم وأنْشُدُ قلبًا بالأبَيْطِحِ طاحا
لعَمْري لقد قَضَّيتُ عُمْرِيَ في الصِّبا وأجْرَيْتُ خيْلِ اللهو فيه مِراحا
وولَّى شبابي في التَّصابي ولاحَ لِي مَشِيبٌ به عادَ المَساءُ صَباحا
فيا حادِيًا يَحْدو الرِّكابَ لِطيبةٍ يجوبُ بها بحرَ الفلاة طِلاحا
إذا جِئْتَ نَجْدًا أو نَشَقتَ نَسيمها وشِمْتَ غَرارًا رَبْوَةً وبِطاحا

Scanned by CamScanner

فصرّخ بذكري في الخيامِ وأهلِها وناشِدهُمْ شوقي هناك صُراحا
وبلّغ إلى خيرِ الأنام تَحِيّتي كما نَمّ زهْر في الرياض وفاحا
نَبِيّ لـه فَضل على كلّ مُرسَلٍ أتَتْ ألسُنُ الذِّكرى بذاك فصاح
سَرى فسَما بالقرب من ربّهِ إلى مَقام رأى الأفلاك عنه نزاحا
وشُقَّ له البدرُ المنيرُ وقد غدَوْا له لا إلى البدر المنير طماحا
إذا ظَمِئَ الأقوامُ يومًا سقاهُمْ بماء مَعين بالأنامل ساحا
بمولِدِهِ صُبحُ الهداية قد بَدَا فزال به ليل الضّلال وزاحا
وأشرقت الآفاقُ بالنور عندما بَدا وجهُ خير المُرسَلين ولاحا
ألا يا رسول الله دعوة شَيِّق يُؤمِّل آمالاً لديك فِساحا
مُقيمٌ بِغَربٍ[9] كاد من فَرطِ حُبّهِ يطير اشتياقًا لو أعيرَ جَناحا
وما لي سوى حُبّي إليك وسيلة أمُدُّ بها نحوَ الشّفاعة راحا
عُبَيْدُك موسى منك يَرجُو شفاعة يَنال بها يومَ الحِساب نجاحا
عليك سَلامٌ طَيّبُ النَّشرِ عاطرٌ يَرُوحُ ويَغْدو بُكْرَةً و رَواحا

وللطّبِيبِ الأغرَف أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة[10] التلالِسي موَشّحة سَلِسة، وهي قوله[11]:

شَحِّي أيا مُقلتي وانْهَلِّي بدمْعكِ الواكف المُنهلّ
على شبابي الذي قد ولّى
آهِ لقد بان واضمَحَلّا
فهل لقلبي الشّجِي أنْ يَسْلَى
ما في الذي نالني ما يُسْلِي فَقدَ الشباب وفَقدَ الأهل
بانَ الحبيبُ ووافى الشيبُ
فكيف يَسلو لهذا[12] القلبُ
ترَى لِمَا قد دهاني طِبّ
ما لي وحقّ الهوى من مِثل لا في انتحابي ولا في شكلي

Scanned by CamScanner

تزكـــي لذكـــر الـــصِّبا أولـــى لـــي
ومَـــدحُ موســـى الرِّضـــى أســـمى لـــي
مَـــنْ خُـــصَّ بالفـــضْل والأفـــضال
شَـــهْمٌ جـــواد كثيـــر الـــبَذل بـــه اعتـــصامُ الـــورى فـــي المَحْـــل
بـــه تلمـــسان ذاتُ الحُـــسْن
فـــيما اشْـــتهتْ مـــن مُنـــى وأمْـــن
بغـــداد شـــوْقًا لهـــا تُغَنـــي
أجْـــرَتْ لـــنا مـــن ديـــار الخِـــلِّ ريـــحَ الـــصَّبا عافـــراتِ الـــذيْل
يـــا أيهـــا المَلِـــك المنْـــصورُ
يـــا مَـــن لـــه الأمـــرُ والتأميـــرُ
بنـــصركم قـــد جَـــرَى المقـــدورُ
فـــي مـــدحِكم يـــا زكـــيَّ الأصـــل يـــدي تخـــط وقلبـــي يُمْلـــي

وفي سادس عشر هذا الشهر، وصل إلى باب الخليفة، أيده الله، الشيخ أبو يعقوب وَنزْمَار بن عريف ومحمد بن النوار، رسولين من قِبَل الدائل بالمغرب محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن[13] ووزيره المتغلب عليه عمر بن عبد الله بن علي الياباني، خاطِبَيْن صلح أمير المسلمين أيده الله، فأجِيبَتْ رغبتهما علي شروط، منها سَرَاحُ بني عبد الواد المُثقفين بالمغرب من كائنة أنجاد، وانْصَرَفَا لثمانية أيام من وصولهما.

وفي أواخر[14] جُمَادى الأخرى قدم أيضًا على الباب الكريم عمر بن مسعود التيربيعي[15] والقاضي أبو القاسم بن يحيى[16] البرجي رسولَيْن من المغرب باقتراح أمير المسلمين، أيده الله، في قبيلِهِ، فتمَّ عقد الصلح منه، نصره الله، وانصرف المذكوران بما سألاه أيضًا، وتوجَّه معهما الفقيه العالم أبوعبد الله محمد بن أحمد الشريف ووادفل ابن الوزير المرحوم أبي محمد عبد الله بن مُسلم لاقتضاء الشروط في آخر ذلك الشهر.

Scanned by CamScanner

وفي عاشر رجب بعده، وصل بنو عبد الواد المُثقفون كانوا[17] بالمغرب إلى باب مولاهم الذي أولاهم من الفضل ما أولاهم، في زهاء أربعمئة، قد أخذتْ يَد السياسة بِحَجْزهم عن مهاوي الهلاك، وأنقذتهم كفُّ الهَيْبَة من أشراكِ الارْتِياب. فكان يومًا للفَخار مَشْهودًا، وأثرًا في فذالك حسْبانات المعالي مَعْدودًا، وسِمطًا نَظْمَ منهم بعد الإياس والدًا ومولودًا.

مـا أقـدَرَ اللهَ أنْ يُدنِـي علـى شَـحَطٍ   مَـنْ دارُهُ الحَـزْنُ مِمَّـنْ دارُهُ صُـولُ

وبعدهم بخمسة أيّام وصل الرسولان المذكوران بانعقاد الصلح على أكمل الشروط، واقتضاء نقدِهِ[18] بِثِقاف محمد ابن السلطان المرحوم أبي سعيد، عَمِّ أمير المسلمين أيده الله، دينا رضًى له. فهنالك انجبر صدع القبيل، والتأم شعبه، واشتدَّ في عضُد الخلافة ساعدُهُ. فاعتزَّ الملك وعلتْ مطامحه، وتهللتْ أساريرُ الدولة، وعَلتْ في أوج الكمال كلمتها، وهُصِرَ النصر من أغصَان الذوابل[19]، فتساقط رُطَبُ الفتح جَنيًا، وقرع الحزم أبواب الظهور، فقال التأييد الربّاني: ادخُلوهَا بسلام آمِنِين[20]، وحَذَقَ السَّعْدُ من نحو الزمان بابَ إعرابِه، فرفع أيام الدولة بالابتداء، وخفض عيشَ لياليها بالإضافة.

وكان الأميرُ إبراهيم ابن السلطان الحَفصي مَلِك تونس يومئذ، ومرافق أمير المسلمين أيده الله إلى جريدِ بِلادِه أيام حركة سلطان المغرب إلى إفريقية، كما مرَّ، قد اهتبل الغُرَّة في بجاية، فأخذها من يد مرين مُسْتَجنًا لها بالخليفة أيده الله، واستوطنها مستذريًا كِنَّ أذِمَّته المَرْعِيَّة لدى أمير المسلمين أيده الله، مُتَوَخِّيًا مَراضِيَه، فأفاءَته ظِلالها صِعادَه[21] ومَدَّتْ عليه طنبَها دولته، فنام بها البِطان لا يُهاج صيْدُ حَرَمِه ولا يُخْضَد شجرُه، إلى أن صارتْ الجزائرُ لأمير المسلمين أيده الله، وفرَّ فَلُّ مَغْرَاوَة الذين كانوا بها إليه، فآواهم غيرَ مُرَاع عهدًا ولا حافظًا لِذِمام.

فأعْذَرَ إليه الخليفة مولانا أبو حَمُّو أيده الله[22] في شأنهم، فتصامَمَ هواه سَمْعًا، وأساءَ عُذرَه إجابة. فأمَرَ مولانا أميرُ المسلمين أيده الله قواده الشرقية بِتَحَيُّف وطنِه. ففي أوائل جُمادى الأولى أخذ عمر بن موسى المَطهَري بَلَدَ تَدَلّس من يَدِه عَنْوَة،

Scanned by CamScanner

فاستضافها[23] الملك إلى مخصوله.

وفي الحادي والعشرين من رجب نهض الوزير أبو محمد عبد الله بن مُسلم رحمه الله مُشرِّقًا إلى وطن المذكور بجنودٍ لا تحصى، وعزائم تسابق المدى، فاستضاف لإيالة الخليفة، نصره الله، وطنَيْ حمزة وبني حسن، وجاس خلال الوادي الكبير، ثم عرّج ذات اليسار آخذًا على ثَنِيّة تاغزوت وبيطار، فاستضاف أيضًا زواوة وما إليها، وقبَض على شِيَع الموحدين. ثم أخذ في تمهيد الأرجاء وتوطيد الأحكام وتأمين السُّبُل.

وفي أوائل شعبان، تُوُفِّيَ بمدينة الجزائر والد الخليفة، نصره الله، المَوْلى أبو يعقوب رضوان الله عليه، أعكفُ ما كان على عبادةٍ، وأزْهَدَ ما ريءَ في زُخْرُفِ دنيا، ولَقِيَ اللهَ مالئَ الصحُفِ من الحَسَنات، راجِحَ الميزان بالعِبادات، نَضَّر الله وجهَه، فحُمِلتْ جنازته إلى الحَضْرَة الكريمة، واحتفل الإمام، أعلاه الله، للقائها آخر الشهر المذكور، ومشَى فيها راجِلا، ودفَنه برياض كانت بباب إيلان، استدناءً لقبره منه، ثم نقل إلى جِواره أخوَيْه السلطانَيْن أبي سعيد وأبي ثابت رحمهما الله من مَدفنِهما بالعُبّاد. وشَرَعَ نصره الله لِحِينِه في بناء مدرَسَة وزاوية على قبورهم، وتعْيِين الأوقاف للجرايات[24] بها من العَقار المُنوَّع حاضِرًا وبادِيًا، حسبما هي الآن.

ووصَل من المغرب بالعزاء فيه موسى بن سيد الناس الونجاسني، فشكر الخليفة نصره الله قَصْدَهم، وصرف إليهم رسولهم بخيْر. وفي رثاء المَوْلى أبي يعقوب رحِمه الله يقول ولده مولانا أمير المسلمين أيده الله قصيدة هي قوله[25]:

دَنِفٌ تَذَكّر حسْرَةَ التوْديعِ ... وَهَنِيَّ وَصْلٍ بالنوى مَقطوعِ

ولِما عَرا مِن فَقْدِ خَيْرِ أحِبَّتي ... ومَرارَةِ التوْدِيع والتشْييعِ

فبَكَيْت من أسَفٍ لذاك كما بَكَتْ ... حُزنا عليه مَنازلي ورُبُوعي

وجزعتُ من ألمِ الفِراق ولم أكن ... يومَ الكريهَةِ في الوَغى بجَزوعِ

لم تنْصِفِ الأيامُ حَرَّ فِراقِه[26] ... لكِنه قد أنصَفته دموعِي

عَجَبًا لأجْفانِي سَخَتْ بدمُوعِها ... والقلبُ [illegible] ضُلوعي

هَذي تجود وذا يَشحُّ بِناره ... فَغَنيتُ بالمَمنوح والمَمنوعِ

والبَينُ فوّق سَهمَه ورمَى بِه ... عَمدًا إلى قلبِ الشَّجِي المَوْجوعِ

آهٍ لوَصْل قطّعته يَدُ النوى ... ولِحَسْرَةِ المَوْصول والمَقطوعِ

والدهرُ أفجَعَني وغيّرَ باطِني ... حتى أضرَّ بقلبيَ المَفجوعِ

فعَدِمتُ سُلواني وبانَ تَصَبّري ... وفقدْتُ خِلّاني فزاد نزوعِي

ولكَم خَشِيتُ الفقدَ قبل وُقوعه ... ولكَمْ حَذِرْتُ مَرارَةَ التَّوْديعِ

يامُسْعِدِي أبْصَرْتَ ما فَعَل النَّوَى ... بكريم قَوْمٍ في الترابِ صَريعِ

في طَيّ لحْدٍ في الثرى فكأنه ... ما كان في عِزّ وفي تَرفيعِ

والقَصْرُ أمسَى ماحِلاً من بعده ... ومنازل تزهى بكل صَنيعِ

ونمارق مصفوفة قد زُيّنَتْ ... من دُرّها المنظوم بالترصيعِ

ومَقاصِر لم يُبْنَ قَط مِثالها ... من قبل للمأمون وللمخلوعِ

والأُسْدُ تَخْضَعُ والمُلوك تهابُه ... فَلكَم له من سامع ومُطيعِ

ولكَمْ تَزاحَفتِ الكتائب خلفه ... فيَرُوعُ بأسًا وَهْوَ غيرُ مَروعِ

ولكَمْ عَساكِر قادَها يومَ الوَغى ... مِن كل صِنديدٍ بكل نجوعِ

من خير قومٍ مِن أجلِّ عشيرة ... وأعَزِّ مُنْتَسَبٍ إليه رفيعِ

سِبْط الحُسَنين ابن البَتول وجَدهُ ... خَيرُ الأنام أجَلُّ كلِّ شَفيعِ

مَنْ كان هذا أصله أو فضله ... فله العُلى في منزل الترفيعِ

قد حازَ أشتاتَ المَحاسِن كلها ... فاعْجَبْ لحُسْن ثنائه المَجْمُوعِ

جُودٌ ومَجْدٌ والشجاعةُ والندَى ... والجودُ في طبْعٍ له مَطبوعِ

فبكفه بَأسٌ وفيه رَحْمَة ... قسمان بين مُعانِدٍ ومُطيعِ

عَدل إذا يَقضي وغيث إنْ يَجُدْ ... وحُسامُهُ نارٌ لِكل قَريعِ

قد كان كهفًا للأنام وعُدَّة ... وحِمًى لمَنْ يَرجوه جِدُّ مَنيعِ

حتى دَنا منه الحِمامُ فصَابَه ... سَهْمُ الرَّدَى وانْبَتَّ كل جميعِ

ترَكَ الجَميعَ وسارَ[27] عن أحْبابِه ... لم يُغْنِ ما قد ضَمَّ من مجموعِ

Scanned by CamScanner

لو كان يَعْرِضُ للفداءِ فَدَيْتُهُ | بالدرِّ ثم بعَسْجَدٍ مطبوع
وبما مَلَكْتُ وناظِري وحشاشتي | وبمُهْجتي وبقلبي المصْدوع
قد كان منه لنا أبا ذا رأفةٍ | كنا له في البِرِّ جِدُّ مُطيع
حتى رَمَى الدهرُ المُشِتُّ[28] بسَهْمِه | في شَمْلِنا المنظوم والمجموع
فاحْذَرْ زمانَك لا يَغُرَّك إنهُ | في شَهْدِه يأتي بكل فظيع
وكذلك الدنيا فلا تأمَنْ لها | فلكَم تغُرُّ بوَصْلِها المقطوع
ولكَم غدا في أسْرها مِن ماجدٍ | ولكَم لها مِنْ ضَيْغَمٍ مَصْروع
أيْنَ الملوك وأيْنَ ما قد جَمَّعوا | مِن كل ذُخْر في الحياة رَفيع
ساروا فلم تَسْمَعْ لهم خَبرًا ولم | تَرَ منهُمْ أثَرًا يَلُوحُ بِربيع
وأبادَهُم صَرْفُ الزمان وخلَّفوا | ما جمَّعوا مِن جَنَّةٍ وزُرُوع
لم يَبْقَ منها غيرُ فِعْلٍ صالح | يَمْلا الصَّحيفةَ أو ثنا مَسْموع
أو حُبُّ خيرِ المُرْسَلين محمدٍ | شَرَفِ البَرِيَّةِ دُرَّةِ الترْصيع
صلى عليه الله ما لاحَ الضِّيا | أو خطَّتِ الرُّكبانُ بالينبوع
ثم السلامُ عليه مِنْ مُسْتعْصِمٍ | بحِماه خَيْرَ حِمًى بخَيْرِ شَفيع
موسى بْنُ يوسُفَ مُرْتجيه في غَدٍ | للفوز من هَوْلٍ هُناك فَظيع

وفي ذلك يقول الفقيه أبو عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي الثغري[29] قصيدة هي قوله[30]:

المرءُ في الدنيا رَهينُ خُطوبِ | والدهرُ أفصحُ من خِطابِ خطيبِ
مَنْ صاحَبَ الدنيا الدنيَّةَ لم تَزَلْ | تأتيه بالمكروه في المحبوبِ
ومُؤَمِّلُ الأيام ليس بحاصلٍ | إلا على أمَلٍ بها مكذوبِ
دنيايَ مثلُ الحُلْمِ في التجريبِ | ولِغايةٍ مجهولةٍ تجري بي
يا نفسُ[31] خلّي الصبر وادّرعي الأسى | وإذا دُعيتِ فبالوجيب أجيبي
نادي بنادي المجد[32] صَرْخة نادبٍ | أسفًا على المولى أبي يعقوبِ

Scanned by CamScanner

فعليه يا نفسي الكئيبَة فاندُبي ... وعليه يا كبدِي القريحَةِ ذوبي
أسَفًا لمَنْ فَاق المُلوك جَلالة ... ودِيانة وبكل فضل حوبي
جَمَعَ الفَضائل باخْتِلافِ ضُروبها ... فغَدا بها فزدًا بغَيْر ضَريبِ
أغظِمْ به مِنْ زاهِدٍ ومُجَاهِدٍ ... ومُنِيلِ رَفدٍ تارَة ومُنِيبِ
مَنْ دَأبُه الدينُ المَتينُ ولم يزَلْ ... مِنْ كل فضْل آخِذا بنصيبِ
مَنْ كان جيشُ الموتِ يخدمُ سَيْفه ... أوْدى بجيشٍ للمَنون عَصيبِ
أوْدى فلم نَمْلك له من حِيلةٍ ... أعْيا دواءُ الموتِ كل طبيبِ
وأصِيبَ مَنْ كان الزَّمانُ مُطِيعَه ... أبَدًا بسَهْمٍ للزَّمان مُصِيبِ
هَوَتِ النجومُ الزاهراتُ لفقدِهِ ... وذوَى من الأغصان[33] كلُّ رَطِيبِ
وتغيَّرَتْ شمسُ النهار له أسًى ... وتبدَّلتْ مِنْ نورها بشحوبِ
وبَكَتْ سيوفُ الهِنْدِ في أغمَادِها ... بِدَمٍ بماءِ فِرِندِها مَخْضوبِ
ولقد بَكته جِيادُه بصَهيلِها ... وغدَتْ تَحِنُّ له حَنِينَ النيبِ
وبَكتْ مَحاربُه له وحُروبُه ... مَنْ بَعْدَه لِمَحَاربٍ وحُروبِ
وعَلتْ على وَجْهِ الزمان كآبة ... والبِشْرُ[34] بُدِّل منه بالتقطيبِ
جَفتْ يَنابيعُ الندَى مِن بَعْدِهِ ... والجودُ أجْدَبَ منه كل خَصِيبِ
مَن للوفودِ إذا أوَتْ لِجَنابهِ ... يَلقاهمُ بالبِشْر والترْحِيبِ
أوْ مَنْ يُجِيرُ المُستجِيرَ بظِلِّه ... ويُجِيبُ صَوْتَ الصَّارخ المَكْروبِ
ما زال يغْلبُ كل خَطبٍ غالبٍ ... حتى أتَى ما ليس بالمَغْلوبِ
رزْءٌ رَمَى بين الضلوع شوَاظه ... فأثَارَ كل أسًى وكل نَحيبِ
وتفطَّرَتْ كمَدًا عليه قلوبُنا ... فانْظرْ لأشْباحٍ بغَيْر قلوبِ
وإذا مُصابٌ جَلَّ قَلَّ لِمِثْلِه ... شَقُّ القلوبِ فكيف شَقُّ جُيوبِ
والحُزْنُ وَصْفٌ قائم بالقلبِ لا ... بالثوبِ يُصْبَغ كالدجَى الغِربيبِ
وَلرُبَّ مُكتئِبٍ قليل دَمْعُهُ ... وكثيرِ دَمْعٍ وهْو غيرُ كئيبِ
والحال من ذي الحال قد تنبِي على ... ما في الجوانح من جوًى مشبوبِ

Scanned by CamScanner

قَد يُستَدَلُّ بشاهِدٍ عن غائبٍ ... وبظاهِرٍ عن باطِنٍ مَحجوبِ
يا نازحًا راموا اقتِرَابَ مَحَلِّه ... فغَدَا على التقريبِ غيرَ قريبِ
إنـي لأعْجَبُ من دُنُوٍّ لم يُفِد ... إلا نزوحًا زادَ في تغذيبِ
حَمَلُوه من شَرْق لغَرْبٍ فاغتدى ... كطلوع شمس بادرَتْ لِغروبِ
حَفَّتْ مَلائكةُ السَّماءِ بنعْشِهِ ... والخَلْقُ حول سَريره المَنصوبِ
ومَشَوْا على أقدامِهِمْ قدَّامَهُ ... يَدعون بِالتزغِيبِ والترهيبِ
لَوْ أمكنَ الخَلقَ الفِدا بنفوسِهِمْ ... لفَدَوْهُ طرا من لِقاءِ شعوبِ
فَتعَزَّ يا مَوْلايَ عنه فَإنه ... قد فازَ من مَوْلاهُ بالمَرغوبِ
ومَضَى لرحمَةِ رَبِّهِ مُستبشِرًا ... بثَوَابِهِ والله خيرُ مُثِيبِ
واختارَ دارَ الخُلدِ من دار الفنا ... بَدَلاً كذلك فِعْلُ كل لبيبِ
ولقد أطابَ النفسَ أنَّ وَفاتَه ... في العِزِّ تحت رواقِهِ المَضْروبِ
ومَضى وخَلَّفَ منك[35] خيرَ خليفةٍ ... للخَلق مَرغوبِ الندى مَرهوبِ
ما ماتَ مَنْ أضحى لِمِثلِك مُنجبًا ... يا خيرَ نَجل في المُلوكِ نَجِيبِ
وَجَبَ الرضى لكمُ بِبَرِّكمُ له ... إذ لم تخِلَّ لِبرِّه بوجوبِ
فاسْلَمْ أميرَ المسلمين مُؤَيَّدًا ... تجْري من العليا على أسلوبِ
وبَقِيتَ يا مولايَ مَنْصورَ اللوا ... في ظِل مُلكٍ في الزمان رَحيبِ
وعلى عُلاك تَحِيَّةٌ كالرَّوْضِ من ... عَبْدٍ مُطِيل للثناءِ مُطيبِ

وفيه يقول الطبيب الماهر[36] أبو عبد الله محمد بن أبي جمعة[37] التلالِسي كلمة هي:

كأسُ الحِمام على الأنام تدورُ ... ما إنْ لها إلّا القضاءَ مُديرُ
وكذا الليالي لا وفاءَ لعهدِها ... إنْ أقسَطتْ يَومًا فسوفَ تجُورُ
كم شتتتْ مِنْ جَمْع شَمْل لم يَكنْ ... يَخشى الشتاتَ وكل ذا مَشهورْ
إنْ أضحَكتْ في يومِها أبكتْ غدًا ... فالخيرُ منها إن أتاك غرورْ
فجَعتْ بمولانا الأمير وخَلْفتْ ... [illegible]

كنا نؤمل أن تدوم حياته ... لكنه ثوب الحياة قصير
رزء ألمّ فما له من دافع ... أيرد رزء ساقه المقدور
مولاي يوسف والد الخلفا الذي ... ملقاه خطب في الوجود كبير
ضجت لمصرعه الخلائق ضجة ... كادت بها منا القلوب تطير
كادت تزول الراسيات لفقده ... والشمس تكسف والسماء تمور
قبل الممات نظمت فيه مدائحا ... يقف الحطيئة دونها وجرير
والآن أرثيه وأبكيه بما ... يبدو من الخنساء[31] فيه قصور
يا حامليه قفوا علينا وقفة ... تشفى بها قبل الممات صدور
ردوا الذي حاز المكارم والتقى[32] ... بحر الندى يحيا به المغمور
بكت الأرامل واليتامى بعده ... إذ ما له بين الكرام نظير
لقدومه جنات عدن زخرفت ... وتشوفت ولدانها والحور
مولاي يا موسى الذي بسعوده ... قهر الطغاة وجيشه مؤزور
اصبر إذا جاء الزمان بحادث ... إن التصبر سعيه مشكور
هون عليك أذى الخطوب فإنما ... أنت الأمير ودهرك المأمور
لا تأخذ الزمن المسيء بفعله ... واصفح فإنك بالأمور خبير
إن كان صرف الدهر فيه مذنبا ... فبقاء مثلك بعده تكفير
من أنت تخلفه فحيٌّ لم يمت ... حقا يقينا أيها النحرير
وفيت حق أبيك بعد وفاته ... إن القيام بحقه لبرور
يا أيها الملك الذي أيامه ... قد أقبلت ولواؤه منصور
هناك رب العرش ما خولته ... في المغربين الأمر والتأمير
ما للزمان فضيلة إلا بكم ... إن الزمان إليكم لفقير
وبقيت لا تفنى ولا تخشى ردى ... وجميعنا ببقائكم مسرور
أبقاك رب العرش فينا دائما ... تحمي البلاد وسعدك الموفور
ثم السلام عليك يا من ذكره ... بين الملوك معظم مشهور

ووقفتُ على ضريحِهِ الكريم، فاعتبرْتُ واستعبَرْتُ، ثم خوطبْتُ لأجل ذلك، وأنشدته[40]:

أيا جدَّنا فيه العُلى والمكارمُ	أتبكيك أو تشفيك هذي الغمائمُ
لئنْ بَرَدَتْ ذاك الثرى نفحة التقى	لقد لفحَتْ بين القلوب السمائمُ
وإن أصبحَتْ تلك الصفائحُ روضة	فأغَيْتَنا سُحبٌ عليها سواجمُ
لقد صارَ شخصُ الحِلم والجودِ رِمَّة	وأبقى جبالَ[41] الدين وَهي رمائمُ
وردَّدَ فيه نَوْحَه كلُّ ناطِقٍ	كأنَّ جميعَ العالمين حمائمُ
تَباشرتِ الحُورُ الحِسانُ بقربِهِ	ففيهنَّ أعراسٌ وفينا مآتمُ
فصلَّى عليه الله خيرَ صلاتِهِ	ولا زال منه لابنه الدهرَ عاصِمُ[42]

وفي أثناءِ هذا مع غَيْبَة الوزير أبي محمد عبد الله بن مُسْلِم، فرَّ محمد، ابن عم مولانا أمير المسلمين لَحًا[43] السلطان المرحوم أبي سعيد، من مَحَل اعتقاله الذي ذكرناه آنفًا بالمغرب، ولجأ إلى الأمير عبد الحليم صَنيعَةِ[44] أمير المسلمين، أيده الله، بسجلماسة، فثقفه المذكور أيضًا إرضاءً للخليفة نصره الله. ففرَّ ثانية وأوى إلى خالد ابن عامر بن إبراهيم، وكان يومئذٍ منحرفا عن طاعة مولانا أمير المسلمين لإيثاره أخاه شعيبًا بشياخة قبيله دونه، فآواه ونصره واعتمد به الحضرةَ العَليَّةَ من جانبها القِبْلِيّ، مغتنمًا غيبة الوزير بالجيش المظفر عنها، فصَدَرَ الأمرُ الكريم باستقدام الوزير.

وعاجَل المغرورون الوصول، فلما حَلوا بني وَرْنِيد[45] أنهض الخليفة نصره الله لِحَرْبِهم ولدَه المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين، أسعده الله، والشيخ عمران ابن موسى، بجيش الحضرة في الرابع عشر لشوّال، فهزم الله المخالفين، ومنح أولياء الإمام، خلد الله ملكه، أكتافهم، فأصبحوا مشرَّقين دون تلوُّم، ورجع المولى الأمير إلى دار المُلك يوم العشرين من الشهر بالظفر والعلاء.

وبعد ذلك بيومين، وصل الوزير أبو محمد عبد الله بن مُسْلم بجميع العساكر المظفرة، فلم تثبت لخالد بن عامر وصاحبه قدم، ولا عطفتْ عليهما من القبائل

Scanned by CamScanner

رَخَم، بل رماهما القطر وأهلهُ عن قَوْس واحدة، وأرسل مولانا أمير المسلمين، أيده الله، الشيخَيْن عثمانَ بنَ موسى الطاعلائي[46] ووَادفل بنَ غَبُو بن حمادن، وصاحبَ أشغالِه الفقيهَ أبا زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي بالمال العديد إلى العَرب العامِريَّة، فاستألفوا جميعَها دون خالد المذكور، فخرج هو وصاحبُه من القبيل[47]، وشرَّقا إلى رياح برأسِهما[48]، فأسلم خالد صاحبَه المذكورَ إلى يعقوب بن عليّ بن أحمد، وأوْصله إلى الأمير إبراهيم المُوَحِّد ببجاية، وقفل خالد إلى وطنه وقبيله.

وفي هذه السنة وصل إلى الباب العلي الفقيه الكاتب أبو سالم إبراهيم بن الحاج رسولاً من الأندلس، يطلب من أمير المسلمين أيده الله إرفادَ المسلمين[49]، وإعانتهم على مجاورة عَدوّ الله ورسولِهِ، حسبما جَرَتْ عادته بذلك، فوجَّه معه إليهم بخمسين[50] ألف قدح من الزرع وثلاثة آلاف[51] من الذهب للكراء عليه في البحر. وكان مِمَّنْ وصل معه الفقيه أبو محمد عبد العزيز بن علي بن يشت فرفع لمولانا أمير المسلمين، أيده الله، قصيدتين غرَّاوَيْن، وهما قوله:

عَرِّجْ على الدار من سَلمَى نحَيِّيها	واستوقِفِ العِيسَ في أطلال ناديها
ونادِ يا دارَها بالجزْع مِنْ كثبٍ	حُيِّيتِ مِن دِمْنَةٍ راقتْ مَغانِيها
يا دارَها والهوى يُدْنِي تآلفنا	ويافِعُ العُمْر يُدْنِيني ويُدنِيها
إذ قد تباعَدَ هجْرًا مَن يُقاربُهَا	ولا تداني بوَصْل مَن يُدانِيها
كم بِتُّ مِن شَغَفٍ مُضنى ومن أسَفٍ	أبْدي الصُّبابة أحْيَانًا وأخْفيها
أسامِرُ البَدرَ من شَوقِي لِرُؤْيَتِها	فالبدرُ في الأفق تحْكِيهِ ويَحْكيها
وأسأل الريحَ من تِلقاءِ تلعَتِها	إذا حَدَا مِنْ رُبَى البَطحاءِ حادِيها
فكم طرقتُ حِمَى سَلمَى بذي سَلمٍ	ولذة الحب تضبيني وتضبيها
وخضت هَوْل السُّرَى في مَهْمَهٍ قَذِفٍ	يقودني نحو سَلمَى فرْطُ حُبِّيها
إذِ الشبابُ رداءٌ والصِّبا أنفٌ	وحاكِمُ الوَصْل لا يُصغِي لِواشيها

وجـنة الأنـس قـد حفـتْ بزُخْـرُفِها وأكـؤسُ الوصـل قـد دارَتْ بمـا فـيها
فأجْتَنِـي الـدرَّ مـن أثـناءِ مَـنطِقِها وأرشُـفُ الـريق إذ أسقاه مِـنْ فـيها[52]
ورُبَّ دَاجـيَةٍ دَرْعـاءَ دَامِـسَةٍ ولجْـتُ مـن شَـغَفٍ[53] أثْـنا دَياجـيها
ومـا سـجِيريَ[54] مـنها غيـر مُنْـصَلِتٍ كـصرح بلقِـيسَ تمْثـيلاً وتـشبيها
وأجْـرَد سـابحٌ مـن نـسْل أعْـوَجَ لا يَـشْكو الوَجَـى حِـينَ تَـشكوه مَذاكـيها
يعـارض البَـرق إذ يَغْـدو بـراكِبهِ ويَـسْبق الـريحَ إذ تَغْـدو غَـواديهَا
وإذ تقـول رَعـاكَ الله كـيف بِـنا إذا تنَـبَّهَتِ الجَـزعَا بمَـنْ فِـيها
ويادَرَتـك حُمَـاة الحَـيِّ مـن كـثبٍ وجَمَّعَـتْ لـك دانـيها وقاصـيها
فأسْـرَتي الأزْدُ أشـدٌ فـي الوَغـى صُبُرٌ عـند الهـياج إذا مـا اهـتاجَ داعـيها
فقلـتُ حـسبك لـسنا مـنْ تـرَوِّعُهُ كمـاة قـوْمِك أو مَـنْ قـد يُـضاهيها
ولـسْتُ أخجِـمُ إنْ ثـار العجـاجُ ولا يـزال بَأسِـي لِـنارِ الحَـرْبِ يُذكِـيها
فـذو الهـوى لا تـروعُ الحـربُ حَـوْزته وإن دَهَـتهُ مـن الهَـيْجا دَواهِـيها
فأسْـمَرُ الخـط قـد تخطِـي مَـواقِعُهُ وأسْـمَرُ اللحْـظِ مـنها حـين لاقِـيهَا
فـيا لـيالٍ مَـضتْ عَـنا بِبَهْجَـتِها هـل عطفـة مـنك فـي المَحْـيا نـرَجِّيها
لاعيـش يعـدل عـندي عيـش ذِي سَـلمٍ ولا مَـوَدة سَـلمَى الدهْـرَ أسْـلوها
فكـم طوَيْت الـسُّرى طيَّ السجِلِّ وكـم مَنـيْتُ نفـسي مُنـى راقـتْ أمانـيها
وظلـتُ ممتطِـيًا ظهْـرَ الحروبِ ضُحى أطـوي الـسُّرَى ليَـرَى الألحـاظ رائـيها
وقـد نظمْـتُ حـروفَ الـشعر ممتَدِحًا نظـمَ الفـرائد تَجْلـو الخَـط قاريهـا
وكـم عمِلـت علـى إعمـال يَعْمَلتِـي وعـزمة لـيَ أبْـديها وأخْفِـيها
إلـى مَقـام إمـامٍ أوحَـدٍ[55] عَلَـمٍ كالـشمس عِـزا وتـرفيعًا وتـشبيهًا
إلـى جـوادٍ إذا مـا مـدَّ أنملـة[56] حَكـى الغمـامَ إذا جـادَتْ عَـزاليها[57]
فـلا فـضِيلةَ إلا وَهْـوَ مالكهـا و لا رَعِـيَّةَ إلا وَهْـوَ راعـيها
ولا مَآثِـرَ إلا وَهْـوَ لابِـسُهَا ولا مَفاخِـرَ إلا وَهْـوَ يَحْـويها
ولا مَجـادَةَ إلا وَهْـوَ مُـوجِدها ولا مَكـارِمَ إلا وَهْـوَ بانـيها

Scanned by CamScanner

فمنْ كموسى أبي حمّو بن يوسف أمْ   مَن قد يُجاريه في العلياء يَبغيها

ومَن كموسى إذا تتلى مناقبُهُ   قد حاز مَجدًا على الأيام تاليها

لم يَرضَ بالدون من دنياه مذ سطعَتْ   آيات سؤدده تتلى معاليها

كم خَلّةٍ إن رآها ظلّ يَسترها   ومِنّةٍ في الورى ما زال يُسديها

ونعمةٍ في الدُّنا قد راحَ يَنشرها   وزلّةٍ عن عيون الخَلق يَطويها

سَمَتْ به عن حضيض الذل هِمّته   لمّا غدا لرسوم المُلكِ يُحْيِيها

لم تُلهِهِ لذّة مِن دون مَطلبِهِ   ولا تَنعّمَ بالدنيا وما فيها

حتى تَسنّمَ في الأملاك منزلة   وحلّ من رُتَبِ العليا أعاليها

أشاد[58] ملك بني زيانَ ثانيَة   ورَدّها دولة غرّا لأهليها

أتى بها دولة قلّ النظير لها   كأنما لم تدِلها كفُّ شانيها

فكم شكتْ وصبًا ممّا ألمّ بها   حتى شَفاها من التبريح شافيها

جَرى فأدرك ما قد شاءَ مِن وَطرٍ   جَرْيَ الجيادِ جَرَتْ في شأو مُجريها

فإن تكن حَلبَة الإقدام قد سَبقتْ   فها هو اليومَ سبّاق مُجلّيها

فمَن يَلذْ مثل موسى أو كوالده   يَرَ العَواقِبَ للحُسنى مَساعيها

هُمُ الألى جَدّدوا آثارَ دَوْلتِهِمْ   واستنقذوها ولكنْ من أعاديها

يا ابنَ الملوك الألى جَلتْ مآثِرُهم   لك الإمارة تغلِيها وتسميها

ظهرتَ بالزّابِ والزّابيُّ قد صَدَعَتْ   بأمرِهِ الكتبُ تصريحًا وتنبيها

فَضُلْ على الدهر يا ابنَ الأكرَمين فقد   حَوَيْتَ مَملكة جَلّتْ مَعانيها

مَولايَ حبُّكمُ قد حلّ في خَلدِي   فأنْتَ للنفس مِنْ أسنى أمانيها

إنْ غابَ وَجْهُك عن عَيْني مشاهَدة   فالذكرُ للنفس يُحْيِيها ويُبقيها

أو عاقَني الدهرُ عن تقبيل كفكمُ   ولم أزل لاقتِناءِ المَجدِ أبغيها

فقد بعَثتُ كِتابي كي يُقبّلها   يَهْدِيه مِن نفحاتِ الشوْق هاديها

فهاكها بنت فكري قد بعثت بها   وليس إلا إلى علياك أهديها

أصحَبتها مَخض وُدّي عند وجْهتِها   فالحب يُجنبها والشوق يُزجيها

فقلت للنفس كفي عن مُعَاتَبَتي فقد حَوَيْتِ الدنا[59] طرا بما فيها
أليس مَوْلايَ ذو الإحسان وَجْهَني حتى بلغتِ مُنىً ما زلتِ تبغيها
وظلتُ أنشر شِعْري في بِساطِكمُ فالنفسُ قد بلغَتْ أسْنى تمَنيها
ونِلتُ غاية ما أمَّلتُ من وَطَرٍ فظَلتُ أسْحَبُ ذيْلِي في الذرى تِيه
ومَنْ يَصِلْ بأبي حَمُّو حَبَائلهُ جادَتْ دنَاه وكفتْ من تجَنيها
فَليُغْض مَوْلايَ عن تقصِيرمادحِه فالنفسُ رَهْنُ صَباباتٍ تقاسيها
والقلبُ مشتغِل والفكرُ مشتعِل[60] لأجْل أندلس ضاقتْ مَناحيها
جئناك والفتنة العمْياءُ تَخبِط في أرْجائها وعَدوُّ الله راجيها
ضاقتْ مَسالِكها مِمَّا ألمَّ بها فالدينُ من حَزَنٍ قد ظلَّ يَبْكِيها
ما بيْن بَحْر خِضَم واعْتِداء عِدى وفِتنةٍ أغْضَلتِ سُحقًا لِبانيها
وقد تَطاول أعْناق العُداة لها يَبْغونها لأذى تبًا لباغيها
تَبْكِي لهَا أعْيُنُ الإسلام حِينَ ترى ما حلَّ بالدين فيها من أعاديها
هَلْ ناصِرٌ يُرتجَى بعد الإلهِ لها أمْ عاضِدٌ لِرسوم الدين يُحْييها
هَل مُشفِق راحِم يَرثي لِغُرْبَتِها أمْ هل مُجِيرٌ من الأعداءِ يَحْمِيها
هل منقِذ من أكفِّ الكفر حَوْزَتها أمْ كاشِفٌ ضَرَّها، المُؤْذِي بأهْلِيها
أمْ هلْ مُعين على مَن سامها ضَرَرًا فقد جَنى الحَزْب فيها كفَّ جانيها
واهًا لِغرْبَتِها بين البِقاع فمَنْ لِجَبْر صَدعَتِها إن راحَ يَحْويها[61]
تلك الرُّزيَّة إن سُدَّتْ مَسالكها و صادف الغرَضَ المَقصودَ راميها
إن كنتُ قَصَّرْتُ في مَدحي فعُذريَ قد شرحته لكَ تفصيلاً وتمْويها
أقبلْ عليها وقابِلها بِفضلكمُ فقد حَوَتْ بِك تشريفًا وتنويها
لا زلتَ في أفقِ العلياءِ مُرتقِيًا تمضِي الأوامِرَ في الدنيا وتجْريها

وقوله أيضًا:

عُجْ بتلك الربى وتلك المَغاني واسألِ الركبَ أين تلك الغواني
ألِنجْدٍ ترَحَّلوا أمْ لِسَلع أمْ أناخوا رحالهم بِعُمان

فلعلَّ الديارَ تنبئُ عنهمْ … أين حَلوا بظبْي تلك المَغاني
فلقد أقفَرَتْ خِيامٌ لِسَلمى … ونأى الحَيُّ بَعْدما كان داني
ونأى بَدْرُ حسْنِها عن جُفوني … لهْفَ نفسِي لِرَيْبِ هذا الزمان
كنت أرجو الزمان يَجْمَع شَمْلِي … وأهابُ النوى وهَجْرَ الحِسَان
وأخافُ الفِراق منها كما قد … خافَتا منه خلَّتا[62] حُلوان
فإذا الدهرُ إذْ[63] سَقانِيَ كأسًا … مِن تنائي أحِبَّتي قد سَقاني
كيف لي بِالسُّلوِّ عن حبِّ رَوْدٍ … صَيَّرَتني في رِبقة الحبِّ عاني
وبرَتني بأسْهُمٍ من لِحاظٍ … تركتني صَريعَ ما قد بَراني
لو عرَفنا اللحاظ تَمْلِك فتكًا … لثنَينا أعِنة اللحَظان
وَيْحَ مَن بالجفون يَشكو هُيامًا … قد عَراه مِن النوى ماعَراني
فَسِهامُ اللحاظِ يا عَمْرُو أمْضَى … مِن سِهام القِسِيِّ يَوْمَ الرِّهان
فصَريعُ الحِسان[64] أوْدى صَريعًا … ونَجا في الهياج زَيْد الطعان
لا تزدني مع الغَرام عِتابًا … خَلني فالعِتابُ ما قد شَجَاني
لك في الناس راحة فاطِّرِحْني … يا عَذولي فلست تَعْرِفُ شاني
بَعْدَ بُعْدِ الحَبيبِ أرجو سُرُورًا … ونَواه قد جُنَّ منه جَناني
أضْحَكَ العاذِلِين بُعْدُك عَني … ولقد سرَّ للوشاةِ هَوانِي
بَلغ الحاسِدون ما أمَّلوه … ورَثى الشامِتون مِمَّا دَهاني
لهْفَ نفسِي على زَمان تولى … طِيبُ ذِكراه في فمِي ولِساني
كنت أسْطو على النوى باقترابي … وأباهي بسامِياتِ الأماني
فتوَد الشعرى العبورَ دنوِّي … ويَوَد السُّهَى رَفِيعَ مَكاني
ومُصَلي الوصال يقصُرُ عَنِّي … ومُجَلّيه عن لِحاقِيَ وان
ورياضُ الوصال غَضٌّ جَناها … ونَسِيمُ الرضى بها مُتوان
فإذا الدهرُ قد عَدا بنَواه … وسَطا بي ولجَّ في عِصياني
هَدَّ رُكنَ الوصال منه بِصَد … بَعدما كان للتواصُل بان

Scanned by CamScanner

لـيس عَـتبٌ علـى تقلـبِ دَهْـرٍ   قـد عَـرَفنا انقـلابَ هـذا الـزمانِ

فاتـرُكِ اللهـوَ قـد مَـضى فـيه دهْـرٌ   فهـوادي المَـشِيبِ[65] عَـيْنُ الهـوانِ

واصْـرِفِ الـنفسَ نحْـوَ مـدحِ إمـامٍ   أوْحَـدٍ فـي الـذكاءِ والإحْـسانِ

ماجـدٌ يَمْـلأُ البَـسِيطةَ عَـدْلا[66]   وجـوادٌ بـه تـنـالُ الأمانـي

عَـمَّ إحْـسَانُهُ البَـرايا فأحْـيَا   يُمْـنُ يُمْـناه كـلَّ قـاصٍ ودانِ

يَتَلقـى العُفَـاةَ مـنه بجَـدوى   دونَهـا البحـرُ وانـسكابُ[67] الغَـوادي

يَـصِلُ المَـنْحَ والعَطـاءَ بِبِـشْرٍ   يهْـتدِي مِـن سَـنائِهِ الـثقلانِ[68]

فأياديـه فـي الـورى لـيسَ تحْـصَى   أوَتحْـصَى الأنفـاسُ بالحُـسبانِ

بَـيتُ مُلْـكٍ أسَّـسَته كـرامٌ   وبَنَـتهُ علـى رضَـى الـرحمنِ

مَـن يُـضاهِي لآلِ زيـانَ يَـوْمًا   وهُـمُ الـصَّدرُ والمُلـوكُ ثَـوانِ

يـا سَـمِيَّ[69] الملـوكِ حُـبُّك فـرْضٌ   واجـبٌ فـي الـورى علـى الأعْـيانِ

يـا إمـامَ القـريضِ والحـربِ والمِخْــــــرابِ والجـودِ والحِمـى والـرِّهانِ

قـد هدَانـي[70] إلـى امْـتِدَاحِك حُبِّـي   غَيْـرَ أنـي مُقَـصِّرٌ فـي البَـيانِ

فامْـرُؤُ القَـيْسِ لـو أتـاكَ بمَـدْحٍ   كـانَ عـن دَرْكِ بعْـضِ عَلْـياكَ وانِ

فـارْضَ بالـوَزْنِ والـرَّوِيِّ ودَعْنِـي   لا تـؤاخِذْ بـضَعْفِ هَـذِي المَعانـي

فلَـوَ انْ قـد ظهَـرْتَ فـي عَـصْرِ وَحْـيٍ   لوُصِـفتَ[71] فـي مُحْكـمِ القـرآنِ

أوْ[72] تأخَّـرْتَ فـي الـزمانِ فرُشْـدٌ   قـد تجَلَّـى لأهـلِ هـذا الـزمانِ

مَـنْ يَطُـلْ مجـدهُ البَـرِيَّةَ طـرًّا   كـيفَ تحْـصَى أوْصـافهُ باللسـانِ

غيـرَ أنَّ البَـشيرَ وَافـى بِقـرْبٍ   مـنك فارتـاحَ خَاطِـري وجَنانـي

وأتـى بالوصـالِ رائِـدُ بُـشْرَى   فخَـرَرْنا شُـكرًا علـى الأذقـانِ

واصْـطبَحْنا مـن الـسرورِ عُقـارًا   تعقِـرُ الهَـمَّ لا عُقـارَ الـدِّنانِ

فَهَنِيـئًا لِـيَ اللقـاءُ هَنِيـئًا   قـد بَلغْـنا بـه المُنـى والأمانـي

فمُحَيَّـاكَ مُـذ تـرَاءَى لعَيْنِـي[73]   لـم أخَـفْ[74] مِن مَـصارفِ الحَدَثانِ

واقبل السلام يا إمام البرايا وسراج الورى وقطب الأوان

فملوك الزمان جاءتك طوعًا تبتغي السلم جنحها للأمان

رغبوا منك في الأمان فأنعمـت عليهم في السر والإعلان

وتصدّقت منعمًا بأمان فلك السبق واعتلاء المكان

ولك الأمر فاقض ما أنت قاض وتحكّم في المال والسلطان

فلك الفضل قد أجبت نداهم ونجيتم وصية الرحمان

فتحكم على الملوك فكلٌّ قد أتاكم بالعفو والإذعان

يا ملاذ الورى وكهف البرايا وعماد الدُّنا وفخر الزمان

ابتغي من نداك طرفًا كريمًا ليس يعزى إلى الخيول الهجان

فخديم المقام قد ضاق ذرعًا بامتطاء النعال ذات الجران

فأرحني من امتطاء نعالٍ واجبر العبد مولاي بحصان

كيف أبقى أمشي على الأرض هونا أشتكي برح شدة الهفيان[75]

أو أرى في الورى ومربع عزي مجدبٌ أو أخاف داء الهوان

وإمام الملوك موسى المعلّى غير ناء ولا عطاه بوان

من يرد حوض جوده كيف يخشى في دناه اعوجاج هذا الزمان

حاش لله أن أرى ومحلّي منك قاص ومطلبي غير دان

فودادي يقتضي بأنك ركني وملاذي وعاضدي وأماني[76]

فابق يا أوحد الملوك رفيعًا في العلى ما تسابق[77] الفرقدان

فأحسن إليه الخليفة، أيده الله، بحصان من عتاق الخيل أشهب وثلاثين من الذهب العين وكسوة حسنة[78].

---

(1) كذا في س، بها: ساقط في النسخ الأخرى وفي غ.

(2) ر: بجوها، ب، ل: بجرها، ع: بجدها.

(3) ب، ع: أمير المؤمنين.

(4) ل: به.

(5) ع: الأمر.

(6) ع: اعتراض.

(7) ع: ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(8) ع: وحرمت.

(9) يعني: مقيم ببلاد المغرب.

(10) ع -: بن أبي جمعة.

(11) ع -: قوله.

(12) ع: بهذا.

(13) س -: ابن السلطان أبي الحسن.

(14) ر: وفي آخر.

(15) ل، ع: التيريعي.

(16) س -: بن يحيى.

(17) ع -: كانوا.

(18) ع: نقده.

(19) ع: الدوائل. والذويل هي النباتات الدقيقة والمهزولة، وهي أيضا الرماح الدقيقة.

(20) قرآن، سورة الحجر، الآية 46.

(21) ع: سعادته. والصعاد جمع صَعدة، وهي المرة من الصعود.

(22) ع: نصره الله.

(23) ع: فأضافها.

Scanned by CamScanner

(24) ع: والجرايات.

(25) ع -: قوله.

(26) ل: فراقها.

(27) ب، ع: صار.

(28) أشتُّ يعني: فرَّقَ.

(29) ع: يقول محمد بن يوسف القيسي الأندلسي.

(30) ع -: قوله.

(31) ع: يا نفسي.

(32) ل: الوجد.

(33) ع: الأزهار.

(34) ل: والبشّ.

(35) ح: منه.

(36) ع -: الماهر.

(37) ع -: بن أبي جمعة.

(38) ع: وللخنساء.

(39) ع: والعلى.

(40) ع: وأنشدت قوله.

(41) ع: حبال.

(42) في ع، عوض هذا المصراع بما يلي: وكان له منه مثيب وراحم.

(43) ل، ع: نجل.

(44) ر +: مولانا.

Scanned by CamScanner

(45) كذا في ل، ب، ر، س (ولعل ذلك هو التسمية القديمة لهذه القبيلة). وفي ع: بني ورنيد (وهي التسمية الحالية).

(46) ع: من بني اطاع الله.

(47) س +: المذكور

(48) ع: برأسيهما.

(49) ع +: بالأندلس.

(50) ع: خمسين.

(51) ع +: دينار.

(52) هذا البيت لم يرد إلا في س.

(53) ع: من شغفي.

(54) ع: سميري. والسجير يعني: الصديق الوَفِيّ.

(55) ع: واحد.

(56) س: أمله.

(57) العزالي جمع عزلاء، وهي مصب الماء من القربة، وهنا يرمز الشاعر إلى شدة المطر.

(58) ع: وشاد.

(59) ع: الدنيا.

(60) ع: والقلب مشتعل والفكر مشتغل.

(61) ع: يجريها.

(62) ع: نخلتنا.

(63) ع: قد.

(64) ع: العوالي.

Scanned by CamScanner

(65) ع: فالهوى بالمشيب. وهوادي الشيء هي: أوّله.

(66) ر، س: جودًا.

(67) س: انسجام.

(68) ع: القمران. (والثقلان هما: الإنس والجن).

(69) ع: سناء.

(70) ع: قد دعاني.

(71) ع: لوصفتم.

(72) ع: إن.

(73) س: بعيني.

(74) س: لم تخف.

(75) ل، ب، ع: الدميان. والهميان يعني: التكة، أي شِداد السراويل.

(76) هذه الأبيات التسعة ساقطة في س.

(77) ع: ما تصاحب. والفرقدان: نجمان قريبان من القطب الشمالي.

(78) هاذان السطران ساقطان في س.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة اربع وستين وسبعمئة

أظلت هذه السنة المباركة ويد الخليفة الكريمة عالية، ودولة إقبالها دائلة، وسِرْبُ القطر وأهله آمن، وجسد الوطن من داء الفِتَنِ مُعافى، ونور السعادة بآفاقه واضح. وجاءتْ ليلة مَوْلِدِ النبي خير الأنام، صلى الله عليه وسلم، فكان الاحتفال بِبَنيتِها وإقامةِ رسوم عرسها مُرْبِيَ الجمال عن مِثْلِهِ في سواها.

قال المؤلف عفا الله عنه: كنت ممن ضمَّني السلطان أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن في زمرة الأمير أبي عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي يحيى الموحد، عند صرفه إياه من تلمسان إلى بجايته معيَّنًا لحِجابَتِه[1]، لسابقة آبائي في خِدمة سَلفه، واعتاصَ عليه فتحُها لمكان عَمِّه الأمير أبي إسحاق فيها، كما مرَّ[2]، فأوى إلى رياح، عرب قطرها، مستنصِرًا بهم، واضطرَّني الوفاءُ لملازمته، فحَضَرْتها معه مرَّاتٍ ثلاثا، واستغلق علينا أمرُها، وطال علينا الأمد، وأعيت الحِيَل، وعِيل الاصطبار، ولم يبقَ فِيَ سِوَى استصراخ أمير المسلمين هذا، أيده الله، أمَلٌ.

فأرسلني مخدومي الأمير أبو عبد الله نحوه في صفر هذه السنة، فمضيت مجتازًا بطول بلاده أول قدماتي عليه، فرأيت أمْر الله من وطن أفيَح، وقطرٍ مزمل في بِجادٍ أشيَح، ومساكن مكثبة الأسفار، وسُبُل آمِنَة ذِمَمُ العافيةِ بها من الأخفار، وعَدْل مرسل الأعِنَّة، وأحكام ماضِيَةِ الأسِنة، ومِصْرٍ ما شككت يومَ دُخوليهِ[3] بالجَنة، ما شِئتَ من جَنَّاتٍ وعيون، ونعيمٍ عَطاؤه فيه غيرُ مَمنون، وحدائق غلبٍ، وفاكهةٍ وأبٍّ، وأنهار تجري بِذَوْبِ اللجَيْن غير الآسِن، ومتعدِّدٍ وغير متعدِّدٍ[4] من الكمالات والمَحَاسن، ثم قصور زاهراتٍ، وأنوار من الدين والدنيا باهراتٍ، وآياتٍ من السياسات والحكم ظاهراتٍ. فالعلم يُقذَف بحرُه بالدُّرِ، والمُلك تَنأى آفاقُ أسِرَّته بالكواكب الغُرِّ، والإسلام بذراه متَهَلِّلُ الجبين، والخِلافة تبحبحُ من هاشِمِيَّتِهِ في قرارها المَكين. وفتِحَ البابُ، ورُفِعَ[5] إلا من المهابة والإجلال الحِجاب، فلم أرتبْ في كِسْرى المَدائن والإيوان، أو طُور الحِجى مُحتفًّا بنور الإيمان، أو شمس

Scanned by CamScanner

الضحى حلّت من بروج سمائها منزلة الشرف، أو صديق تبوّأ من الخلد أرفع الغرف، فأنشدته:

يا بدر تم بالأوج قد ظهرا فضاء بالخافقين واشتهرا
ويا مليكًا له العلى خُلقٌ ففي العلى ما نهى وما أمرا
ويا إمامًا له الورى خَوَلٌ يعتق إن شاء أو يشا حظَرا[6]
ما الفخر إلا الذي أتيت به بأسًا وحلمًا ونائلاً غمرا[7]
لولاك لم تلف كفءها أبدًا خلافة المصطفى بغير مِرا
بوّأتها من قريش رُتبتها وكم غدت في سواهم غُصرا
فليس للعالمين من مَلِك يرجى ويخشى سواك مقتدرا
وإنْ عزا الخطبُ أو نبا زَمَنٌ بالناس كنتَ الثمال والوزرا
ومُرسلي أولع الزمان به فأنشب النابَ فيه والظفرا
ولم يجد ناصرًا سواك وقد أرسل يخيى إليك وانتظرا

وكنت خجلاً من قِزقة مُرسِلي في السلطان أبي ثابت عمّ أمير المسلمين، متوقعًا رَدّ مسألتي، فما شاهدتْ والله عيناي، ولا سمعتْ في خبر أذناي، كمثل حيائه، أيده الله، وإغضائه، وبشره وإرضائه. وحضرتُ ليلة[8] الميلاد المُبارك، فكان مما أنشد مسمعُها، من نظم الخليفة، أعلى الله مقامه[9]، قوله:

ذرفت لتذكار العقيق دموعي وازدادَ شوقي للحِمَى وولوعي
والخبُّ شبَّ أوارهُ بضلوعي مَنْ لِي بشملٍ بالحِمى مَجْموعِ
وبِجَبر قلبٍ بالنوَى[10] مَصْدوعِ
هَبَّ النسيمُ مِنَ ارض نَجْدٍ شاقني والبرق أرّقني سَناه وراقني
و الذنبُ عن وصل الأحبّة عاقني وجَرَتْ دموعي كالعقيق، وخانني
صَبري وكان الشوقُ أصلَ[11] خضوعي
حُبّي شفيعٌ للحبيب إنَ اعرَضا والحب بابٌ للشفاعة والرِّضى
لكنني ضيّعتُ فيما قد مضى زمنُ المَسيرَ فلم يُساعِدْني القضا

Scanned by CamScanner

و لكم نشرت إلى الرّحيل قلوعي

قضيت عمري في لعلّ وفي عسى ... والعبد يرغب في الصباح وفي المسا

في زورة تمحو له ما قد أسا ... والقلب منفطر يذوب له أسى

والدمع منحدر كما الينبوع

شأنُ المحبّ على زيادة حبّه ... عزم المسير إلى زيارة حبّه

لو كان ساعدني الزمان بقربه ... لحططتُ رحلي في مقدّس تربه

وهجرتُ خلّاني له وربوعي

أخطأتُ مرباي[12] وغيري ما خطا ... وتبعت غيّي في الذنوب وفي الخطا

والشيبُ وافى والشبابُ تفرّطا ... يا سعدُ ساعدني على زمن سطا

هل للزمان مُساعِد برجوع

أسقي الثرى مِنْ مَدْمَعي لما هَمَى ... والقلبُ هامَ ونارُ شوقي ضرّما

شوقًا لمَحْبوبي مَنامي قد حَمَى ... ولقد شغفتُ بحبّ مَن سكنَ الحِمَى

وحُرِمتُ لذاتي به وهُجوعي

قد زاد شوقي للعَقِيق وللصّفا ... ولرَوْضةِ الهادي النبيّ[13] المصطفى

يا أهْلَ وُدّي أنتمْ أهلُ الوَفا ... وأنا المحب لكم وقد بَرِحَ الخَفا[14]

وإليكمْ دونَ الأنام رُجوعِي

صبٌّ سَبَى قلبي ودمعِي قد جرى ... وهجَرتُ سُلواني ولذاتِ الكرَى

وبِحالتي من شوْق نَجْد ما ترى ... شوْقًا لِمَن رَكِبَ البُراق وقد سَرَى

لِمَقام عِزّ في السّمَاءِ رَفِيعِ

يا ليلة الإثنين نورِكِ قد سَمَا ... وانجابَتِ الظلماتُ[15] عَن أفق السّمَا

و انهدّ إيوَانٌ لِكِسْرى عِندمَا ... خُلِقَ[16] النبيُّ الهاشِميُّ مُعَظمَا[17]

في ليلةِ غرّا بِشهْر رَبيعِ

والبَدرُ شقَّ بِغيْر إفكٍ يُفترَى ... لمحمد المختار من خير الوَرَى

والجِذعُ حَنَّ إليه من غيْر امْتِرَا ... والماءُ نبعًا من أنامِلِهِ جَرَى

Scanned by CamScanner

من غيرِ مَمْنون ولا مَمْنوع

سَعِدَ الـزمان بِخَيْـرِ مَـنْ وَطِـئَ الثـرى   فــي لــيلة الإثنـــيْن لاحَ وأقمَـــرا

يـا حادِيًـا يَطـوي الفـلا بِـيَدِ السُّـرَى   رِفقــا علـــيَّ فمَـــا أطـــيقُ تَـصَبُّرا

عَمَّنْ تَحَكمَ حُبُّهُ بِضلوعِي

بهُــدَى رســـول الله أمَّـــته اهْـــتدتْ   بِظهـــورهِ الأصْـــنامُ خَـــرَّتْ وارتـــدتْ

و بـــنوره نيـــرانُ فـــارسَ أخْمِـــدتْ   ودلائـــل[18] بانـــتْ وآيـــاتٌ بَـــدَتْ

وشفاعة جاءَتْ لِكلِّ مُطيع

يـــا رب كـــمْ لـــي بالذنـــوبِ أنوسَـــا   وَلكـــم أطَلـــتُ مـــع العُـــصَاةِ جُلوسَـــا

و سـقيت مـن فَقـدِ الحَبـيب كؤوسَـا   يـــا رب يَـــرْجو مـــنك عـــبْدكَ مُوسَـــى

عَفوًا يُبَلغ مَنزلَ التزْفيع

أدعـــوك دَعْـــوَة مُـــسْتهَام والِـــهِ   أوليْتنـــي الإحْـــسَانَ مـــنك فـــوالِهِ

واسْـــمَحْ لِعَـبْدِك عـن قبـيحِ فِعالِـهِ   فوَسِـــيلتي حُـــبُّ النبـــيِّ وآلِـــهِ

خيْرِ البَريَّةِ وَهْوَ خيْر شَفِيع

وللفقـيه أبـي عـبد الله محمـد[19] بـن يوسـف الثغـري[20] الأندلـسي تخمـيسٌ أيضًا[21]، وهو قوله:

يا ليلةَ الإثْنَيْن افتخِري   بالبدر الطالع من مُضَرِ   في ليلة يوم اثنيْ عَشَرِ

من شهر ربيع المُشتهِرِ   بالمولد فهْوَ به عَلَمُ

كالشمس سَناه وكالقمَرِ   طلعَتْ[22] كالزَّهْر وكالزهَرِ   أنْوَارُ هُدَى خيرِ البشرِ

ونبي الرحْمَةِ والبُشَرِ   فجميعُ الخلق به رُحِموا

يا شهْرُ بك افتَخرالدَّهْرُ   يا شهرُ جمالك مُشتهِرُ   يا شهْرُ كمالكَ مُنتشرُ

يا شهر قدومُك يا شهْرُ   تُحْيَى بنو اسمه النَّسَمُ

يا شهْرَالمَولِدِ[23] فيك بَدَا   مَنْ بالأنوار[24] قد انفرَدَا   والخيْرُ بمولِدِه اطَّرَدَا

وأتى للخلق بكل هُدَى   فبطلعَتِهِ سَعِدَ الأمَمُ

صُبْحُ الإرْشادِ به انْصَدَعَا   وبأمر الله لقد صَدَعَا   والخلقَ لنَهج الحق دَعَا

Scanned by CamScanner

و ازال بسُنّته البدعا — فبسُنّته الخلق اعتصموا

و بدت[25] بنبوّته العبر — شهدت برسالته الشجر — والذيب وكلمه الحجر

و انشقّ بدعوته القمر — وانجاب بغرّته الظلم

و الجذع شكا وله وَلَهٌ — بفراق[26] رسول الله له — لمّا بالمنبر بدّله

فلذلك أنّ وحنّ لهُ — شوقًا وألمّ به الألمُ

ومعاذ بتفلته لصقا — يَدُه بالمِرفق إذ فرقا — وقتادة رَدّ له الحَدَقا

وسَقَى الأحياءَ حَيًا غدقا — عمّتْ للقوم به النعمُ

بَهرتْ أنوارُ شرائعهِ — ولكمْ ظهرتْ بمنازعه — مِن مُعجزةٍ لمُنازعهِ

و الماء خِلالَ أصابعِهِ — أضحى ينهلُ وينسجمُ

قامَ القرآنُ بحُجّتِهِ — وأقامَ دَليل مَحجّتِهِ — وتَسامَى الصِدقُ بلهجَتِهِ

و تناهى الحُسْنُ ببَهْجَتِهِ — فالعقل يَهيمُ ولا يَهِمُ

مُعْلِي الإسْلامِ ومُعْلِمُهُ — بِهُداهُ تَشيّدَ مَعْلمُهُ — ومُبيدُ الكفر ومُعْدِمُهُ

بِظُبَاهُ أُريق له دَمُهُ — فوجود الشِركِ به عَدَمُ

زين الأرسال وخاتمهُمْ — وشفيعُ الخَلق وراحِمُهم — هُوَ مُنجيهمْ هوَ عاصِمُهُمْ

في يوم تبينُ جرائمُهُمْ — و تزلُّ بهم فيه القدَمُ

ورسولُ الله كما وردا — يُرْوِي بالكوثر مَنْ وَرَدَا — لا يظمأ وارده أبَدَا

ولِواءُ الحَمْدِ له عُقِدَا — وشفاعَتُهُ ترجو الأُمَمُ

يا رب انفع بِمَحَبَّتِهِ — مُشتاقًا أسنى رَغبَتِهِ — تقبيلُ مُقدّس تربَتِهِ

وقبول منك لِتوْبَتِهِ — عَمّا يَجْنيه ويَجْترمُ

وانصُرْ مَن قامَ بِمَوْسِمِهِ — يُبْدي الأفراحَ بِمَقدَمِهِ — ويُفيضُ عَوائِدَ أنعُمِهِ

مَلِك أمْسى بتكرُّمِهِ — للأجر يَحُوزُ ويَغتنِمُ

مَلِك قد عَمّ تفضُّله — و ملوكُ الأرض تؤمّله — برسول الله توسُّله

وعلى مَوْلاه تَوَكّله — وحُلاهُ العِفّة والكرَمُ

مَلِك يتخيّل كالمَلكِ — كالشمس تَحُلُّ ذرى الفلكِ — كالبَدْر يُضيئ بمُختلكِ

كالليثِ يَصُول بمُعْتَرَكٍ   تَلقاهُ الأسْدُ فتنهزِمُ

يَفْرُ العلياءِ إذا انْتسبا   ليثُ[27] الهَيْجاءِ إذا رَكِبا   يُعْطِي الآلافَ إذا وَهَبا

ويَخافُ الله إذا غضِبَا   لا هُجْر لدَيْهِ ولا بَرَمُ

بدرٌ[28] قد لاحَتْ أسعُدُهُ   يَحْمِيهِ الله ويَعْضُدُهُ   هُوَ يَنْصُرُهُ، ويُؤيِّدُهُ

وعلى الأمْلاكِ علتْ يَدُهُ   وبِعِزِّ عُلاهُ جَرى القلمُ

أمُعِزَّ الدينِ وناصِرَهُ   ومُعِيدَ المُلكِ وجَابرَهُ   لا زلتَ تشَيِّدُ عَامِرَهُ

أبدًا وتجَدِّدُ غامِرَهُ   ما انْهَلَّ بِكفك مُنسَجِمُ

مَنْ عَانَدَ فضلك أوجَحَدَا   فالسَّيْفُ يُقرِّبُ ما بَعُدَا   ويُقِيمُ لأمْرِك مَا قَعَدَا[29]

فامْدد لِلِوَاءِ المُلكِ يَدا   مِن دونِ مَوَاهِبها الدِّيَمُ

فالنّصر أمَامَك والظفرُ   والسَّعْد يُساعِده القدَرُ   وعَدُوُّك وَاهٍ مُحتقرُ

بُشْراك فإنك مُنْتَصِرُ   بالله وأحمدَ مُعْتصِمُ[30]

والدهرُ بِبَأسِك متصِفُ   والبحرُ بجودِك متصِفُ   ما ذا أثْنِيهِ وما أصِفُ

أغَمَامُ بَنانِك إذ يَكِفُ   أمْ نورُ سَنَاك أمِ الهِمَمُ

فبمثل عَلائِك يُفتخَرُ   ونفيس ثنائِك يُدَّخَرُ   وبِعَصْرك تفتخِرُ العُصُرُ

فلقد حَسُنَتْ لكمْ سِيَرُ   ولقد كرُمَتْ لكمْ شِيَمُ

مَن رأى مَرْآك مِن البَشَرِ   دَلَّتهُ حُلاك على البِشْرِ   كالنوْر يَدُلُّ على الثمرِ

ضَرَبتْ بظباك يَدُ القَدَرِ   تفني الأعْداءَ وتحْتكِمُ

سَيْفُ السلطان أبي حَمُّو   يَبْدو لِعِداهُ به نجْمُ   فيه لِشَياطينِهِمْ رَجْمُ

لا زالَ بسَطوَتِهِ يَسْمُو   يَعْفو ويَعفُّ وينتقِمُ

فتِلمْسان بك في جَذَلٍ   مُذ لاذتْ منك بِخَيْرِ وَلِي   وأعدتْ لها أسْنى الدوَلِ

عادَتْ لِعَوائِدِها الأوَلِ   ونَأى عن ساحَتِها العدَمُ

يا حُسْنَ مَقامٍ منك سَمَا   ولِعَبْدِ الوادي همى كرَمَا   فكأنك فيهم مُبتسِمَا

قمرٌ حفَّتهُ نُجومُ سَمَا   لا ظلم لديْه ولا ظُلَمُ

أمليكا جاوزَ كلَّ مدى   وأنالَ القصْدَ لمن قصَدا   وأفادَ ندَى، وأبادَ عِدى

Scanned by CamScanner

مَن نال رِضاكَ لقد سَعِدَا ونأى عن ساحَتِهِ العَدَمُ

وإليك مَقالةَ أندَلسِي تذَرُ الفصَحاءَ ذوي خَرَسِ لاحَتْ كالأنجُمِ في الغَلس

ونأتْ عن راحَةِ مُلتمِسِ تَختال بِحِكمَتِهِ الحِكَمُ[31]

ثم انصرفتُ لسَوْق مُرْسِلي[32] إلى بابه الكريم. رَجَعَ الحديث. ولمّا[33] رأت العرب ما وهب الله لأمير المسلمين من عِزِّ السلطان، وتمهيد الأوطان، وبلوغ الأوطار، ومضاء السمهرِيِّ[34] بسعادته والخَطار، وتيقنوا جنوحَ عدوِّه الأكبر إلى السِّلم، وذهابَ كل خيال طارق حتى في الحُلم، تقمّنوا مسرَّة مَقامه الكريم بإعطاء رَهائنهم، على سَنَنِها المتعارف لسَلفه الكريم من آبائهم فخرج لقبضها منهم ولده المولى الأميرُ الأعلى أبو تاشفين، أعزه الله، يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الآخر، فنزل البطحاء مطيلاً بها المُقامَ[35] لذلك.

وعلم ذلك سلطان المغرب حينئذ أبو زيان بن أبي عبد الرحمان ابن السلطان أبي الحسن ووزيره عمر بن عبد الله بن علي، فصانعاه بتوجيه هديَّة مشتمِلة على عشرين فرسًا مُسْرَجة ملجَمَة، وصل بها إلى بابه العلي يوسف، عم الوزير المذكور، والفقيه عبد الرحمن بن محمد ابن الأمام، في الثاني والعشرين من جمادى الأولى. فألفيا ببابه العلي الأمير أبا زيد عبد الرحمن بن أبي يفلوسن علي ابن الأمير أبي علي عمر ابن السلطان أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق، رسولاً عن عمّه عبد الحليم، متملك سجلماسة يومئذ، في طلب المؤازرة من أمير المسلمين أيده الله.

وفي خامس جُمادَى الأخرى، وَفَدَ على بابه العلي[36] محمد بن يوسف بن أومازير الموَحِّد ومحمد بن يعقوب بن علي الرياحي من بجاية، رسولَيْن عن صاحبها حينئذ الأمير أبي إسْحاق ابن السلطان أبي يحيى في طلب الصلح، على أن يكبح مُرْسِلهما أبا زيان ابن عَمِّ أمير المسلمين لحًا[37] السلطان أبي سعيد المذكور[38] مستقرًا عنده، عمَّا يَرُومُه من الفساد بأقطار أمير المسلمين قولاً أو فعلاً[39]، كل ذلك تقيَّة من صرختِه نصره الله الأمير أبا عبد الله محمد بن يحيى على

Scanned by CamScanner

طلب مُلك بجاية.

قال المؤلف لطف الله به[40]: ولحِقتُ، أثناءَ هذا، بمُرْسِلي الأمير أبي عبد الله المذكور رحمه الله. وجئت به قاصدَيْن باب مولانا أمير المسلمين، نصره الله، فلقِيَنا وزيرُه المرحوم أبو محمد عبد الله بن مُسَلم بسِيرَات، ورحنا في رفقته إلى الحضرة العلية، فدخلناها ثامن جمادى الأخرى، وأتينا قصْرَ الخلافة المُنِيف، وقد جلس أمير المسلمين، أيده الله، بمشواره الأعلى من رحبة داره الكبرى، كأنما هو بسَرير مُلكه قمَرُ السماء بمنزل شرفه، تحفُّ به الأسِرَّة الأعلوْنَ، من قومه وعَرَبِ قطره، مَغْقِلِيَّة وعامِرِيَّة، وأعيانُ الطبقات من أهل حضرته، كواكب سَعْد اتصلت بربِّ الطالع، يروق جمالها الأبصارَ، وتقف دونَ كنْهِ جَلالِها البَصائر، واشتمل مَجْلسُه السعيد هذا على مَلِكيْن حَفصِيّ ومَرينِيّ ورَسُولين كذلك، كل يَخْنَعُ في قصده لأمير المسلمين رَهْبَة أو رَغْبَة، فلمَّا انقضى السلامُ، أنزلنا بدار يُومن من قصور الإمارة على الفرش الحافلة والقِرَى الجَزيل والبرِّ العظيم النَّظير.

فتأمَّلْ، أعزك الله[41]، هذا الخليفة، أعلى الله مَقامَه وشَرَفَهُ، وجزاءَهُ الإساءَة بالإحسان، وغفرَه عظائم الزلات، واحتقارَه كبائرَ الجنايات، فلا أعظم وِزْرًا ممَّا أسلفهُ هذا الأميرُ أبو عبد الله فيه وفي عمِّه رحمه الله، ثم لم يَكفِهِ الاحتِمالُ وسعَة الصَّدْر حتى شفعَ ذلك بالكرامة والبرِّ، والاحتفاءِ وبُلوغ القصْد[42]، والنَّصْرِ على طلبِ المُلك، خلَّد الله فخرَه، وأجزل من الحسنات ذخرَه، وأطالَ ثناءَهُ وشكرَه، وأطاب في ألْسِنَةِ الأقلام وأفواهِ الأيام ذكرَه. قلت: هذا، والله يَعْلم[43]، اعترافٌ بالحَقِّ، وتسليمٌ لأهل الفضل في الفضل، ولكلٍّ عليَّ يدٌ ونعمَة، رحم الله ذلك، وأطال مدة هذا، وأعانني على مفترَض حَقهِ.

رَجَعَ التاريخ. ثم إن الخليفة، أيده الله، صرف رُسُلَ المغرب بالخير، وبعث مع رُسُل المُوَحِّدين الفقيه العالِمَ المرحومَ أبا عبد الله محمد بن

Scanned by CamScanner

أحمد الشريف الحَسَنِيّ، وثبط الأمير أبا عبد الله إلى أن يَصِل، سياسة اعتَمَدَها في مُلكه يَعود نَفعُها على المُستَنصَرِ به. ولأيام قليلة وَصَل الخبرُ بفرار محمد ابن السلطان أبي سعيد عَمّ أمير المسلمين، أيّده الله، لحُا[44]، من بجاية، واستقراره بفَحْص حَمْزَة[45] عند شيخ عَرَبها أبي الليل بن موسى بن أبي الفضل اليزيدي، قادحًا بأذيال الوطن نارَ فتنة[46]. فأتبع أيّده الله الرُّسُلَ المذكورينَ مَن استردَّ الفقيه أبا عبد الله الشريف، وثقف بالمَدِيَّة الآخرين. قلت: ويا بَرْدَها يومئذ على كبدِي وكبدِ مخدُومي الأمير أبي عبد الله محمد، رحمه الله، لِمَا كنا وجدناه من ألم فِراق الوَطَن والبُعْدِ عن مُقارعة العَدُوّ، ولِكلِّ أجَلٍ كِتابٌ[47].

رجع. ثم أنهض أمير المسلمين أيده الله وزيرَه عبد الله بن مُسَلم في عساكر لا تُحْصَى لأخذِ ابن عمِّه أو طرْدِه من الوطن[48]، ثم إخسابِ أمَل الأمير أبي عبد الله محمد الموَجّد فيما أمَّله من مصارخَتِه على مَلِكِ وطنه فارتحل عن الحضرة الكريمة وارتحلنا معه يوم الجمعة ثالث عشر شهر رَجَب الفرد، ورحل أيضًا الخليفة، أيده الله، من الغد، فنزل بمَحَلته المنصورة في قِنَّةِ جَبَل تيزي المُطِلّ على الحَضْرَة من قِبَلَتِها، فأقام هنالك شهرًا كاملا ثم انتقل إلى المُنيَة يوم الأحد الرابع عشر لشهر شعبان المكرَّم. ومن الغد ورد عليه الخبرُ بأنَّ خالد بن عامِر قَتَلَ أخاه شعَيْبًا غيلة، لا لسبَبٍ سِوَى انقطاعِهِ لخِدْمَة مولانا أمير المسلمين، أيده الله، ونصْحِه إياه. ولم يزل الوزير عبد الله بن مسَلم يطوي بنا المراحل ويستألف العربان من زُغبَة ورياح، ويَضمُّ الحُشودَ فارسًا وراجلا، إلى أن حَلَّ بفَحْص حَمْزَة المذكور في إبّان حصادِ الزَّرْع، في أمَمِ تكاثِرُ الشهبان، وظُعونٍ لا يَحْويها العَدُّ. وتذمَّم أبو الليل المذكورُ وصاحبُهُ بمَعْقِل جزجَرَة ذِي الحَصانة المعروفة، والأنافة المشهورة. فأخذ بمُخَنَّقِهم، واجتاحَ الناسُ ما ألفُوهُ بحَمْزَة من الزَّرع قائمة والحَصيد، وانتهَبُوا ما أدْرَكوه من الأمْتِعَة والضروع. ثم أخذ

Scanned by CamScanner

الوزيرُ من العَرَب المَراهين على العادَة، واستعَدَّ لإطالة حِصار القوم بما يَجِبُ، فبادر أبو الليل بنُ موسى بالخِدْمَة مُلتزمًا صرفَ أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد رحمه الله، عَمّهِ، إلى الشرق، وأعطى الوزيرَ ولدَهُ رَهْنًا بذلك، فانصرف أبو زيان إلى تونس، وأراح الله البلادَ والعبادَ من فتنتِهِ.

واستقدم أمير المسلمين، خلد الله مُلكه، وزيرَه لسياسة اقتضت ذلك، فامتنع الأمير أبو عبد الله محمد المُوَحّد من الرجوع صُحبته فودّعه وانصرَفَ إلى وَطن رياح. وقَفَلَ الوزيرُ أبو محمد عبد الله بن مسلم، رحمه الله، إلى باب الخليفة أيده الله غانمًا، فوصله ثانيَ يوم دخوله نصره الله إلى حضرته الكريمة من المُنْيَة، وذلك يوم الاثنين رابع شوال. فألفى بالباب الكريم الشيخ أبا يعقوب وَنزمار بن عَريف، مُزمِعًا المُقامَ تحت إيالة الخليفة نصره الله، والانضِواءَ إلى حرمته، وخالد بن عامر، قاتلَ أخيه بالأمس، والناسيَ ذنبَه فيه بما سُوِّلَ له من أمَلِه.

وفي آخر هذا الشهر استشعر الشيخ أبو يعقوب[49] المذكورُ المَخافة من بني عامر عدوّ طبيعته، فخرج عن الحضرة العلية يبغي أهله بصيدور فأزْحَلهم، وطَوَى المَراحِلَ والساعاتِ إلى أنْ جاز[50] وادي مَلْوِيَة ناجيًا بنفسه. وفي هذه الأيام أمر الخليفة، أيَّدَهُ الله، بِثِقاف خالد بن عامر جزاءً بما كسَبَته يده. وفي يوم الخميس السادس والعشرين لذي حِجَّة، سافر الأمير الأعلى الأعَزُّ المولى أبو تاشفين[51] لاستيطان الجزائر والاستقلال بأمرها، عِوَضًا من جَدّهِ المرحوم المولى أبي يعقوب[52].

---

(1) ع: بحجابته.

(2) ع -: كما مر.

(3) س، ع: دخوله.

Scanned by CamScanner

(4) ع -: وغير متعدد

(5) ع +: دوني.

(6) ع: حصرا.

(7) ع: خمرا.

(8) ع +: هذا.

(9) ع: أيده الله.

(10) وفي واسطة السلوك: بالهوى.

(11) واسطة السلوك: باب.

(12) في ر: مرمأي؛ وفي ل، ب: مرباءي. والمربأ هو المرقاة، يريد الرشاد والصلاح.

(13) وفي واسطة السلوك: الشفيع.

(14) برح الخفاء يعني: زال فوضح الأمر.

(15) ع: الظلماء.

(16) واسطة السلوك: ولد.

(17) واسطة السلوك: الأكرما.

(18) واسطة السلوك: وعجائب.

(19) ع: ولمحمد.

(20) ع: القيسي

(21) س +: أكرمه الله.

(22) ع: وبدت.

(23) ع: يا شهر ربيع.

(24) ع: ومن الأنوار.

Scanned by CamScanner

(25) ع: ظهرت.

(26) ع: لفراق.

(27) ع: أسد.

(28) ع: ملك.

(29) ع: من قعدا.

(30) ع: بالله عليك ومعتصم.

(31) هاذان السطران وردا في س، وهما ساقطان في ع، وفي النسخ الأخرى لبغية الرواد.

(32) ع: مخدومي.

(33) ع: لما.

(34) ع: المشرفي.

(35) ع: مطيلا المقام بها.

(36) ع: على باب مولانا أمير المسلمين.

(37) ع: نجل.

(38) ع +: قبل.

(39) ع: قولا وفعلا.

(40) ع: عفا الله عنه.

(41) ع: عفا الله عنه.

(42) ع: والاحتفاء بالقصد.

(43) ع -: يعلم.

(44) ع -: لحا. وقوله لحا: أي لاصق النسب.

(45) ز، ط: يوطا حمزة.

Scanned by CamScanner

(46) ع: نار الفتنة.

(47) قرآن، سورة الرعد، الآية 38.

(48) ع -: من الوطن.

(49) ع +: بن عريف بن يحيى.

(50) ر: جاوز؛ ع: حل.

(51) ع +: ابن مولانا الخليفة نصره الله.

(52) ع -: المولى أبي يعقوب.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة خمس وستين وسبعمئة

مَرَّ صَدْرُ هذه السنة في هُدْنَةٍ انسدلتْ منها الأستار، وسِلْمٍ اضطجع بمهاده الأملدُ والبتار، وظهورٍ حَطَّتْ بيَدِهِ عن قِسِيِّ الفتن الأوتار. وفيه صرف مولانا أمير المسلمين، أيده الله، وجه العناية والاهتمام إلى المدرسة الموضوعة على ضريح والده المرحوم المولى المقدَّس أبي يعقوب رضوان الله عليه فولى شطرها بصرَ الاختيار(1)، ومدّ إليها يدَ الإنفاق، فضاعف بها الفَعَلَةَ، وأحمد المغارس، وأسمك المصانع، وأرحب الأبنية، وحبَّر الغروس، واستجلب الأمواه، وأجزل الأوقاف، وعيَّن الجِرايات، ورسم فيها الخطط، واصطفى لتدريس العلم بها الفقيه الأعرف العالم العلامة المُدَرِّس(2) أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحسني فتمَّ ذلك حسب الاقتراح وعلى أفضل الأماني.

وفي خامس شهر صفر كان ابتداءُ الإقراءِ فيها، وحضر هو أيده الله لذلك، فكان يومًا مشهودًا، أجزل الله ثوابَه، وملأ بآي الحسنات كتابَه، وبلغ في الدنيا والآخرة أوطارَه وآرابَه. وحَضَرَتْ ليلة الميلاد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام(3)، فكان الاحتفال بمَذْعاها عظيمًا(4). ومِمَّا أنشده مُسْمِعُها من نظم مولانا الخليفة، أيده الله، مدحًا في شفيعِه خير المرسلين صلى الله عليه وسلم، قوله:

هوِينـا الظِّبَا وأَلِفنا الظُّبَا ... وكم مِن فؤادٍ إليها صَبَا
إلى أن بَدا الشيبُ في مَفرقي ... وأجْرَيْتُ من خيلِهِ أشهَبَا
فأيقظني الشيبُ من غَفلتِي ... ففي لِمَّتي من حديثي نَبَا
وقد عاد غضُّ الشبابِ به ... محيلاً ولوني غدا مُذهَبَا
فوَا أسَفي من ذنوبٍ مَضتْ ... تَقضَّيتُها في زمان الصِّبَا
وكم لمتُ نفسي فما أقلعَتْ ... وعاتبتُ قلبي فما أعتَبَا
وكم قد بَكَيْتُ لذنبٍ جَنَيْتُ ... وقلبي نَهَيْتُ ولكن أبى
مُسيءٌ قسَا قلبُه إذ أسَا ... فذابَ أسًى عندما أذنَبَا

Scanned by CamScanner

لقد حقَّ أبكي على زلتي ... فذنبي لهجريَ[5] قد أوجَبا

وليس لخطبي وتمحِيص ذنبي ... سِوى فرطِ حبي لأهل العَبا

فيَا أهلَ وُدِّي لقد زاد وَجْدي ... إلى أهْل نجْدِ وأهْل قبَا

فذِكرُهُمُ عَادَ لي عَادة ... وحبُّهُمُ صارَ لي مَذهَبَا

و حُسنهُمُ كم محب صَبَا ... إليه وكم من فؤادٍ سَبَى

فإن يرحموني فمن فضلِهم ... وإن يهجروني فيا مرحبا

وإن هم يجودون لي بالرِّضَى ... فيَا مَا ألذ ومَا أعذبَا

فيا حادِيَ الرَّكبِ نحوَ الحِمَى ... إذا جئت نَجْدًا وتلك الرُّبَى

فأبْلِغ سَلامي لِسُكانها ... ذكِيَّ الشذا عاطِرًا طيِّبا

وقل لهُمُ يرحَمون المُحِبَّ ... فما اختار غيرَهُمُ مَطلبَا

فرَقوا لقلبٍ غدَا مُشْرِقًا ... وحنوا لصَبٍّ ثوى مَغربا

فواكِفُ أجفانه ما رَقا[6] ... ولاعِجُ أشواقِهِ ما خَبا

حَمَى النومَ عَنيَ بَرْقُ الحِمى ... وشاق فؤادي نَسيمُ الصَّبَا

فجِدُّوا السُّرى لشفيع الوَرَى ... عسى أن ترى مُقلتي يثربَا

فألتَمِح[7] النورَ من أرضِها ... وأستنشق المِسْك بل أطيَبا

بلادٌ مقدسَة حَلَّها ... نَبيُّ الهدى المصطفى المجتبى

فشَهْرُ رَبيعٍ أتى بِرَفيعٍ ... نبيّ شفيع لمَن أذنبا

فأهْلاً وسَهْلاً لِمَوْلى أحَلا ... وبَدْرٍ تجَلَّى جَلا غيْبها

نَبيٌّ أتى رَحْمَة للعِبادِ ... وأظهر للحَقّ نورًا خَبا

ونيرانُ فارِسَ قد أخمِدَتْ ... فلِلَّه ذلك ما أعْجَبا

وكِسْرى تَساقط إيوانُهُ ... وذاق من الرُّغب كأس الظَّبا

وخَرَّتْ قواعِدُ إيوانِه ... وصارت رَميمًا كمثل الهبَا

وكلّمَت الوحْشُ للمُصطفى ... ونطقُ الذِّراع له أفصَحا

وشقّ له البدرُ عند التمام *** وردّت له الشمس أن تغربا
وأسرى به ليلة الإزتقا *** إلى قاب قوسين أوأقربا
وكم معجزاتٍ لخير الورى *** تجلُّ عن الوصف أن تحسبا
فيا سيّدًا قد حباه الإله *** على الخلق طرًّا بما قد حبا
ويا من سما قدرُهُ رفعة *** ويا من علا في العُلى منصبا
يخصُّك موسى بأزكى سلامٍ *** يروقُ النفوسَ كنشرِ الكبا
ومِسكٍ فتيق وزهرٍ أنيقٍ *** بروضٍ شريق حوته الرُّبى
فربّي حسبي لِوجدي وكربي *** و ما لي لذنبي سوى المُجتبى

وللحاج الطبيب أبي عبد الله محمد[8] بن أبي جمعة التلالسي قوله:

أأصبُو ورأسي بالمَشيبِ غدا حالٍ *** وحال لذاك الشيب لمّا بدا خالِي
وكيف لمِثلي بالتصابي وبالهَوى *** وهل للتصابي أن يَمُرَّ على بالِي
وعَنّي شبابِي قد تولى وقد مضى *** فقلبيَ منه لا هنيء ولا سالِي
عَلا مفرقي جيشُ المشيب فهَا أنا *** جَديد شبابي مُذ ألمَّ به بالِي
نفائسُ أنفاس الشباب قد انقضتْ *** وما ليَ من بعد الشبيبَة من آل[9]
ونادَى لسانُ الحال شمّز إلى متى *** ترى غير ناسٍ للتصابي ولا قالِي
فحَرَّمتُ سُلواني وحُزنِي أبحتهُ *** وقلت لنفسي قد دَنا عنكِ ترحالِي
فجدّي بحَزم في نجاتِكِ وانظري *** بعَزم لِما فيه الصلاحُ لأحوَالِي
ألا فارْحَلي قصْدًا لِطيبَة وانزلي *** بها قبل أن أقضَى[10] وترفع أغمالِي
تقدَّمَ أقوامٌ لتقبيل تُربِها *** وأصبَحْتَ تسعى في عَناءٍ وتضلال
أمِنْ بعدِ أنس كان لي بِجوارها *** فأبلسْتُ يا وَيحي لِسَيّئ أفعالي[11]
تَرفّقْ خليلي إنَّ أنسًا فقدتهُ *** جديرٌ بِأن أبكي عليه ويَبكى لي
أشيّعُ رَكبًا بعد رَكبٍ لِطيبَةٍ *** ويُقعِدني غيّي وكثرَة أغمالي
بقُرْبِ رَسول الله طاب تُرابُها *** وأضحى لها جيدٌ بأنوارها[12] حالي
نبيٌّ كريمٌ شرَّفَ الله قدرَه *** وفضّله في البعْد والقبْل[13] والحال

نبيٌّ بـه شـدنا علـى كـلّ أمّـة فـلا أمّـة إلا لـنا تحـت إذلال

سـما لإلـه العـرش واللـيل ألـيل من المسجد الأقصى إلى المرتقى العالي

لمـولده نـورٌ علـى الأرض قـد بـدا غـدا دونـه بَـدرُ الدجـى بعـد إكمـال[14]

نجـونا بـه مـن كـلّ خطـبٍ يـروعُنا وأنقـذنا مـن كـلّ خـوفٍ وأوجـال

هـو المـصطفى سـاد الأنـام وقـدرُهُ علـى كـلّ مَخلـوقٍ نطقـت بـه عـال

حلـيمٌ رحـيمٌ مؤثـرٌ مُتفـضّلٌ رؤوفٌ عطـوفٌ مـانحٌ دون تَـسْآل

ربـيعٌ بَـشيرٌ للأنـام أتـى بـه فكـلُّ ربـيعٍ فـيه راحـة أغـلال

وهـل مِـن شـفيعٍ غـيره يُرتجـى إذا عـرى النـاسَ شكرٌ مِن عَذابٍ وأهوال

بأمْداحِـهِ يـا نفـسُ لـوذي فإنهـا شِـفائيَ مـن وَغـكِ الذنـوبِ وإبْلالِي

فمَـن رامَ أن يُحـصِي مدائحَ[15] أحمـد فـذلك شـيءٌ لا يَمُـرُّ علـى بالِـي

علـيه صـلاةٌ تَمـلأُ الأرض والـسّما يُحَـطّ بـه وِزري يُخَفَّـفُ[16] أثقالـي

وبعـد الرضـى عنـه وعـن أهـل[17] بيتـه وأصـحابه أهـل الفـضائلِ والآل

أقـومُ وأدعـو للخلـيفة إنـه لخيـرُ إمـامٍ فـي ذرى شـرَفٍ عَـال

علـى الله فـي أحـواله مُـتوكلٌ ومـا إنْ لـه إلا الـتوكل مِـن حَـال

يُـشيّد أمْـرَ المُلـكِ طـول نهـارِهِ وإنْ جَـنّهُ اللـيلُ البهـيمُ بَـدا[18] تـال

فكـلُّ امْـرئ يأتـيه يَطلـبُ نـائلاً يعـود غنِـيًا مُثـريًا بعـد إقـلال

وصـارمُه أسْـد الكِفـاح تخافـه فهـا هُـوَ قـتَّالٌ بـه كـلّ قـتّال

أنـارَتْ مَعالـيه وأشـرَق فـضلُهُ كـبدرٍ تـبَدّى للـوَرَى بعـد إهـلال

وأوجَـد عـبد الـوادِ بعـد دُثـورها وأظهـر رَسْـمًا دارسًـا بعـد إمْحـال

تِلِمْـسانُنا أضـحَتْ بـه وبيُمـنه تَتِـيهُ علـى فـاس الجَديـدة والبالِـي

فـنحن بـه فـي طِـيبِ عَـيْش وغِـبْطة وتجْديـدِ أفـراحٍ وفـسْحَةِ آمـال

قـبائلَ عـبدِ الـوادِ سَـعْدُكمُ بَـدا ودولـتكم عـادَتْ إلـى أشـرفِ الحَال

ولـستُ أراهـا تَنقـضِي عـنكمُ ولا تـزالون فـيها فـي نَعِـيمٍ وإفـضَال

وموسـى أميـر المؤمنـين مُـؤيّد بنَـصْرٍ وتَمْكـينٍ ويُمْـنٍ وإقـبال

Scanned by CamScanner

فها أنا مُذ بايَعتهُ وخدمْته أجرُ على أهل البسيطة أذيالي
فإن نالني منه قليلُ عِنايةٍ فما هذه الدنيا وحَقهِ إلا لي

وكان مَلِك المغرب ووزيره المذكوران، وإن أظهرا صداقة أمير المسلمين وصانعاه بما تقدم ذكره، منطويَيْن له على حقد مُخضَإ[19] وحربٍ مُنْظرٍ، لِمظاهرته، أيده الله، أولاد الأمير أبي علي عمر[20] ابن السلطان أبي سعيد الذين بِسجلماسَة وأخذه بضَبْعِهم. وفي هذه السنة خَجَّ كبيرُهم عبد الحليم حليفَ جلاء، فسارعا ببعث محمد بن عثمان ابن السلطان أبي تاشفين مُلبَّسًا شارة الإمارة أيضًا[21]، وآزروه بموسى بن علي ابن برغوث المذكور مأسورًا عندهم، وعمر بن محمد بن مَجَن، وسعيد بن موسى بن علي الغُزّيّ، وحاشيةٍ وأتباعٍ، ثم حِصَّة مرينية وغَوْغاءِ عَرَبٍ مغقِلِيَّةٍ، وأوْقَعَا سقطه بهشيم المنافقين عن أمير المسلمين من أهل وطنه، مرسِلَيْن عليه ريحَ الإغراء.

فثار بالجانب الغربي إعصارُ الحرب فتوَجَّه الوزير المرحوم أبو محمد[22] عبد الله بن مُسَلَّم أول جمادى الأولى لحشر[23] أمَم الشرق، وعاد يَجرُّ خَميسَهم العَرَمْرَم فوصل إلى الباب العَلِيّ سابع رجب، وقد نزل القومُ بعَيْن الصَّفا مِن جبل بني يَزناسَن. فخرج أمير المسلمين، أيده الله إلى ركابه العزيز يوم الجمعة الثالث والعشرين منه ورحل مغرِّبًا نحوَهم في جيوشٍ أضاقت الفضاءَ وفاتت الإحصاءَ، وسبق إليهم رعبُه، فولَّوْا الأضبارَ ذاتَ اليَسار، فتلَّهم[24] إلى منزل[25] رأس العَيْن، مِن قِبْلة جبل دَبْدو. فمِن هنالك غرَّبَتْ عن المخالفين حِصَّة مَرين، وشرَّق الآخرون مُضحِرين، فثنى أيده الله العِنان، ودخل حضرته الكريمة يوم السبت ثامنَ شعبان المكرَّم. فأنشده محمد بن صالح شقرون، أحد كتاب دولته الكريمة قوله[26]:

حَدِّثْ عن المَلِكِ المنصور ما شِيتا تجد ألذ حديثٍ يُشبه القوتا
وَدَعْ غرائبَ فتحٍ كلها عَجَبٌ غدا النظامُ بها دُرًّا وياقوتَا
واقرَعْ بها كلَّ أذن فهيَ وَاعِية فقد أذاعتْ له في العالَم الصّيتا
واقطعْ بحِسِّك قطعًا دون ما رِيَبٍ فإنه مَلِكٌ ما شاءَهُ يُوتى

Scanned by CamScanner

ولا يـريبك شـكٌّ أنَّ نُـصْرَتَهُ   مـن السَّماء ومـا يَـنفكُّ مَـنْبخوتا
لا يـستطيعُ عَـدوٌّ قـربَ سـاحَتِهِ   مَـن رامَـهُ بعِـنَادٍ عـاد مَكـبوتا
جَـرَتْ علـى أفقـه الأقـدارُ حَامِـيَة   لـه فـزادَ بهـا عِـزًّا وتثبيـتا
كـم مِـن عَرَمْـرَم قـد أرْدتْ كتائـبُهُ   وخَلفَـته بطغـن الـرُّمْح مَـنكوتا
تنبـيك هِمَّـتهُ عـن سِـرِّ مُدَّتِـهِ   فمَـنْ رَآه بَـدِيهًا عـاد مَـبْهوتا
لا تـستفِزُّ بـه الأهـواءُ جُملـتها   ولا الرُّقـى[27] لا وَلا أسْـحارُ هاروتـا
مَواقِـفُ الحـرب لا تَغـدو أوامِـرَهُ   إن قـال كفِّـي لهـا لـم تـبْدِ تغنِيتـا
وإن أشـار بإغـراءٍ لهـا قـصمَتْ   ظَهْـرَ العَـدوِّ ونالـتْ منه تـشتيتا
انظـرْ إشـارته بالغـزب مـا صَـنعَتْ   لمَّـا أتـاهم ثـنوا نحـوَ العَـرى ليتا
وأصبَحوا شرَّدًا فـي البيد قـد جَفلـوا   جفـلَ[28] الظليم غـدًا بالحَبْل مَـثْؤوتا
وأسْـلموا جَـزَعًا للحِـين جـامِعَهم   وخلفـوه حَلـيفَ الذعْـر مِقليتا
ونافـرَ الـبعضُ بَعْـضًا بَعْـدَ ألفـتِهم   حتـى لقـد خِلـتَ ذا ضَـبًّا وذا حـوتا
وعـادَ مـا جَمَعـوا أيـدِي سَبا شـتتا[29]   بـضعْفِ رَأيٍ وقـد جَـاؤوا مَـصاليتا
لـو أنهـم سُئِلوا عـن أضـل جَفلتِهِمْ   لقـال أثبَـتهُمْ خِلـتُ العَفاريـتا
قـلْ للأعـاربِ والأغـداءِ جـاءَكمُ   حامـي الـذمار قـرينُ[30] المـوتِ مبغوتا
دِيـنوا لبـيعةِ موسـى دون مـا نكَـرٍ   فإنـه سَـيْفُ مُلـكٍ جـاءَ إصْـليتا
لا يَـزفعُ الـسَّيْفَ عـنكم غيـرُ طاعـتِهِ   فاسـتَمثِلوا أمْـرَه لا تـبْدوا جَبْـروتا
كـم مِـنةٍ نِلـتمُ مِـن جـودِ رَاحَـتِهِ   إذ كـان أغظمُكـم عـارٍ[31] ومسنوتا[32]
أمَـدَّكم بنِعِـيمٍ مِـن مَواهِـبِهِ   ومَـدَّ أيـدِيَكم خيـرًا وسُـبْروتا
فمـا رَضِـيتُم سِـوى كفـرانَ نِعْمَـتِهِ   تـبًّا لكـم جئـتمُ نكـرًا وتبهيـتا
سَـيَخلعُ الـسَّيْفُ مـنكم طـوْق مِنـتِهِ   وذاك أجـدَرُ بالكفَّـار تـشميتا
لاغـزوَ أنَّ الإمَـامَ العـدلَ يُـزهِقكم   علـى الـبَدِيهَةِ إيجافًـا وتبييـتا
وذاك فـرْضٌ علـيه[33] كالـصلاة فقـد   مَـضَى علـيكم كـتابٌ كـان مَوْقـوتا
مَـن يَنْـصُرِ الله يُنـصَرْ فـي بَـرِيَّتِهِ   ومَـن بـه يَعْتـصِمْ لـم يُلـفَ مَكـبوتا

Scanned by CamScanner

مَـن ذا كموسـى أميـر المسلِمِين إذا   تدْعَـى نـزالِ ويَغـدو الـشهْمُ هِـرِّيتا
ودارتِ الحزبُ دَوْرانَ الرَّحَى وسَطتْ   علـى بنـيها ولمَّـا تَـزعَ تَـزبيتا
هُـنَاكَ تغـرفهُ عِـزفانَ مُنـتقِدٍ   تحْـتَ العَجاجَـة يَستقري الطواغِيتا
ورُمْحُـه كـشِهَابٍ إثـرَ مـسترقٍ   يُـزدِي العُـدَاة بـه صَـمْنيًا وتَـصْمِيتا
يُدِيـرُ فـي أدهَـم الهـيْجاءِ أدهَمَـهُ   كـرَّ الحِمايـة قـد أبْـدى المَخافِيـتا
مَوْلـى أعـادَ رُسـومَ المُلـكِ ظاهِـرَة   بعـد الدثـور وقـد لـمَّ الأشـاتِيتا
وأمْـسَدَ الحَـبْلَ مـنهم يُمْـنُ طلعَـتِهِ   إذ كـان مـن قـبلُ واهـي المَسْدِ مَبْتوتا
ورَدَّ مـن عَـدَمٍ قـومًا إلـى نِعَـمٍ   وانهـالَ مـن كـرَمٍ لا يَختـشِي ليـتا
فـرْضٌ علـى كـل عـبدِ الـوادِ طاعَـتهُ   ومَـن سِـواه يَـرومُ المُلـك مَلفـوتا
لـولاه لـم تعـرف الأعْـدَا معانَـدَة[34]   ولا أقامـوا ولـوكان ابـن صـافوتا[35]
فـإن يكـن جَـده دِنْـيًا[36] يَـبوءُ بـه   فجَامِـعُ الكـلِّ زيَّـانُ لِمَـا شـيتا
وفـضلُ موسـى علـى كـلِّ بسُؤدَدِهِ   فقـد أتـى فـي بَنِـي زيَّـانَ مَـنعوتا
به اسْتقامَ اسْطِقِسُ[37] المُلكِ دونَ مِرَا   ومَـنْ بـه المُلـكُ يَـسْمُو راحَ كِبْـريتا
مـولايَ يهنـيك نـصْر الله يـا أمَلِـي   وللأنـام بمـا فـي الفـتح أغطِيـتا
خـذها إلـيك بَقِيتَ الدهـرَ فـي دَعَـةٍ   مِـن نظـم ذي لَـسَنٍ[38] مـا زالَ سِـكيتا
لازلـتَ فـي نِعَـمٍ شـتى مُجَـدَّدَةٍ   لا تـدعُ فـي غـرَضٍ إلَّا ولبِّيـتا
مِنِّـي علـيك سـلامٌ نـشْرُهُ عَطِـرٌ   مـا حَمَّـل الله جـرمَ الأرض بهمـوتا

ثم أمر مولانا أمير المسلمين أيده الله وزيره عبد الله بن مسَلم رحمه الله بالجنود الوافرة مشرِّقًا لاعتراض القوم، ولم يشعروا بذلك، فدخلوا التل على ثنيّة لتات، وتصادف الفريقان بيَلحَنِّي[39] من[40] منداس، فلم يثبت المخالفون لمصادمة الوزير ولا قاربوه، بل أجفلوا رأيَ العَيْن مشرقِينَ، فتلاهم يُغِذ[41] السَّيْر[42] إلى أن ألجاهم للتذمم برياح، فنزلوا المَسِيلة وخيّم هو بوادي الجنان تجاهَهم. ولقد كادت رياح تستأصلهم برأي الوزير لولا إمهال الله تعالى لهم بما قضاه من موت الوزير أبي محمد عبد الله بن مسلم رحمه الله هنالك، آخر ذي القعدة، فانثنت أعنة العساكر

بَعدَهُ حافة بجنازته، وانخزل العرب أجمعون عنهم وظاهروا العدوّ، فاستشرى بغيه، وتجنح ذرُّهُ، وطمح أمَله، فغلغل مغرّبًا، ووافى الخبر بذلك أميرَ المسلمين أيده الله. فأزعَجَ لحِينه الشيخ عثمان بن مَسلم أخا الوزير لِلقاءِ العساكر والربط على جأشِها، وإسكان هَرج[43] بحرها في الرابع لذي حِجّة. ثم أردفه نصره الله، ثامن ذي الحجة، بولده المولى الأمير الأعلى أبي تاشفين أعزه الله.

ثم خرج أعلى الله ملكه[44] بركابه العلي، يوم الاثنين الحادي عشر منه، فجدَّ السيرَ لحرب الأعداء، بعد أن استوزر الشيخ أبا موسى عِمران بن موسى بن فارس ابن حريز اللؤلئي، فلقِيته الجيوش دُوَيْنَ البطحاء فثناها، ونزل البطحاء وقد طانبها بإغيل ان يزان[45] العَدوُّ. وفي يوم الثلاثاء الخامس والعشرين لذي حجة المذكور تصارفت الطائفتان الحرب بجَالِيّ[46] وادي مِينَة[47]، نهارَهم كله، وأميرُ المسلمين، خلد الله مُلكه، مُطِلٌّ فوق رابيَة إزاءَ مَحَلته، ومعه شَوْكة قومه.

وكان فيهم مَن أبطن النفاق، وأزمع الخذلان فباطن العدو. فلم يشعر أمير المسلمين، وقد جَنَّ الليل، إلّا والناس قد انفضت عنه سوى مقنب فئة صُبُرٍ أوفياء لا يُغتدُّ بنزرهم. فاعتمد نصره الله أبْنِيَته، واستركب حرَمه، ورفع أخمال أمواله العديدة، وأدلج صَمْدَ حضرته الكريمة. ففي وادي سِيج[48] غشِيَه[49] النهار، والعدوُّ خلفه كأنهم الجراد المنتشِر، قد مَلؤوا الفجاج، وأطنبوا العجاج، وفرعوا الربى، وخَلوا للحرب. فثاقفهم به مَلِيًا إلى أن كبح من جِماحِهم، ثم كثروه، فراح يسير الهوَيْنا، والحرَم والمال بين يديه، وساقة أوليائه منعقِدَة خلفَه، ونار الحرب تضطرم من ورائهم، إلى أن عَلا، نصره الله، ثَنِيَّة تِيقنْ بَرِيد، وقد تكالب الأعداءُ خلفه، فهنالك صابَرَ القومَ، وصادمَهم أولياؤه الأوفياء مستميتين، فاحتدم المِراس، واشتدَّ على أفئدة فِئةِ الهدى البأس وارتفع الوغى وعظم الشقا، فهنالك صَلِيَ أمير المسلمين، أيده الله، بنفسه الكريمة لظى الحرب، وشهد معمعة الطعن والضرب، منشدا لسان حاله قول أبي فراس الحمداني[50]:

ونحـــن أنـــاسٌ لا توَسُّـــطَ عـــندنا   لـــنا الـــصدر دون العالمـــين أو القبرُ

تهـونُ علينـا فـي المعالـي نفوسُـنا ... ومَـن خطـب الحسناء لـم يغلِـه المَهـرُ

ومتمثلاً بقول امرئ القيس:

بكـى صـاحبي لمّـا رأى الـدّرب دونـه ... وأيـقن أنــا لاحِقــان بقيْــصَرا

فقلـتُ لـه لا تـبكِ عينـك إنمــا ... نحــاول مُلكًــا أو نمــوت فــنعْذرَا

فكان من ألطاف الله الخفية، وعِنايته الحفية، أن تجاوَلَ عَقيدُ أولئك الأحزاب الطعناتِ مع أحدِ أولياء أمير المسلمين، أيده الله، فأسقطه ريحٌ[51] ولي أمير المسلمين عن فرسه، ونهض ليركب فصَكه الفرس بين عيْنيْه فوكزه[52]، فقضى أولياءُ أمير المسلمين، أيده الله[53]، عليه، وقطِعَ للحِين رأسه، وأزمِيَ[54] به أصحابه، فانكفؤوا من عند آخِرهم مُدبِرين، لا يَلوي مُتقدِّمهم على متأخر، كما انحدر إلى صبوبه السَّيلُ.

وعاقِـبة الـصَّبر الجَمـيل جَمـيلة ... وأفـضل أخـلاق الـرجال التـصَبُّرُ

وتمادى أميرُ المسلمين أيده الله إلى حضرته، فعرَّسَ ليلتَه تلك بتَاسالة، وراح من الغد إلى تِيط ان وَشقوف[55]، ومنها دخل حضرته العلِيَّة، يوم الخميس الثامن والعشرين من شهر ذي حِجَّة، قويَّ العارضة، جميلَ الصبر، راضِيًا بالقضاءِ، متأسِّيًا بالسَّلفِ الغابر رضِيَ الله عن مَقامِه، ووصَلَ يَدَ الظفر بمَرَامِه. وفي آخِر رمضان من هذه السنة، كان إيابُ المَوْلى الأمير الأعلى أبي تاشفين، أسعده الله[56]، إلى الحضرة الكرِيمة[57] من بلد الجزائر إيثارًا لمشاهدة مولاه عن استيطانها.

---

(1) ع: الاختيار.

(2) ع: المرحوم.

(3) ع: والتسليم.

(4) ع: عجيبًا.

(5) ع: لحجري.

Scanned by CamScanner

(6) ع: رقى. ويقال رقأ الدمعُ: أي جفّ وانقطع.

(7) ع: فألتمع.

(8) ع -: محمد.

(9) ز: من بال؛ ع: من مال.

(10) قضِيَ على الرجل: أي مات.

(11) س: أعمالي.

(12) ع: بأنواره.

(13) ع: في القبل والبعد.

(14) ع: دون إكمال.

(15) ع: فضائل.

(16) ز: وتخفيف.

(17) ع: آل.

(18) ع: يرى.

(19) ع: محضر. وأحضأ النار يعني: حركها بالمِحضإ.

(20) ع -: عمر.

(21) ل -: أيضًا.

(22) ع -: أبو محمد.

(23) ل: لحشد؛ ح: بحشد.

(24) ع: تبعهم.

(25) س -: منزل.

(26) ع -: قوله.

Scanned by CamScanner

(27) س: الدنا.

(28) ع: مثل.

(29) ع: بددا.

(30) ل، ب، ع: فربع؛ ر: فربع.

(31) ع: عارا.

(32) ر: مسبوتًا. ويقال أسنت القوم إذا أصابهم القحط والجدب.

(33) ع: علينا.

(34) في ر، ب: معانده؛ وفي س: لم يعرف الأعدا عائده.

(35) ع: ابن صابوتا.

(36) س، ع: دينًا. ودنيًا يعني: لحًا، أي لاصق النسب.

(37) ع: قسطاس. والاسطقس هو العنصر.

(38) س: ألسن. واللسن هو: الفصاحة.

(39) س: بأبي الحني.

(40) ع +: بلاد.

(41) ع: يجد.

(42) ع +: في أثرهم.

(43) ع: هيج.

(44) ع: أمره.

(45) ع: بإغيل يزان.

(46) ز، ط، ع: بحذاء. والجال هو جانب الجبل، وهنا يعني ضفة الوادي.

(47) س: المينة.

Scanned by CamScanner

(48) ع: سيق.

(49) ع: أظله.

(50) ع -: الحمداني.

(51) ع: الريح هنا يعني: الغلبة والقوة.

(52) ع -: فوكزه.

(53) ع: الإمام نصره الله.

(54) ل: ع رُمِيَ. وأرمى الشيء من يده: رماه وألقاه.

(55) ع: تيط وشقوف.

(56) س -: أسعده الله

(57) ع: العلية.

Scanned by CamScanner

سنة ست وستين وسبعمئة

في أول هذه السنة لمَعَ بِبَقيعَة[1] الكائنة التي اقتضبنا ذكرها[2] سرابُ الطمعِ، فخدع به محمد بن عثمان وحزبه، فطنَّتْ حصاتهم، وطار بأحلامهم وانضاف إليهم اضطرارًا مغادِرو الوقيعة من بني عبد الواد وزناتة، مطمَئنة بالإيمان قلوبُهم، وتمالأ الجميعُ على إتيان الحضرة الكريمة بالقضِّ والقضيض. فلزمها أمير المسلمين أيده الله مُدَّرعًا لامَة حزمِه، ومُمتطِيًا صَهْوَة ثباتِه، وبثَّ فيهم العيون، وأوحى إلى شياطينهم بِسِحْرَ القوْلِ، وخفضَ لمبتدعتهم جَناحَ العِداتِ[3]، ثم سرَّح خالد بن عامر من ثِقافه، وأحسن إليه بما لا مَطمَح وراءَه لأمثاله، واستحلفه على الوفاءِ بطاعته والكدح في خدمته، وكياد الأعداء بحَلِّ عُرى عزماتهم الفاسدة، وصرَفه، فأتى القومَ بفخص مَلاتة طامِين في سَيْرهم، فانحاز بنوعامر قبيله إليه، وسايَرَ بهم العيرَ ذاتَ اليَسار، معوزًا إلى أمير المسلمين، أيده الله، بقلِّ أمورهم وكثرها. ومن منزلهم قرية تاسالة انتبذ إلى الخليفة، نصره الله، بنو عبد الواد وكافة زناتة.

وفي الرابع والعشرين من المحرَّم[4]، نزل محمد بن عثمان وسويد والمعقِل بذراع الصَّابون من ظاهر الحضرة، ونزل بنو عامر واديَ يسَّر، ومنه انخزع[5] بهم خالد بن عامر مُضجِرًا على ثنِيَّة فرتون بدعوة الإمام، أيده الله، فأجفلَ محمد بن عثمان وقومُه إجفال الرِّئال مُغَرِّبين، وبرَز أمير المسلمين، أيده الله، فوقف بمقانب أوليائه بمنزلهم من ذراع الصابون، ومرَّ رَعيله يَطأ أعقابهم إلى أن أجازوهم واديَ تافنا[6].

وفي الثالث من هذا الشهر، فارَقَ محمدَ بنَ عثمان المذكورَ حاشيَتُهُ أجمعون، كعمر بن محمد بن مَجَن، وموسى بن علي بن برغوث، وسعيد بن موسى بن علي الغُزِّيِّ، وأتوْا باب أمير المسلمين، يقدمهم نحوَهُ الرجاءُ وتؤخرهم المخافة، فأقال نصره الله عِثارَهم، وغفرَ أوزارَهم، ثم أحسَنَ إليهم وأكبَرَ رُتبَهم. وعلى أثرهم أرسلتْ إليه سُوَيْد وفودَها، تلتمِسُ الرِّضى والمغفرةَ من مَقامه العلي، نادِمين على ما

Scanned by CamScanner

أفرَطوه[7] في جانِبه، فأنالهم القصْدَ، وسوَّغ لهم مشارعَ القبول، فعاجوا دون تلوُّم إلى وطنهم، سُنة حِلمه الواضِح الأعلام، وشِنشِنة كرَمه الذي لا تصِفُهُ أقسامُ الكلام. ثم أصْحَرَت المَعقِل إلى مَشاتيها، وبَقِيَ محمد بنُ عثمان في كفالة الشيخ أبي يعقوب وَنَزْمار بن عريف بمرادَة، لا يملِك إلا نفسَه وأخاه، خائبَ السعْي، حابِط العمل، منحازًا إلى فئة مَرْباه، والله يُؤتي مُلكه مَنْ يشاءُ[8] ويختار.

وكان الأمير أبو عبد الله محمد بنُ يحيى المُوَحِّد، الذي قصَصْنا قبلُ خبرَ استِنصاره بالخليفة قد ظفر[9] بِبجايَتِهِ، فلمَّا جرى القدَرُ بكائنة البطحاء اهتبل المذكورُ الغُرَّةَ في أخذ تَدَلس من يَد قائدِها عمر بن موسى المَطْهَريِّ مسرورًا في الخلاءِ بإجرائه، وذاكرًا الطعْنَ والنزالَ وحده، فلم يبدأ نصره الله، بعد تشريدِ العَدُوِّ، بأهمَّ من بعثِ الجنودِ لاسترجاعها مرؤوسة بالوزير عمران بن موسى، فغلغَلَ إليها وحَصَرَها ليالِيَ فاستغلق[10] أمرُها فقفل إلى الباب العلي أسماه الله فأغْرَى أميرَ المسلمين، أيده الله[11]، يعيش بنَ راشد المَجَنِّي، قائدَ الجزائر، بمُضايقتها وتحيُّف جنباتِها.

وأظلتْ ليلة الميلاد[12] النبوي الشريف، فاحْتفَى، أيده الله، بمَدعاها احْتِفاءَه بأمثالها[13]، فكان مِمَّا أنشده مُسْمِعُها من نظم مولانا أمير المسلمين أيده الله قوله:

يا مَنْ يُجيبُ نِدَا المضطرِّ في الدَّيَجِ	وَيكشِفُ الضُرَّ عندَ الضِّيق والهَرَجِ
ولطفُ رَحْمَتِهِ ياتِي على قَنطٍ	إذا القنوط دَعا يا أزمة انفرجِي
ومَنْ إذا حَلَّ خَطبٌ واعترَتْ نوَبٌ	أبْدى مِنَ اللطفِ مَا لمْ يَجْرِ في المُهَجِ
إني دعَوْتك جنحَ الليْل يا أمَلِي	دعاءَ مبْتهلٍ بالعَفو منتهجِ
يا كاشِفَ الضُّرِّ عن أيوبَ حينَ دَعَا	قد مَسَّني الضرُّ فاكشِفْ كرْبَ كلِّ شَجي
أنتَ المُنَجِّي لِنوحٍ في سَفِينتِهِ	ومُخْرجٌ يونسًا من ظلمة اللجَجِ
يا مَن وَقى يوسُفَ الصِّدِّيقَ كلَّ أذى	لمَّا رَمَوه بجُبٍّ ضيِّقٍ حَرِجِ
أجاب يعقوب لمَّا أن بَكى وشكا[14]	وجاءَه منه لطفٌ لم يخلهُ يَجي
وعادَ بعد بَصيرًا حين هَبَّ لهُ	نسيمُ نَشْرِ القميصِ الطيِّبِ الأرِجِ

Scanned by CamScanner

أنجى مِن النار إبراهيمَ حين رُمِي ... فيها وعادتْ سَلامًا دونَ ما وَهَجِ

يا مَن تكفّلَ موسى وَهْوَ مُنتبذ ... باليَمّ في جَوْفِ تابُوتٍ على لجَجِ

وأمُّهُ مِنْ أليمِ الشوْق وَالِهَة ... فؤادُها فارغ مِن شِدَّةِ الوَهَجِ

يا مَن أعادَ لها مِن بعدِ ما يَئِسَت ... موسَى وقرَّبَه في المُرْسَلين نجي

يا مَن كفى المصطفى كيْدَ الألى كفروا ... إذ جاءَهم بكتابٍ غيْرِ ذي عِوَجِ

يا مَن وقاه الرَّدى في الغار إذ نَسَجَتْ ... ببابِهِ عَنكبوتٌ خيْرَ مُنتسَجِ

وكلما حاوَلوا مَكرًا به انقلبو ... بالرُّعْب ما بين مكبوتٍ ومُنزعِجِ

مَن قد أتى رحْمَة للعالمين وق ... أحْيا القلوبَ بِوَحْيٍ وَاضِحِ الحُجَجِ

مَن عُطِّرَ الكونُ طِيبًا عند مَوْلِدِهِ ... وأشرَقَ الأفقُ مِن نورٍ له بَهِجِ

مَن أنزِلتْ فيه آياتٌ مُطهَّرَة ... أنوارُها كَصَباحٍ لاحَ مُنبَلِجِ

يَتلى الجديدان[15] أخلاقًا وجدَّتها ... مع الجديدَيْن في نورٍ وفي بَهَجِ

في طيّها كلُّ عِلمٍ ظلَّ مُندَرِجًا ... وأيُّ عِلمٍ لدَيْها غيرُ مُندرجِ

وكم له مُعْجِزات ما لها عَدَدٌ ... جَلَّتْ عن الحَصْر مِن فرْدٍ ومُزْدَوجِ

عمَّتْ شفاعَته للخلقِ كلهمِ ... وبالوسيلةِ يَرْقى أرْفعَ الدَّرَجِ

محمد خيْرُ خَلقِ الله قاطِبَة ... نورُ الهُدى وإمَامُ الرُّسْلِ والسُّرُجِ

يا حادِيَ العِيسِ عَرِّجْ نحْوَ أرْبُعِهِ ... بالله عُجْ بي على ذاك المَحلّ عُجِ

لهِ قوْمٌ إلى مَغْناهُ قد وَصَلوا ... بالعَزمِ إذ وَصَلوا الروحاتِ بالدُّلَجِ

ساروا فزاروا وفرْط الذنبِ أقعَدَني ... وقد مَزَجْتُ بِدَمْعي كلَّ مُمتزِجِ

فالجِسْمُ مُنتحِلٌ والدَّمْعُ مُنهَمِلٌ ... والقلبُ مشتعلٌ مِن حرِّه الوَهِجِ

وقد تقلَّدت ما لا يُستطاعُ لهُ ... مِنَ الخِلافة أوْهَتْ مِن قوى مُهجي

يا رَبِّ عبدُك موسى قد دَعاك عَسى ... تنيله نفحَة مِن نشرك الأرِجِ

فكنْ نصيري فقد أصْبَحْتُ مُكتئبًا ... والقلبُ مِن نكتِ[16] الأوزار كالسَّبَجِ[17]

قد ضِقتُ ذرْعًا بِزلّاتي وكثرتِها ... فما اعتِذاري إذا طولِبتُ بالحُجَجِ

وكم قطعْتُ مِن الأيام في لعِبٍ ... وفي ضَلالٍ وكم ضيّعْتُ مِن حِجَجِ

وفي البطالة لهوًا قد مضى عُمري   أو لتضييعه في اللهو والمرج

وكم عصيتك جهلاً ثم تسترني   وباب فضلك عني غير مرتتج[18]

مني الإساءة والإحسان منك بدا   مني الذنوبُ وكلُّ الفضل منك رجي

كم جدت بالفضل والإحسان منك وكم   سترت بالفضل من أفعالي السمج

إني سألتك بالسرّ الذي ارتفعت   به السماوات والأرضون لم تمج

أصلح بفضلك ما قد كان من خلل   واجبر بحلمك ما قد بان من عوج

واجعل لنا مخرجًا في إثره فرج   فكم تعامل بعد الضيق بالفرج

وصل صلاة على المختار من مضر   ما لاحت الشهب في الآفاق كالسرج

وللطبيب الماهر[19] أبي عبد الله محمد[20] بن أبي جمعة التلالسي موشحة[21]:

قلبي المبلّى له أوار   والجسم أودى به السقام

لمّا تولّى الشباب عني   واستشعرت نفسي الحمام

لمّا رأيت الشباب ولّى   أذريت دمعي على الشباب

إذ عهده بان واضمحلا   وليس يُرجى له إياب

فقلت يا نفس ليس إلّا   أن تسألي الفوز والمتاب

فإنّ شيب الفتى وقار   يقبح[22] مهما بدا الأثام

يا نفس بادر دع التأني   فإنما عيشنا منام

من لي برد الصبا ومن لي   هيهات لا يرجع الصبا

قد كنت فيه وكان شملي   يا صاح غضًا وطيبا

فكيف لي عنه بالتسلّي   والصبر عن طاعتي أبى

لأجله أدمعي غزار   تنهلّ سكبًا على الدوام

الحال هذا وإن جفني   بالسهد لا يعرف المنام

دع عنك ذكر الصبا وبادر   يا نفس للحج واقلعي

واجتهدي واتركي المعاذر   وجددي السير واسرعي

لعل أن تسعد المقادر   لك بخير وانعمي

أمــا تــرى العاشــقين ســاروا وركــــبهم قاصـــدٌ أمـــامْ
حـــادِيهمُ دائمًـــا يُغنـــي هُـــبُّوا إلـــى الكعْـــبة الحـــرامْ
يــا مَــنْ علــى الحَــجّ كــان عــازِمْ ووراعَـــــهُ دَرْبُـــــهُ البعيـــدْ
أعْــدِلْ إلــى كعْــبَةِ المَكــارمْ كــفِّ الإمــام الرّضــى السّعيدْ
موســى الــذي شــاعَ بالأقــالِمْ تنــسَى بــه دولــة الرّشــيدْ
لــنا بــسلطانه فَخَــارُ بــادٍ علــى ســائر الأنــامْ
كــلُّ لِــسانٍ علــيه يُثنِــي شــرّفه الله مِــنْ إمَــامْ
مُلــوك ذا العَــصْر مــا رأيْــنا فــيهم لِعُلــيَاهُ مِــن مِــثالْ
إحْـــسَانهُ دائـــمٌ علـيـــنا مَـــاضٍ ومـــستقبل وحَـــالْ
عُـــبادة لـــوْ أتـــى إليـــنا لمـــا بَكـــى أهلـــه وقـــالْ
شـــطَّتْ بأحْبابـــنا الـــدِّيارُ فـــلا قـــرارٌ ولا مَـــنامْ
يــا لائِمِــي فــي الــبُكاءِ دَعْنِــي بـــالله لا تكثِـــرِ المَـــلامْ

وفي العشرين من شهر ربيع الثاني كانت الزلزلة العظمى بالجزائر، نعوذ بالله من الخسف وسوءِ المنقلب. واقتضى[23] نظرُ أمير المسلمين أيده الله تعالى[24]، الحركة لتدويخ قطر المغرب، وإضرام نار الفتنة في أرجائه. فخرج إلى محلته المنصورة بالمُنيَة يوم السبت ثاني رمضان المعظم، وارتحل بجميع عساكره الموفورة، شرقيِّها وغربيِّها، صَمَدَ جبل دَبْدو، فجاس خلال دياره، ودَكَّ طور حصانته. وكان خروجه إلى قِبْلتِهِ على ثنِيَّة تِيزي ثم على فرط، ثم دخل على ثنية بلزوز، ونزل قرية تابريديا فهَتمَها، وأغارتْ هَوادِي خيله إلى تازا. ثم كرَّ قافِلاً، ومَرَّ بتاوريرَت فثلم الأسوارَ، وخرَّبَ العُمْران وهدم العَقار، وغدا على حاضِرة مُلكه الأعز بالله رابع شوال، فخيَّمَ بالمُنيَة من ظاهرها بَقِيَّة السنة وأيامًا من الأخرى. وقال مخاطبًا الوزير عُمَر بن عبد الله بن علي[25]، المتغلب يومئذ على مَلِك المغرب، كلمة هي قوله:

Scanned by CamScanner

السيفُ أجدرُ والخطّيُّ مِن خُطَبٍ   فيها اللجاجُ وقولٌ غيرُ منتسبِ
خطُّ الكتائبِ لا خطُّ الكُتّابِ بها   جليّةُ الأمرِ عندَ السُّمْرِ والقُضُبِ
والحقُّ فرضٌ على الإنسانِ مفترَضٌ   والصِّدقُ أفضلُ ما أودعتَ في الكتبِ
ومَنْ غدا السيفُ في كفّيهِ عاريةً   فكيفَ يُدركُ ما يَرجو مِنَ الأربِ
فكم تحاولُ أمرًا ليسَ تدركهُ   تخطي الطَّريقَ وكمْ ترمي ولا تصِبِ
قد خُنتَ مِنْ بعدِ أيمانٍ مُؤكدةٍ   وتلكَ عادتكم في سالفِ الحِقَبِ
وكم تجيبُ لِداعي الغيِّ مُبتدِرًا   وإن دَعوتكَ يومَ الحزبِ لم تجبِ
فانصَبْ إلى الحربِ مَيدانًا تَشيبُ له   سُودُ الذّوائبِ بين الحَزبِ والحَرَبِ
قدَّمتَ طائرَكَ المَشؤومَ إنَّ له   دلائلاً ظهرَتْ في مَنزلٍ خرِبِ
أخطأتَ في رأيِ مَن خابَتْ روايتُهُ   حتى اقتحمتَ الرَّدى مِن غيرِ ما سَببِ
تخوضُ بَحرًا ولا تخشى عواقِبَهُ   وليسَ يُسلكُ لُجُّ البَحرِ بالنجُبِ
عاندتَ وَيْحَكَ مَنْ أعطاهُ خالقُهُ   ومَنْ سَما ذِكرُهُ في العِلمِ والكتبِ
ومَنْ يُعارضُ بأمرِ الله مُعترضًا   يُمسي ويُصبحُ في بَحرٍ مِنَ التعَبِ
أيُمنحُ المَرءُ والقهّارُ يَمنعُهُ   أو يوهَبُ الأمرَ[26] والوهّابُ لم يَهَبِ
كم غاصِبٍ قبلكم قد عادَ مُنتهَبًا   وطالِبٍ خابَ والمَطلوبُ لم يَخِبِ
مَنْ رامَ إدراكنا رامَ المُحالَ ولا   يَنجو مِنَ اسيافِنا مَنْ لَجَّ[27] في الهَرَبِ
كم رامَ غيرُكمُ ما رُمتموهُ فمَا   نالوه وانقلبوا في سُوءِ مُنقلبِ
جُزتم على الله في أحكامِهِ ولقد   قطعتمُ الدَّهرَ بين اللهوِ واللعِبِ
هَتكتَ سِترَ مَرينٍ طالما سُتِروا   قتلتَ مالِكهمْ غدرا بلا سَبَبِ
تعمّدًا جزأةَ أخليتَ دارَهُمُ   ولم تدَعْ لِبَني الأملاكِ مِنْ عَقِبِ
فلا يَغرَّكَ ما قد كانَ مِن لعِبٍ   شمِّرْ إزارَكَ جاءَ الحقُّ فارتَقِبِ
لمّا دَعوتَ على بُعدٍ أجَبتكمُ   وقد دَعوناكَ مِن قربٍ فلم تجبِ
وقد نهضتُ بعونِ اللهِ مُتكِلاً   على الإلهِ ومَنْ يَرجوهُ لم يَخِبِ
بعَسكرٍ لجِبٍ ضاقَ الفضاءُ بهِ   كالبَحرِ أعظِمْ بهِ مِن عَسكرٍ لجِبِ

Scanned by CamScanner

عرمرمٍ زاجرٍ فاضت مواكبه ... كأنه سُحْبٌ أربت على سُحُبِ
من كلّ ليثٍ شجاعٍ فارسٍ بطلٍ ... حامي الذمار من الأعجام والعربِ
على سوابق خيلٍ ضُمّرٍ عُربٍ ... تزهى بحليتها كالخُرّد العُرُبِ
من أحمرٍ عسجديّ اللون مذهبه ... وأشقرٍ كشعاع الشمس ملتهبِ
وأدهمٍ متنه ليلٌ وغرّته ... صبحٌ فيا حسنه من منظرٍ عجبِ
وأشهبٍ كشهابٍ إن رميت به ... شيطانَ كلّ عدوٍّ في الوغى تصبِ
فالحُمْرُ من فلقٍ والشُّقْرُ من شفقٍ ... والدُّهْمُ من غسقٍ والشُّهْبُ من شُهُبِ
تشنّ غاراتها في كلّ منهلةٍ ... فتنثني بالذي نهواه من أربِ
بها وطئنا بلادًا لا سبيلَ لها ... وما أردنا تناولناه من كثبِ
حيث الهوادجُ والبوجاتُ مشرقة ... لاحت بمنزل رأس العين كالشهبِ
وافت بنو عامرٍ من كلّ ناحيةٍ ... في خيلها العُرُبِ أوفى نجعها الأشبِ
جاءت إلى نصر حزبِ الله وابتدرت ... كالأسْدِ تبدو عليها سَورَة الغضبِ
ومن أمام عُبَيدُ اللهِ في أممٍ ... فاضت مواكبُها بالبيدِ والشعبِ
كتائبُ ضاقتِ الأرضُ الفضاءُ بها ... في ظلّ ألويةٍ خفّاقةِ العذَبِ
بَحْرٌ على البَرِّ مُرتجٌّ غواربُهُ ... مِن فوقِهِ قِطَعُ الرّاياتِ كالسُّحُبِ
ونَحنُ نقدُمُهُم والنصرُ يقدُمُنا ... والأرضُ تهتزُّ بالفرسانِ والنجُبِ
ثم ارتحلنا لتامَسْلمتَ مَرحلة ... وكوكبُ الفتحِ قد وافى ولم يغبِ
إلى ثنيّةِ بَلزوز فحينَ أتت ... للمُستراحِ أرَحناها مِنَ التعَبِ
ثم ارتحلنا على اسم الله تقدُمُنا ... طلائعُ الفتحِ في أبرادِها القُشُبِ
حتى نزَلنا على دَبدو وساحَتِهِ ... جالت عَساكرُنا في السّهلِ والهُضُبِ
لمّا بَدا للعِدى ألّا نجاة لهم ... ولا قرارَ وقد أشفَوا على الشجُبِ
تضرّعوا وأتَوا طوعًا لخدمتِنا ... بالذلّ والذعر خوفَ الهلكِ والعطبِ
وقد عفَونا وإن العفوَ شيمتنا ... ومن تردّى رداءَ العفو لم يخبِ

ونـــالَ مِـــن عَفْـــونا مـــا كـــان يَأمُلـــهُ حَمُّو بن زيدان[28] بعد القهر والغلب

ومِـــن هـــناك لوَيْـــنا نحْـــوَ مَلـــوِيَةٍ وكـم تـرَكنا بهـا مِـن مَنـزِلٍ خَـرِبِ

مـا كـلُّ مَـن قـادَ جَيْـش الزحْف قائِـدَه ولـيس يُذكـرُ غيْـرُ الماجـدِ الـدُّرِبِ

لمَّـا دَعَـوْناك مِـن قـرْبٍ فلـم تجـبِ عَلِمْـتُ قـوْلك بـين الهَـزل واللعِـبِ

ثنـيْتُ عـنك عِـنانَ العَـزمِ مُحْـتكِمًا بالـرَّأي والحَـزمِ لا عَجْـزًا عـن الطلـبِ

لا بُـدَّ مِـن سَـاعَةٍ بَيْنِـي وبَيْـنكُمُ تغِيبُ شمْسُ الضُّحَى فيها ولم تغِبِ

تكتَـسِي الأرْضُ ثـوْبًا كالعَقِـيق ولا تجْـري الجَـدَاولُ إلَّا مِـن دَم سَـرِبِ

والخـيْلُ جائلَـةٌ والأسْـدُ ذَاهِلَـةٌ والأرْضُ عَارِيَـةٌ مِـن ثـوْبِهَا القـشِبِ

هُـناك تجْنِـي ثِمـارًا كـنتَ غارسَـها ويَحْـكمُ الدَّهْـرُ بالآيـاتِ والعَجَـبِ

ونأخـذ الـثأرَ مِمَّـنْ قـد دَنَـا وقـصا مِـنَ العُـدَاةِ وهــذا مُنتَهَـى أرَبِـي

ثـم الـصَّلاة علـى المختار مِـنْ مُـضَرٍ خيْـرِ البَـرِيَّةِ مِـنْ عُجْـمٍ ومِـنْ عَـرَبِ

وفي آخِر هذه السنة، ورد على الباب الكريم أسْماه الله رسولُ ملك المغرب ووزيرُهُ، خاطِبًا سِلمَ أمير المسلمين، أيده الله تعالى، ومعتذِرًا عما فرَط، فأجابتْ سِياسته رغبتهُ، وانصرف بقرَّةِ العَيْن من أمَلِهِ. وفيها[29] أيضًا، قدِمَ عليه رسول الأمير أبي عبد الله الموحِّد، صاحب بجاية[30]، وقد ضاقتْ بتدَلس يده، وقلَّ فيها ناصِرُه، فأرسل بتسليمها لأمير المسلمين، ثم عَرَضَ ابنته عليه التِماسًا لرضاه، ورجاءً لإبقائه عليه في بجاية بَلدِهِ، فتلقى ذلك، أعلى الله مقامه[31]، بالبشر وقبول المعاذر، وإجابة السؤال، وسعة البرِّ والإحسان، وصرف معه لعقد الصهر المبارك[32] بينه وبين مرسله والإتيان بكريمته، مهدي بنَ عيسى اللؤلئي الياتكتني.

وفيها أيضًا قدم على بابه العلي أسماه الله، الأمير عبد الرحمن بن أبي يفلُوسن علي، وأبو بكر بن رَحُو بن أبي الطلاق العسكري، في ملإ فصيلته، ومحمد بن عبُّو المَتَّاوي ومحمد ابن الزبير بن طلحة بن مظفر العَمْراني وسليمان بن ناجي العَمْراني، وكافة رجال المَعقِل، مستصرخين بأمير المسلمين أيده الله على طلب المغرب، فأكرم نزلهم، وسهل قصدهم، ووعدهم إبلاغه مُناهم في إبان غير ذلك،

Scanned by CamScanner

فانصرفوا لإثارة الحرب بسجلماسة وما يليها[33]. وهنا انتهت السنة، والبقاء لله وحده[34].

---

(1) كذا في س. وفي ع والنسخ المخطوطة الأخرى: بقيعة.

(2) ع: خبرها.

(3) ع: الذل. والعِدات هي الوعود.

(4) ع: محرم.

(5) ع: وانخزل.

(6) في ع: تافنة؛ وفي ر: تيفنى؛ وفي س، ل، ب: تيفني.

(7) ع: فرّطوا.

(8) قرآن، سورة البقرة، الآية 247.

(9) ل، ب، ع: ظهر.

(10) ع +: عليه.

(11) ع: خلد الله ملكه.

(12) ع: المولد.

(13) ع: فاحتفل... احتفاله بأمثاله.

(14) ر: شكا وبكى.

(15) الجديدان هما: الليل والنهار.

(16) ل، ب، ع: النكث. والنكت (بضم النون) جمع نكتة، وهي النقطة السوداء في الأبيض.

(17) السبج يعني: الخرز الأسود.

(18) ارتتج البابُ يعني: أغلق.

Scanned by CamScanner

(20) ع -: محمد.

(21) ع: قوله.

(22) ع: تقبح.

(23) ع: ثم اقتضى.

(24) ع: أعلى الله مقامه.

(25) ع -: بن علي.

(26) ر: المرء.

(27) ع: من السيف من يلج.

(28) حمو بن زيدان: شيخ قبيلة بني علي من بني ونكاسن، القاطنين آنذاك ناحية جبل دبدو. وكان

قبل ذلك قد تحالف مع ونزمار بن عريف، شيخ قبيلة سويد بالمغرب الأقصى، ضد السلطان

أبي حمّو موسى الثاني الزياني.

(29) ع: وفيه.

(30) ع -: صاحب بجاية.

(31) ع: أمره.

(32) س -: المبارك.

(33) ع: إليها.

(34) النص من " وهنا " إلى " وحده ": ساقط في س.

Scanned by CamScanner

سنة سبع وستين وسبعمئة

في الرابع من أيام هذه السنة، كان دخول مولانا أمير المسلمين، أيده الله من معسكره الكريم بالمُنية إلى دار ملكه العزيز، بعد أن صرف إلى كورِ قطره قوّادها. فإلى بني راشد زيان بن أبي يحيى بن ونزمار، وإلى منداس ووانشريس إبراهيم بن محمد بن تاحاجِيت المصوجي، وإلى شلف عطية بن موسى، وإلى المدية وادفل[1] بن عبّو بن حمادن، وإلى تدلس يعيش بن راشد بن الزعيم المجني، وإلى وَجْدَة موسى بن خالد بن محمد، وتقدم إلى جميعهم بإركاب[2] الجيوش واقتناء العُدَدِ وإقامة الحركات.

ومرَّ صَدْرُ السنة في سُكون ودَعَة، سوى أنَّ دار الصنعة السعيدة تموجُ بالفَعلة، على اختِلاف أصنافهم، وتبايُن لغاتهم وأديانهم. فمِن دَرّاق ورَمّاح وذَرّاع ولجّام ووَشّاء وسَرّاج وخبّاء ونجّار وحَدّاد وصائغ ودَبّاج وغير ذلك. فتستكُّ لأصواتهم وآلاتهم الأسماعُ، وتحار في إحكام صنائعهم الأذهان، وتقِف دون بحرهم الهائل الأبصار، ثم تعرِضُ قوَمَتُهم أصيلانَ كل يومٍ مصنوعاتِهم فيه بين يدي الخليفة أيده الله، ويُخْزَنُ كل بحجار صنفِهِ[3] المُعَدّ له، ويُنصَفُ الجاعلون[4] من أرزاقهم عدلاً، هكذا أبدًا.

وأظلت ليلة الميلاد، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام[5]، فكان الاحتفال في بيْتتها فائقًا سواه بأمثالها. وأنشد مُسْمِعُها لمولانا الخليفة، أيده الله ونصره[6]، مدحًا في خير الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام، قوله:

أَلِفْتُ الضَّنى وأَلِفْتُ النحِيبَا ... وشبَّ الأسى في فؤادي لهيبا
وحقٌّ لنفسي أسًى أن تذوبا ... وللدمع من مقلتي أن يصوبا
وقد كنتُ بالوَصْلِ منكم قريبا ... فأصبحت بالهجر منكم غريبا[7]
جفاني الحبيبُ فعزَّ الخُلودَ ... وأدنى البعيدَ وأقصى القريبا
وذنبي أوجَبَ هجري فما ... جفاني حتى جنيتُ الذنوبا

Scanned by CamScanner

فيا ليت شعري هل عطفة … يكون بها الدهر عيني [illegible][8]
فما لي على الهجر من قدرة … فقد آد[9] جسمي وأفنى القلوبا[10]
وقفت رجائي بكم فارحموا … وقوفي على بابكم مستريبا
غريب فريد أنا بينكم … وحاشاكم تفردون الغريبا
وما لي ذنب سوى حبكم … وتالله عن حبكم لن أتوبا
فإن تقتلوني حلال لكم … أنا أرتضي ما ترضى الحبيبا[11]
وإن تبعدوني على زلتي … فشأنكم[12] تغفرون الذنوبا
وإن ترحموا ترحموا صبكم … فظل رضاكم يغطي العيوبا
أسير هواكم قتيل نواكم … لعل رضاكم يكون قريبا
فؤادي عليل وجسمي نحيل … وسقمي طويل قد اعيى الطبيبا
هجرت الهجوع نزفت الدموع … فسري أذيع وقلبي أذيبا
أبكي الرسوم وأرعى النجوم … أقاسي[13] الهموم معًا والخطوبا
أعاتب نفسي على زلتي … فيزداد جسمي ضنى وشحوبا
نعم: أنا مذنب بذنب أذم … وأخشع لمّا أنا أن يتوبا
سألتك يا خالقي توبة … فما زلت للسائلين مجيبا
خشيت المعاصي بيوم القصاص … إذا ما النواصي تشيبُ مشيبا
وأنت رقيبي بيوم الحسابِ … كفى بك يَوْمَ الحِسَابِ رَقِيبا
فكم قد لهوتُ وكم قد سهوتُ … ولكنْ دَعَوْتُ سَمِيعًا مُجيبا
عليمًا[14] بخطبي بفرج كربي … فما زالَ رَبّي يُزيلُ الكروبا
مضى العمرُ ياحسرتي في الضلا … لِ واشتعَلَ الرَّأسُ منه مَشيبا
وأضحَى مِنَ الشوق جسمي عَليلا … وأمسَى مِنَ الهَجْرِ قلبي كئيبا[15]
أحِنُّ إلى الفجرِ عند الطلوعِ … وللشمسِ حِينَ تَرُومُ الغُروبا
إذا هبّتِ الرِّيحُ مِن طيبة … تعطرت الأرضُ مِسكًا وطيبا
فأصبو إليها ومِنْ أجْلِهَا … أحِبُّ الصَّبَا وأحِبُّ الجَنُوبا

Scanned by CamScanner

تهبُّ النواسِمُ مِنْ أرضِها ... فيزداد نارُ اشتياقي لهيبا[16]

حَنينًا وشوْقًا إلى المُصطفى ... إلى مَنْ به الله يمْحو الذنوبا[17]

إلى خيرِ هَادٍ هَدى للرَّشادِ ... جميعَ العِبادِ وجلَّى الخُطوبا

لِخيرِ[18] شفيعٍ مَكِينٍ رَفِيعٍ ... أتى في رَبيعٍ فأحْيا القلوبا

فأكرمْ بشهرٍ حَوى كلَّ فخْرٍ ... بمِيلادِ[19] بَدرٍ بَدَا لن يغيبا

كريمِ السَّجَايَا عَظِيمِ المَزايَا ... جَزيلِ العَطايا جَميلاً مَهيبا

فيا حادِيَ الرَّكبِ[20] نحوَ الحِمى ... إذا جئتَ ذاكَ الجَنابَ الرَّحيبا

وزادَ الهَوى حِينَ زالَ النوى ... وجئتَ اللوى واعْتَمَدتَ الكثيبا

لقبرِ التهامي وخيرِ الأنامِ[21] ... وبَدرِ التمامِ[22] شفيعًا حَبيبا

فبَلِّغ إليه سَلامي عليهِ ... فإن لديهِ لِسَقمِي طبيبا

وإن جئتَ نجْدًا، وأعلامَها ... فشقَّ ثرَاها بدَمْعِي سَكيبا[23]

فقبْرُ الرسولِ مُنايَ وسُؤلِي ... عَسى بالوصولِ سأحظى نَصيبا

فيَا سَعْدَ قوْمٍ حَدَوْا كلَّ يَوْمٍ ... وعن وضعِ نوْمٍ تجَافَوْا جُنوبَا

حَدَوْا بالنياقِ فزادَ اشتِياقِي ... وسالتْ سَوَاقي دموعِي صَبيبَا[24]

تسَنَّى لهم قصْدهم عندما ... تسَنَّمَ كلُّ نجيبٍ نجيبَا

وزَمُّوا الحَمولَ وأمُّوا الرسولَ ... فجابوا السُّهولَ له والسُّهوبَا[25]

سَرَوْا بالدجون[26] ففاضتْ جفوني ... وقد خلَّفوني مَشوقًا كئيبَا

فقلبي مِنَ الشوْقِ في مَشرقٍ ... وجسْمِيَ في الغرْبِ أمسَى غريبَا[27]

سَقوْني كؤوسًا تذِيبُ النفوسَا ... ويرجوك موسَى تزيلُ الكروبَا

بحرْمَةِ أحمَدَ خيرِ الوَرَى ... رَجائي وظنِّي به لن يَخيبَا

نبيٌّ أتَى رَحْمَةً للعِبَادِ ... فمَحَّى ومَحَّصَ عنَّا الذنوبَا

وسَنَّ الشريعَةَ للمُؤمِنين ... وشنَّ على الكافرين الحروبَا[28]

بمَولِدِهِ أشرَقَ الأفقُ نورًا ... وألبسَتِ الأرضُ حُسْنًا قشيبَا

وكِسْرى تسَاقط إيوانهُ ... وكادَ من الرُّعْبِ يلقى شعوبَا

Scanned by CamScanner

ونيـــرانُ فـــارسَ قـــد أخمِـــدَتْ   وإخمَادهـــا كـــان أمـــرًا[29] عجيـــبا
وجَفَّـــــتْ مَـــــوَارد أنهارهـــــا   وقـــد أعقـــبَتْ، بعـــد رَيِّ نـــضوبا[30]
وحَـــنَّ لـــه الجـــذعُ مُستوْحِـــشًا[31]   وأبـــدَى إلـــيه الأسَـــى والنحيـــبا
دَعَـــا بالعِـــبَادِ لِـــسَقي الـــبلادِ   فأخـــصَبَ مـــا كـــان مـــنها جَدِيـــبا[32]
وشُـــقّ لـــه الـــبدر عـــندَ الـــتمَامِ   وكلمَـــه الظبْـــيُ يَـــشكو الخطـــوبَا
وكـــمْ مُعْجِـــزات لـــه، اعْجَـــزتْ   جَمِـــيعَ الـــوَرى شـــاعِرًا أو خطِيـــبا
علـــيه الـــسَّلامُ[33] مـــا تَباكـــى الحَمَـــامْ   ومـــا أضـــحَكَ الـــرّوْضُ ثغـــرًا شـــنيبا

وللحاج الطبيب الماهر[34] أبي عبد الله محمد بن أبي جمعة التلالسي موشحة، وهي:

لِـــي مَدمـــعٌ هَـــتَّانْ   يَـــنهَلُّ مِـــثْلَ الـــدُّرَرِ
قـــد صَـــيَّرَ الأجْفـــانْ   مـــا إنْ لهـــا مِـــنْ أثـــرِ
حَـــقٌّ لـــه يَجْـــرِي   دَمًـــا علـــى طـــولِ الـــدوامْ
مُـــذ جَـــدَّ فـــي الـــسَّيْرِ   نَـــاسٌ إلـــى خيْـــرِ الأنـــامْ
و عَاقنِـــــي وِزْرِي   يَـــا صَـــاحِ عـــن ذاكَ المَقـــامْ
و سَـــارَتِ الأظعَـــانْ   يُحْـــدَى بهَـــا فـــي الـــسَّحَرِ
فاسْتَبْـــشرَ الـــرُّكبَانْ   بقـــربِ نـــيْلِ الوَطَـــرِ
يَـــا سَـــعْدَهُ[35] مَـــنْ زَارْ   قبْـــرَ النبـــيِّ المُـــصْطفى
مُحَمَّـــدِ المُخْـــتَارْ   قطـــبِ المَعَالِـــي والـــوَفَا
فـــي مَدحـــهِ قـــد حَـــازْ   الخَلـــقُ طُـــرًّا وكفـــى
فـــي مُحْكَـــمِ القـــرآنْ   وشـــرْحِهِ والـــسِّيَرِ
فـــضْلهُ الـــرَّحْمَانْ   علـــى جَمِـــيعِ البَـــشرِ
يـــا حـــادِيَ الـــرَّكبِ   بـــاللهِ إنْ جِـــئتَ البَقـــيعْ
تَحِـــيَّةَ الـــصَّبِّ   بَلِّـــغ إلـــى الهـــادي الـــشفيعْ

غريبُ بالغربِ ... عن ذلك المَغْنى الرَّفيعْ
ولَيْسَ لِي إمْكانْ ... يُنهِضُنِي للسَّفرِ
إلّا مِنَ السُّلطانْ ... المَلِكِ المُظفرِ
مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْمُو ... إلى المَعَالِي كلَّ حِينْ
ذاكَ أبُو حَمُّو ... مُوسَى[36] أميرُ المُسْلِمِينْ
طاعَتهُ غنْمُ ... نِلنا بِهِ دنيًا ودِينْ
أظهَرَ فِي البُلْدَانْ ... مِنْ عَدلِهِ المُشتهرِ
وعَمَّ بالإحْسَانْ ... للبدو ثمَّ الحَضَرِ
قابَلهُ إسْعَادْ ... تكِلُّ عنهُ الألسِنهْ
قبيلُ عبدِ الوَادْ ... غدَتْ به في سَلطنَهْ
أيَّامُهُ أعْيَادْ ... يا ليْتها ألفُ سَنهْ[37]
مُلكُ بَنِي زيَّانْ ... بالمَشرِفِيّ الذكرِ
أحْياهُ إذ قد كانْ ... ما إنْ لهُ مِنْ أثرِ[38]
تاهَتْ تِلِمْسَانُ ... به على كلِّ البلادْ[39]
صارَ لها شانُ ... والسَّعْدُ منها في ازدِيادْ
قد ضَلَّ إنسَانُ ... قالَ بها يَشكو السُّهَادْ
ليلُ الهَوَى يَقظانْ ... والحُبُّ تِربُ السَّهَرِ
والصَّبْرُ لِي خَوَّانْ ... والنومُ من عَيْنِي بَرِي

وفي الرابع والعشرين من أيام هذا الشهر، أرسل أمير المسلمين، أيده الله تعالى، الفقيه أبا عبد الله محمد بن أحمد الشريف الحَسَني، ومحمد بن عمر البريطل إلى المغرب لإكمال عقد الصلح[40]، فعادا بمراده. ثم صرف، أيده الله، وزيرَه عِمران ابن موسى للقاء كريمته ابنة[41] الأمير أبي عبد الله محمد بن يحيى المُوَحِّد حِفاية بها، وتنويهًا بقدرها، ورَعْيًا لأصالتها، ووصل بها للحضْرة العليّة في العشر الأول من شهر ربيع الثاني. وفي حادي عشر شعبان، توفي قاضي الحضرة

الفقيه أبو العباس أحمد ابن الحسن بن سعيد المديوني[42]، رحمه الله، فاعتاض منه أمير المسلمين، أيده الله، الفقيه أبا عثمان سعيد بن محمد العقباني، من فقهاء البلد.

وفي هذه السنة استجاش بابُ الرُّومِ[43] أهلَ مِلتِهِ لمحاربة بطرو ملِكِ قشتالة لأمرٍ نقمه عليه في دينهم، واستباحة قطر المسلمين[44] إرادة إطفاءِ نور الله، والله مُتِمّ نورَهُ وَلوْ كرهَ المُشركونَ[45]. فاستصرخ ملكها السلطان المجاهِد الأفضل أبو عبد الله محمد ابن السلطان أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بن نصر، أعزه الله، مولانا أميرَ المسلمين، أيده الله، لفادحهم المُبير[46]، في شهر رمضان، بقصيدة من نظم شيخنا الفقيه الجليل المرحوم أبي البركات محمد ابن إبراهيم البلّفيقي رحمه الله، وهي:

هلْ مِن مُجيبٍ دَعْوَةَ المُستنجدِ ... أمْ مِن مُجيرٍ للغريبِ المُفرَدِ
هلْ مِن وَلِيّ ناصِرٍ دِينَ الهُدى ... أوْ ذي حِمًى يَحْمِي حَنِيفة أحْمَدِ
هلْ مِن مُعِين أوْ كريمٍ يُرْتجَى ... أوْ مُسْعِدٍ أوْ مُرْشِدٍ أوْ مُنجِدِ
هلْ مِن جَوادٍ في الزمَان مُؤمَّلٍ ... أوْ آخِذٍ عند الشدائدِ باليَدِ
هلْ رَاحِمٌ لِعِصَابَةٍ مَقطوعَةٍ ... ما بين أعْداءٍ وبَحْرٍ مُزبدِ
هلْ ناظِرٌ فيهم بنظرةِ رَحْمَةٍ ... يَرْجو بها نيْلَ الشفاعَة في غَدِ
هلْ واصِلٌ لذِمامِهم أوْ سَامِعٌ ... لصَريخِهم في نصْرِ دِين مُحَمَّدِ
هلْ مِن طبيبٍ مَاهِرٍ مُتدارِكٍ ... رَمَقَ الجزيرةِ قبْلَ حَتفٍ مجْهَدِ
تالله إن لم يأتِهَا فرَجٌ ترَى ... فيه لطائفَ صنعِهِ فكأنْ قدِ
أينَ الألى شادوا المَعَاقِلَ قبلنا ... فبهم يَحِقُّ لعاقلٍ أن يَقتدِي
لعِبَتْ بهم أيْدِي الزمَان فأصْبَحوا ... ما بين نائي الدارِ أوْ مُسْتبْعَدِ
أينَ الألى عَمَروا البلادَ ومَهَّدوا ... أرْجاءَ هذا القطرِ أيَّ تمَهُّدِ
أينَ الألى كانوا بها في غِبْطةٍ ... واسْتوْطنوا في ظِلِّ عَيْشٍ أرْغدِ
هذا وآمَادُ البلادِ فسِيحَة ... وقواعِدُ الإسْلامِ ذاتُ تعَدُّدِ
إيهٍ وكيفَ وما بَقِي فيهَا سِوى ... مَا عُدَّ في التمْثِيلِ شِبْهَ المُزبَدِ

Scanned by CamScanner

لا غَـرْوَ إنْ ضـاقتْ بِـنا أقطارُنا   واستنزلونا للحضيضِ الأوهدِ

والعِقدُ إنْ تنثرْ جَواهِرُ سِلكِهِ   مُتبدِّدٌ لا شكَّ أيَّ تبدُّدِ

هذا الصَّليبُ تكالبتْ عُبَّادُه   وسَطتْ على توحيدِ كلِّ مُوحِّدِ

وتطاوَلتْ أعناقُها لمَّا رأتْ   نارَ الخِلافِ مُثارةً لم تخمدِ

واستنفرتْ أشياعَها وجُموعَها   واستكثرتْ مِنْ كلِّ باغٍ مُفسِدِ

واستقبلتْ أرجاءَ أندلسٍ وقدْ   غصَّ الفضاءُ بكلِّ طاغٍ مُعتدِ

مُستظهِرينَ على البلادِ وأهلِها   بعظيمِ جيشٍ مِثلُهُ لم يُعهَدِ

مُستضعفينَ لحزبِ أنصارِ الهُدى   واللهُ مِنْ دونِ الطغاةِ بمَرصدِ

فاستخلصتْ بعضَ المَعاقِلِ يا لها   مِن حسرةٍ سرَّتْ قلوبَ الحُسَّدِ

لكنَّها ضاقتْ صُدورُ أُلي النهى   لِمُصابِها مِن ترحةٍ وتوجُّدِ

ولقد تعلَّقتِ المَطامِعُ بعدَها   بأجلِّ قطرٍ فوقَ أوجِ الفرقدِ

قفلُ الجزيرةِ بابُها وركابُها   لِمَ لا ومنه الفتحُ لا شكَّ ابتدي

هوَ عُدَّةٌ للمُسلِمينَ ومَلجأٌ   ومَلاذُ أمنٍ أو مَقامُ تعبُّدِ

فيه الجهادُ تَفتَّحتْ أبوابُهُ   والتاحَ نورُ الرُّشدِ فيه لِمَنْ هُدِي

لولاهُ لم يُلفَ السَّبيلُ لِواردٍ   كلَّا ولمْ يَسْهُلْ مَرامُ الوُفَّدِ

مَنْ مُبلِغٌ إخوانَ صِدقٍ دونهُمْ   لُجَجُ البحارِ نِداءَ داعٍ مُرشِدِ

مُستنصِرًا لِعصابةِ الإسلامِ في   أقصى البلادِ فهلْ له مِن مُسعِدِ

إنَّا بأندلسٍ نعالِجُ مُعضِلاً   مِن داءِ ذا الخطبِ المُقيمِ المُقعِدِ

نُمسِي ونُصبحُ في مُقارعةِ العِدى   ونروحُ في ريبِ الزمانِ ونغتدي

ولطالما عوَّدتمونا منكمُ   صنعًا جميلَ القصدِ عذبَ المَوردِ

طورًا بأمدادٍ وأرفادٍ فكمْ   لكمْ على هذي الجزيرةِ مِن يدِ

أو تارةً بإعانةٍ منكم لنا   بالسمهريَّةِ والقنا المُتقصِّدِ

والآنَ قد قطعَ الزمانُ بجورِهِ   ما بيننا مِن عهدِنا المُتأكِّدِ

أسلمتمونا للعُداةِ كأنَّ مَنْ   نبذَ الإخاءَ يكونُ غيرَ مُفنَّدِ

Scanned by CamScanner

حاشا وكلا أن تخيبَ ظنوننا ... في صدق وُدّكم وحُسنِ المقصدِ
ولتقبلوا بوجوه لحظكم[47] على ... مَنْ ينتمي لكم بصدق تودد
وتزوّدونا بالدعاء فإنه ... نِعْمَ البلاغ حقيقةً للمُزوِّد
هذا أقلُّ حقوق إخوان الصفا ... أمثالكم في غيبةٍ أو مشهد
ولئن نسيتم عهدَنا وذِمامَنا ... وبدا لنا مِنْ ذاك ما لم نعهد
فلنصبرنْ على الزمان وريبه ... بتجلُّد الأحرار أيَّ تجلُّد
مَولايَ يا رَبَّ العِبادِ ومَنْ له ... تعنو وُجوهُ الراكعين السُجَّدِ
بجَلالِ قدرِ المصطفى خيرِ الورَى ... هادي الأنامِ إلى الطريق الأرشد
ذي الفخر والشرَفِ الصميمِ المنتقى ... في ذِروَةِ البَيتِ الرفيعِ السُؤدَدِ
شرَفِ الوُجودِ وصفوَةِ اللهِ الذي ... ذخِرَتْ له دَار النعيم السرمدي
أزكى البَريّةِ محتدًا وأجَلُّ مَنْ ... يَنمَى إلى عَلياءِ ذاك المَحتدِ
مَعنَى الكمَالِ وسَيِّدُ الأرسَالِ في ... يَومِ الحِسَاب ويَا له مِنْ مَشهَدِ
خيرُ الأنَامِ وخيرُ مَن وطِئَ الثرَى ... وشفِيعُ هذا الخلقِ يَومَ المَوعِدِ
المُصطفى والمُرتجَى والمُجتبَى ... والمُستعد لِهَولِ يَومِ المَوعِدِ
أنتَ الذي ترَجَى لِدَفعِ مُلِمَّةٍ ... عَمَّتْ بها البَلوى وخَطبٍ مُؤيِدِ[48]
فانشرْ على هذي الجَزيرَةِ رَحمَة ... تشفِي بها صَدرالشجيِّ المُكمَدِ
واصرِفْ طوارقَ فِتنةٍ عن أهلِهَا ... قد سُلَّ فيها كلُّ سَيفٍ مُغمَدِ
وانصُرهُمُ النصرَ العَزيزَ بها ولا ... تقطعْ عَوَارِفَ فضلِكَ المُتعَوَّدِ
وارحَمْ ضراعَةَ مَنْ بها مِنْ ذي نوًى ... ألِفَ التغرُّبَ بالمَكانِ الأبعَدِ
وأعِزَّ دِينَ الحَقِّ حتى لا يُرَى ... في أرضِها للشركِ مَوضعُ مَسجِدِ
وأمِدَّ بالتأييدِ مَنْ يَحمِي حِمَى ... دِينِ النبيِّ فأنتَ خيرُ مُؤيِّدِ
وأقِرَّ للدينِ الحَنيفِ قرَارَهُ ... رَغمًا على أنفِ الشقيِّ المُبعَدِ
واشمَلْ جَميعَ المُسلمِينَ برَحمَةٍ ... وتجَاوُزٍ وتلطُّفٍ وتغمُّدِ
وامدد ظِلالَ الأمنِ في أرجائهم ... ما بين ساحة مِنهم أو مَسجِد

Scanned by CamScanner

وَصِـلِ الـصَّلاة علـى النبـيّ محمَّـدٍ   مَـنْ لـم نكـنْ لـولا هُـداهُ لنهتدي

وبكتابٍ ورسالةٍ من إنشاء الوزير الفقيه الجليل لسان الولة أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب السلماني[49] رحمه الله نصُّه، بعد الصدر: " أما بعد حَمْدِ الله ناصر دينه الحق، ومظهر كلمته العليا، ومؤيد مَنْ لاذ بعزّ قدرته واستعصم بحبله وآوى إلى ظلّ عنايته واعتمد على معهود لطفه وكرمه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم عليه، الرؤوف الرحيم بأمته، المشفع في معاده، الوسيلة العظمى إليه، والملجإ العظيم في إظهار دعوته، ونصر ملته، وإعلاء حزبه، ونظم شمل فئته الغريبة على طاعته، والرضى عن آله وصحبه أولي السوابق في جهاد مَن ألحَدَ في آياته وكتبه، والأعمال التي أوضحت معالمَ دينه، فهم الأسْوة في الاهتداء بالسنة[50]، والحجة الكبرى في الاقتداء بالسيرة المرضية، فإنا كتبناه إليكم، كتب الله لكم سَعْدًا يُدْنِي[51] آمالكم، ونصرًا يُغْلي سلطانكم، وجهادًا يتتبّبُ[52] أثره الصالح إلى أعمالكم، وتأييدًا يَمُدُّ هذا الوطن بما يعود به الفخرُ عليكم، من حمراء غرناطة، حرسها الله، وليس إلّا ما دهَمَ البلادَ والعباد من خَطبِ الأعداء، وتفاقُم الشدة التي قدم العهد بمثلها، وما يُرْجى من لطفه الكريم في تقريب ساعة الفرَج وإدالةِ العسْرِ باليُسْرِ، وتثبيتِ القدَم على الجهاد في سبيله، والحمد لله كثيرًا كما هو أهله، فليس إلّا لطفه وفضله، وأخوَّتكم الكريمة فضلها معروف، وحقها متعيّن، وفخرُها في الملوك المجاهدين شهير، وعملها الصالح في إمدادِ المسلمين كريمُ الأثر، لا زالت تحْيي مَعالمَ سلفِها، وتجدد في صالحات ما يعود عليها بالحسنى وزيادة.

وإلى هذا يا محلّ أخينا، وصَلَ الله سَعْدَكم وحرَسَ مجدَكم، فإننا ومَن بهذا القطر مِن المسلمين مِن لدن أقامَنا الله وسلفنا ومَن قبلنا في سبيل المدافعة والجهاد، لم نبَلْ شدة أثقلَ وطأة، ولا حادِثًا أمَرَّ وَقعًا، ولا خَطبًا أشنعَ، ولا مُتوَقعًا أعظم مما تحرَّك في هذه الأيام. وهو أنَّ كبير دين النصرانية، الذي لايرُدّون حُكمَه ولا يَغضون أمْرَه، لمّا أعْياه شتاتُ أمّتِه، وإعانة المسلمين بعضهم على بعض، حرّك منهم أمّة

تسد الفضاء وتكاثرَ الحَصَى لِتعينَ القندَ على أخيه، فإذا استقلَّ بالملك صار الجميع يدًا واحدة على المسلمين، وقسَمَ بينهم البلاد وسَوَّغها، وعاهد الكلُّ ألَّا يخاطبوه إلَّا مِن المَحَالِّ التي عيَّنها، والولايات التي حَدها، والبلادِ التي أباحها، ويختطُّ البرْجلوني مِن ذلك بنزول المَرِيَّة، وتجتمِعُ الأساطيلُ الحربية على تملُّكِ الساحل وقطعِ الجَواز.

واتفق رأيُهم على إتلافِ الغلَّاتِ المستغلَّة التي ترمقُ نفوس هؤلاء العِباد الغرباء المنقطعين أهل لا إله إلَّا الله. وبالله سبحانه نستدفعُ ما لا نطيق، وبالله ندرأ في نحر[53] هذا العدوِّ الكبير، وبالله نستظهِرُ على هذا الخَطبِ العظيم. رَبَّنا أفرغ علينا صَبْرًا وثبِّت أقدامَنا، وانصرنا على القوم الكافرين[54]. ولا مفزع بعد الله لهذه الأمة في الشدائد إلَّا إلى المسلمين إخوانِهم في الدين، ورُضَعائهم ثديَ كلمة التوحيد، وشرَكائهم في إرْثِ الدعوة المُحَمَّديَّة، والفضلاءِ الذين لا يَتَهَنَّوون العَيْش مع صُراخِ الجار وضَيْمِ أخِي المِلة، ولا يلتذون بالنعيم مع بُؤس الأحِبَّة.

وقد كنا عجَّلنا تعريفكم وتعريفَ الجهَة المَرينيَّة، خروجًا عن العهدة وإبلاغًا لضرورة الإسلام، وتذكيرًا بوجوب الإعانةِ على مَن يرجو لقاءَ ربِّه مِن المسلمين، فصَدَرَ الجوابُ منهم بما يُرْضِي القلوبَ مِن الإعانة والامتِعَاضِ والمساهمة، والشروع في المبادرة وتعيين المَعونة، واللهُ لا يُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً[55]. ومثلكم مَن ينافِس في الخير، ويساجل في البرِّ، ويرغب في بقاء الذكر، وقبول القربة، وإرضاءِ الله في عِبادِه، والرسولِ في أمَّتِه، وفي ذلك فليَتَنافسِ المُتنافِسُونَ[56].

ونحن لا نملِك إلَّا أنفسَنا، وقد بذلناها في سَبيل الله، وقمنا بحقِّ استنفار المسلمين واستدعائهم، فاللهَ اللهَ في المسلمين، فما بعد العَشِيَّة[57] مِنْ عِذارٍ، ووَعْد اللهِ حقٌّ، والإسلامُ يجود بنفسه، فإنْ لم تنعَرِ الهِمَمُ، وتغرَ الأحْرار، ويَقذِفِ اللهُ الحَمِيَّة في قلوب المؤمنين، هلكتْ هذه الملة[58]، واستؤصِلت الكلمة. وجهات الإعانة أعظمُها النفوسُ، وأدناها الدعوات، ومَنْ يَعْمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ خيْرًا يَرَهُ[59]، وما هو إلَّا أن يُطوى البساط، ويقعَ إلى الله عزَّ وجلَّ[60] الانتقال، فتجد كلُّ

Scanned by CamScanner

نفسٍ ما عَمِلتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا[61].

وقد بعثنا إلى تقرير هذه الضرورة مَنْ نعتقد أنه يوفي الغرض فيها لديكم، ويلقي الحالَ مفصَّلاً ومجمَلاً عندكم، وهو الشيخ فلان وصَلَ الله مَبَرَّته، وتمَّمَ من القبول والعصمة بُغْيَته. وهو حَفِظه الله يشرَح ما اقتضبَه الكِتابُ، ويفسِّر ما أجمله الخِطاب، والله يُطلِعُه مِنْ تلقائكم على ما يعود بالإمدادِ والإعانةِ، ويتولّاه بالحَمْل الذي يسَهِّل مَرامَه، فلكم الفضلُ في تلقي وفادته عليكم بما يشرح صدرَهُ، ويُيَسِّر أمْرَه، ويَصِلُ العادة الجميلة مِن إعانة المسلمين، ونصر كلمة الدين، بما هو الخَليق بمجدكم الأصيل، والمنسوبُ على فخركم الملوكي، وكرم علائكم السلطاني، والله سبحانه يَصِلُ سَعْدَكم، ويحرس مجدَكم، والسلام ". فامتعَضَ خليفة الله، أيده الله، لدين الإسلام، واستفزَّته أرْيَحِيَّة الشجاعةِ، وعَطفته على غرَباءِ المسلمين بالعُدْوَة رَحِمُ المِلة، وحَجَزه البحرُ الزاخرُ عن الوصول إليهم بنفسه، فأمَدهم في سبيل الله بالأحمال العديدة من الذهب والفِضَّة، فالخيْلِ المسوَّمةِ، والمَراكِب المشحونة زرعًا، أجزل الله ثوابَه، ونصر أحزابَه، وجعَل إلى الفوز بالحسنى مَآبَه.

ثم كفى اللهُ المؤمنين القِتالَ، ورَدَّ بغَيْظِهم لم يَنالوا خَيْرًا الكفارَ. فكتب السلطانُ أبو عبد الله محمد[62] بن نصر، أعزه الله، إلى مولانا أمير المسلمين، أيَّده الله، مُثنِيًا شاكِرًا، ومعترفًا مادِحًا، من إنشاء الفقيه أبي عبد الله ابن الخطيب المذكور ما نصُّه: " مِن فلان إلى مَحَلِّ أخينا الذي نطنِبُ في شكر مجدِهِ ونسْهِبُ، ونصُولُ بمَضاءِ حَدهِ ونزهِبُ، السلطان الأكرَم أبي حَمُّو أبقاه الله شهِيرًا في الله امْتِعَاضهُ، فاهِقة[63] لِوُرَّادِ الآمال الظماءِ حِياضهُ، ولازالَ ليْثا للنزال ومِن الأسِنةِ غِياضهُ، وغيْثا للنوال وسَبيل الجهادِ رياضهُ. سلامٌ كريمٌ، بَرٌّ عَميمٌ، يَخصُّ مَقامَكم الأسْمَى، ومَثابَتكم العُظمَى، مِن مُعَظم قدركم الذي لا يُجْحَد ولا يُنكرُ، المُشِيدِ بفخركم الذي أنوَارُهُ تبهَرُ، وحُجَّتهُ تظهَرُ، المُثنِي على فضائِلِكم التي عَضَّدَ الخبر منها المخْبَر، ورحمة الله وبَرَكاتهُ.

أمَّا بعدَ حَمْدِ اللهِ مُرْبح بضائعِ البرِّ ومُزَكيها، ومُتَمِّم مواهِبِ الأجور ومُوَفيها،

Scanned by CamScanner

ومُنوِّرِ القلوبِ المُوهَنَةِ[64] إذا قدِحَ زنـاد الاستِبْصار فيها، ومُحقِرِ الدنيا عند مَن قدَّر قدرَ الآخِرةِ التي تليها، مُلهِمِ مَن سبقتْ له العناية لما يُسْمِي دَرَجاتِهِ ويُعْلِيها، ومُنجِدِ كلمةِ الحقِّ بأهليها، ومُوالي مَن يُواليها، والصلاة والسلام[65] على سيدنا ومولانا محمد رسولِهِ مُطلِعِ أنوار الهِدايةِ وجالِيها، ومُواصل بيناتِ المَراشِدِ ومُواليها، الذي بَيَّنَ مَراتبَ القرْبِ من الله مُتفاضِلة مَراقيها، فجعلَ للجهادِ في سبيل الله بالأموال والأنفس المَزيَّة التي وَضَحَتْ مَعانيها، وسَمَتْ مَبانيها، والرِّضا عن آلِه وصَحْبه وعترَتِه وحِزبه الذين طالتْ في نصْرَتِه أيْديها[66]، ودَلَّتْ على هذه الغاياتِ[67] الشريفة مَباديها، فسمَحوا بالأموال التي لا يُحْصِيهَا[68] العَدّ ولا يستوفيها، وباعوا النفوسَ في مَواقفِ الصبر فكان الله مشتريها، ورَعَوْهُ في أمَّته دِفاعًا لأعادِيها، وإصْراخًا في الشدائدِ لِمُناديها، وحَمِيَّة تشهد بخلوص المُعاملاتِ لِباريها، والوفاء بعهد منقِذها من النار وهاديها، والدعاء لمقامكم الأسمى بالصنائع التي تعذبُ[69] مجانيها، وظهور آثار هذه الأعمال التي في الله يُبْدِيها، والمقاصد التي لِرضاه جَلَّ وعَلا يَنويها، فكتبناه إليكم من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى، وإلى هذا أعزكم الله تعالى، ووصَلَ لكم[70] أسبابَ السعادة التي ألبسكم لِباسَها، وخَوَّلكم وله الحَمْد أنواعَها وأجناسَها.

فإننا اتصلتْ بنا صرْختكم في الله التي أخْسَبَتِ المَطامِعَ، وراقت الأبصارَ وآنسَت المسامِعَ، وأقامت الأدِلة على أنَّ ربوعَ المكارم عامرة، وسَحابَ بَرَكة المِلة هامِرة، وحُجَّة مَن قال وقعَ القحْط في الرجال داحِضة، وأقيِسَة مَن ادَّعى كسادَ أسواق الفضل متناقِضَة، ودعْوى مَن زعَمَ رُكودَ الهِمَمِ كاذِبة، ودليلِ الحِسّ والمشاهدة محاسبَة[71]، بل كنوز الله في الأرض وافرة، وأولِياؤه متكاثِرة، وألطافه خافِيَة وظاهِرة، ورحمته في القلوب كامنة، وبَرَكة نبيّه، صلوات الله عليه وسلامُهُ، للخير ضامنة، وأنَّ لواء رسوله رُفِعَ فكنتم أوَّلَ مبادِرٍ وتابعٍ، ونداءه أسمَعَ المسلمين[72] فكنتم خيرَ سامِعٍ، سمحتم بالأموال الجمَّة، وقدحتم زنادَ الحمِيَّة والهِمَّة، وساهمْتم دينكم في الشدائد المُلِمَّة، ووَفيتم لرسول الله صلى الله عليه

Scanned by CamScanner

وسلم بالأذِمّة، وراعَيْتموه في هذه الأمّة، ولم تقنعوا بإجابة الداعي، وإخلاص المَساعي، وأعمالِ المَتاجرالرّابحة، والشروعِ في إنشاء الأساطيل السابحة، وتعيين الحِصَص، وإزالة الغصَص، حتى خاطبتم مَظنّاتِ الانتصار، ومَن يجاورُكم من أملاك[73] الأمصار، واطلقتم لسانَ العِزِّ بالله في مَقامات الاستنفار، وسهَّلتم السبيل إلى ذلك على النفوس التي لا ترضى بالعار، والهِمَم التي تدين بحِماية الذمار، كافأ الله لكم هذه الأعمالَ فبمِثلِها يُبأى ويُفخَرُ، والوسائل إلى الله التي مثلها يُقتنى ويُذخَرُ، والمَزايا التي رَجَحَ بها المُتقدِّم[74] مَنْ تأخرَ، وعَرَّفكم عوارفها يومَ تخذلُ الأموالُ، وتذهِلُ الأهوالُ، ويُسلمُ العَشيرُ، ويُستشعَرُ المَذلة على عِظمِ سلطانِهِ كِسْرَى وأزدَشِير، وأولِياءُ اللهِ قد جلَّلَ وجوهَهم النورُ، وهنّاهم الحُبورُ، وأجارَتهم من المخاوفِ الأجورُ، فتجدونَ[75] تلك الصحائف التي سَوَّغتم فيها المغارم والزروعَ، وألحَقتم بأصولِها الفروعَ، طُرَرًا في صحائفِكم المُنشَرَة، وتحِيَّاتٍ لوجوهِكم المُبَشَّرَة، والأموالَ التي استهَنتم في الله بيضَها وصفرَها، واحتقرتم بإزاءِ جلالِهِ خَطرَها، جبالاً ترجِحُ مِيزَانكم يومَ يُزري بالمَوازين الخُفوفُ، ويَطولُ في عَرَصَاتِ الحِسابِ[76] الوقوفُ.

ونحن نضرِفُ أعِنة الثناءِ عليكم فقد تكفل الله به وهو الغنِيُّ الشكور، ونغري ألسِنة الأقلامِ بهنائكم ما اغتقبَ الرَّواحُ والبُكورُ، فلتَهَنكم مَزيَّة السَّبْق، إلى إجابَةِ دعْوَةِ الحَقِّ، وليُهَنكم وصفُ العَرَامَةِ[77] والصَّرامَةِ، وبدارُكم إلى هذه الكرامَةِ، وليُهَنكم ثناءُ الناس على قيامكم من الجهادِ بفرْضِهِ، وحُبُّهم إيَّاكم وهم شهداءُ الله في أرضِهِ، فأنتم اليومَ واحِد الآحادِ رعايةً للهَمَلِ[78]، واتساما[79] بالعِلم والعَمَل، سياستكم في التدبير سديدة، وأواخي الحَزم منكم شديدة، وآراؤكم حميدة، ومقاصِدكم مُبْدِيَة في الخاصَّةِ والعَامَّةِ مُعِيدَة، جَمَعْتم القبيلَ لمَّا افترَقَ، وصابرتم الهَوْلَ عندما طرَقَ، وجددتم الرُّسومَ الدارسَةَ، وأوْضَحتم السُّبُلَ الطامِسَةَ، فحقٌّ على مَنْ لديكم أنْ يَغتبِطوا منكم بما مُنحوهُ مِن يُمْنِ النقيبَة، وإخمادِ الضريبة،

ومُخولِ الصّنائع الغربية، حَفِظ الله كمالكم، وسَنَّى من فضله آمالكم، وتقبّل في ذاته أعمالكم.

وقد كنا بعدَ إعلامكم بإجلابِ العَدوّ إلينا، وإيجافِهِ علينا، استخَرنا الله سبحانه واستعَنَّاهُ، وأعمَلنا الرأيَ وأمعَنَّاهُ، فتمَحّضَتِ المشورةُ المُوَفقة، والمقاصِد المُمَحّضة في الله المُحَققة، على معاملته باللطمَة، ومتاجرته بالحَطمَة، فإنَّ البادِئَ في مثلِها أكرم لا أظلم، وهي علامة هبوبِ النصر والله أعلم. فأمرنا بشنِّ الغاراتِ على بلاده من ثغر بيره إلى رُندَة. وأمَرنا أهْلَ الجهة الغربيَّة ومالقة ورُندة بمنازلة مدينة برغة، الشجَا الذي أعيَا الطبيبَ، وأوهَنَ الثغرَ الغريبَ، وصَيَّرَ رُندَة وأحوازَها لا يَطرُقها الطيْفُ، ولا يقصدها إلَّا الحَيْفُ، ولا يومِضُ ثنِيّتها بارقٌ إلّا السيفُ، ففتحها الله على المسلمين، وأنعم بها على عباده المؤمنين، وعادتْ إلى منابرها ومآذنها كلمة الدين، وتهَلّلَ بها في مظاهرة[80] عنايةِ اللهِ وجهُ الفتح المبين، وتلاحَقَ بها الحِصْنُ المعروف بغار وَجُبَر، وهما أيضًا عَدُوَّا الطريق الراصِدَان، ومُخِيفا العَريق[81] المتواعِدان، ثم حِصْنُ بَاغة القريبُ منهما جوارُه، العظيمُ بذلك الصقع أضرَارُه، فانتشرت الأعلامُ، وشفِيَت الآلامُ، واستَبْشَرَ برَدِّ مُغتصَبِهِ[82] الإسْلامُ.

ثم استعجلنا بنفسنا الحركة واستِخارة اللهِ تضيءُ بين يَدينا[83] قبَسًا، والتوكلُ عليه لا يَذخِرُ عنا مُلتمَسًا، فنازلنا بأهْلِ حَضرتِنا حِصْنَ أشَرْ، ثانِيَ[84] جبل الفتح في رُحْبِ المُسَوَّرِ واتساعِهِ، وإطلالِهِ على الأرجاءِ وإطلاعِهِ، وشهرَةِ امْتِناعِهِ، وبُعْدِ شأوِهِ في النكايةِ وطولِ باعِهِ، قد كانَ طاغِيَةَ الكفرِ لمَّا تمَلّكهُ لم يَدَعْ فيه مَطمَعًا[85] لطامِعٍ، ولا عَوْرَةَ يُهْدَى خبَرُها إلى سامِعٍ، وحصَّنه بالبناء، وأغرى به هِمَّة الاعتِناءِ، إلا أنَّ اللهَ القويَّ العزيز مَنَحَ الصَّبْرَ، الذي يضمَن الظفرَ، وأظهَرَ مَنْ آمَنَ به على مَنْ كفرَ، فعَلَتْ راياتُ الإسلام فوق أبراجِه، وتحَكمَتْ أيْدي القتلِ والاستِرْقاقِ والامتِنان والإطلاقِ في العدَدِ الكثير مِن أعلاجه، وطهّرَتْ مساجدهُ مِن زورها الخبيثِ، وأديلَ التوحيدُ فيها مِن التثليثِ، وأنزِلَ ناقوسُهُ صاغِرًا، وأصبح ركابُ الإسلام فيه مُتاغِرًا، ووَفقنا الله مِن مباشرةِ قتالِه الشديدِ، والعملِ فيما يُضطرُّ إليه بعدَ

Scanned by CamScanner

افتتاحه[86] من الزمّ والتشديد، إلى ما جمع لنا بين مختلف الأجور، والاقتداء بسيدنا ومولانا محمد[87] صلواتُ الله وسلامُهُ عليه في كثيرٍ من الأمور، وغدنا بالخير الموفور، واليُمنِ البادي السُّفور، فقرعنا طبول الفتح إظهارًا[88] لوليجته، ونشرنا بنود النصر تهزّنا نعامى ديمتِهِ، واستضفنا إلى هذا الثغر حِضنَ السّهلة وهو الذي كمّل النعمة ووَفاها، وكفَّ العادِيَة وكفاها.

وعجّلنا لكم التعريفَ بهذا كله مفصّلاً لِحِينِه، وأغرينا الأقلام بتبيينه، وأتحفنا به مقامَكم لِما نعلمُه من متانةِ دِينه وحُجّة[89] يقينه، وإننا نبطش في العدوّ بيمينه، ونستعِينُ به ثم بفضلِ اللهِ على توْهِينِه، ثم أجملنا لِيتعاضدَ هذا المُجمَلُ والمُفصَّلُ، ويتأكدَ السُّرورُ المُوَصَّلُ.

ومِن آثار بَيْتِكم التي تلحَظ فيها النِّسبَة، وما خصّتكم به هذه القربة، أنّ الرابطة التي تركنا لِحِمايةِ ذِمارِهِ، عند استِقلالِ الإسلام به واستِقرارِه، كانتْ من قبيلكم المبارَك، فأقامتْ به بعد انصِرافِنا، وهَيّأ الله لها ولِمَنْ معها من المسلمين على العدوّ وَقِيعَة كبيرة هَلكَ برماحِهم فيها زَعِيمٌ كبيرٌ، وفارسٌ شهيرٌ، قائد الدِّنزلات لسلطانِهم الجَدِيدِ، أولي البأسِ الشديدِ، والشهْرَةِ الجامِحَة والصِّيتِ البَعيدِ، أخذ أعقابَهم جَمْعٌ وافِرٌ، وحَشد نافِرٌ، وقد غنِموا ما يُجاورُهم مِن البلادِ، وخالطهم مُستظهِرًا بوُفورِ الأعْدادِ، وشِكَكِ الجلادِ، فناشته أطرافُ الرِّماحِ الحِدادِ، وخلصوا بالغنيمة تحت ظِلّ[90] السيوفِ، ومِن بينِ لهَواتِ الحُتوفِ.

فأرَدنا أنْ نطرِفكم بهذا الخبر[91] الذي لكم فيه النصيبُ، والسّهمُ المُصيبُ، جعَلهُ الله لكم عادة مُتتالِيَة، ودِيمة هامِيَة، وجعَلَ الأجورَ بسَبَبه نامِيَة، والمقاصِدَ سامِيَة، ونشأتْ بيننا وبين النصارى مداخَلة خَفِيَّة، نرومُ بها هُدنة بخِلالِ ما نضمُّ الغلّاتِ المُهَيّأةِ للانتِسافِ، ونسكِتُ بها ألسِنة الإرْجافِ، فإنْ تمّ الأمْرُ فيها على ما نريده أمْضَيْناه، وإنْ كانَ غيرُ ذلك استنصَرْنا بالله واستغنَاه، وما يتزيّد[92] نعرّفكم به إنْ شاءَ الله.

وثناؤنا وثناءُ مَنْ والانا[93] مِن المسلمين على سلطانكم ثناءُ النسيم على الزهر،

Scanned by CamScanner

والرِّياضِ على القطرِ، واعتِدادنا في الله بكم اعتداد النصْلِ بالنصْرِ، والله سبحانه يَصِلُ لكم عُلوَّ الأمرِ، ويَجْمَعُ لكم بين الفخر والأجر، فأنتم اليومَ مَنْ[94] لا يُمْتَرَى في كمالِه، وكرَمِ خِلالِه[95]، زادكم الله مِن مواهِب السعادة، وحَباكم بالنعَمِ المُعادَة، وحرَسَ ما لكم مِن أصالة المُجادَّة، والسلام".

وفي شعبان هذه السنة، صدرت الأوامر العلِيَّة للقبيلِ الأعزِّ وكافة القوَّادِ المذكورين بحَشرِ[96] العساكر إلى الحضرة الكريمة لتعرض بين يَدَيْ خليفةِ الله، نصره الله. وفي أوَّلِ شوَّال اجتمعت المَحَلَّات كافة بالبسيط الأفيَحِ مِن ظاهِر الحضرة، فجلس أميرُ المسلمين أيَّدَه الله تعالى لِعَرْضِ جيوشِها[97] المُظفرَة، في خِباءٍ مُطِلٍّ مِن أعلى ربوة[98] على بسيطٍ مُسْتوٍ، اضطفَّتْ به الكتائبُ لا يَحْويها العَدُّ، ولا تحيط بأقطارها الأبصارُ، مِن كلِّ شاكِي السلاحِ، مُنحَدِبٍ على قناة المُنآدِ[99]، لا يعرفُ إلَّا سَيفه، ولا يستشِيرُ غيْرَ عزمِه، قد أخذوا زينتهم، تحْسبُهم الخمائلَ المُزْهِراتِ مِن فوق الكثبان الهائلة، وَسَطَ كلِّ كتيبةٍ فنِيقٌ[100] جُلِّدَ الوَشْيَ وخُلخِلَ اللجَيْنَ، يَخطِمُه بسلسلة من الفضَّةِ غِلمان لبسوا أقبِيَة الخَزِّ المُلوَّنِ، وعليه هَوْدَجٌ مُغشًّى بأنواعِ الحُللِ، قد برَزَتْ منه قيْنة يَسْبي جَمالها وصِقالُ مَلبَسِها الناظرين، فأمسَكتْ بشِجارِه[101] تغني بأشعارِ زناتِيَّة، مِمَّا يُهيِّج أرْيَحِيَّاتِ الهِمَم، ويَبْعَث حَمِيَّاتِ النفوس، ثم زَحَفوا للسَّلامِ عليه دِراكًا من ضُحى اليومِ إلى غروبِ شمْسِه، وحُذاقُ الكتبَةِ بين يَدَيْهِ الكريمتيْنِ، يُحْصون جُمَلَ القبائلِ والشعوبِ، ويُنوِّعون الرامِحَ منها والنابل، فكانتْ فذلكة حِسابِ الجميع اثني عشر ألفَ فارس مُرْتَزِقة.

وقد كان الخبر وصل بأن الأمير أبا العباس أحمد بن محمد ابن السلطان أبي بكر المُوَحِّد قتل ابنَ عمِّه الأمير أبا عبد الله محمد بن يحيى صِهرَ أمير المسلمين، أيده الله، بِعَقرِ دارِه بَغتة، فاهتاجتْ من أمير المسلمين، أيده الله، الحَمِيَّة، ولمعتْ بأفقِ قزباءِ العَصَبيَّة. فاستجاش، أيده الله، مِن عربِه المعقل وبني عامر وسُويد والذُّبالم والعطاف وحُصَين وغريب، ثلاثة آلاف فارس أخرى أضافها إلى جيشه الذي ذكرناه، وارتحل عن حضرته الكريمة ثاني عشر شوَّال في أمم يضيق

لأجلهم[102] رَحْبُ الفضاءِ، تحْسبهم السَّيل[103] الطامِيَ أو قِطَعَ السحابِ المُسخّرِ بين السماء والأرضِ فسبحانَ مُنشئ الخلائقِ والمتكفل بالأرزاق، لا إلهَ إلّا هو.

فأغذ، نصره الله، السَّيْرَ إلى أن أخذ بمُخَنَّق الأمير أبي العباس، قاتِلِ صِهْرِهِ المذكور، ببجايَة، أوَّلَ شهر ذي حِجَّة، مُكتَنِبًا بأمَمِه العَديدة جِوارَها، ومُطانِبًا بأبْنِيتِهِ الكريمة[104] أسوارها، وابنُ عمِّه لحًا[105] أبو زيان ابنُ السلطان أبي سعيد مُطِلٌّ عليه من جبل بني عبد الجبّار، وأوقفه هنالك المَحْصُورُ إشجاءً للخليفة، نصره الله، به.

وهنالك وَرَدَ على بابه الكريم أعْيانُ مدينة بَسْكرَة قاعدة زابِ إفريقية ببيْعَة أهلِه لمَقامِهِ العَليّ[106]، ويا شدَّ ما سُقِطَ في يَدِ أهلِ البَلدِ، وأيقنوا بالبَوار لوْلا ما مُنِيَ يومئذٍ به أميرُ المسلمين أيده الله من خذلان الناس وتواطئِهم على الفرار عنه، رَأيًا أبرموه فائلاً، وهوًى اتبَعوه مُطاعًا. ففي يومِ مِنى، بعدَ الإشرافِ على فتح المدينة، وَلّى الناسُ الأدبارَ لا لِقتالٍ قاهِرٍ، ولا أمامَ عدوٍّ قادِرٍ، ولا لسبَبٍ سِوى الغدرِ ظاهِرٍ، والأمرُ كله لله يَصْرِفه في العِبادِ كيف يشاء[107]، وكل شيْءٍ عِنْدَهُ بمِقدارٍ عالَم الغيْبِ والشهادَةِ، فلا يُظهِرُ على غيْبِهِ أحَدًا[108].

وهنالك لزم أميرُ المسلمين، أيده الله، وطائفته الصبرَ، فضَمَّ فساطِيطَه الكريمة لاستركابِ حُرُمِهِ وحَمْلِ أمْوالِه، حتى أدرَكهم العدوُّ المنزورُ، وجاوَلهم الطعنَ، فأفرجوا له غيْرَما بعيدٍ، ثم انعطفوا بواحِدَة عليه، فقتلوا أكثرَ رَهْطِه، وحالَ الظلامُ بين الفئتين، ولا حَوْلَ ولا قوة إلّا بالله.

فأدلجَ أميرُ المسلمين أيده الله يُغِذ[109] السَّيْرَ ليْلته تلك وغدَها والثانية وغدَها، وراحَ إلى الجزائر وتلوَّمَ بها يومًا. وأمسى الناسُ ليلتهم تلك بوَادِي بجاية حَيارَى قد ضَلّوا السبيلَ، فماجُوا كبَحْرٍ زاخِرٍ عصَفته الرياحُ، وشياطين الإنسِ وقِرَدَة أهل الجبالِ يَتحيَّفونهم إلى أن رَزَؤوهم السَّبَدَ واللبَد. وأصبح ابنُ عمِّ الخليفة المذكورُ فيهم داعِيًا لنفسِه، فمِنْ مضطرّ لإجابَتِهِ مطمَئِنّ بإيمانِهِ قلبُهُ، ومِنْ مُتصامِمٍ لا يَبْغِي عن دِينِهِ حِوَلاً، وصَمَّمَ المذكورُ إلى الوطن مهتبلاً فيه الغرّة[110]. وانصرف أمير المسلمين، أيده الله، عن الجزائر، فطوى المراحلَ، يصِلُ التأويبَ بالإسْآدِ[111] إلى أن

دخل حضرته الكريمة، يوم الأحد خامس عشر ذي الحجّة، صابرًا لتمحيصه، محتسبًا أجره عند الله، ولسانُ الحال يُنشِدُهُ:

إذا سَلِمَتْ نفسُ الرجالِ مِنَ الرَّدَى   فما المالُ إلّا مِثلُ قَصِّ الأظافرِ

---

(1) ع: واتفل.

(2) ع: باستركاب.

(3) ع: صنعه.

(4) ع: العاملون.

(5) ع: ليلة مولد خير البشر الشفيع في المحشر.

(6) في ع: نصره الله؛ وفي ش: أيده الله؛ وفي ر: أعزه الله.

(7) واسطة السلوك: بالهجر أخشى الرقيبا.

(8) نفسه: بوصل وعيش يكون خصيبا.

(9) ع: آذى. وآدَ يعني: أثقل وأتعب.

(10) واسطة السلوك: يذيب النفوس ويغشي القلوبا.

(11) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

(12) وفي واسطة السلوك: فشيمتكم.

(13) نفسه: أداري.

(14) ر: عليم.

(15) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد.

(16) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

Scanned by CamScanner

(18) واسطة السلوك: أجل.

(19) واسطة السلوك: بمولد.

(20) وا سطة السلوك: العيس.

(21) نفسه: لبدر التمام.

(22) نفسه: لخير الأنام.

(23) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد.

(24) هاذان البيتان ساقطان في بغية الرواد.

(25) مخطوط واسطة السلوك: والشعوبا. والمراد بالشعوب الشعاب، وهي الطرق في الجبال.

(26) وفي وا سطة السلوك: في الدجون. والدجون يعني: سواد الليل.

(27) وفي وا سطة السلوك: وجسمي بالغرب أضحى غريبا.

(28) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

(29) مخطوط واسطة السلوك: سرا.

(30) هذا البيت ساقط في بغية الرواد.

(31) واسطة السلوك: مستأنسًا. واستوحش له يعني: أحس بالوحشة، أي بانقباض القلب لفراقه.

(32) هذا البيت ساقط في ع وجميع نسخ بغية الرواد المخطوطة.

(33) لا يستقيم الوزن إلا بتسكين الميم.

(34) ع -: الطبيب الماهر.

(35) ع، ل، ب: يا سعد (وهو مخِل بالوزن).

(36) ع: أعني.

(37) وفي ع: ألفي سنة.

(38) ع: ليس له من خبر.

Scanned by CamScanner

(39) ع: بملكه على البلاد.

(40) ع: المهادنة.

(41) ع: بنت.

(42) ع -: ابن سعيد المديوني.

(43) ع: بابّو الرومي.

(44) ع: ولاستباحة قطر اللأندلس.

(45) اقتباس من القرآن، سورة الصف، الآية 8، وسورة التوبة، الآيتان 32 و33.

(46) ش، ع: المبين. والمبير، من أبار، يعني: أهلك.

(47) ع: محظكم.

(48) ر: موفد. والمؤيد يعني: الأمر العظيم.

(49) س، ر، ل، ب -: السلماني.

(50) ل: بالسنة السنية.

(51) ع: يداني.

(52) ع: ينسب.

(53) ع: نحور.

(54) قرآن، سورة البقرة، الآية 250.

(55) اقتباس من القرآن، سورة يوسف، الآية 90.

(56) قرآن، سورة المطففين، الآية 26.

(57) ل، ب، ع: العيشة.

(58) ع: هذه الأمة.

(59) قرآن، سورة الزلزلة، الآية 7.

Scanned by CamScanner

(60) ع: سبحانه.

(61) قرآن، سورة آل عمران، الآية 30.

(62) س -: محمد.

(63) ل: فائقة. ع: فائضة. يقال فهِق الإناء: أي امتلأ حتى صار يتصبب.

(64) س، ر، ع: المؤمنة. والموهنة يعني: التي أصابها الضعف.

(65) س -: والسلام.

(66) النص من " والرضا " إلى " أيديها ": ساقط في ل.

(67) ع: الغاية.

(68) ع: لا يحصرها.

(69) س: بعدت.

(70) ع: وإلى هذا وصل الله لكم.

(71) ع: مجانبة.

(72) س -: المسلمين.

(73) ع: ملوك.

(74) س: من تقدم.

(75) ع: فتجاوز.

(76) س: الحسنات.

(77) ع: الزعامة. والعَرامَة هي الشدة والحزم.

(78) ع: للمهمل.

(79) س: وانتسابًا.

(80) ع: مناظرة.

Scanned by CamScanner

(81) في ر، س: الفريق، وفي ع: العريق.

(82) ر، ل، ب، ع: معتصمها.

(83) ع: بين أيديها.

(84) ل، ب، ع: الشرتاني.

(85) س: لم يبق فيه طمع.

(86) س -: بعد افتتاحه.

(87) ع: بسببها.

(88) ع: إشهارًا.

(89) ع: وصحة.

(90) ع: أجنحة.

(91) ع: الصنع.

(92) ع: يترايد.

(93) في ع: من لدنياه وفي س: من لنا.

(94) ع: ممن.

(95) ر، ل، ب، ع: جلاله.

(96) ع: بحشد.

(97) ع: جيوشه.

(98) ع: هضبة.

(99) ع: المنا. وانأد يعني: انحنى وانعطف.

(100) الفنيق هو الحصان الكريم، لا يؤذى ولا يركب لكرامته.

(101) الشجار هو عود الهودج.

(102) ع: يضيق بهم.

(103) ع: البحر.

(104) ع: المشيدة.

(105) ع -: لحًا.

(106) النص من " وهنالك " إلى " لمقامه العلي ": ساقط في س.

(107) ع: شاء.

(108) اقتباس من القرآن، سورة الرعد، الآية 8، وسورة الجن، الآية 26.

(109) ع: يجد.

(110) ع: مهتبلاً غرته.

(111) في ع: الإسناد؛ وفي س: الإدلاج. وأسأد يعني: سار ليلته كلها.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة ثمان وستين وسبعمئة

لا غَزْوَ أن اقتضى تحويلُ هذه السنة ثورةَ الفِتَن بقطرِ تِلِمْسان، وانحِراف رَعِيَّته عن طاعةِ إمامِهم الأعظم، وظهورَ الفسادِ في أرْضِهِ بكلَبِ عَرَبها، وتطاوُلِهم إلى ما ليس من طورهم، ففي أوّلِها مَلكَ أبو زيان ابنُ عمّ الخليفة لحًا السلطانِ المرحوم أبي سعيد[1] المَدِيَّة وما إليها، بمظاهرة حُصَيْن وممالأة العرب أجمعين سِرًّا. فأنهض إليه أميرُ المسلمين الحاج الوزير[2] موسى بن علي بن برغوث ببني عبد الواد كافة وأحلافِهم من توجين وبني راشد، وقائدَه عطيّة بن موسى[3] بجيش شَلِفِهِ، ثم أرْدَفهم بالوزير عِمْران بن موسى بن فارس بكتائبِ الحضرة الكريمة، ثم بعث ولدَه المَوْلى الأميرَ الأغلى أبا تاشفين أعزّه الله بعسكرٍ آخرَ لَجِبٍ لاستِجاشةِ سُوَيْد والديالِم والعَطاف على عِلّاتِهم ومسايرة الجيوشِ بهم قِبْلة لِسَدِّ أفواهِ الثنايا على المنافقين. فجاؤوا أبا زيّان المذكورَ وغوْغاءَهُ مِن فوقِهم ومِن أسفلَ منهم، فتوَلَّوْا مُعْرِضين عن القطرِ. فتسلَّمَه الوزيران المذكوران، وغلغلا في طلبهم، فلم يَجد القومُ[4] مَحيصًا عن الاعتِصام بمَعْقِلِ تِيطَرِي المشهورِ الحصانة الآخذِ من الصحراء والتلِّ بحظٍّ والمُزاحِمِ بمناكِبه الغمائم[5]، فأوَوْا إليه بثاغيتِهم وراغيتِهم، وأخذ أولياءُ الإمامِ نصره الله بمُخَنقِهم من خَلفٍ وأمامٍ، فاستمرُّوا صُعُدًا[6] إلى شماريخِه المُمَعَّرَة[7]. وطال عليهم أمَد الحصار، وفنِيَتْ به رؤوسُ أموالِهم فقسَتْ قلوبُهم، فالتأموا فارسًا وراجلاً وفجَؤوا المَحلّاتِ بَياتًا مستميتين في حَرْبها، فاضطربتْ وماجتْ عساكِرُها وهالَ عليهم بحرُ الظلمة، وارْتجَّ دونهم الأمرُ فتركوا الأبنِيَة، وراحوا بواحدةٍ دونَ حربٍ مُعْضِلة ولا قومٍ كاثِرَةٍ، والحكمُ لله العَلِيِّ الكبيرِ سبحانَهُ لا يُسْأَلُ عمّا يَفعَلُ وهم يُسْألون[8].

فرأى الوزيران وُجوبَ حِياطةِ المدنِ، فاستقرَّ عِمرانُ بن موسى بن فارس بالمَدِيَّة، وموسى بنُ علي بن برغوث بمليانة، وطارَ الخبرُ إلى خُللِ المَوْلى أبي تاشفين وعربه، فلم يَسَعْهم إلّا التأخرُ مرحلة أو اثنتين. ولزم أبو زيان وحُصَيْنُهُ

Scanned by CamScanner

معظمهم غير مصدقين ما جرّه القدرُ من هزيمة الجيش اللُّهام المجْرِ دون ما سبب[9].
وراح نبأ الكائنة إلى أمير المسلمين أيده الله، فتلقى قدر الله فيها بالرضى والصبر وتسليم الحول والقوة إلى عالم الغيب والشهادة.

وأطلّتْ ليلة الميلاد الشريف النبوي[10]، فأجرى احتفالَ بَيْتِها على أفضل عادته، فكان مِمّا أنشده مُشوِّقُها له، نصره الله تعالى وخلد ملكه[11]، قوله:

الحُبُّ أضعفَ جسْمي فوق ما وجبا ... والشوقُ رَدَّ خيالي بالسَّقام هَبا
والبَيْنُ أشعلَ نارَ الوَجْدِ في كبدي ... والدَّمعُ يُضرِمُهَا في القلبِ وا عجبا
ماءٌ ونارٌ وأكبادٌ لها شعَلٌ[12] ... والقلبُ بينهما قد ذابَ والتهبا
ضِدَّانِ قد جُمِعَا عَونًا على سَهَري ... لكنْ عذابي بها في الحُبِّ قد عَذُبَا
ما كنتُ أدريهما حتى صَحِبْتهما ... كرْهًا وقد يَكرَهُ الإنسانُ مَنْ صَحِبَا
إحداهما قاتِلي، أو إذا اجْتَمَعَا ... وبعْضُ خَطبِهِم للصَّبِّ قد صَعُبَا
سُهْدٌ وبُعْدٌ وأشواقٌ تلازِمُني ... وكلها لِعَذابي، قد غدا سَبَبَا
أكابدُ الليلَ بالتسهيدِ مُفتكِرًا ... ولا أبالي به إنْ طالَ أو قرُبا
لَيلي نهارٌ[13] ويومي كله فِكَرٌ ... والنومُ عن مُقلتي، مِن بعدِهم سُلِبَا
وقد شغلتُ بقلبي كلَّ مُشتغلٍ ... وقد مَزجْتُ دَمًا بالدمعِ مُنسَكِبًا و لم
وكلها لِعذابي، في الهَوى سَبَبٌ ... أجد لِوصالي بالنوى سَبَبَا
أكفكِفُ الدمعَ مِن عَيني فيَغمُرُهَا ... كم بين مَنْ باتَ مَسْرورًا ومُنتحِبَا
مِنْ بعدِما كان دهرُ الأنسِ يَجْمَعنا ... والسَّعْد يُسْعِدُنا والوَصْلُ قد عَذُبَا
ولا رقيبٌ ولا واشٍ بحَضْرَتِنا ... واليومَ بالبَيْنِ[14] حالتْ بيننا الرُّقبا
ما كنتُ بالوَصْلِ قبلَ اليومِ مُقتنِعًا ... واليومَ أقنعُ إنْ هَبَّتْ نسيمُ صَبَا
كانوا وكنَّا، وحُكمُ الدهرِ فرَّقنا ... وكم عسى يَبْلغُ الإنسانُ ما طَلَبَا
وهكذا الدهرُ ما زالتْ عوائِدُهُ ... فلا تثِق بزمانٍ بانَ أو قرُبَا
يُدني ويُبْعِد في أحكامِهِ أبدًا ... هذا بذاكَ ولا عَتْبٌ لِمَنْ عَتَبَا
كم نفحةٍ بعدَ قطعِ اليأسِ نافِحَةٍ ... تُهدي لنا عاطِرًا مِن ثغرِهِ شَنَبَا

Scanned by CamScanner

وكم أعلّلُ قلبي بعدَ فُرقتِكم   إنَّ التعلُّلَ للأحبابِ فيه نَبا

وقد تعلّمتُ مِنْ حُبّي لهم خَبَبًا   وخَيلُ راحتِنا تجري بنا خَبَبا

ما للمُحبّ دواءٌ غيرُ وَصْلِهِمُ   يُبْري له السَّقمَ والتبريحَ والوَصَبا

وقد تقطّعَ قلبي بعدَهم قِطَعًا   لمّا نأوْا وقضَوْا في سيْرِهِمْ أرَبا

سارَ الأحِبّة نحوَ الرقمَتينِ ضُحًى   وخلّفوني رَهينَ القلبِ مُكتئِبا

ساروا على البُزْلِ والحادي يجدّ بهم   والقلبُ مني إلى أرض الحِجاز صَبَا

هذي الأحِبّة قد شدُّوا مَطِيَّهُم   وأسرَعُوا بِقِبابِ الحَيّ نحوَ قُبَا

ولا رَضِيتُ لنفسي غيرَهم بَدَلا   ولا وجَدتُ لقلبي دونهم طلَبَا

ولا سَلوْتُ ولا أسلو لِبُعْدِهِمُ   إنَّ السُّلوَّ عن المهجورِ قد حجبَا[15]

زَمُّوا إلى زَمْزَم والقلبُ يَتْبَعُهُمْ   والصبرُ بعدَهمُ عني لقد عَزَبَا

وخَلّفوني بِغَرْبٍ مُغْرَمًا بِهِمُ فقلتُ   أشكو لهم وبهِمْ مِن عَبْرَتي عَجَبَا

يا حادِيًا والرَّكبُ يَسْمَعُني   رِفقًا على الصَّبِّ يا حَادِيهِمُ فأبَى

مَزَجْتُ دمعي دَمًا مِن بَعْدِ رحلتِهِمْ   فانظرْ ترَ عَجَبًا للدمعِ مُختضِبَا

وكم سَحَبْتُ ذيولي في الهَوى مَرَحًا   وكم سَفَحْتُ دموعي[16] بعدَهم سحبَا

لا تنكِروا حالَ قَيْسٍ في مَحَبَّتِهِ   إنَّ الهوى لم يَزَلْ للحُرِّ مُنتسِبَا

يا حادِيَ العِيسِ قِفْ بالله تخبرُني   بيْني وبينهمُ عَهْدًا ترى قُرُبَا

في كلِّ عامٍ يَسيرُ الركبُ مُرتحِلاً   وقد تقيَّدت عن فرضي الذي وَجَبَا

لولا الخِلافة شدَّتني قلائِدها   لم أقتنِعْ بخَيَالٍ أوْ بِريحِ صَبَا

إلَّا بجِدِّ السُّرى والسَّيْرُ نحوَ رُبَى   نَجْدٍ وكاظِمَةٍ أكرِمْ بهِنَّ رُبَى

لوْ كانَ لي قدرَة ما كنتُ أتْرُكهُمْ   حتى أموتَ بفَرْطِ الحُبِّ مُحتسِبَا

فليس يُطفي لهيبَ الشوْقِ من كبِدي   إلَّا بما زَمْزَم يا سَعْدَ مَنْ شربَا

مني السلامُ على أهلِ الحَطِيمِ ومَنْ   أمَّ المَقامَ وطافَ البَيْتَ مُرتقِبَا

مِنْ مُذنِبٍ هائمٍ في الغَرْبِ مَسْكنُهُ   موسى بنُ يوسُفَ أفنى عُمْرَهُ لعِبَا

لكنَّني أرتجي يومَ الحِسابِ غَدًا   شفاعة لِشفيعٍ جَلَّ ذا طلبَا

Scanned by CamScanner

فهُوَ الحبيبُ بأقصى الشرق شوَّقني   والقلبُ من أجْله في الكربِ قد نشِبَا
صَلَّى عليه إلهُ العَرْشِ خالِقنَا   ما غنَّتِ الطيْرُ في أفنانِها طَرَبَا
ثمَّ السَّلامُ عليه دائِمًا أبَدَا   ما أطلعَ الأفْقُ مِنْ أنوارِهِ شُهُبَا

وللفقيه أبي عبد الله محمد بن يوسف الأندلسي الثغري[17]، لطف الله به، قوله:

سَما لكَ نورُ الحَقِّ للحَقِّ هَادِيَا   فخَفَّضْتَ طرْفًا عن سَناهُ وهادِيَا
ومازال يدعوكَ التقى لوْ وَعى النهى   فيا مُعْرِضًا هلَّا أجَبْتَ المُنادِيا
وما النفسُ إلَّا مِنْ أعَاديك فليَكنْ   عَزيمُكَ فيها ما يَسُوءُ الأعَادِيَا
فيا نفسُ كم تهْوى الهَوى وتطِيعُهُ   ولم تنتهِ لمَّا ارْتكبْتَ النواهِيَا
ففي الرُّشدِ لا تزْداد إلَّا تمَارِيَا   وفي الغيِّ لا تزداد إلَّا تمَادِيَا
ولوْ ثمَّرَ التوفيقُ أصْبَحْتُ جَانِيَا   لَمَا كنتُ للآثَامِ والذنبِ جانِيَا
ولا كانَ قلبي بالجرائِمِ لاهِيًا   ولا كنتُ عن دار الأحِبَّةِ قاصِيَا
ولله قومٌ عندَما للهَوى دُعُوا   أجابوا فجابوا للحِجازِ الفيَافِيَا
هُمُ أوْرَدوا ماء العُذيْبِ ظِماءَهُمْ   وخُلِّفتُ مَصدودًا عن الوِرْدِ صادِيَا
غريبٌ بغَرْبٍ أوْبَقَتهُ ذنوبُهُ   فأصْبَحَ في أسْرِ البطَالةِ عَانِيَا
وكم أنَّةٍ لي كلَّ يومٍ وليْلةٍ   تذوبُ عليها قطعَة مِنْ فؤَادِهَا
حَنِينًا وشَوقًا للنبيِّ مُحَمَّدٍ   فيا ليْتَ شِعْري هَلْ أنالُ الأمَانِيَا
وأبْصِرُ رَبْعًا حَلَّهُ خَيْرُ مُرْسَلٍ   وألثِمُ في مَغْناهُ تلك المَواطِنَا
وأسْجُد في التزْبِ المُقدَّسِ سَجْدَةً   وأنوِي بها جَبْرًا لِمَا كنتُ سَاهِيَا
وما فازَ إلَّا مَنْ فلى نحْوَهُ الفلَا   ولم يَنوِ في قصْدِ إليه التوَانِيَا
وما عاقني إلَّا ذنوبٌ كأنمَا   تحَمَّلتُ منهُنَّ الجِبالَ الرَّوَاسِيَا
مَدَدتُ يَدِي يا ذا المَعَارِجِ رَاجِيًا   وأصْبَحْتُ آمَالي إليك حَوادِيَا
عَسَى جُودك الفيَّاضُ يُدنِي وَسَائلي   ويُنشِي مِنَ العَفْو العَمِيم غوادِيَا
ويفتحُ لي بابًا إلى مَنْهَجِ التقى   فألقى التداني يومَ ألقى التنادِيَا
لدى مَوْقِفٍ يومَ الحِسابِ وهَوْلِهِ   يَسومُ الورى كرْبًا يُشِيبُ النواصِيَا

هناك يُنادى اشفعْ تُشفَّعْ محمَّدُ ... وسَلْ ما تشا تُعطَ المُنى والأمانيا

فيُنقذنا مِنْ ذلك الهَوْلِ جاهُهُ ... ويَحجزنا عن زَفرةِ النارِ واقيا

فما لِي سِوى حُبّي إليه وَسيلة ... تَرُدّ عن اللهفانِ تلك المَرادِيَا

نبيٌّ رَآهُ الله أفضَلَ خلقِهِ ... فأرْسَلَهُ بالحَقِّ للخَلقِ هَادِيَا

وأسْرَى به ليْلاً إلى حَضْرةِ العُلى ... فشاهَدَ فيها كلَّ ما كانَ خافِيَا

سَرى راكِبًا ظَهرَ البُراقِ كرامَة ... وبينَ يَدَيْهِ سارَ جبْرِيلُ ماشِيَا

دَنا فتدلّى قابَ قوسَيْنِ رفعَة وكلّمَهُ ... وقرْبًا فأمسى للحَبيبِ مُناجيًا وحَنَّ إليه

ظَبيُ الفلا متشفِّعًا ... الجذعُ بالحالِ شاكِيا

وفاضَ نميرُ الماءِ بين بَنانِهِ ... فكانَ وضوءً للكتائبِ[18] كافِيَا

وكانَ لَهُ بالغارِ[19] إذ نَزلا بهِ ... أبو بكرٍ الصِّدّيقُ للصِّدقِ[20] ثانِيا

وحامَتْ حَوالَيْهِ الحَمامُ وشَيَّدَتْ ... مِنَ النسجِ أيْدِي العَنكبوتِ مَبانِيَا

وإنَّ انشِقاقَ البَدْرِ أعظمُ آيَةٍ ... يَعُودُ بها جِيدُ الهِدايَةِ حالِيَا

وكم مُعجِزٍ أبْدَى النبيُّ مظاهِرًا ... غدا في اتضاحٍ للصَّباحِ مضاهِيا

وَوِرْدُ الهُدى لا يُهتدَى لِسبيلِهِ ... فيَرْوَى به مَنْ كانَ للوِرْدِ[21] صادِيا

وبُشِّرَ رضوان بمولِدِ أحْمَدٍ ... ففتَّحَ جَنّاتِ النعيمِ الثَّمانِيا

وآدمُ لمّا خافَ يُجْزى بِذنبهِ ... توسَّلَ بالمُختارِ لله داعِيا

فتابَ عليه، واجتَباهُ وخصَّهُ ... وأدناهُ منه، بعدَما كانَ نائيا

وقد يَهجُرُ المحبوبُ في حالةِ الرضا ... ويأبى الهَوَى ألّا يُصَدِّقَ واشِيا

وعَيْنُ الرضا عن كلِّ عيْبٍ كليلة ... ولكِنَّ عَيْنَ السُّخطِ، تبْدِي المَساوِيَا

وأدرَكَ موسى في المُناجاةِ رَغْبَهُ[22] ... فكلَّمَهُ الله العَظِيمُ مُناجِيا

وما الرُّسْلُ إلّا كالمَبادِي لِغايَةٍ نَبيٌّ ... هو الغايةُ القصوى أتمُّ المَبادِيا

لهُ فضلٌ على كلِّ مُرْسَلٍ ... كما فضلتْ شمسُ النهارِ الدَّرارِيا

أشهرَ ربيعٍ حُزْتَ كلَّ فضيلةٍ ... ويا ليلةَ الاثنينِ فقْتِ اللّياليا

ويا مولدَ المختارِ [illegible] ... فللهِ ما أسنى الحبيبَ الموافيا

حللتَ بربْعِ المُلكِ فاختالَ زاهيًا   وصارَ لنورِ النيّراتِ مُباهيا

تلقّاكَ مولانا الخليفةُ باسِمًا   لِقاءَ مَشوقٍ لم يكنْ عنك ساليا

وأبدى مُحيًّا كالصباحِ صَباحةً   بمَوْسِمك الشّامي فأجلى الدّياجِيا

إمامٌ عليهِ للسّعادةِ حُلّةٌ   جديدةُ حُسنٍ ليسَ تخشى التباليا

أجلُّ ملوكِ العَصْر مُوسَى بنُ يوسُف   حُلاهُ التقى والجُودُ كهلاً وناشِيا

ومَنْ تكنِ التقوى حُلاهُ ودأبَهُ   يَكنْ عنه ربُّ العرشِ لاشكَّ راضِيا

ومَنْ يتوكلْ في جميعِ أمورِهِ   على الله يُلفِهِ كفيلاً وكافِيا

حمى حَوْزةَ الدين الحَنيفِ بعدلِهِ   وقامَ بتقويمِ الأمورِ مُعانِيا

إمامُ الهدَى مُفْنِي العِدَى بظبَى الرَّدَى   فمنذ بدَا، أحيا الندى والمَعالِيا

ودانتْ له كلُّ البلادِ وأقبلتْ   إليهِ أدانيها فأدنى الأقاصِيا

أمَوْلايَ إنَّ اللهَ أعطاكَ مُلكهُ   فشيَّدتَ من مَبْناهُ ما كانَ وَاهِيا

رأى اللهُ أن المُلكَ ليْسَ يَسوسُهُ   سِواكَ وما للدِّينِ غيرُكَ حَامِيا

فأوْلاكَ في ضيقِ الشدائِدِ فرْجَةً   وأعْطاكَ نصْرًا دَائِمًا مُتوَالِيا

ستقضِي لكَ الأقدارُ ما كنتَ ناويَا   وتدْنِي المُنى مِنْ حَيْثُ تقصِي المُناويَا

وتستفتِحُ الأمصارَ شرقا ومَغْرِبًا   وتدفعُ عنهُنَّ العَدوَّ المُدَاجِيَا

وتجلِبُها خَيْلاً ورَجْلاً وتنتضِي[23]   مِنَ العَزمِ ما يُنسِي السُّيوفَ المَواضِيَا

تشنُّ عليهم غارَةً بعدَ غارَةٍ   تحَكّمُ فيهِنَّ الظبَى والعَوالِيَا

فما أهْمِلوا لكنهم أمْهِلوا إلى   زَمَانٍ يُبيدُ اللهُ فيهِ الأعَادِيَا

لِكلٍّ مِنَ الأشياءِ حَدٌّ مُوقتٌ   ولا بُدَّ يَوْمًا أنْ توافِي[24] التناهِيَا

وكم آبقٍ في رِقِّ ملكِكَ قد جَنى   مِرارًا ولولا العَفوُ ما كانَ نَاجِيَا

عَفوْتَ اقتِدارًا عن تمادِي ذنوبِهِ   وأوْسَعْتهُ حِلمًا فكفَّ التمَادِيَا

وما قتلَ الأحرارَ كالعَفوِ عنهُمُ   وما الحُرُّ إلَّا مَنْ يُراعِي الأيَادِيَا

فلا زالتِ الآمالُ وَقفًا عليكمُ   لها مِنْ نداكَ المَوْرِدُ العَذبُ صافيًا

ودَامَ لكَ المُلكُ الذي أنتَ زينهُ   وألبَسَ بُرْدًا بالسّعادَةِ ضَافِيَا

Scanned by CamScanner

ووشكة سلكًا من النظم رائقًا   غدا فائقًا في نظمهنّ اللآليا

وما كنت أدري الشعر قدمًا وإنما   تعلّمت من تلك المعالي المعانيا

فلولا علاكم أو علاكم لما غدت   تطاوعني مهما دعوتُ القوافيا

واقتضى نظرُ أمير المسلمين، أيده الله، مُماجَلة(25) الحادث في جيوشه بالتلافي، فأزعج لحينه الشيخَ عثمان بن مُسلّم الزردالي لشدّ ساعد ولده المولى أبي تاشفين(26)، أعزه الله، وأرسل إليه معه الطبل(27) والبند ونقاوة من جيش الحضرة العلية، غافلاً، أيده الله، عمّا أبطنه المذكور من النفاق، فلم يكن إلّا أن انفصل عن الباب الكريم، فاستهوى الذين معه إلى الضلال، ودلّاهم أجمعين بغروره(28)، ومن البطحاء نكَبَ بهم عن سواء السبيل راكبًا وُعورَ بلادِ توجّين قصْدَ أبي زيان، وعند وصوله إليه بسفح جبل تِيطرِي ازْتاش جناحُ أمرِهِ، واضطرَمَ مُفتاذُ(29) فتنتِهِ، فاستنفرَ غوغاءَهُ، وأخذ بمُخنق المَدِيَّة.

وفي ثامن شهر ربيع الآخر أخذ النصارى مركبًا قادمًا على مرسى هُنين المحروسة بهدية مِلك الأندلس إلى أمير المسلمين أيده الله، وفيه صاحب أشغال الخليفة أعلى الله مَقامه، محمد ابن قضيب الرَّصَاص، ثم عرضوا أسْرَاه للفداء، فافتدى مولانا أمير المسلمين أيده الله جميعهم، ابتغاء وجه الله العظيم، بالمال العديد نقدًا، فيا شرف ما حازه فيهم مَقامُه الكريم من الفخر العاجل والثواب الآجل، ضاعف الله تعالى أجوره وسدَّدَ أموره بمَنِّهِ وكرَمِهِ.

ثم جهز نصره الله الجيوش واستَنْفَرَ الناس وحشد القبائل من بني راشد وتوجين، وأرسل الجميع إلى الوزير موسى بن علي بن برغوث بمليانة، وأمره بالنهوض لتشريد مَرَدَة المنافقين عن بلد المَدِيَّة(30). فأقبل المذكور عليهم غيرَ هائب ولا متوانٍ، فتضاربوا الحرب، وضرب الوزير المذكور بمَن كان معه في البلد من الجند عُرْضَ المخالفين، فأفرجوا عن الحِلل وتركوا المال والولد إلّا أنّ أولاد عمر بن عثمان من توجّين كانوا قد شايَعوا أبا زيان وقومه، وأضمرُوا الخداع والانبياذ إليه، فلمّا ظهر جيش أمير المسلمين، انخزع عنهم المذكورون بتوجين

Scanned by CamScanner

كافة، فأوهنوا قوة طائفة الهدى وفلّوا غَرْبَها، فانقلب ساعتئذ المنافقون إلى مراكزهم الأولى، فوَلّى الناسُ الأدبار غيرَ متلوّمين، والله يحكم لا مُعقبَ لِحُكمِهِ[31]، وهو السميع البصير.

فراحَ الوزير موسى بن علي ابن برغوث منهزمًا إلى الباب العلي وأسلم مليانة، وعاد الوزير عِمران بن موسى إلى المدِية، فلزمها ليالي ثم أسلمها مضطرًا، وألقى بيده إلى العدوّ، فأسره وتملّك البلدَيْن. فهنالك صبَأ إليه سالم بن إبراهيم الثعَالِبي[32] وقومه كفرًا بأنعم الله وأنعم الخليفة، وقام بدعوته في قومه بمَتيجَة، ثم عاقروا أهل الجزائر حُمَيّا الضلال وعاطوهم كؤوسَ الفتن[33]، فخامرَ عقول أشرارهم سُكرُ الهَوَى والبَطَر، فثاروا أيضًا بدعوة أبي زيان. وكان بين أظهرهم من ولد الخليفة[34]، أيده الله، فارس[35] وعثمان، والشيخان أبو عبد الله ويعيش ولدا[36] راشد بن الزعيم بن مجن، فأسْلِمُوا جميعُهم طَوْعًا إلى الثائر أبي زيان، فأعضل بعدها داؤه، وأطلَّ على القطر بمنكبه[37]، واستحكمتْ في قلوب أهل الضلال والزيغ صبغته.

ولمَّا رأى أمير المسلمين أيده الله تتابُعَ[38] هذه الوقائع في عسكره، وخروجَ البلاد الشرقية عن طاعته، أعمَل حركة ركابه العلي لإطفاء تلك الثائرة، وإخمادِ ما أذكاه الخوارجُ من شعلها. ففي يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى، خرج نصره الله إلى أبنيته السعيدة بالمُنْيَة من ظاهر الحضرة الكريمة، واستَنْفَرَ الناس من كل أوْب، ثم استقدم أشياخ زغبة، وكانوا أهلَ خداع، فلم يتأتَّ له ذلك فيهم إلّا مع مطاولة القال والقيل[39] ومتابعة الإنعام بالمال العديد والبلاد الغزيرة[40]، تأليفا لقلوبهم، وطِبًا لمرضها المعضل. وبعدَ لأيٍ ما[41] أتى بابَه الكريم خالدُ بن عامر وأبو بكر بن عريف رَأسَا ذلك الضلال، ووقود فتنة العَمَى. فقوّض، أيده الله، معهما الخيام، مصمِّمًا إلى طيّبته[42]، يومَ الجمعة الثامن من شعبان المكرَّم، وتقدم أبو بكر بن عريف لضمّ قبيله، والتصدّي بهم لركاب أمير المسلمين أيده الله، ولزم خالدُ بن عامر ركابه العلي بزمله، مظهرًا النصح والوفاء بخدمته، إلا أنّ محمد بن

Scanned by CamScanner

عمر البريطل كافر النعم والخائن لله ولرسوله، ثم لمولاه أمير المسلمين نصره الله، قد أولع بتنفير الرجال، وإغرائه بالنفاق مستعينًا على ذلك بما يختلقه من الإفك ويزوّره من الأباطيل، مواصِلاً ذلك ليله ونهارَه.

فلمّا حلّ ركاب أمير المسلمين، أيده الله، بمنداس، فرّ خالد المذكور مغادِرًا زمله بما اشتمل عليه من ظهرٍ ومتاعٍ وطعام[43]، وأصبح بخيمة أبي بكر بن عريف، نازغًا بينه وبين الخليفة أيده الله، فتساعدا على الخلاف وانضمّ إليهما مَرْضى القلوبِ ومُؤَلَّفَتُها من العرب، وجَأجَؤُوا بأبي زيان، فعاجلهم أمير المسلمين، أيده الله، بالحركة إليهم، فأجفلوا مضحِرين، وتلاهم إلى أن تخلَّفَ جبل جرِيجرَة[44] ووادي سُوف سَلْم مِن سَرْسُو سُوَيْد[45]، ونزل القومُ بماء تغالِّين قِبلته، فصرف إلى خالد زمله بما حَواهُ، وعاجَ، أيَّدَهُ الله، إلى قلعة أوْغزُوت[46] المُطِلَّة على الصحراء والتل آتيًا إلى دار مُلكِه.

وكان أولاد عمر بن إبراهيم، وأولاد عسكر، ولفهُمْ مِن بني عامر، ومحمد بن عريف ولفُّهُ من سُوَيْد قد انحازوا إلى جانبه الكريم، فطلبوا منه نزولَ وزيره موسى ابن علي بن برغوث معهم لحماية التلِّ من مُنافقي قومهم[47] فأسعفهم بذلك. وأصبح، نصره الله، راحلاً، وتقدم الركابَ لطِيَّته وأطال هو اللبثَ في خباءٍ واحد بالمنزل لفصل قضايا عَرَبِه، وصرفَ وزيرَه موسى بن علي معهم كما سألوه.

وقد كان غازِيَة المنافقين أسْرَى لاعتِراض الركاب بإغراءٍ لمرضى القلوب من حزب الخليفة، مستظهِرًا على ذلك بعمرة تلك الأوطان من توجِّين، فلم يشعر أمير المسلمين إلاّ وركابُه قد استبيحَ من عند آخره، عَدَا ماله وحرمه لشدَّة بأس حامِيتها. فبادر، أيده الله، للركوب متلافِيًا ركابَه، فإذا الفوْتُ قد اغتاله، وطارَ الفاعلون بين يديه بالأسلاب، فتمادى يُغِذ السيْرَ إلى أن عَرَّس ليلته تلك بلثات من تلِّ بني راشد، وغدا على جبل هوّارة، فتلوَّم به يومًا هرب عنه فيه[48] إلى فئة المنافقين إبراهيم بن تحانجيت وسعيد بن تصالِّيت ومسعود بن علي وكافة توجّين خوفًا بما استشعروه لسوء كدحهم، وما أضمروه من مُمالأة المفسدين[49]، ولله درُّ القائل:

Scanned by CamScanner

إذا ساءَ فِعْلُ المرءِ ساءَتْ ظنونُهُ   وصدَّقَ ما يعتادُهُ من تَوهُّمِ

فرحل أمير المسلمين أيده الله، وأمسى بيبج، ثم واصل السُّرَى والسَّيْرَ إلى دار مُلكه العزيز، فدخلها يومَ الجمعة الحادي والعشرين من رمضان المعظم[50]، فحينئذٍ اجتمعت كلمة العرب وزناتة، إلَّا مَنْ هَداه الله وشرح بالإيمان صدرَه، على مظاهرة أبي زيان والإقدام به على الحضرة العلية، فأقبل[51] وهم ينثالون عليه من كل جهة[52]، والحواضر تطيعه كتنس ومستغانيم وتمزغران[53] ووهران إلى أن نزل بظاهر البطحاء ونزلت سُوَيْد والدَّيالِم والعَطاف وحُصَيْن وغريب عن يساره بوادي مِينا، وتقدَّم خالد بن عامِر بقبيله حُمَيْد[54] وبني يعقوب، وخلطائه من المَعْقِل، إلى تانيرًا من طرف كورَةِ بني يَبْقَى، وانحاز خدام أمير المسلمين، أيده الله، من العرب، وهم أولاد عسكر وأولاد عمر بن إبراهيم ومَن اقتدى بهُداهم، إلى جبل تاشالة المصاقب للحضرة الكريمة. فأحضر أمير المسلمين، أيده الله، أولياءَه الأعلَيْنَ لإدارة الرأي المبارك، فأجمعوا بعد استخارة الله سبحانه، على إمضاء ما اقتضاه نظر الخليفة من مناجزة أول القوم وصدمِهم بغتة، وهم الشوكة، فإذا زُلزِلوا ذهب ريح الآخرين ووهنت قوة عزم الجميع، وردُّهم الرعب على أعقابهم لم ينالوا خيرًا، ورسموا لذلك موعدًا، فراح العرب إلى أهليهم[55].

وفي يوم الاثنين سادس ذي القعدة، خرج أمير المسلمين، أيده الله، بأوليائه، فخيَّم باضطَفْصِيف[56]، وبعث إلى عربه بالنهوض، ونادى في الناس فأخذوا الأسلحة، ثم أدلج مُغِذا سَيْرَهُ. فلمَّا أضاء النهارُ اعترضه عربه شاكية السلاح، وطار الناس زرافاتٍ ووحدانا إلى أشياع الضلال، وفجأهم بخيامهم هَوادِي الخيل بغتة، فبادروا للدفع عن الحرم ثورة رجل واحد، وحَميَ بين حِلِلِهم الوَطِيس، ودارت رَحى الحرب على الطائفتَيْن، وجاء الخليفة، أيده الله، على الأثر بساقته[57] وريحُ النصر تخفقُ بأعلامه، ومَخِيلة الفتح تغْرِي عزائمَ أوليائه، فلم يكُ إلَّا كلمح البصر أو أقرب حتى ولَّى المنافقون الأدبار، وتركوا بما حوته الحِلل، فحِيلَ بينهم وبين أموالهم العريضة، وعمَّ حرمهم وأبناءهم السِّباءُ[58]، فخيَّمَ أمير المسلمين، أيده الله

بمكانهم ثم ماز الغنائم[59]، فأباح مال المعقِل واستردَّ على بني عامر كلَّ ما رزأهم أولياؤه[60]، فراجعوا من حينهم الطاعة، وأطافوا بمحلته المنصورة طوق حِللهم كما طوّقت أزرارُ مِنَّته أجيادَهم[61]، وأصحر خالد بن عامر بالخيبة والندامة، وطار من يومه الخبرُ إلى أبي زيان وعربه، فغمرهم الذعْرُ[62] وعمّهم الإبلاسُ[63]، ثم أجفلوا كالظلمان، قد ركب كلٌّ رأسَه، فأخذ أبو زيان وحُصَيْنُهُ ذات اليَسار، وفرَّ العرب أجمعُون ذات اليَمين، وارتحل الخليفة، أيده الله، بأوليائه الكرام في أثرهم.

فبظاهر البطحاء أتته بَيْعَات بلاده كلِّها سوى الجزائر، وقدمَتْ على بابه العَلِيّ وفود العرب سُوَيْد والدَّيالِم والعَطاف وبني يعقوب لالتماس الرضى والأمان فعفا نصره الله وأصلح، محتسِبًا أجرَ تمحيصه عند الله تعالى. وهنالك عرضت عليه بنو عامر كلها[64] أبطالها، وجاءا بولده المولى الأمير الأعلى أبي تاشفين من الحضرة، وبعثه مع العرب المذكورين لمُسايَرَتِهِ بهم على القِبْلة، وسَدِّ أفواهِ الثنايا في وُجوه طائفة الضلال، ونهض هو نصره الله بأوليائه وكافة بني عامر آخذًا على وادي شلف صُعُدًا.

وفي إغِيل ان يزان[65] أخذ موسم الأضحى، وبمجمع من شلف نفدت السنة، والبقاءُ لله وحده وقد رأيتَ ما كان بها من الوقائع الشنيعة والأهوال الفظيعة والتمحيص والابتلاءِ والمثلات الشديدة اللأواءِ[66]، ومع ذلك فما نبَا لأمير المسلمين صارمُ حزمٍ[67]، ولا خارت له قوى عزمٍ، ولا ريعَ منه جنان، ولا كلَّ له في مقارعة مكابريه مقضبٌ ولا سنان، فكأنَّ المعرِّي بلسانه نطق، أو كان لديه علمٌ من كتابه فنظم شمله[68] ونسق، حيث يقول:

وكم من طالب أمَدي سيَلقى ... دوَين مكانِيَ السَّبْعَ الشدادَا
يُؤجِّجُ في شعاع الشمس نارًا ... ويقدحُ في تلهُّبها زِنادَا
ويطعن في عُلايَ وإنَّ شِسْعِي[69] ... ليأنفُ أنْ يكونَ له نِجادَا
ليَ الشرفُ الذي يَطَأ الثرَيّا ... مع الفضلِ الذي بَهَرَ العِبادَا
وكم عينٍ تؤمِّلُ أنْ تراني ... وتفقِدُ عند[70] رُؤيتي السَّوادَا

Scanned by CamScanner

(1) ع: ابن عم الخليفة المذكور.

(2) ع: وزيره الحاج.

(3) ع +: بن فارس.

(4) ع: فلم يجدوا.

(5) ع: السحاب.

(6) س -: صعدًا.

(7) ع: المصعرة؛ والممعّرة يعني: قليلة النبات.

(8) قرآن، سورة الأنبياء، الآية 23.

(9) ع: دون سبب.

(10) ع: المولد النبوي الشريف.

(11) ع -: وخلد ملكه.

(12) ز، ط: حطب. والشعل: جمع شعلة، وهي لهيب النار.

(13) واسطة السلوك: نهاري.

(14) ر: بالبعد.

(15) واسطة السلوك: صعبا.

(16) ل: دموعًا.

(17) وفي ع: ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي.

(18) ع: للكتيبة.

(19) س، ل: بالغار.

(20) ع: بالصدق.

(21) ع: في البدء.

(22) ع: رعبه. ويبدو أن المقصود هنا هو رَعْيُ الله لموسى، أي حفظه لأمره.

(23) ع: وتمتضي.

(24) ع: يوافي؛ ووافى التناهي: أي بلغ نهايته.

(25) ع: معالجة.

(26) ع: المولى الأعلى.

(27) ع: بالطبل.

Scanned by CamScanner

(28) دلاّه بغرور: أوقعه فيما أراد من الغرور.

(29) ل: معتاد. والمفتاد يعني: موضع الوقود.

(30) في ل، ب، يوجد فيما يلي بتر قدره أربع صفحات.

(31) قرآن، سورة الرعد، الآية 41.

(32) ع: الثعلبي.

(33) ع: الفتنة.

(34) ع: أمير المسلمين.

(35) ع +: وعامر.

(36) ع: وأبي عبد الله ويعيش ولد.

(37) النص من " فأعضل " إلى " منكبه ": ساقط في ع.

(38) ع: شنائع.

(39) ع: إلا بعد طول القيل والقال.

(40) ع: العزيزة.

(41) ع: وبعد أيام.

(42) س، ع -: مصممًا إلى طيته.

(43) ع: من ظهر وكراع وطعام ومتاع.

(44) ع: جرجرة. ويقع جبل جريجرة جنوب جبال وانشريس.

(45) ع: ووادي الدوم من اسريس؛ س: ووادي الرمان.

(46) ر: أغزوت.

(47) ع: لحفظ التل وحمايته.

(48) النص من " وتقدم الركاب " إلى " هرب عنه فيه " ساقط في ع، ومعوض بما يلي: " وجد السير إلى أن دخل داره الكريمة، فهربت عنه توجين ".

(49) النص من " لسوء كدحهم " إلى " المفسدين " معوض في ع بما يلي: " من الضلال والفساد وما أخمدوه من الغدر نكبهم الله ".

(50) هاذان السطران ساقطان في ع، وعوضا بما يلي: " ثم دخل أمير المسلمين داره الكريمة ".

(51) ع: فاقدم.

(52) س، ر: من كل أوج.

(53) ع: مزغران.

Scanned by CamScanner

(54) ع: بني عامر كافة.

(55) النص من " ورسموا " إلى " أهليهم ": ساقط في ع.

(56) ع: اصطفطيف.

(57) ع +: وأجواد عبد الوادي.

(58) ع -: وعمّ حرمهم وأبناءهم السباء.

(59) ع: ثم حاز الخليفة الغنائم.

(60) ع: كل ما ضاع لهم من أموالهم وأولادهم.

(61) النص من "طوق حللهم" إلى "أجيادهم": ساقط في ع، وعوض بما يلي: ونزلوا عليها.

(62) ع: الروع.

(63) وعمهم الإبلاس: ساقط في ع. والإبلاس يعني: اليأس والحيرة.

(64) ع: كافة.

(65) ع: إغيل يزان.

(66) اللأواء هي: المحنة.

(67) س -: حزم.

(68) ب، ع: شأنه.

(69) ع: سيفي. والشسع هو: ما ضاق من الأرض.

(70) ع: دون. والسواد هنا هو: سواد القلب، أي حبته ومهجته.

Scanned by CamScanner

سنة تسع وستين وسبعمئة

أهلّ محرم هذه السنة وأمير المسلمين أيده الله بمَجْمع من وادي شلف شرقًا، وفيه نزل طارن وفاطيس[1] من بسيط مليانة، وانحاز أبو زيان وخصيته إلى تيطري. وقد ذكرنا أنّ خروجه، أيده الله، لهذه الحركة السعيدة، كان على سبيل الغزو لهوادي المخالفين، فلم يكن بها استعداد لمضايقة المعاقل والأخذ بمخنق المخالفين[2]، فأطال نصره الله مُقامه بهذا المنزل لاستئلاف شاردي أهل ذلك القطر، وتأليف[3] خائفهم، واستنقاذ ولديه اللذين أسلمهما أهل الجزائر لقريبه، ثمّ رَمّ أسوار مليانة، وإعماق خنادقها، وشحنها بالرجال والفرسان، والعدد والأقوات، إشجاءً بها لصدر المخالفين، وكبحًا لجماح رؤوسهم في شاف بحَكَمَتِها، فتمّ ذلك له، أيده الله، حسب الاقتراح، غرّة شهر ربيع الأول. فبعث عمر بن محمد بن مَجن رسولاً إلى رياح يدعوهم إلى طاعته والكدحِ في خدمته، ويستنفز كبارَهم للقدوم على العَلِيّ بابه، وارتحل، أعلى الله مقامه، يجذ السيرَ قصْدَ حضرته الكريمة.

وفي منزله بمجمَع صادِرًا أخذ أشياخَ العرب كافة، كعبد الله بن سقير، وسعد بن العبّاس، وزيان بن يعقوب، ووزين[4] بن رَحُّو بن منصور، ومنديل بن أبي يحيى الصغير. وفي البطحاء أخذ أشياخَ توجّين كافة، وسِيقَ الجميعُ في ركابه العليّ، تحملهم البغال المُبَرْذَعَة. وفي خامس عشر ربيع المذكور دخل حضرته الكريمة، وقد مضت ليلة الميلاد النبوي.

قال المؤلف عفا الله عنه: كنتُ في هذا التاريخ ببلد بَسْكرَة من زابِ إفريقية، مفلِتًا من سجن أبي العباس الموحِّد، قاتل مخدومي ابن عمّه الأمير أبي عبد الله رحمه الله. فقدم بها عليَّ عمر بن محمد المذكور، ودفع لي من قِبَل الخليفة، أيده الله، كتابًا يأمرني فيه بإعانته على غرضه من رياح

Scanned by CamScanner

لملابستي بالقوم وغنائي فيهم ثمَّ القدوم معه بهم على بابه الكريم. فبادرتُ ممتثِلاً، وقمتُ فيهم إلى مَقامه العلي، داعيًا غيرَ مُولٍ نصحًا ولا مغادِرٍ جدًا، إلى أنْ أصبتُ نهزَة القوم وحززتُ مَفصَله، وظفرتُ يداي[5] من شيخهم يعقوب بن عليّ بن أحمد[6] وعثمان بن يوسف بأربعة بنين، اثنان رهن واثنان لمفاوضة أمير المسلمين أيده الله عنهما في الرأي، وتلقي مرسوم الخدمة منه.

فجئتُ بهم أنا وعمر بن محمد في نحو أربعمئة فارس من أعيان القبيل، وكان قدومنا على الباب العلي غرَّة رجب الفرد من السنة. فأتينا، والله، البحرَ الزاخرَ كرمًا، والشمسَ المنيرة بشرًا، والعَلَمَ الفردَ كمالاً. فيا لله ما أرحبَ قِراه، وأحمى ذراه، وأعظم اجتِباءَهُ، وأجزلَ حِبَاءَهُ. وتلانا عثمان بن يوسف، أحد الشيخَيْن المذكورَيْن في مِثل عددِنا من رجالِ قومه، فوسع الكلَّ الإحسانُ، وشملهم الفضلُ والامتِنانُ. فلبسوا كلهم[7] في بابه الكريم الثيابَ الرفيعة من المِرْعِزِ[8] والقبَّاطِيّ[9] ووجوهِ الحرير الملوَّن والملف الشلون[10] وشِبْهِهِ، ثم الدَّراريع والعَمائم والأحاريم، ثم أعطى جميعهم ثلاثة آلافِ من الذهب العَيْن، وكل ذلك على يدي وبمُناوَلَتِه[11] إيَّاهم، وانصرفوا مأمورين بمُضايَقَةِ حُصَيْن قِبْلة بنجوعهم، عند حركة أمير المسلمين أيده الله تعالى إليهم، واصطنَعَني، أيده الله وأعلى مقامه، لخدمته، ثم اصطفاني، خلد الله سلطانه، لكتابة إنشائه، فأخذ بضبعي وراش الجناح ورفع الرتبة وأكبر الجراية وأمرني باستقدام ولدي من بسكرة، محمولين بإحسانه، محفوفين ببرِّه وعنايته، فكان ذلك أوَّلَ سعادةٍ أوتيتها، وأعظم عنايةٍ ربَّانية رأيتها، فحضرتُ بعد ذلك سِلمَه وحربَه وإقامته وظعنه.

رجع التاريخ[12]. وفي يوم الأحد سادس[13] شعبان، رحل أمير المسلمين أيده الله بجيوشه الوافرة الأعداد وحشوده المتصلة الأمداد منزلقًا، وعاجَ من بني راشد ذات اليمين، إلى القبلة، لبغت مخالفي العرب بخالص

وجاءهم النذير العُريان، فأجفلوا كالظلمان، وشطّتْ في القفر اليباب بهم الدار. ونزل هو أيده الله وعرب طاعته بماء تغالّين، ثم نكّبَ مستجيشًا كافة العرب العامِرية واليعقوبية والديلمية[14] والعطّافية، آخذا بهم على وجوه البلاد شرقًا، إلى أن نزل بعرصات مدينة أشير، ومنها رجع ذات اليسار مُكرِهًا عَرَبَهُ على دخول التلّ أيام فرارهم بروؤس أموالهم عنه، وأخذ ثنيّة وادي شلف. فلمّا أحسّ به المارقون لجؤوا إلى تيطّرّيهم، فتلاهم[15]، أيده الله، إلى البَزواقِية، فهناك مازَ العساكر مَيْزًا أكبرَ حسبما وصفته أوّلاً، فكانت فذلكة حِسابهم عشرة آلاف فارس.

فارتحل وأخذ بمُخَنق الجبل، وجاءتْ رياح من شرقه فاختضنته. وكان المخالفون بعد رجوع أمير المسلمين عنهم قد سايَروه مُشرّقين إلى مناظرة العدوِّ من القِبْلة، ثم فزعوا من عند آخرهم فارسهم وراجلهم، وأتوا أهلَ الجبل بياتًا، وركب الجميع غذوَة يوم الأحد الخامس عشر من شوال، وأغارتْ مطارِدَتهم بسَاحِ[16] المحلّات، فركب إليهم الناس دراكا، فرجعوا القهقرى إلى سفح جبلهم، والتَحَمَ به القتال بين الفريقين إلى الأصيل، وكثر العدوُّ المقاتلة. فركب أمير المسلمين، أيده الله، لكَبْح جماحهم، ورتب المَقانب وعيَّن المَصافَّ، وذلك أصِيلانَ النهار. ثم سار نحو المَغمَغة الهُوَيْنا. فعندما قاربها انتبذتْ طائفة من العرب الذين معه مُوَازَرَة للعدوِّ، لأمرِ أبْرِمَ ليلاً لم يَشعُر الناسُ به، فظهر في سائر الناس الخذلان، فوهنتْ قوى الجيوش وتفلل غربُها، وثار منها العدوُّ، فماجتْ مضطربة. ولم يَكُ إلّا أنْ خفرَ الناسَ الظلامُ، فركب كلٌّ رأسَهُ، وأزفَلَ في أثرهم العدوُّ.

قال المؤلف عفا الله عنه: شهدتُ[17] هذا الموقف بين يدي أمير المسلمين، أيده الله، فما رأيتُ ولا سمعتُ أثبتَ جاشًا، ولا أقدمَ في هيجاء، ولا أصبرَ عند وَغًى منه، أيده الله، إلى أنْ أفرده الناس سوى شرذمة قليلين[18] أنا منهم.

فثنى، أيده الله، العِنان تلقاء أبنيته الكريمة، واستركب الحرمَ وحمَلَ الأموالَ، وأكفل بذلك الخصيانَ والنصارى المستخدَمين، وتقدُّمهم متنجيًا خِيامَ خُلصائِهِ الأوفياء، أولاد عسكر بن معرف العامِريين[19]، وأضلَّ الكفلاء بما معهم سبيله، فَقَفَوْا آثارَ العَسْكر حيارى، وبلغ هو أيده الله مَأمَّه، فسُرَّ خلصاؤه بسلامته، وأطافوا من عند آخرهم به، ثم حملوا مقتنى ذخائرهم، ونبذوا الأهل والمال بالعَراء عُرْضة للنهب، وساروا مع مولاهم بالعزائم الوقادة، والحميَّات المحتدمة والهِمم الأبيَّة، أريَحيَّة عربية وشِنشِنة كريمة أخزمية. وأدلجْنا نُناهِز الخمسين دون خِرِّيتٍ، ونتنكبُ مناسِرَ[20] المخالفين[21] سانحة وبارحة. فركبنا وُعورَ جبل ذي كهوفٍ وشعابٍ وأجماتٍ. ولم ننشبْ إذ توسَّطناه أنْ نبحتنا كلابُه، وتعاوتْ من كل أوْبٍ علينا ذِئابُه. ثم أتينا[22] برِجْلِ الدَّبَى، وألجؤونا إلى مَهْواة تساقطنا من عند آخرنا بقعْرها العميق، ولم نلفِ بها نهجًا، فأدهمنا منه لِهْبًا أغْبَن، نرجو نجاة الأنفس، مستعيِنين في صعوده ركبانا بجذبِ شجرة. فلم أرَ بعد افتِراعيه[23] أشهى إليَّ من أمير المسلمين أيده الله ناجيًا من شرَكه، ثم الكثير من الناس.

ومرَزْنا نُلهِبُ الركضَ[24] والذؤبان الإنسيَّة تشتكُ لغُوانها الأسماعُ وربَّما اعترضَنا أبعاضُهم فنرُدُّهم على الأعقاب، هكذا إلى الإسفار، فإذا نحن قد أصبحنا تيهًا قربَ محلتنا بالأمس. فابتدأنا العملَ من أوّله ورملنا إثرَ العساكر، فإذا طلائعُ المخالفين المبيتة للعساكر قد فجأتنا صادرة عنهم، تعتقبنا ذات اليمين وذات اليسار[25]، فتصدَّتْ عربُنا لإجابة سائلهم والانتماء فيهم والنشدة عن مكان العسكر متظاهِرين بالحنق عليهم، كذلك صدْرَ النهار إلى أن شعروا بنا، فانقلبوا أوّلاً عن آخِر إلينا، فأخضرْنا[26]، حافين بأمير المسلمين أيده الله، إلى عَروضٍ وَغيرِ تسنّفْناه إلّا مَن أغيت فرسه[27]، وفي قِنْيتِهِ ثابتٌ إلى عربنا حميَّاتهم، فدعَوْا

Scanned by CamScanner

نـزال، ورجعـوا فـي وجـوه أولـئك الطغـام، وانـصبُّوا إلـيهم مـن عـلٍ كمـنحط الـصخر، فانقلـبوا صـاغرين مـن نجـد الـشاهق إلـى غـوره، فمـن صـريع يجـود بنفسه، وثخـين يتـشحَّط فـي دمـه، ومغلـولٍ يُقـاد برَسَنه، وكـم فـئةٍ قلـيلةٍ غلـبتْ فِئَة كَثِيرَة بِإِذْنِ اللهِ، والله مع الصابرينَ[28].

فكـان ذلـك فـراقٌ بيـننا وبيـنهم، وأرفلـنا جانحـين إلـى القِـبْلة، فبغَرَبَـي تِيطَرِي مـن جانـب القِبلة أجَنَّـنا اللـيلُ، فـسِرنا مدلِجين غـربًا، وأصـبحنا بطـرف سرسُـو سُـوَيْد المخالفـين، ووسـط جِلـل عمَـرته، ومـن لطـف الله الخَفـيّ غيـبة فرسـانهم إلَّا واحـدًا أو اثنـيْن. فجـدَّدنا الـسيرَ يومَـنا وخمـسة بلياليـها بعـده، لـم نطعـم فـيها ولا خيلـنا قـوتًا سـوى مـرَّة شـيئًا منـزورًا، ولا ذقـنا الـنومَ فـيها إلَّا غرارًا.

وبعـد غـروب الـشمس مـن الـيوم الـسابع وهـو يـوم الـسبت الحـادي والعشرين لـشوال، دخـل أميـر المـسلمين أيـده الله دارَ مُلكِـه، بعـد دخـول وزرائـه وجيشه ومالـه وحـرمه إلـيها بيومـين أو ثلاثـة. وفـي صـبيحة يـوم الأحـد بعـده جلـس نـصره الله بـسرير ملكـه لـسياسة أمـره، غيـرَ مكتـرثٍ بالحـادث[29]، ولا متأسِّفٍ على الـذاهب، عـزمًا مـن الأمـر، وتـسليمًا إلـى الله فـي أحكامـه. فأحـسن لخلـصائه الأوفـياء، أولاد عـسكر المذكـورين ومَـن معهـم، بمـا لا عهـد لنظيـره أمـوالاً ناضَّـة وثـيابًا فخمـة ومـراكب فارهـة وإقطاعـاتٍ جـزلة. وسرَّح مـن سـجنه عـبد الله بـن سـقير بـن عامـر، وآخـى بيـنه وبيـنهم، وصـرفهم بحِـصَّةٍ وافـرة للوقـوف بجـبل هـوارة لمحاربـة الأعـداء. ثـم اسـتأنف، نـصره الله[30]، إقامـة الحـركات، فـصدرت الأوامـر العلـية لحواضـر ملكـه بإقامـة الأخبـية، إذ لـم يُلـفِ مـنها شـيئًا بحـضرته الكـريمة، وبعـث لاسـتنفار قبـيله وأحلافهـم مـن زناتـة أجمعين.

وفـي خـامس عـشر ذي قعـدة لانقـضاء عـشرين يـومًا مـن دخـوله، عـسكر أيـده الله بالمُنْـيَة مـن ظاهـر الحـضرة الكـريمة بمحلـةٍ وجـيوش تكاثـر

الخصى[31]، مرتقبًا غرّة يهتبلها في الأعداء[32]، فقد كانت عربه كافة بعد الكائنة انضمّت إليهم، وجاء الجميع مع أبي زيان بقضّهم وقضيضهم إلى سيرات، فراسل شيعه فيهم بالانخزال عنهم، ودسّ لسائرهم الأطماع، فافترقت كلمتهم وتخاذل لفهم، فبادر خالد بن عامر وأبو بكر بن عريف وأخوه محمد بالبعث إليه، نصره الله، رجاء الصفح والأمان، فلم تأبَ ذلك عليهم سياسته الفضلى. وهنالك انقرضت السنة، والبقاء لله وحده.

---

(1) س: طاران وفاطيس.

(2) ع: المنافقين. النص من " فلم يكن بها " إلى " المخالفين ": ساقط في س.

(3) ع: وتأمين.

(4) ع: زرين.

(5) ع: برأي.

(6) س -: بن أحمد.

(7) ع: أجمعون.

(8) ر: المرعزّى. والمرعزّ يعني: الصوف اللين.

(9) ع: القهزي.

(10) ع: المتلوّن.

(11) في س: مناولتيه؛ وفي ع: بمناولته.

(12) ع: رجع الحديث.

(13) ع: سابع.

(14) ع: والديالمية.

(15) ع: فتبعهم.

Scanned by CamScanner

(16) ع: بسارح. والساح: جمع ساحة.

(17) ع: شاهدت.

(18) ع: قليلة.

(19) ع: العامري.

(20) ع: مناشر. والمنسر يعني: قطعة من الجيش تمرّ قدام الجيش الكبير.

(21) ع: المنافقين.

(22) ع: أتوا.

(23) وفي س، ع: بعد افتراعه.

(24) س، ع: المركض.

(25) ع: الشمال.

(26) ل: أحصرنا. وأحضر يعني: عَدَا شديدًا.

(27) ع: من أعيا مركوبه.

(28) قرآن، سورة البقرة، الآية 249.

(29) ع: بالحوادث.

(30) ع: أيده الله.

(31) ع: الأولى.

(32) ع: في أهل الخلاف.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة سبعين وسبعمئة

في أوّل هذه السنة[1] بعث، أيده الله، الشريفَ العالِمَ أبا عبد الله محمد بن أحمد الحسني ومحمد بن عمر البريطل بأمانه إلى المذكورين[2]، وشرط عليهم إخراجَ أبي زيان عن القطر، فتبرّأ خالد بن عامر منه والتزم ذلك فيه أبو بكر ابن عريف، وافترق ساعتئذ جَمْعُهم وولَّوْا الأدبارَ مصحِرين. وجاء إلى الباب الكريم أسماه الله تعالى الشيخُ أبو معرف محمد بن عريف وزناتة المخالفون كانوا[3] معه، ففسح، أيده الله، لهم جانب القبول، وأجزل لديهم مواهِبَ الإحسان.

وصرف الوزير عِمران بن موسى للحاق بأبي بكر بن عريف لاستقضاءِ الشرط الذي التزمه في أبي زيان. وأنهض ولده المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين أعزه الله والوزير أبا عِمران موسى بن علي بن برغوث، ثامن عشر[4] صفر، لتمهيد أرجاء البلاد الشرقية وإصلاح ما فيها من الفساد. ودخل هو، أيده الله، إلى دار خلافته بعده بأربع ليالٍ. وأقبلتْ ليلة الميلاد النبوي الكريم، على صاحبها أفضلُ الصلاة والسلام، فاحتفى واحتفل بمَدْعاها، فكان مِمّا أنشده مُسْمِعُها، من نظمه أيده الله تعالى، قوله:

ألا مـا لـصَبّ مَشوقٍ صَبَا ... إذا مَـا تذكّـرَ عَهْـدَ الصِّبَا
غَـدا بالغَوانـي يُغنِّي هَوًى ... فـيا رَبْـعُ أيـنَ الغوانـي الظِّبَا
لقـد قـدَّ قلبـيَ شـوْقي لهـم ... وبَـيَّنَ بَيْـنهُمْ مَـا خَـبَا
ومَـزَّقَ صَـبْرِيَ مِـن بَعْـدِهِمْ ... فمـا البِيضُ مـا السُّمْرُ أوْمـا الظُّبَا
ونَـوْحُ حَمَـامِ الحِمَـى شَـاقَهُ ... وأطـرَبَهُ كـلُّ مـا أطـرَبَا
فـيا عاذلـي كـفَّ عـن لـوْمِهِ ... فلـم تلـفِ أهْـلاً ولا مَـرْحَبَا
شـجونٌ تهِـيجُ لهِـيبَ الحَـشى ... فـوَقْدُ[5] الجَـوى فـوْدَهُ[6] شـيَّبَا
فكـم ذا أُوَارِي أُوَارِي، وقـد ... تبَـيَّنَ مِنّـيَ مَـا قـد خَـبَا
فـصَبْرٌ يَقِـلُّ ووَجْـدٌ يَجِـدُّ ... وشـهْدٌ يَـزيد وشـوْقٌ رَبَـا

Scanned by CamScanner

فمَنْ لِيَ بالصَّبْرِ مِنْ بَعْدِهِمْ   أبَى الصَّبْرُ في الحُبِّ أنْ يَصْحَبَا
فيا سَعْدَ مَنْ مُسْعِدي في البُكا   فقال تعَالَ بنا نندبَا
ونجري دموعًا كمِثْلِ الدِّمَا   رَضَى مَن رَضى[7] أوْ أبى مَن أبى
نعَلِّمُ فيها لأهْلِ الهَوى   عُلومَ جوًى[8] قلَّ أنْ تكتبَا
فمَن شاءَ يَرْوِي غَريبَ الغرَام   فأمْرُ غرامِيَ مَا أغرَبَا
لقد كنتُ والدهرُ لي مُسْعِدٌ   فأغضَبَني ليتَ ما أغضَبَا
فما بالُه اليومَ مُخلوْلِكًا   وما زلتُ أعْهَدُه مذهبَا
فخَانَ وأخنى، وجَوْرًا جَفا   وظهْرَ المِجَنِّ لنا قلبَا
فصِرْتُ أعَاتِبُهُ إذ عَتا   فأسلمَني بعدمَا قرَّبَا
فلا دَرَّ دَرُّك يا دهرُ قُلْ   أيَرْجِعُ منك الذي قد نبَا؟
فقال مُجيبًا ألستُ الذي   على الرغمِ فرَّقتُ آلَ سَبَا
وأرزأتُهُمْ كلَّ مَا مَلكوا   وأضحَتْ مَعاهِدُهُمْ سَبْسَبَا
تفانوا جَمِيعًا ومَا جَمَّعوا   فأينَ سَبَا والذي قد سَبَا
توالتْ عليْهِمْ أكفُّ الرَّدَى   فوَلَّوْا ومَا إنْ قضَوْا مَأرَبَا
وأنتَ، أخَا الصَّبْرِ، مَهْلاً إذا   بسَاحِكَ خَطْبُ الدنى طَنَبَا[9]
فمِفتاحُهَا الصَّبْرُ إنْ ضيِّقَتْ   فصَبْرًا فبالصَّبْرِ يُرْجَى الحِبَا
فكمْ مِنْ جَوادٍ جَوادٍ كبَا   وكمْ مِنْ حُسَامٍ حُسَامٍ نَبَا
وأعْقَبَهُ صَبْرُهُ بَعْدَهَا   نجَاحًا فيَا جُلَّ مَا أعقبَا
فبُشْرَاكَ موسى بنيْلِ المُنى   بفضْلِ الإلهِ فمَا أقربَا
ويا نفسُ بُشرَى بما قلتَهُ[10]   وإيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تزهَبَا
وبادرْ إلى الله [illegible]   [illegible]

لـولا هـوى ذاتِ الجَـنابِ الـسَّامي ... مـا شِـمْتُ ثغـرَ الـبارقِ البَـسَّامِ

بـرقٌ يُعارِضُـهُ الفـؤادُ إذا بَـدَا ... مـا بـين خفـقٍ دائـمٍ وضـرامِ

فوَميـضُهُ يُذكِـي الجَـوَى بجَوانِحـي ... مهمـا تألّـق فـي مُـتونِ غمـامِ

وافـى يُخَبِّـرُ عـن رُبـوعِ أحِبّتِـي ... خَبَـرَ الحَـديثِ العَهْـدِ بالإلمـامِ

يـا بَرْقُ صِـفْ حَـالَ المَشوقِ إلـيهِمُ ... وازْوِ حَـديثَ صَـبابَتي وغرامِـي

قَـسَمًا بهـم ومَحَبَّتِـي لِجَـنابِهِمْ ... وبِمـا لهـا مـن حُـرْمَةٍ وذِمَـامِ

مـا إنْ سَـلوْتُ هَـواهُمُ بـسِواهُمُ ... يـومًا ولا أصْـغيتُ لِلُـوَّامِ

فـي كـلِّ جارِحَـةٍ غـرامٌ ... لـم يَـبْقَ فـيها مَوْضِـعٌ لِمَـلامِ

كامِنٌ فالقلبُ مِن فرْطِ المَحَبّةِ هَائِمٌ ... والجفـنُ مِـن بُعْـدِ الأحِبّةِ هـامِ

مـا ضَـرَّهُمْ وَهُـمُ بُـدورُ تمـامِ ... لـوْ قـصَّروا بالطـيفِ لـيْلَ[13] تمَـامِ

أمْ هـلْ يَـزورُ الطَّـيفُ مَـضجَعَ سـاهِرٍ ... مـا ذاق مُـذ هَجَـروهُ طَعْـمَ مَـنامِ

آهٍ لِليْلِـي مـا أمَـرَّ سُـهاده ... عـنْدِي ومـا أحْلـى جَنـى[14] أحْلامِـي

ولعَهْـدُ أيّـامِ الـشبيبةِ والـصِّبَا ... مـا كـانَ أحْـسَنَهُنَّ مِـنْ أيّـامِ

مَـرَّتْ سـراعًا ثـم وَلَّـتْ[15] حَـسْرَةً[16] ... فكأنهـا حُلـمٌ مِـنَ الأحْـلامِ

وأتـى المَـشِيبُ فظَلْـتُ أنـدبُ بَعْـدَهُمْ ... عَهْـدَ الـصِّبَا ومَـرابِعَ الآرامِ

يأيُّهـا الـرَّكبُ المُـيَمِّمُ طِيـبَةَ ... بـرَكائِبِ الإنجـادِ والإتهـامِ

بـذرى مَطِـيٍّ كالقِـسِيِّ سَـوَاهِمٍ ... ترْمِـي بهـم عـرْضَ الفـلا كـسِهَامِ

عوجـوا المَطِـيَّ علـى مَطالِـعِ أنجُـمٍ ... بالجِـزْعِ تدعَـى عـنْدَهُمْ بخِـيَامِ

وسَلوا جفونِـي كـم أسَـلْنَ مِـنَ ادْمُـعٍ ... مِـثْلَ العَقـيقِ علـى العَقـيقِ سِـجَامِ

وردوا العُـذيْبَ وخَلّفونـي ظامِـئًا ... فمَتـى يُـبَاحُ الـوِرْدُ فـيه لِظَـامِ

يـا خيـرَ خَلـقِ اللهِ شـكوى مُذنِـبٍ[17] ... مُلِـئَتْ صَـحائِفُهُ مِـنَ الآثَـامِ

رَامَ المَـسِيرَ لِـزَامَةٍ وذنـوبُهُ ... قعَـدَتْ بـه عـن نـيْلِ كـلِّ مَـرَامِ

يـا لـيتَ شِـعْري هـلْ لِحَوْمِـي مَـوْرِدٌ ... يُـرْوِي أوَارِي أوْ يُـبَلُّ أوامِـي

وأزورُ رَبْعًـا ضَـمَّ أكـرَمَ مُرْسَـلٍ ... وأرى جمَـاهُ قـبلَ يـومِ حِمَامِـي

Scanned by CamScanner

لِـمَ لا يَحِـــنُّ لـــه فـــؤاد مُتـــيَّمٍ والجــذعُ حَـــنَّ لـــه حَنِـــينَ هُـــيَامِ
والـبَدرُ شـقَّ لـه لِيظهـر صِـدقهُ رَوَّى والطِّفـــلُ كلَّمَـــه لـــدونِ فِطَـــامِ
الجُـــيوش بعَـــذبِ مَـــاءِ بَـــنانِهِ والألـــف أشـــبَعَهم بـــصَاعِ طَعَـــامِ
ولقـد عَـلا فـوقَ الـسَّماواتِ العُـلا وسَـــمَا إلـــى ذاكَ المَحَـــلِّ الـسَّامِي
فـي حيـثُ لا ملَـكٌ ولا فلـكٌ[18] ولا نجـــمٌ ولا عَلَـــمٌ مـــن الأعْـــلامِ
فـــأتمَّ نِعْمَـــته علـــيه رَبُّـــهُ فـــي كـــلِّ أمـــرِ أفـــضَلَ الإتمَـــامِ
وحَـباهُ فـضْلاً مِـن لدنـه ورَحْمَـة بمَـــواهِبٍ لـــم تجْـــرِ فـــي الأوْهَـــامِ
ولـه الـشفاعَة وهْـوَ مخـصوصٌ بهـا يـــومَ القِـــيامةِ فـــي ذوي الإجْـــرامِ
ولـــه لِـــواءُ الحَمْـــدِ مَعْقـــودٌ بِـــهِ والكوثـــرُ المـــورود دونَ زِحَـــامِ
ومَقالـــه المَـــسْموعُ فـــيه عِـــنايَة ومَقامُـــهُ المحمـــود خيْـــرُ مَقـــامِ
لاحَـتْ بـه شَـمْسُ الهِدايَـةِ فانجَلـى مـــا كـــانَ للإضْـــلالِ مِـــنْ إظْـــلامِ
ولكَـمْ لـه مِـنْ مُعْجـزاتٍ أوْضَـحَتْ سُـــبُلَ الهُـــدى لِنهـــى ذوي الأفهـــامِ
وأجَلُّهـــا الوَحْـــيُ الـــذي إعْجَـــازُه مُـــتجَدِّدٌ بـــتجَدُّدِ الأيَّـــامِ
مُتـــضَمِّنٌ كـــلَّ العُلـــومِ بأسْـــرِهَا ومُفـــصِّلٌ لأدِلَّـــةِ الأحكَـــامِ
مِـــن واجِـــبٍ أمْـــرَ الإلـــهُ بفِعْلِـــهِ أوْ مِـــن حَـــلالِ بَـــيِّنٍ وحَـــرامِ
فـدَعَا جَمِـيعَ الخَلْـقِ للحَـقِّ الـذي فـــي ضِـــمْنِهِ بدِعَـايَـــةِ الإسْـــلامِ
وأبَـــانَ واضِـــحَ نهجِـــهِ وسَـــبيلِهِ وأبَـــادَ مـــا عَـــبَدوا مِـــنَ الأصـــنامِ
سِـــرُّ الوجـــودِ وصَـــفوَةَ اللهِ الـــذي خُـــتِمَتْ بـــه الأرْسَـــالُ خَيْـــرَ خِـــتامِ
فـــي لـــيلةِ الإثنـــينِ أشْـــرَقَ نـــورُهُ بأجَـــلِّ شـــهْرٍ أوْ بأسْـــعَدِ عَـــامِ
أبْـــدَى لـــنا مِـــن هَدْيِـــهِ وجَبِيـــنِهِ نـــورَيْنِ شـــمْسَ هـــدَى[19] وبَـــدرَ تمَـــامِ
فجَـــلا بـــنورِ هُـــدَاهُ كـــلَّ ضَـــلالةٍ وجَـــلا بـــنورِ سَـــنَاهُ كـــلَّ ظـــلامِ
لـــولا لـــوَائِحُ نـــورِهِ مـــا أبْـــصرَتْ مِـــن مَكَّـــة أقـــصَى قـــصُورِ الـــشامِ
يَـا مَـوْلِدَ المُخْـتارِ كـمْ أسْـدَيْتَ مِـنْ نِعَـــمٍ لكـــلِّ العالَمِـــينَ جِـــسَامِ
يـــا مَوْسِـــمًا قـــد قـــامَ فـــيه بحَقِّـــهِ لِلَّـــهِ خَيْـــرُ خَلِـــيفةٍ وإمَـــامِ

Scanned by CamScanner

موسى أميرُ المسلمينَ أجلُّ مَنْ في الأرضِ مِن مَلِكٍ أغرَّ هُمَامِ
مَلِكٌ عليه هَيْبَةٌ مَلَكِيَّةٌ تقضي على الأعداءِ بالإعدامِ
فَبِمَتْ قلوبُ الخَلقِ إجلالاً له بَيْنَ المَحَبَّةِ فيه والإعظامِ
أحيا بنائلِهِ المَكارِمَ والعُلا وحَمَى بصارِمِهِ حِمَى الإسلامِ
أعطى فأينَ الغيثُ مِن إعطائِهِ في بِشْرِ بَشَامٍ ونفعِ دَوامِ
وسَطا فأينَ الليثُ مِن إقدامِهِ في الحَرْبِ عند تزلزُلِ الأقدامِ
كم مَوْقِفٍ ضَنْكٍ يَحَارُ بحَرْبِهِ عَمْرُو بنُ مَعْدِي صاحِبُ الصَّمْصَامِ
دَارَتْ كؤوسُ حِمَامِهِ لِحُماتِهِ صِرْفًا كما دارتْ كؤوسُ مُدَامِ
بَرَزَتْ به الشمسُ المُنيرَةُ غادَةً فتقنَّعَتْ مِن نقعِهِ بلِثامِ
وصَبَتْ إلى بيضِ الظُّلى سُمْرُ القنى وتواصَلَتْ ألِفاتُها باللّامِ[20]
فحَمَى ذِمَامَ ذِمَارِهِ[21] المَوْلى أبو حَمُّو فلا بَطَلٌ سِوَاهُ مُحَامِ
يا ماجدًا قسم الفواضِلَ[22] في الورى وحَوَى الذي في الفضلِ مِن أقسامِ
بِرَجَاحَةٍ وسَجَاحَةٍ وسَمَاحَةٍ وفَصَاحَةٍ وصَبَاحَةٍ ووَسَامِ
سُبْحَانَ مَنْ أَوْلاكَ مِن أفضالِهِ أوفى الحُظوظِ وأوفرَ الأقسامِ
فمَلَكْتَ بالإرهابِ أرقابَ الوَرَى وقلوبهم بالبِرِّ والإنعامِ
مَنْ لم يَكُنْ هذا المَقامُ إمامَهُ في دِينِهِ لم يَنتفِعْ بإمامِ
لا يَبْرَحُ التوفيقُ لازِمَ أمرِهِ أو نهيِهِ في رَحْلِهِ ومُقامِ
أدنتْ له الأقطارَ عزمَتُهُ التي بُنِيَتْ على الإسراجِ والإلجامِ
لا يَرتضي فوقَ البسيطةِ منزلاً ما لم تُطَنِّبْهُ الوَغى بلِثامِ[23]
نَهَضَتْ به قدمًا إلى حَرْبِ العِدَا هِمَمٌ وعَزْمٌ صادِقٌ[24] الإقدامِ
بسَوابِقٍ غُرٍّ كِرامٍ ضُمَّرٍ نَهَضَتْ بغُرٍّ ماجدينَ كِرامِ
أشدّ على خَيْلٍ تخالُ إذا جَرَتْ ريحًا تقادُ مُطيعَةً[25] بلِجامِ
صَدَقَتْ له النيّاتِ أشدّ ما لها إلّا الرُّدَيْنِيّات مِنْ آجامِ
خَفَقَتْ قلوبُ عِداهُ مِن أعلامِهِ كخفوقِ ريحِ النصرِ في الأعلامِ

لمّا شعرت جنود الله في أوطانهم ... وسمعت من زأرهم(9) أسد همام

فرّوا ولا لوم وكيف يلام من ... يطوي المراحل خوف حرّ حسام

الخندقات تنازلهم بسار أسنة ... وحصنت داءهم بكل حسام

وفضلت(12) عقدة جمعهم فتفرقوا ... أيدي سبا في البيد والآكام

ونقضت ما قد أبرموه فلن ترى ... أبدًا لذاك النقض من إبرام

لولا الذي آثرت من إبقائهم ... لم يطعموا الأوجاع في الأجسام

مولاي حزت معاني المجد الذي ... ما حاز غيرك منه غير أسام

فاهنأ(13) أمير المسلمين مؤيدًا ... في غبطة موصولة بدوام

دامت علاك فليس مثلك في العلا ... سام ولا لك في الملوك مسام

والسعد يدهر نحو أمرك ينتهي ... وإليك يلقي طالعًا بزمام

واقطف من الأشعار روضًا جاده ... من جودك الفياض صوب غمام

رَوْضٌ كأنّ ثناك في أثنائه ... عرف الصبا وحلاك زهر كمام

وإليك من سحر الكلام(14) بدائعًا ... قصر الخطى عنها أبو تمام

هي بنت فكر من خلائكم حليت ... بنظام درّ أو بدرّ نظام

راقت(15) بمدحك فهي حسن لذاتها ... شهدت بذلك ألسن الأقلام

ختمت بذكر المصطفى فكأنها ... نفحات مسك عند فض ختام

صلّى عليه من اصطفاه كرامة ... أزكى صلاة شفعت بسلام

ولمؤلفه عفا الله تعالى عنه، ولطف به، وغفر له(16)، قوله:

سلا القلب لولا لوعة وشجونُ ... تنم ولا يدري بذاك شؤونُ

يذكره البرق اليماني عهده ... بنجد فيصبو والحديث شجونُ

وربتما يبدي المشوق تجلّدًا ... ولكن إذا جدّ الغرام يهونُ

ومن ملك الحبّ القياد ويدّعي ... سلوًّا لعمري إنه لظنينُ(17)

رعى الله الجرعاء موطن ألفة عهدتك ... ولا برحت تسقي ثراه مزونُ

فصبحا بالأوانس ربعه ... فأعجم، حتى ما يكاد يبينُ

وقفتُ به[33] أزجي رَكائِبَ[34] أدمُعي ـــ مِنَ الشَّوْقِ[35] أخفي تارةً وأبينُ

وقالوا جُنونٌ ما اعْتَراهُ وإنما ـــ لذيذُ التصابي أنْ يُقالَ جُنونُ

كذا مُذ عَرفنا الحُبَّ أوّلُهُ ضَنى ـــ وآخِرُهُ أمّا عَلِمْتَ[36] مَنونُ

أيا عَذباتِ البانِ مِن أيْمَنِ اللّوى ـــ نعمتْ وجادتْ رَبْعَكنَّ عُيونُ

تُرى ذلك العَهْدُ الذي تعْرِفينَهُ ـــ يَعُود وتقضى في حِماكِ ديونُ

يَمينًا لقد أوْدى الفِراقُ بمُهْجتي ـــ فلم يَبقَ إلّا زَفرةٌ وأنينُ

ويَسْري بريّاكِ النسيمُ فأنثني ـــ كما تنثني مِنْ بَيْنكنَّ غُصونُ

ألا أيُّها الرَّكْبُ المُخِبّونَ بالضحى ـــ ترى[37] لكَ مِنْ أرْضِ الحِجازِ ظعُونُ

أعيدوا أحاديثَ العُذَيْبِ وأهْلِهِ ـــ فلي بأحاديثِ العُذَيْبِ فُنونُ

أمِنْ طيبةٍ يا قومُ نوّرَ رَكْبُكم ـــ فعنْ طيبها هذا العبيرُ يُبينُ

وما طيبةٌ حُسْنًا إذا ما اعْتَبَرْتها ـــ وسُكّانُها إلّا الجِنانُ وعِينُ

مَحَطُّ رِكابِ الوَحْيِ مُنْتَجَعُ الهُدى ـــ مُساحِبُ ذيلِ الرُّشْدِ حَيْثُ يَكونُ

مواطِنُ خيرِ الخَلْقِ آثارُ نَعْلِهِ ـــ ومَثْواهُ حَيًّا وَهْوَ ثَمَّ دَفينُ

هو المصطفى المختار مِن آلِ هاشِمٍ ـــ ألِي الشرَفِ الوَضّاحِ منه جَبينُ

محمدٌ المَبعوثُ للخَلْقِ رَحْمَةً ـــ ولَيْسَ سِواهُ للنجاةِ ضَمينُ

توالَدَ إحْدَى بَعْدَ عَشْرٍ لَيالِيًا[38] ـــ لِشَهرِ رَبيعٍ حَبّذا لكَ حِينُ وكُلُّ

فيا لَيْلَةَ الإثنيْنِ فَضْلُكِ ظاهِرٌ ـــ اللّيالي عِنْدَ قَدْرِكِ دونُ

أتى وظلامُ الكفرِ مَدَّ رِواقَهُ ـــ فجَلّاه صُبْحٌ مِنْ هُداهُ مُبينُ

نبيٌّ كريمٌ للرّسالةِ خاتمٌ ـــ مُطاعٌ لدَى ذي العَرْشِ ثمَّ أمينُ

رَؤوفٌ رَحيمٌ بالعِبادِ وإنّهُ ـــ لذو قُوَّةٍ عندَ الإلهِ مَكينُ

وسِرُّ وُجودِ العالَمينَ وأصلُهُ ـــ وغايَتُه فالكُلُّ عنه يُبينُ

وما هو إلّا سيّدُ الرُّسْلِ كلِّهِمْ ـــ وأوْلاهُمُ بالفخرِ حَيثُ يَكونُ

وأفضَلُهمْ خَلْقًا وخُلْقًا ومَحْتِدًا ـــ وأكمَلُهمْ ذاتًا وذاكَ يَقينُ

وأعلاهُمُ قَدْرًا وأرفعُ مَنصبًا ـــ وأسْمَحُ كفًّا إذ تجودُ يَمينُ

Scanned by CamScanner

وهـل يُـدركُ المـدائحُ غايـة فـضْله — وفي الغيْبِ سِرٌّ مِنْ عُلاهُ مَصونْ
ألا يـا رسـول الله دَعْـوة خاطـئٍ — لقـد طـال منه للـضّلال رُكـونْ
مُقيمٍ بأقصى الغـرْب جسْمًا وقلْبُهُ — بيثـرب لا يلْـوي عليـه رَهيـنْ
يُـؤمّلُ، قبْلَ المـوْتِ، نحْـوكَ رحْلـة — فيُقْـصيه[39] دَهْـرٌ باللقـاءِ ضَنينْ
وقد ضِقْتُ ذرْعًا بالذي اكتسبَتْ يَدي — وإنـيَ مِـن خَـوْفِ الجـزا لحَزينْ
سَـرَيْتُ بليْلٍ مِن شبابي إلى الصّبا — وخِفـتُ افتِـضَاحي والـصّباحُ مُبينْ
وقد يَرْعَوي بعد اللجاجِ أخو الهوَى — ويَقـتادُ مِـن بعْـدِ الجِمَاحِ حَـرونْ
إذا لـمْ تكـنْ لـي فـي القـيامة شافِعًا — فـوَا حَـرَبَا[40] إنـي إذنْ لغَبيـنْ
وإنـي لأرْجـو عـن قـريبٍ زِيَـارَة — لقبْـرِكَ تـسْري بـي إلـيه أمُـونْ
ومـا خِلـتُ هـذا قـبْلَ أنْ عَلِقتْ يَـدِي — بجـاهِ أحَـبِّ الخَلْـقِ فـيكَ يَكُـونْ
خَليفة ربِّ العَرْشِ موسى بن يوسُفِ — لـه شـرَفٌ مِمّـا يَـشينُ مَـصونْ
أعـارَ حَـسودي رفعَـة وكـرامَة — ورَاشَ[41] جَناحـي والجَـناحُ مهـينْ
فـنِلتُ الـذي أمّلـتُ، دنـيا بعِـزّهِ — ومـا لـي على الأخرَى سِواهُ مُعينْ
هـو المَلِـكُ المنصورُ والـواحِد الـذي — بـه قـضِيَتْ للمَعْلُـواتِ ديـونْ
بـه الله أعْطـى للخِلافـةِ حَقّهَـا فيُمْـناهُ — فعَـمَّ الـوَرَى عَـدلٌ وأيّـدَ دِيـنْ
يَـوْمَ الحَـرْبِ والـسّلمِ للعِـدَا — ضِـرامٌ وللرّاجـي الـنوَالَ مُعِـينْ
إذا مـا بَـدَا فالـشمْسُ نـورًا ورِفعَـة — وهاتـيكَ قـد تخفـى وذاكَ[42] مُبِـينْ
لـه هِمّـة لـمْ تـرْضَ إلّا لـه العُـلَا — علـى أنـه فـوْقَ الـسّمَاكِ مَكِـينْ
وشِـيمَته الفخـرُ العَظـيمُ وعِـندَهُ — مِـنَ العِلْـمِ والـرأيِ الـرّجيحِ فـنونْ
بـه الغـرْبُ يَزْهَـى غِـبطَة بجِـوَارِهِ — فمِـصْرُ تمَـنّتْ أنْ تكـنهُ وصِـينْ
إذا شـرّفَ الأمْـلاكَ مُلْـكٌ فإنـهُ — كمـالٌ لِمُلْـكِ العَالمِـينَ يَـزينْ
أمَـوْلايَ يـا أعْلـى الملـوكِ بأسْـرِهَا — وأكـرَمِهِمْ أصْـلاً وذاكَ مُبِـينْ
إذا افتخـروا جَـدًّا كـريمًا فجـدُّكمْ[43] — بعَـبْدِ مَـنافٍ عـند ذاكَ يَكُـونْ
أبـى الله إلّا أنْ تكـونَ لـكَ العُلـى — فخَانـتْ مِـنَ الأعْـداءِ فـيكَ ظـنونْ

وآتاك ربُّ العرشِ عزًّا فلا تبلْ   وإنْ نظرتْ شزرًا إليك عيونُ
وخذها أميرَ المسلمين مَجاجةً   مِنَ القولِ غرًّا عن علاك تبينُ
ثـأوتْ بها ضَخي وأنتَ شهيدُها   فليسَ لها بينَ النظامِ قرينُ
بقيتَ على مرِّ الزّمانِ مُؤيّدًا   لكَ الصّعبُ في كلِّ الأمورِ يهونُ
ولا زلتَ في العِزِّ المَكينِ مُخلَّدًا   وربُّكَ فيما ترتجيهِ مُعينُ

قلتَ: وأمرني أيده الله بنظمِ أبياتٍ على لِسانِ الجواري المُعَرِّفاتِ ساعة المنجانة الغريبة الشكل، المتقدمة الوصف، فقلتُ في ذلك:

السّاعة الأولى

أمَوْلى المُلوكِ وأغلى الأمَمْ   ومَنْ جوده العالَمَ الكلَّ عَمْ
مَضَتْ سَاعة ليتَ لوْ تنثني   فإنَّ الحَيَاة بكم تغتنمْ
ولِلّهِ وجهُكَ لمّا بَدَا   وقد خِلتهُ البَدرَ في الأفقِ تَمْ
عليه لأجلِ التقى هَيبَة   وفيه مِنَ الفضْلِ بشرُ الكرَمْ
أقمتَ بمَوْلِدِ خَيرِ الوَرَى   سُرورًا لكم بالمَعالي حَكَمْ
طَويْتَ الفؤادَ على حُبّهِ   ففِعْلُكَ هذا على ذاكَ نَمْ
فنِلتَ السّعَادة دنيا وأخرى   و حُزْتَ المَفاخِرَ دونَ الأمَمْ
فدمْ ما حَييتَ لنا مالِكًا   يُطِيعُكَ[44] عُرْبُ الوَرى والعَجَمْ

السّاعة الثانية

أخَليفةَ الرحمن والمَلِك الذي   تعْنو لِعِزِّ عُلاهُ أمْلاكُ البَشَرْ
لِلهِ مجلِسُكَ الذي يَحْكِي عُلاً   بكَ مالِكِي أفقَ السّماءِ لِمَن نظرْ
أوَما ترى فيه النجومَ زَوَاهِرًا   ووجهُ الخَليفةِ بَيْنهنّ هو القمَرْ
والليلُ منه ساعَتانِ قد انقضَتْ   يُثني عليكَ ثنا الرّياضِ على المطرْ
لا زالَ هذا المُلكُ منصورًا بكم   وبَلغتَ مِمّا تشتهي[45] أسنى الوَطرْ

السّاعة الثالثة

أمولايَ يا ابنَ المُلوكِ الألى   لهم في المَعَالي سَنِيُّ الرُّتَبْ

تولَّتْ ثلاثٌ مِنَ الليلِ أبقتْ   لكَ الفخرَ في عجْمِنا والعَرَبْ

فدمْ حُجَّةَ اللهِ في أرْضِهِ   تنالُ الذي شِئتهُ مِنْ أرَبْ

السّاعة الرّابعة

يا واحِدًا[46] في المَعَالي   و مالِكَ الفَضْلِ أجْمَعْ

مَوْلايَ دمْتَ عَلِيًّا   مَضَتْ لِلَيْلِكَ أرْبَعْ

لا زِلْتَ تفنِي الأعَادِي   و لِلمَفاخِرِ تجْمَعْ

السّاعة الخامِسة

يا أمِيرَ المسلِمِينا   و جَمَالَ العَالمِينا

والذي حَازَ المَعَالِي   كلها دنيا ودِينا

قد مَضَتْ لِلَّيلِ خَمْسٌ   حُسْنها راقَ العُيونا

و انقضى النصْفُ فآهٍ   هكذا تمْضي السِّنونا

دمْتَ في عِزٍّ وسَعْدٍ   خَالِدَ المُلكِ مَكِينَا

السّاعة السّادِسة

يا واحِدًا في عُلَاهُ   مِنْ بَأسِهِ في عَسَاكِرْ

سِتٌّ مِنَ اللَّيلِ وَلَّتْ   ما إنْ لها مِنْ نظائرْ

دَامَتْ ...

السّاعة السّابعة

يا مَنْ لهُ الفخْرُ[47] طُبْعٌ والفضْلُ[48] فيهِ سَجيَّهْ
مَرَّتْ مِنَ اللَّيلِ سَبْعٌ ما إنْ لها مَثْنويَّهْ
لا زِلْتَ والشَّمْلُ جَمْعٌ يُغْلِيكَ رَبُّ البَرِيَّهْ

السّاعة الثامنة

يا أكرَمَ الخَلْقِ ذاتًا وأشْرَفَ النَّاسِ أُسْرَهْ
مَرَّتْ ثَمانٍ وأبْقَتْ في القلبِ مِنِّيَ حَسْرَهْ
فِيهِنَّ كانَ شَبابِي أخَا نعِيمٍ ونَضْرَهْ
وَلَّى بها الدَّهْرُ عَنِّي تُرَى لها بَعْدُ كَرَّهْ
فَاللهُ يُبْقِيكَ مولًى يُطِيلُ في السَّعْدِ عُمْرَهْ

السّاعة التاسعة

يا أوْحَدَ الناسِ في مَجْدٍ وفي شرَفٍ وأفضَلَ الخَلقِ في بَأسٍ وفي كَرَمِ
مَوْلايَ تاسِعَة السَّاعاتِ[49] قد ذهَبَتْ واللَّيْلُ مِنْ بَعْدِها قد عَادَ ذا هَرَمِ
كذا يَمُرُّ ولا ندري الزَّمَانُ بنا وينقضي العُمْرُ في اللَّذاتِ وَا نَدَمِي
مَنْ كانَ ذا عَمَلٍ في البرِّ مِثلكمُ يا فَوْزَهُ يَوْمَ تخشى زَلَّةَ القَدَمِ
لا زِلتَ ذا عِزَّةٍ والمُلكُ ذا شرَفٍ بكمْ وأنتمْ مَدَى الأيامِ في نِعَمِ

السّاعة العَاشرة

يا مالِكَ الخيرِ والخَيْلِ التي حَكَمَتْ لهُ بِعِزٍّ على الأيَّامِ مُقتبلِ

Scanned by CamScanner

هذا الصباح لقد لاحت بشائره ... والليل ودعنا توديع مرتحل
لله عشر من الساعات باهرة ... مضين لا عن قلى منا ولا ملل
كذا تمر ليالي العمر راحلة نحو ... عنا ونحن من الآمال في شغل
ونصبح في لهو نسر به ... جهلا وذلك يدنينا من الأجل
والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفا ... عليه إذ مر في الآثام والزلل
يا ليت شعري غدا كيف الخلاص به ... ولم نقدم له شيئا من العمل
يا رب عفوك عما قد جنته يدي ... فليس لي بجزاء الذنب من قبل
يا رب وانصر أمير المسلمين أبا ... حمو الرضى وأنله غاية الأمل
وأبق في العز والتمكين مدته ... واغل دولته الغراء في الدول

وفي آخر شعبان وصل إلى بابه الكريم عربُ المغرب كافة أولاد حسين والعمارنة والمنبات، طرداء خوف ملكة الدائل[51] السلطان أبي فارس عبد العزيز، متذممين بأمير المسلمين أيده الله، فأجارهم وأكرم مثواهم، وأكبر إقطاعاتهم.

وفي شوال بلغ الخبر برجوع أبي زيان إلى حصينه بمظاهرة أبي بكر بن عريف وأبعاض من العرب. وفي ثاني عشر ذي القعدة رحل نصره الله بجميع جنوده لحسم هذا الداء العضال، وإخماد ذبالِه قبل الاضطرام، وقدم بين يديه وزيره عمران بن موسى لِسَوْقِ أشياخ العرب. ثم أخذ نصره الله على بني راشد، فأجفلت بين يديه بنو يعقوب، وخلصوا على أبي بكر بن عريف وقومه. ونزل أمير المسلمين أيده الله ظاهر البطحاء. فثم أتاه الوزير عمران بن موسى بمحمد بن عريف وسعد بن العباس الديالمي، فقبض على ثلاثتهم لأمر نقمه عليهم، فأرسل بعمران إلى تنس، وبعدها أجازه البحر إلى عدوة الأندلس[52]، وثقف الآخرَين بالحضرة الكريمة.

وانتهت السنة، فسبحان الباقي بعد فناء خلقه. وفي هذه السنة حذق

من أولاد مولانا نصره الله تعالى[53] المولى الأمير المنتصر[54] أسعده الله سورة البقرة، فأقام نصره الله لذلك بمشوار داره الكريمة مدعًى حافلاً وعزشًا شامخة، اجتمعت لها الأمم عربها والعجم، وحشر فيها المُغَنُّون على اختلاف أصنافهم وأطوارهم، فكان يومًا للسرور مشهودًا، وحفلاً للفخر جامعًا.

---

(1) ع: في أولها.

(2) ع +: آنفًا.

(3) ع: الذين كانوا.

(4) ع: ثامن شهر.

(5) ع: فوقد. ويقال: وقدت النار، أي اشتعلت.

(6) الفود يعني: جانب الرأس مما يلي الأذنين إلى الأمام.

(7) كذا في جميع النسخ المخطوطة وفي ع.

(8) ع، ل، ب، ط: علومًا جرى.

(9) يقال طنب بالمكان يعني: أقام.

(10) ع، ط: بما نلته.

(11) ع: ولمحمد.

(12) ع: القيسي.

(13) ل، ب، ع: قبل.

(14) س: به.

(15) ع: أبقت.

(16) ل، ب، ع: حرقة.

Scanned by CamScanner

(17) ع: مذنب.

(18) ع: لا فلك ولا ملك.

(19) ع: شمس الضحى.

(20) هذا البيت ساقط في س.

(21) ل، ب، ع: ذمار ذمامه.

(22) ع: الفضائل.

(23) ع: بقتام.

(24) س: سابق.

(25) ل: مطية.

(26) ع: عروتهم.

(27) ع: وفصمت.

(28) ع: فاسلم.

(29) ع: البيان.

(30) ع: حسنت.

(31) النص من "عفا الله" إلى "وغفر له" قد عوض في ع بما يلي: لطف الله به.

(32) ل، ع: لضنين.

(33) وفي س، ل، ب، ع: بها.

(34) ع: سحائب.

(35) ع: السقم.

(36) ع: عرفت.

Scanned by CamScanner

(38) ع: توالد إحدى بعد عشرة ليلة.

(39) ر، ل، ب، ع: فيقضيه، وأقصاه يعني: يبلغ أقصاه.

(40) في ل: فوا كربا! وفي ش، ع: فيا حسرة.

(41) ش: راس! ر، ل، ب: راح.

(42) ع: وأنت.

(43) ع: ففخركم.

(44) ع: تطيعك.

(45) ع: ترتجي.

(46) ل، ب: يا مالك.

(47) ل، ب، ع: الفضل.

(48) ل، ب، ع: الفخر.

(49) ل: الآفات.

(50) ع: فوا أسفى.

(51) ع: ملكهم.

(52) س -: إلى عدوة الأندلس.

(53) ع: من أولاد أمير المسلمين.

(54) ل، ب، ع: الناصر.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة إحدى وسبعين وسبعمائة

في أول هذه السنة رحل مولانا أمير المسلمين أيده الله من ظاهر البطحاء، وأخذ على منداس قاصدًا المخالفين، فأجفلوا بين يديه، وانحازوا إلى أبي زيان وحُصينه، وتلمّم جميعهم بتيطري، فنزل نصره الله بيقود[1] وسط بلادهم، وأطلق أيدي[2] النهب فيها، فلا تسأل عما استولت عليه من زرع ومتاع وضرع، فليس ذلك مما يحصى ولا يحصر. وبعد إقامته هنالك ثلاثين يومًا رحل نصره الله إلى منزل القطفة[3]، فقدمت عليه وفود رياح لمظاهرته.

وأظلّ زمان الشتاء، وحنت إلى صحرائها العرب، فثنى نصره الله العنان يجدّ السير على وجوه البلاد تلقاء حضرته الكريمة، فدخلها أول شهر ربيع الأول. فكان أهم ما بدأ به إرسال محمد بن عمر البريطل إلى السلطان عبد العزيز ملك المغرب في شأن المهادنة. واحتفل في إقامة بيتة مولد المصطفى، صلى الله عليه وسلم، على عادته في ذلك، فكان مما أنشده مُسمِعُها ليلتئذ من نظمه نصره الله تعالى[4] قوله:

خليليّ قد بانَ الحبيبُ الذي صدّا   وقد عاقني صبري فلم أستطع ردّا
وسالتْ دموعي فوق خدّي هواملاً   وقد صيّرتْ فوق الخدود لها خدّا[5]
قد اصفرّ لوني بعد حُسنِ شبيبتي   كما ابيضّ رأسي بعدما كان مسودّا
وقد مرّ عُمري في عسى ولعلّما[6]   تواصلني لبنى وتنجزلي سُعدى
وتزري بيَ الدنيا بزور غرورِها   فكم نقضتْ عهدًا وكم نثرتْ عقدا
وهذا نذيرُ الشيبِ لاحَ بمفرقي   يُذكرني خوفًا وينجزُ لي وعدا
هَويتُ من الدنيا زخارِفها التي   بفرطِ هواها لا أطيقُ لها ردّا
شغفتُ بها دهرًا ولم أدر ما مضى   وقد بذلتُ من بعد قربي لها بُعدا
تشاغلني الدنيا ونفسيَ[7] والهوى   وتبعدني من بعد ما أظهرتْ ودّا
ولستُ بسالٍ عن هواها كأنني   أشابه بشرًا في محبته هندا
لبانة دهري قد تقضّتْ وقد مضتْ   وجيشُ شبابي بالمشيب لقد فُدّا

ويا ليتَ شِعْرِي للزمانِ الذي مَضى   أيَرْجعُ مُرُّ العَيشِ من بعْدِهِ شهْدَا
وتغْفَرُ أوْزَارِي وتمْحَى جَرَائِمِي   وحَصْرُ ذنوبي لا أطيقُ لها عَدًّا
أنا المُسْرِفُ الجانِي أنا المُذنِبُ الذي   أشاهِد بابَ العَفوِ بالذنبِ قد سُدًّا
لقد حَقَّ لي أبْكِي على فرْطِ زَلَّتِي   وأسْكبُ دَمْعًا كالعَقِيقِ عَلَا الخَدًّا
إذا ذرَفتْ عَيْنايَ زادَ تفكري   وتعْظمُ أفكاري ووَجْدِيَ لوْ أجْدَى
أعاتِبُ نفسي في زَمانِ بطَالتِي   وقلبي على كسْبِ المَآثِمِ قد جَدًّا
وجَيْشُ شبابي قد مَضى بسَبيلِهِ   وجَيْشُ مَشِيبي قد تقدَّمَ لي وَفدَا
وحالِيَ بَيْنَ الحالتَيْنِ كما ترَى   فتطمِعُنِي شوقًا وتقلقني صَدًّا
إلهِيَ هَبْ لي منكَ عَفوًا ورَحْمَة   فما زِلتَ يا موْلايَ تبلِغنِي القصْدَا
وعَبْدكَ موسى لمْ يَزَلْ فيكَ رَاجيًا   ومن شِيَمِ المولى بأن يَرْحَمَ العَبْدَا
توَسَّلتُ بالمُختار من آلِ هَاشِمٍ   أجِرْني من النارِ التي أضْرِمَتْ وَقدَا
نبيٌّ أتى والكفرُ بَادٍ ضَلالُهُ   فأهْدى الهُدى للخَلقِ ياحُسْنَ ما أهْدَى
هوالرَّحْمَة الهادِي الشفيعُ لناغدًا[8]   هوالمصطفى المختارُ يُلهِمُنا الرُّشدَا
هو الذخْرُ للهَوْلِ الشدِيدِ إذا أتى   ومَنْ ذا سِواهُ للمَخافِ إذا اشتدًّا
ألا يا رَبيعَ الخَيْرِ لا زِلتَ رائقًا   لقد جئتَ بالرُّحْمى وخَوَّلتنا السَّعْدَا
لكَ الفخرُ صُلْ وافخرْ على الحَوْلِ كلِّهِ   فأنت لنا عيدٌ نوَفِّي لك العَهْدَا
أتيْتَ بمَن لم يَأتِ دَهْرٌ بمِثلِهِ[9]   أبَرَّ بميثاقٍ وأزكاهُمُ مَجْدَا
وأعْظَمَ عندَ اللهِ جَاهًا ورفعَة[10]   وأندَى الوَرَى كفا إذا سُئِلَ الرِّفدَا
سَلامٌ عليه[11] طَيِّبُ النشرِ عَاطِرٌ   يَفوقُ بِرَيَّاهُ الرَّيَاحِينَ والرَّندا
سَلامُ مَشوقٍ مِنْ بلادٍ بَعِيدَةٍ   يَمُوتُ ويَحْيَا مِنْ صَبَابَتِهِ وَجْدَا

ولمحمد بن يوسف القيسي الأندلسي، لطف الله به، قوله:

أقصِرْ فإنَّ نذِيرَ الشيبِ وافاني   وأنكرَتني الغواني بعد عرفان
وقد تمَادَيْتُ في غَيٍّ بلَا رَشَدِ   والنفسُ تأمُرني والشيبُ ينهاني
فقلتُ للنفس إذ طالتْ بطالتها   مَهلاً ألم يانِ أن تخشى ألم يان

كم مِنْ خُطًى في الخَطايا قد خَطوْتَ ولم　　تـراقِبِ الله فـي سِـرٍّ وإعـلانِ

فلا تغـرَّنَّك الدنـيا بزخـرفِها　　فـيا نَدامـة مَـنْ يَغتـرُّ بالفانِـي

فليس فـيها وصـالٌ دونَ هِجْـرانِ　　ولـيس فـيها كمـالٌ دونَ نقـصانِ

واسلكْ سَبيلاً إلى التقوى لتقوى بها　　على السُّلوكِ إلى جَنَّاتِ رضـوانِ

وانهضْ لمَغْنى رَسولِ الله تحظ بمَا　　تشاءُ مِن خَيْرِ أوطارٍ وأوطانِ

واركبْ إليه جَوادَ الجدِّ مجتهِدًا　　ولا تكنْ في السُّرى والسَّيْرِ بالوانِي

يا مُزمِعَ السَّيْرِ نحوَ المصطفى عجلاً　　يَحْدو إليه بأحْداجٍ وأظعانِ

بَلِّغ تحيَّةَ مُشتاقٍ لِرَوْضَتِهِ　　إنَّ الطليقَ يُؤدِّي حاجَةَ العَانِي

وإنْ أتيْتَ المُصَلَّى قِفْ وحَالِيَ صِفْ　　لِجيرةٍ بالحِمى هُمْ خيرُ جيران

وقلْ لهم ضاعَ قلبي في رحَالِكمُ　　فساعِدوني ولوْ قولاً بِنشدَانِ

فما وَجَدتُ سِوى وَجْدٍ أكابِدُهُ　　ولا فقدتُ سِوى صَبْرِي وسُلواني

عِندِي لِطِيبَةَ أشواقٌ مُضاعَفَةٌ　　أذبْنَ قلبي وقد أنحَلنَ جُثمَاني

مَهما تذكرتُ بُعْدِي عن مَعاهِدِهَا　　سَحَّتْ بوابلِ دَمْعِي سُحْبُ أجْفاني

عَليلُ نسْمَتِها يَبرَى العَلِيلُ بهِ　　لوْ عادَني بَعْضَ أحيانٍ لأحياني

فيا نسِيمًا سَرى في الطيبِ منغَمِسًا　　مُجَرِّرًا ذيْلَهُ في كلِّ بُسْتانِ

مُغازِلاً لِخُدودِ الوَرْدِ يَلثِمُهَا مُصاحِبًا　　مُلاعِبًا لِقُدودِ الرَّنْدِ والبَانِ

لِـرَياحِينِ الرُّبى سَحَرًا　　و سَاحِبًا مِنْ عليها فضْلَ أرْدَانِ

قبِّلْ ثَرى رَوْضَةٍ حَلَّ الحَبيبُ بِهَا　　بَلْ جَنَّةٍ عَرْفُها رَوْحِي ورَيْحَاني

وقلْ غريبٌ بأقصَى الغربِ أقصَدَهُ　　سَهْمُ البِعَادِ فهلْ للقربِ مِنْ آنِ

نائي المَحَلِّ بَعيدُ الدَّارِ شاسِعُهَا　　هامي الجُفونِ مَشوقٌ رَهْنَ أشجانِ

فؤادُهُ صُحْبَةَ الرُّكبانِ مُرتحِلٌ　　لِطِيبَةٍ وَهْوَ ثاوٍ في تِلِمْسَانِ

لا يَعذُبُ الوِرْدُ إلّا بالعُذَيْبِ لهُ　　ولا نعِيمَ لهُ إلّا بِنَعْمَانِ

يا أفضَلَ الخَلقِ مِن عُرْبٍ ومِنْ عَجَمٍ　　وخَيْرَ آتٍ بآياتٍ وفُرقانِ

عَساكَ يا خَيْرَ خَلقِ الله تشفعُ لي　　يوْمَ الحِسابِ فإنّي مُذنِبٌ جَانِ

Scanned by CamScanner

وأنتَ لي أمَلٌ إذ ليْس لي عَمَلٌ ... مِنَ التقى يَقتضي ترْجيحَ ميزاني

لعَلَّ حُسْنَ يَقِيني فيكَ يَمْنحُني ... شفاعة ويَقِيني لفحَ[12] نيرانِ

دَيْني على الدَّهْرِ حَجُّ البَيْتِ مُعْتمِرًا ... فهَلْ يُسَاعِدني دَهْري بإمْكانِ

وزَوْرَة لِرَسولِ اللهِ مُلْتمِحًا ... ذاكَ الضَّريحَ الذي بالنورِ يَغشاني

وأيُّ عُذرٍ لِقلبٍ لا يَحِنُّ لهُ ... والجذعُ حَنَّ له تحْنانَ لهْفانِ

والبَدرُ شُقَّ لهُ والضَّبُّ كلَّمَهُ ... والظبْيُ والذئبُ تكلِيمًا بتبْيانِ

وفاضَ يَنبوعُ مَاءٍ مِنْ أنامِلِهِ ... بوردِهِ العَذبِ رَوَّى كلَّ ظَمْآنِ

أعْلى الوَرَى مَنْ سَرَى ليْلاً لخالِقِهِ ... بما له مِنْ عُلوٍّ[13] القدرِ والشانِ

أعْظِمْ بقدرِ رسولِ اللهِ حِينَ دَنَا ... مِنْ رَبِّهِ حَيْثُ لا قاصٍ ولا دانِ

وعَادَ قبْلَ طلوعِ[14] الفجْرِ[15] مُنقلِبًا ... عن قابَ قوسَيْن لم يُخصَص بها ثان

كمْ مِنْ دلائلَ للمُخْتارِ قد حُسِبَتْ ... ومِنْ فضَائلَ لا تحْصَى بحُسْبَانِ

بِبَعْثِهِ نطقتْ مِنْ قبْلِ مَوْلِدِهِ ... في الكتبِ أخْيَارُ أحْبَارٍ ورُهْبَانِ

وفي رَبيعٍ ربوعٌ للهُدَى عمرَتْ ... ورَحْمَة، ظهرتْ للإنسِ والجَانِ

يا شهْرُ أطلعْتَ في أفقِ العلَى[16] قمرًا ... كمَالُه غيرُ مَوْسومٍ بنقصانِ

فالسَّعْدُ مُقتبلٌ والعِزُّ مُتصِلٌ ... والدَّهْرُ مُحتفِلٌ في زِيِّ جَذلَانِ

والمُلكُ مُبْتسِمٌ بالبِشرِ مُتسِمٌ ... قد[17] قامَ بالعَدلِ فيه خَيْرُ سُلطانِ

أفاضَ في مَوْلِدِ المُختارِ نائلهُ ... فانظرْ إلى مُلتقى حُسْنٍ وإحْسَانِ

موسى الخَلِيفة والإجْمَاعُ مُنعَقِدٌ ... عليه لم يَخْتلِفْ في فضْلِهِ اثنانِ

كأنه للوَرَى رُوحٌ وهُمْ جَسَدٌ ... ولا حَيَاة بلا رُوحٍ لجُثمانِ

له وَقارُ نهى في طَيِّهِ فِطَنٌ ... إنْ يُرْسِلِ الظَّنَّ ياتِيهِ بإيقانِ

فِرَاسَة من هِباتِ اللهِ صادِقة ... يَرَى المُغَيَّبَ من سِرٍّ كإعْلانِ

تنهاهُ عِفتهُ عن أمْرِ بَطشتِهِ ... يَرْعَى الرَّعايا بعَيْنِ الحافظ[18] الحاني

فالحَقُّ في الخَلقِ جَارٍ في إيالتِهِ ... مُستضعَفٌ وقوِيٌّ فيه سِيَّانِ

أعادَ دَوْلة عبدِ الوادِ ثانِيَة ... حتى استقامَتْ بآساسٍ وأرْكانِ

Scanned by CamScanner

يا ناظم الفلك بالأموال ينثرها ... كم كفّ كفك[19] من أزمات أزمان

سوالك الغيث إلا أن ديمته ... صوبان من ورق محض، وعقيان

وخلتك البحر لكن من عجائبه ... عقبان خيل عليها أشد فرسان

يعلو منه شياطين العدى فرقًا ... تنقض منه عليهم شهب خرصان

يا باسط العدل في أهل البسيطة قد ... طويتم للأعادي كل عدوان

مولاي إن تدع الأملاك مغلوّة ... بشبهة فمعاليكم ببرهان

ولو رأى من مضى ما شدت من كرم ... لم يمدح المتنبي آل حمدان

إليكها كلمات لو بها سمعت ... أولاد جفنة ألغوا مدح[20] حسان

ما مثل عبدك في مدّاح مجدك من ... مثنٍ ولا لك في الأملاك من ثان

فدام سعدك يا مولاي مقتبلاً ... مجدّدًا، كلما عاد الجديدان

وللمؤلف عفا الله[21] عنه قوله:

سقى الدار بالجرعاء من جانب الشِّعب ... سحائب دمعي إن ونت أدمع السُّحب

وروض ما بين العقيق إلى النقى ... وحيّا بذيّاك الحمى زمن القرب

مغاني شموس أو ربوع أهلّة ... طلعن بروض أو بزغن على القضب

هنالك أعطيت الهوى فضل مقودي ... وجدت مطيعًا بالحشاشة والقلب

نواعجنا[22] لا من تنائي مزارنا ... ولكنه إن أمكنت عيشة الصبّ

وقفت بأطلال الربوع ركائبي ... فلأيا عرفت الدار عافية الترب

فيا أيها الحادون مهلة ساعة ... عسى وطرًا أقضيه في وقفة الركب

خليليّ مالي كلما هبّت الصّبا ... تذكرت والذكرى تهيج لذي الحبّ

دعا العتب أو ردّا على القلب عهده ... فإن وفائي لا ينهنه بالعتب

وما شاقني إلا تألق بارق ... أطار منام[23] العين وهنًا من الرعب

يذكرني عهد التصابي برامة ... فأهفو فيأتي زاجر الشيب بالعتب

بنفسي الألى راضوا على السير أنفسًا ... يهون عليها في المعالي لقا الصعب

يحنّون من شوق ليشرب ركبهم ... فما شئت فيه من ذميل ومن خبّ

Scanned by CamScanner

تَهَاوَى على عِيسٍ تَهَاوَى كأنَّهُمْ   سِهَامٌ تَرَامَى عن قِسِيٍّ مِنَ النَّخْبِ
تَسِيرُ[24] الأَجْيَى مهما سَرَوْا عَزَمَاتُهُمْ   وتَطْوِي الفَلا طَيَّ السِّجِلاَّتِ لِلْكُتْبِ
تَمِيلُ على الأكْوَارِ زَهْوًا[25] رُؤُوسُهُمْ   ولَيسَ سِوَى خَمْرِ المَحَبَّةِ مِنْ شُرْبِ
إذا مَا دَنَوْا دَارًا يَزِيدُونَ نَشْوَةً   كَذَا بُرَحَاءُ الشَّوْقِ تَزْدَادُ بِالقُرْبِ
فَنَالُوا المُنَى في طَيْبَةٍ لَهُمُ الهَنَا   و أقْعَدَنِي مَا قَدْ جَنَيْتُ مِنَ الذَّنْبِ
فَمَنْ لِي بِأَنْ يَدْنُوا المَزَارُ ونَلْتَقِي   و تُقْضَى لُبَانَاتُ المُحِبِّ مِنَ الحِبِّ
وآتِي ضَرِيحَ الهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ   أُعَفِّرُ خَدِّي فِي ثَرَى ذَلِكَ التُّرْبِ
بِحَيْثُ الهُدَى والوَحْيُ تَنْدَى رُبُوعُهُ   وآثَارُ خَيْرِ الخَلْقِ فِي السَّهْلِ والهَضْبِ
نَبِيُّ الرِّضَى نُورُ الإلَهِ صَفِيُّهُ   ومُخْتَارُهُ المَخْصُوصُ في القُدْسِ بِالقُرْبِ
هُوَ المُصْطَفَى المُجْتَبَى سَيِّدُ الوَرَى   وأكْرَمُ مَبْعُوثٍ إلى العُجْمِ والعُرْبِ
أتَى بِالهُدَى يَمْحُو الضَّلاَلَ نَهَارُهُ   فَأَشْرَقَ صُبْحًا لا يَمِيلُ إلى غَرْبِ
بِهِ بَشَّرَ الكُهَّانُ قَبْلَ وِلاَدِهِ   وعِنْدَهُمُ ألْفَوْهُ في مُحْكَمِ الكُتْبِ
لَهُ انْهَدَّ إِيوَانٌ وغَاضَتْ بُحَيْرَةٌ   ورُدَّتْ شَيَاطِينٌ عَنِ السَّمْعِ بِالشُّهْبِ
مِنَ المَسْجِدِ الأقْصَى سَمَا لَيْلَةَ السُّرَى   يُصَاحِبُهُ جِبْرِيلُ حَتَّى إلى الحُجْبِ
دَنَا فَتَدَلَّى قَابَ قَوْسَيْنِ رِفْعَةً   لَدَى حَضْرَةِ التَّقْدِيسِ تُؤْذِنُ بِالقُرْبِ
وخُصَّ بِهَا عَنْ عَالَمِ الكَوْنِ مُفْرَدًا   وهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ دَلِيلٍ عَلَى الحُبِّ
و أرْسَلَهُ لِلْعَالَمِينَ بِأَسْرِهِمْ   وأيَّدَهُ بِالمُعْجِزَاتِ وبِالرُّعْبِ
فَفِي البَدْرِ والشَّمْسِ المُنِيرَةِ آيَةٌ   وفِي الجِذْعِ والحَصْبَاءِ والظَّبْيِ والضَّبِّ
مِنْ كَفِّهِ أرْوَى الجُيُوشَ على ظَمَا   وأشْبَعَ مِنْ نَزْرٍ أُلُوفًا عَلَى سَغْبِ
ونَادَى فَجَاءَتْ أيْكَةٌ لِنِدَائِهِ   تَجُرُّ مِنَ الأغْصَانِ ذَيْلاً عَلَى التُّرْبِ
بِدَعْوَتِهِ أَغْنَى مِنَ الفَقْرِ عَافِيًا   وأبْرَأَ مِنْ بَعْدِ العَمَى لِيْنَ بِالطِّبِّ
بَشِيرًا نَذِيرًا عَاقِبًا حَاشِرًا أتَى   رَؤُوفًا رَحِيمًا بِالعِبَادِ عَنِ الرَّبِّ
لِسَانُ قَضَايَا الأمْرِ في كُلِّ أُمَّةٍ[26]   فَهَذِي بِإِيجَابٍ وهَاتِيكَ بِالسَّلْبِ
بِهِ خَتَمَ اللهُ الرِّسَالَةَ لِلْوَرَى   وشَفَّعَهُ فِيهِمْ لَدَى المَوْقِفِ الصَّعْبِ

Scanned by CamScanner

إذا النجْ هَوْلُ الحشرِ أوْحلُ[27] خطبُهُ ... فأحمد يُنجي الخلقَ من ذلك الخطبِ

أجِبْ يا رسولَ الله دعوةَ ... شفاعتك العُظمى تجيرُ من الذنبِ

مُزنجٍ يروحُ ويغدو في البطالةِ جامحًا ... يسرُّ من الأيامِ باللهوِ واللعبِ

وقد آدني حملُ الخطايا وإنني ... بجاهِكَ أرجو الصفحَ عن ذاكَ من ربّي

عليكَ صلاةُ اللهِ ثُمَّ سلامُهُ ... ورحمتهُ ما انهلَّ مُزْنٌ مِنَ السُّحْبِ

وعامَلَ بالرضوانِ قومَكَ إنهم ... هُمُ الناسُ مِنْ آلٍ كِرامٍ ومِنْ صَحْبِ

وأيَّدَ مَن أحيا لنا سُنةَ الهُدى ... خليفتهُ حامي حِمى الدِّينِ بالعضبِ

شريفُ مُلوكِ الأرضِ فرعًا ومَحتِدًا ... وأكملُهُمْ في الجنسِ والفضلِ[28] والكسبِ

هو القطبُ والأملاكُ شُهْبُ سَمائهِ ... وهلْ دارتِ الشهبانُ إلّا على القطبِ

كريمُ السَّجايا أرْيَحِيٌّ سَمَيْدَعٌ ... طليقٌ مُحيّا الوجهِ في السِّلمِ والحَرْبِ

وما في سِوى كسْبِ المَحامِدِ رأيُهُ ... وذاكَ لعَمْري أشرَفُ الرأيِ والكسْبِ

لهُ أثرٌ في الحِلمِ والعِلمِ ظاهِرٌ ... وفي الرأي والإقدام يُسْفِرُعن نَدْبِ[29]

فمَن ذا كموسى أوْ يُضاهي جَلالهُ ... وهَيهاتَ للشمسِ المُنيرةِ مِن تِرْبِ

خِلالٌ كما شاءَ الكَمالُ حَميدَةٌ ... تضاهِي نجومَ الأفقِ في العَدِّ أو تربي

وخَلقٌ كما قد شاءَهُ الحُسْنُ باهِرٌ ... يُعَظِّمُهُ الرَّائي على البُعْدِ والقُربِ

وهِمَّةُ ذي مَجْدٍ كريمٍ نِجارُهُ ... سَمَتْ بك يا مَوْلايَ عن مرقبِ الشهْبِ

فيُمْناكَ وَهْيَ المُزْنُ سَيْفُكَ جاحِمٌ ... ولا عَجَبٌ إنْ لاحَ بَرْقٌ مِنَ السُّحْبِ

فإنْ تأتِهِ تأتِ الذي ليسَ مثلُهُ[30] ... لِذي أمَلٍ مَرْمَى بِشَرْقٍ ولا غَرْبِ

ففي بابِهِ تلقى الأسُودَ خَوادِرًا ... على الجُرْدِ مِنْ عجْمِ البَرِيَّةِ والعرْبِ

وفيهِ ترى آثارَ حِكمَةِ رَبِّنا ... مِنَ الأمرِ والنَّهيِ المُطاعَيْنِ عن حُبِّ

تزاحَمَ تِيجَانُ الكماةِ ببابِهِ ... كما ازْدَحَمَ الصَّادونَ بالمَوْرِدِ العَذْبِ

إذا حَطَّ عافٍ رَحْلَهُ بِفِنائِهِ ... يُلاقِي الذي يَهْوَاهُ بالمَنزِلِ الرَّحْبِ

فما الدِّينُ والدنيا سِوى ما رَأيتَهُ ... ببابِكَ لا ما دَوَّنَ الناسُ في الكُتْبِ

هَنيئًا أميرَ المُسْلمينَ بأنْ حَوَتْ ... مَعاليكَ كُلَّ الفخرِ بالطبْعِ والكَسْبِ

Scanned by CamScanner

ودونــكَ مِـن نـسْلِ القـرِيضِ كـريمَة تــزَفُّ بمَغْـناكَ العَلِـيّ عـن الـشُهْبِ
أتــتكَ كمـا شــاءَ الكمَــالُ كــريمَة بَدِيعَـة نظْـم مـن عَـروضٍ ومِـن ضَـرْبِ
وَقفـتُ بهـا بـين الـسّمَاطيْنِ[31] مُنـشِدًا لـدَى مَلِـكِ الدنـيَا، ففقـتُ بهـا صَحْبِي
وبَــانَ بهــا فـضْلِي علــى كــلِّ شــاعِرٍ فلـيْسَ لهــا فــيما يقولــونَ مِـنْ تِـرْبِ
بَقِـيتَ لِنـيْلِ المَجْـدِ والعِـزِّ والعُــلَا تغـيظ الأعَــادي إذ تــسُرُّ ذوي القُـرْبِ
ولا زِلْــتَ والأقـدارُ تجْـري بمـا تـشَا وأنــتَ قريــرُ العَـيْن بــالآلِ والحِـزْبِ

وبعد المؤلد الكريم وصَله رسوله محمد بن عمر البريطل مِنَ المغرب، ومعه حَسُون بن علي الصبيحي رسولاً من قِبَلِ السلطان أبي فارس عبد العَزيز، لاقتِضاء الصلح والتِماس طرد مَعقِلِ المغرب عن باب أمير المسلمين أيده الله، فلم تسمَحْ بذلك يَد عِزِّهِ، ولا أعْطَتِ المَقادَة فيه نخوَة مُلكِهِ، فانصَرَفَ الرسول المذكور بسخنَةِ العيْن من قصْدِهِ. وجمَعَ أمير المسلمين أيده الله العَرَبَ المذكورين على بيعة محمد بن محمد بن عبد الله بن أنعجوب[32] بن عبد الحق، وكساه شارة المُلك، وأرسلَ جميعهم لحصار سجلماسة، ومَلِك المغرب يومئذ محاصِرٌ لعامر بن محمد الهنتاتي الثائر بوطن مرَّاكش. ونادى، نصره الله، بالحركة في الناس[33] مُعَمِّيًا قصده فيها عن الخاصِّ والعامِّ. وبادر بالخروج إلى ركابه العلي[34]، وقدَّم الكتب لكافة قبيله الأعزّ وأحلافِهِ وسائر القبائل والجيوش بالكوَرِ يأمرهم بالنهوض واللِّحاقِ به.

وفي يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الثاني نهض نصره الله يجدُّ السَّيْرَ ويَطوِي المراحلَ إلى أن بَغتَ الثعَالِبَة بمَتيجَتهم[35] ضُحَى، فانتهَبَ الأمْوالَ واستباحَ الأنفس، وأخذ بمخنق الجزائر ليلة أو اثنتيْن، ثم قفلَ وقبيلُ الثعالبة يُذادون بالمالِ والأنفسِ ذوْدَ الأنعام بين يدَيْهِ الكريمتين، آخذا بهم على نهج الساحِل مارًّا ببَرْشك وشرْشال وتنس إلى أن أحَلَّهم بوادي شلف، وأمر قائدَه فيه بإغرامِهم كلَّ ما غابرًا عليه مِن مَخازن السنين السالفة، ونشر أعلامَه المنصورة إلى حضرته الكريمة فدخلها يومَ السبت ثالث عشر[36] جمادى الثانية.

فأمر الناسَ بتجديد الحركة، واستنفر الحشودَ من كلّ قطر لمُثاناة حصار

الجزائر برًّا وبحرًا، فتمّ ذلك. ورحل مُشرقا يوم الاثنين رابع رمضان المعظم. وفي أثناء ذلك ورد على مقامه الكريم[1] الخبر بأن ملك المغرب السلطان أبا فارس عبد العزيز قد أخذ عامر بن محمد الهنتاني، وعاد إلى دار مُلكه داعيًا قومه إلى الحركة مشرِّقًا[2] امتعاضًا لطرد رسوله غير مقضيّ الغرض، وإيجاف الخليفة أيده الله على سجلماسة بمحمد بن محمد المذكور وعربه، وقد كان المذكور رجع[3] إلى تلمسان في شعبان.

فتمادى أمير المسلمين، نصره الله، إلى البطحاء، وضَمّ بها جنوده الشرقية كافة وقبيل بني عامر بأسره، وثنى العِنان للقاء ملك المغرب وعسكر ظاهر حضرته الكريمة[4] أوّلَ ذي قِعدة، وخيَّمَت بنو عامِر باضطفصيف. ثم أمر، أيده الله، قبيله الأعزّ بالاستعداد للصحراء[41] على عادته في أمثال ذلك، واستدعى رجالَ عُبَيْد الله المُؤامرة، فجاؤوا من عندِ آخِرهم. واتفقت الكلمة على اجتماع أمير المسلمين، أيده الله، وعربه برَاس العَيْن، وإقامةِ ولدِه المولى الأمير الأعلى أبي تاشفين، أعزّه الله تعالى، بألف فارس مختارة في تلمسان، فإن قصدها العَدوّ أخذ أمير المسلمين عنها بحَجْزه، وإن قصد إلى الخليفة نصره الله وقومِه أصْحَروا أمامَه، فإذا رجع قفوْه، وإن أعْيا في أثرهم انعطفوا عليه. ويا ما أحْزَمَ رأيهم هذا[42] لوْلا خذلان عُبَيْد الله فيه، وانحِيازهم إلى مَلِكِ المغرب عند صدمته. وانتهت السنة، ولله وحده البقاء، لا إله إلّا هو سبحانه.

---

(1) في ر: بيقود، وفي س: بيعود، وفي ع: بقود.

(2) س: نار،

(3) س: القطفا.

(4) ع: أيده الله.

(5) المقصود بالخد هو: جدول الماء.

Scanned by CamScanner

(6) واسطة السلوك: في لعل وفي عسى.

(7) ع: لشاغلني نفسي ودنياي.

(8) واسطة السلوك: المشفع في غد.

(9) واسطة السلوك: بمن لم تأت أنثى بمثله.

(10) ع: وحرمة.

(11) واسطة السلوك: عليه سلام.

(12) ل: حز.

(13) ع: علاه.

(14) ع: قبل ظهور؛ ط: بعد طلوع.

(15) ط: الشمس.

(16) ع: الهدى.

(17) ع: مد.

(18) ع: العاطف.

(19) ع: كفاك.

(20) ع: قالوا شعر.

(21) ر +: تعالى.

(22) ع: فيا عجبا.

(23) س: فؤادي.

(24) ع: يضيء.

(25) ع: سكرى. ورهوًا أي: تسير سيرًا سهلاً.

(26) ع: ملة.

Scanned by CamScanner

(27) ر: ليخ؛ ع: حل.

(28) ب، ش: والفضل.

(29) ل: عن قرب. والندب يعني: السريع إلى الفضائل.

(30) ع: بعقده.

(31) ر، ط: البساطين.

(32) ع -: بن المحبوب.

(33) ع: ثم نادى نصره الله بالحركة.

(34) ع: إلى محلته.

(35) ع: بمتهجة.

(36) ع -: عشر.

(37) ل، ب، ع: ورد عليه.

(38) ع: شرقا.

(39) ع: عاد.

(40) ر: حضرته العلية؛ ع: الحضرة.

(41) ل، ب، ع: إلى الصحراء.

(42) ع: هذا الرأي.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

سنة اثنتين وسبعين وسبعمئة

في أوَّل هذه السنة كان ابتداء التمْحِيص[1] الأكبر والابتِلاء الأشهر بما لم يُعْرَف لمَلِكٍ من ملوك الإسلام نظِيرُهُ، ولا عُدَّ في مَثلاتِ الأمم الخالية شِبْهُهُ، حسبما تقِفَ عليه، وعلى ما اعتقبَ شِدَّته من الفرَج، وتمْحِيصَه مِن التخصِيص. والسبب هو ما خامر رسالة محمد بن عمر البريطل إلى المغرب مِن الغش والخديعة، ثم ما ذكرناه مِن استنكاف أمير المسلمين، أيده الله، عن إجابة سؤال السلطان أبي فارس عبد العزيز إلى طردِ المَعْقِل المستجيرين به، ثم ظهورِ أمير المسلمين أيده الله على قبيلَي سُوَيْد وبني يعقوب المخالفين كانوا عنه، وانجلائِهم[2] إلى المغرب خوفَ سَطوَتِهِ.

فلمَّا ظفر السلطان أبو فارس بعامر بن محمد الهنتاتي مُناصبه[3] في الجهات المراكشية، في ذي القعدة من السنة الماضية، كما مرَّ، دَبَّتْ حُمَيَّا نزَغاتِ الناكِبين عن أمير المسلمين أيده الله في نجدته[4]، وزهَتْ زخاريفهم بنصر بَأوِهِ[5]، فارْتاشتْ سهامُ الحقد، وثارتْ أفاعي العداوة، وأرهفتْ مَدَى العزم، فجمَعَ أهلَ مغربه كافة من السُّوسِ الأقصى إلى صحراء دَرْعَة إلى سَبْتة من بحر الزقاق. ونهض مُيَمِّمًا تلمسان بالجراد المنتشِر أو البحر الطامي أو السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وانتبذ قبيلُ عُبَيْد الله كافة إليه خديعة ولؤمًا وكفرًا للأنعُمِ.

فاحتمَل نصره الله تعالى كل ما اشتمَل عليه قصرُهُ السعيد من مالٍ وحرم وذخائر وأمتعة وثياب وفرش، ممَّا لا يَحْويه الحساب ولا يُحيط به الفكر، ولا يصدق ناقل خبره، وظعن بقبيله الأعزِّ وأحلافهم وكافة بني عامِر عن الحضرة العلِيَّة مشرِّقًا يومَ الأربعاء رابع عشر محرم، فنزل البطحاء وتلوَّمَ بها ثمانيًا.

وفي يوم الأحد الخامس والعشرين من المحرم، دخل مَلِكُ المغرب

Scanned by CamScanner

تلمسان، وأمّر وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس بكافة قبيله وأحلافهم المحشودة، وجميع عربهم المستجاشة من المنبات والعمارنة وأولاد حسين والهذّاج والخزّاج[6] وبني يعقوب وشويلد، في أثر أمير المسلمين أيده الله. فارتحل، نصره الله، عن البطحاء مارًّا بمنداس ثم بيلود[7]، فانخزلت عنه، إلى بلادها، توجّين وبنو راشد، سوى رجالٍ ضمّم منهم. فنزل وادي وزك من بلاد العطّاف، ثم أخذ منه على ثنايا الغنم، ونزل بسبخة زاغز، وتلوّم بها إلى أن وصلته عيونه المبثوثة عن العدوّ باقترابه، فارتحل مشرّقًا.

قلت: ومن هنا فارقته أيده الله لخيالاتٍ سوداوية اعترتني[8]، ونزغاتٍ شيطانية تجاذبتني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء مكتوبٍ أهوى إلى دَرْك الخسارة بي، ولا حول ولا قوة إلّا بالله. ولولا أن أفضح مستورًا، وأخلّد في بطون الأوراق وضمًا مشروحًا، لأبثثت ما جرى وقلتُ كيف كان. لكنّ فضله ومجده، أيده الله تعالى، محا السّيّئات، وجلا بمنّته العفو المحاسن، والاعتراف إنصافٌ، والندم توبة، ولا ذنب كما ورد مع إقرارٍ. خلّد الله ملكه، وأعان على أداء الواجب من الخدمة له، ولا أعدمنا ظلّ حرمته ومنافع نعمته[9]، بفضله ورحمته.

رجع الحديث. وأخذ أمير المسلمين، أيده الله، عند ارتحاله من زاغز، على ثنية الأمطلّن[10]، من بلاد رياح، واجتاز شمال خيزرانة، ونزل قرب مسيلتهم، وتلوّم ثلاثًا[11] لإيلاف أولاد يحيى منهم، فأحسن إلى جميعهم بالكسى العديدة والمال الجزيل. ثم رحل آخذًا على شرائع[12] وادي مسيف فبخاتر الشيخ، وخرج على ثنية غمان[13]، فنزل ظاهر الدوسن من قرى الزاب، أوّل شهر ربيع الأول، تحفّ به حللُ أشياخ بني عامر، وخيّم سائرهم بوادي شدّي على قيد رحلتين منه قبلة، وأقام[14] ثلاثًا لاستيلاف أولاد محمد من رياح.

فهنالك فجئة العدوّ عقب نهارٍ فأجفل من كان قربه من أشياخ بني

عامر، وتركوا خيامهم بما حوته. ووقف هو أيده الله تعالى لإزحال محلته وقد غشيها العدوُّ من كل جانب، وولده المولى الأمير الأعلى أبو تاشفين أعزه الله يحمل على جميعهم كالأسد العادي، فيردُّ أولهم على أعقابه[15]، حتى لم يتركوا بالدار عقالاً. وقدم الخليفة نصره الله ظعنه[16] بين يديه، وقد أجنه الظلام، فانهار[17] العدوُّ خلفه، وتكالبوا في طلبه، فقرعتْ طبوله وانعطف نحوهم، فولوا الأدبارَ وانكبح طغيانهم. ثم أدلج، نصره الله، مقبلاً أثر قبيله الأعز وعربه، وقد أخذ كل منهم طيَّته مع الجهل بالبلاد وعدم الهداة فيها وتراكم بحر الظلمات[18]. فجَدَّ أيده الله سَيْرَهُ أربعة أيام بلياليها في تنائف ومجاهل لا يهتدي بها القطا لمسقط نَوْءٍ، ولا يُسْمَعُ بها، سوى عزيف الجن، صوتٌ، لم يَرِدْ بها ولا قومُهُ ماءً، ولا استاموا أكلاً، ولا عرفوا غير بَرْضِ القوتِ غِذاءً.

وفي اليوم الخامس اجتمع نصره الله بقبيله وعربه على ماء قارة المهر[19] شرق جبل مِزاب، سويداء قلب الصحراء وسنام يبابها القفر، وقد خامر قلوبَ كثير من أوليائه الزَّيْغ، وران عليها[20] الهوى، كمحمد بن عمر البريطل، ووادفل[21] بن عَبُّو بن حمادن[22]، وسعيد بن تصاليت[23]، وخالد بن عامر بن إبراهيم.

ومنه ارتحل، أيده الله، إلى ماء السمارة ولزمه أربعًا. ثم نزل الجبل المذكور وتلوّم أيضًا به أربعًا. ومنه، بعد مَشْيِ يومٍ وليلةٍ ورد ماء تليلي[24]، فارتوى الناسُ وصَرَفَ عنه مشيَخة بني عبد الواد عَمَرَة مصاب، وركِب القفرَ الصَّحْصَح مغرّبًا، فمَرَّ بماء قوفافة ثم تماسين، ومنه إلى حرف[25] تيدلي، إلى وادي مايتريغن[26]، وقد نفدت الأمواه، وبلغ ثمن الشربة الواحدة إلى رُبُع دينار، وأتتهم بعد ثلاثٍ.

فارتحل إلى عقلة بئر الذبان، ثم إلى ماء كرط وبعد ثلاثٍ تلوَّمها به، رحل إلى قور الدنانير ثم إلى ماء سَلدَن قرب قصور بني عامر. فقدّم بين

Scanned by CamScanner

يديه من ينفض البلاد. وتلوّم سبعًا حتى علم نزول بني مرين ومريهم بالقصور فرحل إلى مورد أم الجرابيع، ثم إلى مجهل القرارة الحمراء ثم إلى منهل أبيض تيسَمْريت[27] قبلة قصر رَيًا من بلاد بني عامر، وقد نفدت الأزواد. فأقام وأرسل الناسُ عيرهم إليه.

ثم ارتحل بعد وصولها إلى غدير البعر، ومنه إلى منهل تماسين، ثم إلى وادي الأسمام، إلى بئر الطرفا إلى مجهل، وغدا على وادي نرت، وأمسى ثالث ليلة بوادي دَرْمَل، فتلوَّم نصره الله تعالى به ثمانيًا. ثم صعد معه إلى نبكة الحباء[28] قريبًا من وادي فيجيج ذي القرى الجريدية، وأرسل إليها الناسُ عيرَهم، وتلوَّم، أيده الله، إلى أن قفلت. ثم كرَّ يطأ أثره، فأمسى بماء عمود الأسمام ولزمه أيامًا ثم ركب منه الحمادة، فراح إلى غدير الخشبة فغدير البعر المذكور فالأبيض، وغدا على قصر رَيًا ولزمه أيامًا، ومنه أصحر إلى تازَبَايَة، إلى كدى السباع، ثم إلى مجْهَلٍ يُكاثِبُها، مَيَّزَ به بني عامِر وأعطاهم رواتِبَهم[29] المعتادة، سوى عبد الله بن سقير بن عامِر في أخلاطٍ منهم شايعوا مَلِك المغرب.

وبهذا المنزل، في شهر رجب، أتتْ أميرَ المسلمين رُسُلُ عُبَيْد الله من المَعْقِل بإنابتهم إلى طاعته، ويدعونه إلى دخول التلِّ والحركة على[30] تلمسان، بعد أن خلعوا طاعة السلطان عبد العزيز، وشنوا على بلاده الغارة، فاستبشر الناسُ بقدومهم وسُرُّوا بنقض عهودهم. وارتحل أمير المسلمين إلى قصر رَيًا، ثم إلى خنق الحديد، وفيه لقِيَه من عُبَيْد الله وفدٌ يستحِثُونه فغلغل وأمسى بعين العَسَل[31]، فأراح الظهر بها أيامًا تلاحَق به فيها العربُ، ورحل إلى وادي مسيف، ثم إلى معلم بين تاجْرُنا والمناقيب فخربة عنتر، وأصاب الناسَ بها ثلجٌ شديد.

فقدَّم أمير المسلمين بين يدَيْهِ إلى التلِّ محمد بن عمر البريطل بحِصَّةٍ من قبيله الأعز، وخالد بن عامِر في جمرة من قومه، وأقام هو أيده الله

مستشفعيًا، فحماه من عُبيد الله وقد أجر باستعجاله، فارتحل وسار بهم بالبيعة. وبلغ الخبر بنهوض خالد بن عامر إلى عبد الله ابن أخيه سقير، شيخ المريني، فاعتقد انصراف زناتة والعرب أجمعين معه، فنهض إلى حي أبي المسلمين لاهتبال الغرّة فيه، فثنى نصره الله العنان فطفقه، وفزعت معه عُبيد الله كافة، فردّها إلى أهلها من ماء نبش الذئب.

ولم يزل، نصره الله، يطأ عقب عبد الله بن سقير المذكور، ويأخذ في ظعنه، إلى أن أقحمه التلّ فكرها قبل إتيانه. ونزل أيده الله أنيكس عشرًا، ثم قفل إلى فزج فمجهل فقبلة تيسمرين، وتلبّح الناس أيضًا فاستسحى بهم إياها، وارتحل إلى عيون النشاب قبلة جبل بني وزينة المعاقب لتلمسان المحروسة، وذلك أول رمضان المعظم. ثم نزل إفرطن[32]، طرف بلاد بني يزنى، فلقيه رسول عبد الله بن سقير المذكور ملتمسًا رضاه وصفحه فتجاوز كعادته نصره الله عنه ورحل مغربًا فأمسى بماء تافلحت فيولي[33] فامزجزجت[34] فوادي إيسلي، ثم أخذ بمخنق وجدة.

فأمدّ إليه السلطانُ عبد العزيز[35] وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس بكافة بني مرين وأحلافها وجميع زُغبة من سُويد وبني يعقوب والثعالبة والعطاف، فنزلوا وادي تافنا. وأقبلت أيضًا باستقدامه عربُ غزيه من أولاد حسين والعمارنة والمنبّات، كلٌّ بقائده، فنزلوا مع الشيخ أبي يعقوب ونزمار بن عريف بأبزدل من جبل بني يزناسن. فما خامَ[36]، نصره الله، عن إقدامه، ولا بالى بكثرة العَدُوَّيْنِ القاصدَيْن إليه مِنْ عن يمينه وشماله بل استمرَّ حاركا على العرب الغربية، فواقفوه وحَمِيَ الوطيس، واحتدم[37] المراس مَلِيًّا، ثم انجلت الوغى عن هزيمة عدوّه واستئصال ظعنه، وإسار خمسةٍ وعشرين من أجوادهم، كسعيد بن عثمان وأخيه زحّو، وعبد الرزاق بن عبد الواحد، ويوسف بن يحيى[38]، وغانم بن موسى، وعبد الواحد بن عبد الكريم، وأبي إبراهيم بن مظفر، وعلوش الصبّاحي[39]

وسـواهـم[40]. فـصفح، أيـده الله، عـن جمـيعهم، وعَفـا عـن زلّاتهـم، ثـم أحسن إليهم وسرّحهم.

وأخـذ، نـصره الله، علـى ثنـية الحَـضباء جـنوبًا، فعـرّس قِبلـتها، وراح مـن الغـد إلى مقطـع الغاسـول مـن وادي صَـا. ثـم اقـتضى نظـرُهُ الكـريم الحـركة على الوزيـر ابـن غـازي وجمـوعه، فثنـى العِـنانَ قـصدَه، ونـزل بـتامَلّحَت، فأجفلـوا بين يديه، ونـزل إزاءَ وَجْدَة غـرّة شـوّال. ثـم غـرّبَ إلـى دَبْـدو مـن بـلاد مـرين فجاس خـلالَ ديـاره، واسـتباح زرعَـه وضـرْعَه، وعـاج الـركابُ قاصِـدًا تلمـسان المحروسة، فنزل إلوان[41] قِبلتها.

فمِـن هـنالك انخـزل عـنه رَحُّـو بـن منـصور بـن عـبد الملـك الخرّاجي بقـومه، داعـيًا فـيهم لِمَلِـك المغـرب. فـشرّق أميـرُ المـسلمين غازيًـا إلـى عمر بن مـسعود التيربيعـي، وزيـر مَلِـك المغـرب، وكـان علـى الـبطحاء بـآلافٍ مـن بني مـرين للتـضييق علـى حمـزة بـن علـي ابـن راشـد المغـراوي الثائـر يومئـذ بـشلف. فعـرّس أيـده الله بمرسـيط فعـين الـنور[42] فـسعيدة، أوّلَ شـهر ذي الحِجـة. وسبق إلـى الوزيـر المذكـور النذيـرُ العـريان، فأجفـل مـتذمِّمًا بمديـنة مـستغانيم، وتمَلَّكَ أميـرُ المـسلمين، أيـده الله، الـبطحاء، وتلـوّم بكـورَتِها أيامًـا أراح بهـا الظهـر، واستجَمّ القوة، وأنمى الأزواد.

ثـم انـتقل إلـى مناصـبة[43] مـنداس، وقـد كـان مَلِـك المغـرب أنهـض إليه أيضًا وزيـرَه أبـا بكـر بـن غـازي ببنـي مـرين كافـة وزغـبة أجمعـين والمَعْقِل ونزلوا بلخَنِّـي[44]، وعَمِـيَت الأنـباء علـى الطائفتَـيْن فلـم تعلـم إحـداهما بالأخـرى، إلى أن تـصادفت أصـيلَ يـومٍ رُوّادُهمـا، فتـنادَوْا محتـربين ليلـتهم وصَـدْرَ غـدِها. ثم تقهقـر الوزيـرُ حـذرًا علـى نفـسه، وأصـحر أميـرُ المـسلمين، أيـده الله، فعرّس ليلـته تلـك بـوادي سُـوف سَـلْم[45] مـن الـسرسو. ومـنه راح إلـى طاقـين، فمنهل قطـيف فبيـضاء راشـد فـسمجاج. ثـم تـسنّم جبـل راشـد، لـيخفف بـه عـن الظهر ما آذاه ثقله من الزرع والمرافق النامية، ويعود لحرب العدوّ.

Scanned by CamScanner

وهنالك تضافرت للخليفة نصره الله السنة، على ما رأيت من شطط بيان وتضافرت السوى ببركاته وتهافت الأكمام والسوهاد موطئين لعله، ويعود الصفا والأمور أهداف عفوه ورواحه، واعتياضه الفقر من القصر، والقصر من الكثير، والمؤمن من النعيم، إلى ما شيء به. أعلى الله مقامه، من محاربة عدو ظاهر وباطن، ومنافقة بغيض بعيد وقريب.

ولقد كان كفار النعم وخونة الله ورسوله، رهط الضلال وحزب الشيطان ومغلوبو الهوى، محمد بن عمر البريطل وولاقل بن عثو بن حيلان، وسعيد بن شمايت، وخالد ابن عامر، تكالبوا في الفساد عليه وأعملوا الحيل في ضره فسرى نزغاتهم إلى قلوب أنصاره سمًّا ناقعًا، وأجرى دسائسهم أسماعها سهامًا مصيبة، وتسابُّ مختلقات زورهم بين الأحياء أراقم ناهشة، والله لا يهدي كيد الخائنين. وربما فاجؤوه نصره الله بهجر القول، وأفرغوا له الغشَّ في قالب النصيحة، وأجالوا بين يديه الكريمتين قداح الصداقة المنطوية على البغضاء فيصارفهم خلد الله ذكره حسن القول، ويجاري بميدان المصانعة أهواءهم. ويغضُّ البصر فيهم على قذاه، ويوطئ قدمه منهم شوك السَّعدان. خلقًا عظيمًا وسياسة مثلى، وصبرًا جميلًا عليه كريمًا. وقد علمت أرشدك الله أنَّ مصارعة العدو الظاهر أهونَ من مصارعة العدوِّ الباطن، وأنَّ الحذار من الصديق الخائن أصعب من حذار العدوِّ المجاهر، ولا حولَ ولا قوة إلَّا بالله العلي العظيم. وكان حال أمير المسلمين، أيده الله، خلال ذلك كله يُنشد قول المعري من شعر أبي العلاء المعري:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ ... عفافٌ وإقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

أعندي وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ ... يُصدَّقُ واشٍ أو يُخيَّبُ سائلُ

أقلُّ صدودي أنني لك مبغضٌ ... وأيسرُ هجري أنني عنك راحلُ

إذا هبّتِ النكباءُ بيني وبينكم   فأيسرُ شيءٍ ما تقولُ العواذِلُ

تعدُّ ذنوبي عندَ قومٍ كثيرةً   ولا ذنبَ لي إلّا العُلى والفواضِلُ

كأنّي، إذا طُلْتُ الزمانَ وأهلَهُ   رجعتُ وعندي للأنامِ طوائلُ

وقد سارَ ذكري في البلادِ فمَنْ لهم   بإخفاءِ شمسٍ ضوءُها متكامِلُ

يَهُمُّ الليالي بعضُ ما أنا مُضمِرٌ   ويُثقِلُ رَضوى بعضُ ما أنا حامِلُ

وإنّي وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ   لآتٍ بما لم تستطِعْهُ الأوائلُ

وأغدو ولو أنَّ الصَّباحَ صوارمٌ   وأسري ولو أنَّ الظلامَ جحافِلُ

وإنّي جوادٌ لم يُحَلَّ لِجامُهُ   ونِضوٌ[1] يَمانٍ أغفلتهُ الصَّياقِلُ

وإنْ كانَ في لُبسِ الفتى شرفٌ لهُ   فما السيفُ إلّا غِمدُهُ والحمائِلُ

ولي مَنطِقٌ لم يرضَ لي كُنهَ منزلي   على أنّني بينَ السِّماكَينِ نازِلُ

لدى مَوطِنٍ يشتاقُهُ كلُّ سيّدٍ   ويقصُرُ عن إدراكِهِ المتطاوِلُ

ولمّا رأيتُ الجهلَ في الناسِ فاشيًا   تجاهلتُ حتى ظُنَّ أنّيَ جاهِلُ

فوا عجبًا كم يدَّعي الفضلَ ناقِصٌ   ووا أسفًا كم يظهرُ النقصَ فاضِلُ

وكيفَ تنامُ الطيرُ في وُكُناتِها   وقد نُصبت للفرقدَينِ الحبائلُ

يُنافسُ يومي فيَّ أمسي تشرُّفًا   وتحسدُ أسحاري عليَّ الأصائلُ

وطالَ اعترافي بالزمانِ وصَرفِهِ   فلستُ أبالي مَن تغولُ الغوائلُ

فلوْ بانَ عَضدي ما تأسَّفَ مَنكِبي   ولوْ ماتَ زَندي ما بكتهُ الأنامِلُ

إذا وصفَ الطائيَّ بالبُخلِ مادِرٌ   وعيَّرَ قُسًّا بالفهاهةِ باقِلُ

وقالَ السُّهى للشمسِ أنتِ خفيّةٌ   وقالَ الدجى يا صبحُ لونُكَ حائِلُ

وطاولتِ الأرضُ السماءَ سفاهةً   وفاخرتِ الشُّهبَ الحصى والجنادِلُ

فيا موتُ زُرْ إنَّ الحياةَ ذميمةٌ   ويا نفسُ جِدّي إنَّ دهرَكِ هازِلُ

وقد أغتدي والليلُ يبكي تأسُّفًا   على نفسهِ والنجمُ في الغربِ مائِلُ

بريحٍ أُعيرتْ حافرًا من زبرجدٍ   لها التِّبرُ جسمٌ واللُّجَينُ خلاخِلُ

كأنَّ الصَّبا ألقتْ إليَّ عِنانَها   تخبُّ بسرجي مرّةً وتُناقِلُ

إذا اشتاقت الخيلُ المناهل أعرضت ... عن الماء فاشتاقت إليها المناهِلُ
ولَيلانِ[51] حالٍ بالكواكب جَوْزُهُ[52] ... وآخر من حَلْيِ الكواكبِ عاطِلُ
كأنَّ دجاهُ الهَجْرُ والصبح موْعِدٌ ... بوَصْلٍ وضوءُ الفجرِ حِبٌّ مُماطِلُ
قطعتُ به بحْرًا يَعُبُّ عُبابُهُ ... وليس له إلّا التبلُّجَ ساحِلُ
ويُؤنِسُني في قلبِ كلِّ مخوفةٍ ... حَليفُ سُرًى لم تَضْحَ منه الشمائِلُ
من الزنج كهْلٌ شابَ مَفرِقُ رأسِهِ ... وأوْثِقَ حتى نهْضُهُ مُتثاقِلُ
كأنَّ الثُّرَيّا والصباحُ يَروعُها ... أخو سقطةٍ أو ظالِعٌ مُتحامِلُ
إذا أنتَ أُعْطِيتَ السعادة لم تُبَلْ ... ولو نظرتْ شزْرًا إليك القبائلُ
تقتك على أكتافِ أبطالِها القنا ... وهابَتك في أغمادِهِنَّ المَناصِلُ
وإنْ سدَّد الأعداءُ نحوك أسْهُمًا ... نكَصْنَ على أفْوَاقِهِنَّ المَعابِلُ
تحَامَى الرَّزَايا كلُّ خُفٍّ ومَنسِمٍ ... وتلقى رَداهُنَّ الذرى والكواهِلُ
وترجعُ أعقابُ الرِّماحِ سليمةً ... وقد حُطِمَتْ في الدَّارِعِينَ العَوامِلُ
فإنْ كنتَ تبْغي العَيْشَ فابْغِ توَسُّطًا ... فعندَ التناهِي يقصُرُ المتطاوِلُ
توقى البدورُ النقصَ وَهْيَ أهِلَّةٌ ... ويُدركها النقصانُ وهْيَ كوامِلُ

---

(1) ع: التمصيص. ومحّص الله الرجل: ابتلاه واختبره.

(2) ع: وجلاهم.

(3) ع: مناصفه. ويقال ناصبه يعني: عاداه وقاومه.

(4) ع: نخوته.

(5) ع: يبصر بأوه. والبأو هو: الفخر والتكبّر.

(6) ل، ب، ع -: والخرّاج.

(7) ل، ب، ع: يبقود؛ ر: يبغود.

Scanned by CamScanner

(8) ع: العورتي.

(9) ل، ب، ع -: ومنافع نعمه.

(10) ش، ع: الأمطار.

(11) ع: ثلاثة أيام.

(12) ش، ع: مشارع.

(13) س: غار؛ ز: غاز.

(14) ل ه: ب، ع ه: هنالك.

(15) ع: على أعقابهم.

(16) ع: ضيعته.

(17) كذا في ع وسائر النسخ المخطوطة. ولعل الصواب: فانهال.

(18) ع: الظلمة.

(19) ع: المهمر.

(20) ع: وران عليهم. ويقال ران عليه يعني: غلب عليه.

(21) ر، ل، ب: واثقل.

(22) ل، ب، ع -: بن حمادن.

(23) ر، ل، ب: بن ترالبت.

(24) ع: ورد على متليلي.

(25) س: جرف؛ ع: جوف. والجرف يعني: مسيل الماء.

(26) ل: مايترغين؛ ع: مايرتيغن.

(27) ع: تيسمرين.

(28) ل، ب، ع: نبقة الحياء؛ ز: نبكة الحيا.

Scanned by CamScanner

(29) ع: واعطى مرتباتهم.

(30) ع: إلى.

(31) ل: الهمل؛ ع: القمل.

(32) ل: إفريطن.

(33) ر: فتيملي.

(34) ع: فتامززدكت.

(35) ع: أبو فارس.

(36) ع: ضام. وخام عنه يعني: جبن.

(37) ع: واستحدم.

(38) ل، ب، ع -: ويوسف بن يحيى.

(39) النص من " وعبد الواحد " إلى " الصباحي ": ساقط في ل، ب، ع.

(40) ع: وغيرهم.

(41) ع: إيلوان.

(42) ع: فعين الثور.

(43) كذا في ح، ع؛ وفي النسخ الأخرى: مناصفة. والمناصبة هي: المقاومة.

(44) س: أبا الحني.

(45) ل: سوف أسلم.

(46) ع: شط. وشطنت الدار يعني: بعدت.

(47) ع: نعليه.

(48) اقتباس من القرآن، سورة يوسف، الآية 52.

(49) س: القتاد.

Scanned by CamScanner

(50) ع: ونصل، والنضو يعني: السهم.

(51) كذا في الديوان؛ وفي ع وسائر النسخ: وليلين. والمقصود هنا: وحاضري ليلان.

(52) ع: حوزه؛ س: جيده. وجَوْز الشيء: وسطه.

Scanned by CamScanner

سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة

أهلَّ هلال هذه السنة والفتنة بحالها، والعدوُّ منيخ على الحضرة بكلكلِهِ، وأمرُ التمحيص منتتِبٌّ، ومَرَدَة الضلال ترفل في غيّها، وَلِكلِّ أجَلٍ كِتابٌ[1]. ففي محرَّمها أفطنَ أميرُ المسلمين أيده الله أكثر حرمه وثقلاته بجبل راشد ونهض تلقاء الحضرة[2]، وقد عاد إليها بنو مرين ومَعقِلهم، وبقِيَ عمر بن مسعود وزغبة بالوطن. فنزل أيده الله أمَّ عَسْكر مِن تلِّ[3] بني راشد، وتلوَّمَ[4] ثمانيًا للمِيرة، وارتحل آخذا على سُوف أجيج[5] إلى وادي المينة فمَدغوسَة فقلعة ابن سَلامَة. وثَمَّ وصله رسولُ أبي بكر بن عريف بالإنابة إلى طاعته سِرًّا، فاستمرَّ إلى ماء تونكِيزَة وأرسل العير المثقلة إلى جبل راشد، وثنى العِنانَ مغرِّبًا.

فنزل بماء ساوس من سبخَة كبُود، ثم السخونة فالشجرة فالصوَّان، ولزمه أيامًا انصرفت عنه فيها عُبَيْد الله إلى صحرائها. وثنى العِنانَ ناهضًا على زُغبَة سُوَيْد والذيالِم والعَطَّاف ووَزيرها، فأمسى فيض الجرنينة. ثم بَدا له بما شاهد مِن فساد المخادِعين عليه، فعاجَ الركاب، وأمسى بالحليات ثم وادي القصَب، ومنه غرَّبَ عنه خالد بنُ عامِر مكرًا وخِيانة ورُكونًا إلى مَلِك المغرب.

فتوجَّهَ أميرُ المسلمين أيده الله بقبيله الأعزِّ إلى جبل راشد. ولمَّا كاثبه بمنهل بئر تاويالَا أوَّلَ شهر ربيع الأوَّل[6] تخلَّف محلَّته، وسار لإزحالِ قيَطنتِهِ، فأبى ذلك عليه شيخُ الجبل ضَنًّا بكِيانِهِ عنده. فعاد نصره الله إلى محلَّته ورحل مضجِرًا، فأمسى فيض الجمالة[7] فمجْهلاً فتاسين فملالا[8] وألفاه مُمْرِعًا. فأقامَ به إلى أن وصله شِيَعُهُ الأوْفِياءُ أولاد عسكر بن معرف وخلطاؤهم من بني عامِر وعبد الله بن سقِير.

ثم ارتحل إلى عين العنب إلى تاجدميت[9]، وبها وافته رُسُلُ بني يعقوب بإنابتهم إلى طاعته واقتراح الاجتماع. فارتحل، نصره الله، صمْدَهم، وعرَّس بوادي الحجل، ومنه إلى شمال مَجْرَس، فانخزل عنه ابنُ سقِير، وصعد الخليفة أيده الله ونزل مجرسًا، ثم ماءَ عين الكلب فمجهلاً. ثم نازل بني يعقوب بخضراء كبود،

Scanned by CamScanner

وارتحل بهم مُنِيمًا التلّ، فخيَّمَ بماءٍ يُعْرَفُ بمفسوخ[10] العقل، ثم بمجهل، ثم بآيفني طرف واززلّف.

وأرسلتْ إليه رَغبَة خِدَاعًا بخدمتِها وطلبِ الاجتماع. فعاج نصره الله ركابَه وناوَرَهم بذراع الوسط. ونمَى إلى عِلمِه الشريف ما أضْمَروه من الغدر، فأمر قومه بالاستعداد لحربهم وتعبئةِ السَّبِقات وأخْذِ المَصافِّ. ثم دهَمَهم بما لا قِبَلَ لهم به كثرة وحزمًا وإقدامًا، فحاقَ مكرُهم السَّيّئُ بهم، واستؤصِلوا قتلاً وسَبْيًا وأسْرًا[11]، وافترقَ فلُّهم أيْدي سَبَأ، فمِنْ مقتحِمِ التلّ زمَنَ الشتاءِ ومشرِّقٍ، وأميرُ المسلمين أيده الله في أثره آخِذا على تغالّين إلى عيون السُّرايا فالزيادِي، وأغارَ رَعِيله الأوَّلُ فاستباحَ قَيْطنة القوم بجبل جَزُول مِن عندِ آخِرها، وذلك في شهر ربيع الثاني.

ومِن هنالك أرسل الخليفة، نصره الله، لإزحال قيْطنتِه الظهر، وأمَرَ خَفَظتها باعتراضِه بها في الصحراء، وثنى العِنانَ يَطأ أثره، فأمْسَى بعيْن وهب فالزيادي فحنش فذراع الوسط. وثلج به الناس، فاستصحى بهم فيه لياليَ أبدل فيه المنزل[12] مرَّاتٍ. ثم انتقل إلى ماءِ الشجرة، فأصابت الناسَ به سماءٌ استضحاها أيضًا، ورحل مضحِرًا فأمسى الصفيصيفة ثم غربَي الخضراءِ فمنهل الحضرى[13] فالنبْقة[14] فتاجرنا فالمناقيب، وبها لقِيَه ظعْنُ قيْطنتِهِ، ومعه أشياخُ العَمُّور عَمَرَة جبل راشد، ووفدُ عروة والذَّيالِم والعطاف، فأوسعَ حِباءَ الجميع وانصرفوا.

وارتحل، أيده الله، فأمسى بمجهل ثم بشمال تيوت فشمال ثَنِيَّة الجليبة فقبْلتها. ثم أغزى ولدَه المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين أعزه الله تعالى بجمرة القبيل المبارك، وخالد بن عامر بجماهير قومِهِ، إلى المَعقِل الغربية من المنبَّات والعمارنة وعُبَيْد الله وأولاد حُسَيْن بسِجلماسَة. وراحَ هو أيده الله، ليلتئِذٍ، إلى مجهل، ومنه إلى دَرْمَل فِيجيج. فوفد به عليه أشياخُ تلك القرى بالتحف الجزيلة والألطاف السَّنِيَّة، وانصرفوا بقرَّة العيْن من إحسانه، ثم أخذ، نصره الله، على ثَنِيَّة الصيادة جنوبًا إلى ثَنِيَّة الجبيسة[15] فوادي نرت[16] فنبقة[17] الخبًا فالقرارة الغشواء[18]، وتلوَّمَ بها إلى أن وَصَلَهُ عَرَبُهُ بعدَ إبلاغِهم الأنفسَ عُذرَها في طلب القوم.

Scanned by CamScanner

وأهَلَّ هلالُ رجب وقد أدبر فصلُ الشتاء، فجمع، نصره الله، قبيله وعربه بني عامِر، وثنى العِنانَ شمالاً نحو تلمسان، فأمسى أوّل ليلة بوادي الصم[19] فخنق الحديد، وصرف منه العير بأثقاله كلها للقطون بقصر أبي سَمْغون[20] من بلاد بني عامر. ثم أغذ السَّيْرَ فراح إلى عين العسل فمضرَان، وقطع ثنيّة الرملة إلى تاجْزُنا، إلى مجهل فأبْيَض عنتر فدرج. ثم نازل المَغْقِل بفرط قِبْلَة بني وَرْتِنْد، وجمعها على ولده المولى الأمير الأعلى أبي تاشفين أعزّه الله. ثم ارتحلوا جميعًا يغصُّ الفضاءُ الأخرق بنشرهم، وتضيق الفِجاجُ الرحبة عن راكبهم وراجلهم. فنزل أمير المسلمين أيده الله بقبيله وبني عامر تيمَزْغارين، وولده الأعلى والمعقِل تافرَوت[21]من بني وَرْتِنْد، وتكاثبوا غدًا بفيض الجزار، وثلِجُوا به فاستضحَوْا ثلاثًا.

ثم رحل أمير المسلمين أيده الله بقومه وعربه إلى أوماكرًا، من تلّ بني راشد، ثم إلى تاسَالة. فمنها انخزل[22] عنه خالد بن عامر بطائفة من أهل الضلال قومِهِ، أشَرًا وكفرًا للأنعُم، وإظهارًا لِما أبطنه من النفاق، وانحاز إلى مَلِكِ المغرب بإغراء محمد بن عمر البريطل ووَادفل بن عَبُّو بن حمادن وسعيد بن تصاليت المذكورين. فصَالَ أمير المسلمين، أيده الله، عليه إلى أن نزل أثره بأعلوف، ولزمه أيّامًا انبثّ فيها سراياه وغواره حَفَافَيْ تلمسان بالواسطة وصيدور وبني وَرْتِنْد، إلى أن أدركه المولى أبو تاشفين أعزّه الله ومَعْقِله.

فارتحل، نصره الله، بالجميع صائلاً على زُغْبَةِ الشرق، وأمسى بتامرابْطَت فزروفية فتاليوين[23]. وهنالك أدركه الخبر بنهضة بني مرين وخالد بن عامر في أثره، فثنى إليهم العِنان، خلّد الله مُلكه، ونظم بلآلي العِزِّ سِلكه، ولا أعْدَمَهُ، إن شاء الله، تخْصِيصًا، ولا أراه بعدُ تمحِيصًا، بالعزائم الوقادة، والحميات المنقادة. ولو شاء الله ما فعل، فلقد كان هذا الرجوعُ سببًا للابتلاء الذي لا بعده، والتمحيص الذي لا نظيرَ له، ولا قوة إلّا بالله العَلِيّ العظيم.

وسأشرح لك ذلك الكيف الشنيع، والأمر الفظيع، والتفرقة لشمْلِ الجميع، ما تفطَّرُ له الأكباد، ويَرقُّ لمُصابه الجَمَاد، وتزلزل بزعَازع بأسِهِ الأطواد. وأذكر ما

Scanned by CamScanner

ارتكبه فيه الخليفة، نصره الله، وولده المولى أبو تاشفين من الأخطار، واعتمداه من الأمر الكُبّار[24] والمخاوف الكِثار، وما اقتحماه من القِفار، وباعداه من الأسفار، وصابَراه من الأهوال، وراوغاه من تصاريف الأحوال، وما بَلَوَاه من الأخلاق والجِدَّة، والفَرَج من بعد الشِدَّة، ليكون ذلك عِظة للأريب، وعِبرة لأولي التجريب[25]، وخبَرًا في المَثلات جدَّ غريب، وليَعلمَ سامِعُه أنَّ لكلِّ خيرٍ وشرٍ مدَّة، وأنَّ لا جدوى للعَديد ولا للعُدَّة، وألَّا فاعِلَ لِما يُريدُ إلَّا الله جَلَّ، جلالُهُ، وحدَه.

رجع التاريخ. وفي اليوم الخامس والعشرين من شوال كان الملتقى الأكبر بأوماكرًا من كورَة بني راشد. فعَبَّأ أميرُ المسلمين، أيده الله، جيوشه مُرْدَفة بظعونِها[26]، واعتمَدَ مَصافَّ العدوِّ غيرَهائبٍ ولا مُتوان. فلمَّا اضْطَرَمَتْ نارُ الحرب، وأجَنَّ الفريقيْن ليْلُ القتامِ، وزهرتْ بجوِّه نجومُ الأسِنة، غدَرَ بنو عامر الذين كانوا مع الخليفة بإغراء البريطل وأصحابه، وانقلبوا مع العدوِّ عليه. فهُزِمَ جمعُه وأحيط بهم، وحيلَ بين أمير المسلمين وبين ظعْنِهِ، بما اشتمل عليه من مالٍ وذخيرةٍ وأهلٍ وولدٍ، وأحيط به أيده الله فأفحَصَ ناجيًا، وولده الهمامُ الأعلى أبو تاشفين، أقرَّ الله عيْنَ المجدِ به، يُكافحُ العِدَى[27] دونه، ويطاعن الكراديسَ خلفه، ويقطع أيدي المَناسِر المتطاولة إليه، شجاعة أنسَتْ بسطام بن قيس، وزَرَتْ على عمرو بن عبدود، واحتقرتْ صياد الفوارس، وصدَّقت الخبر عن عباد بن الحصَيْن، من ضُحى اليوم إلى عصره، إلى أن يئس الطامع وكعَّ التابعُ. فتماديا صان الله عِزَّهما خائفين يترقبان الأنشازَ، فلمَّا رقَّ ثوبُ الأصيل، تقدم المولى أبو تاشفين لافتراع نجْدٍ مطلٍّ على تانِيرا، لِيَنفضَ وهادَها منه، والخليفة نصره الله يتلوه. فحالت بينهما طائفة من خيْل العدوِّ فافترقا. فيا ما أفجعَه من مُصابٍ، وأحرقه[28] من بعادٍ، وأنكده عند الحاجة من فِراق، وإلى اللهِ يرجعُ الأمرُ كله.

فانحرف الخليفة بهداية الله إلى وادٍ مجرف استبطنه، واجتازتْ تلك الطائفة مردفة بأمثالها يستاقون غنائمَهم عن يَمينه وشِماله بمرأى ومسمعٍ منه، قد ضربَ الله على قلوبهِمْ وأبْصارهِمْ غِشاوَة، فلم يفطنوا له. فأجازهم نصره الله وركبَ الليل

جمَلاً، مدلِجًا تلقاءَ الجنوبِ ليله كلَّه، إلى أن بَدَا عمود الفجر من غدِ الكائنة، فيَمَّمَ نجدًا شاهقا، وافترع قِنَّتَهُ لنفضِ البلاد، ومَيْزِ مَعالِمِ الأرض، ثم طافَ فوقه بركابِ بصيرتِه شرْقَ البلادِ وجنوبَها. فأبصر المفاوز النائية، والمَوامِيَ[29] الصعبة، والقِفار المُتقِدَة، وأيقن بالهلكة دون قطعِ شَيْءٍ منها. فأجمع، وقد بَدَا حاجبُ الشمس، رأيَه الفظيعَ البَداهةِ، الصَّعْبَ الارتكابِ، المُغرِّرَ في الإقدام، لوْلا ما خالطه من ألطاف الله الخفِيَّة، وآياتِ عنايته المُعْجزة، وأساليبِ وقايته الغريبة، على أن يرجع إلى حِللِ العدوِّ تغمِيَةً لشأنِه، ويعتمِدَ خيامَ أولادِ سقِير بن عامِر ظنًّا بهم جميلاً، واعتقادًا في وفائهم سليمًا، ومَن لم يَجد ماءً تيمَّمَ بالترب. فانحدر، أيده الله، عن النجد وتبطَّنَ سَهْبًا يَحفُّهُ نَشزانِ كأنهما خلقهما الله تعالى لوقايته. وكان خالد بن عامر وبنو مرين قد ذهبوا يضربون في الأرض للبحث عنه، فمن غرائب الستر الحصين اجتيازهم شرقَ أحَدِ هاذيْنِ النشزَيْنِ وأمير المسلمين غربَه، فسبحان اللطيف الخبير، ولله درُّ البوصيري حيث يقول:

وقايَـــة الله أغـــنتْ عـــن مُـــضاعَفَةٍ ... مـن الـدروع وعـن عـالٍ مـن الأطـمِ

وغدَا أيده الله على أومَاكرًا وراح أصِيلَانًا إلى الحِلل، فقصد ساحَ المحلَّة المَرينية إذ ذاك أخفى لشأنِهِ، وأشدُّ تغمِيَة لأمره، وأرفعُ للرِّيَبِ عنه. ثم نزل من فرسه وأسَامَهُ غيْرَ مرتابٍ ولا وَجِلٍ، ولا مُدبرٍ في عقبى، كلَّا بل الجأشُ مع ذلك رابط، والحِجَى غيرُ ذاهِلٍ، والصبرُ مدرعٌ، والثقة بالله معتقدة، حتى إذا غشِيَه السرحُ رائحًا إلى أهله ركِبَ يُماشِيه ناشدًا رُعاته عن الأحياء حتى انتهى إلى شيعَةٍ له من بني عامر يُعْرَفُ بمرين بن حَامد بن خلف الله المنادي فأركبه هاديًا ومضيًا يستقريان المنازل ويُفليان[30] الأبنِيَة، وربَّما عَثَرَا على أبياتِ[31] خالد بن عامر فاجتنباها، ولم يهتديا سَواءَ سبيلِهما الليْلَ كلَّه. فصبَّحَا[32] بفخص أدَاد إزاءَ تاسَالة، فعرَّجا غادِيَيْن على محلَّة مرين، وأتيَا ضُحَى خِيامَ أولاد سقِير بن عامر بتامرابطت، فأرحبوا وأسهلوا وأجاروا وستروا، وأجَنُّوا أمير المسلمين أيده الله البيوتَ يومًا وليلة، حتى جمعوا له الزادَ والظهر. وتخيَّروا منهم رفيقه المُسْعِد، ثم صرفوه إلى القبلة، فمرَّ على الحِلل

Scanned by CamScanner

ظهر ما يحويه، والقوم [illegible] يوما ويومه

ثم بعد المسير [illegible] على [illegible] وارتحل إلى [illegible] والدليل [illegible] عزيمة [illegible] رجع منه إلى الأبيض فجوبة لسدرة فقصر رغا وتلوّم به [illegible] ووصل منه إلى توطئة المخادة كانت بقصر أبي سنغون، فوجد ولده المولى الأمير الأسمى أبا [illegible] أعزه الله قد [illegible] وقع إخوته الأصاغر الموالي محمد المنصور وأبا زيان محمدا ويوسف، وتوجه مع المتقبل إلى فجيج، فوجد نصره الله [illegible] لانتظارهم هنالك شهرا عمل فيه الاستعداد لدخول الصحراء بالظهر الكثير والأزواد النامية والمزادات المتخذة، إلى أن وصله المولى أبو [illegible] بإخوته المذكورين، فكان لاجتماعهم يوم مشهود ومرأى مُشج وخبر [illegible] ولم [illegible].

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما *** يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وجاء الخبر أثناء ذي الحجة بقصد بني مرين وخالد بن عامر إليه فارتحل نصره الله لا [illegible] إلا نفسه الكريمة وبنيه، ولا يستشير غير عزمه المطرور في كل ما يعنيه، وقد استولت منه الأخطر عارفتها، وجدت من روض ملكه زهرتها، وماء التمحيص قد بلغ الزبى، وحزام الابتلاء قد تجاوز الطبى، فذهب الذخر والشوى، وعظمت بالمرزئة البلوى، ولم يبق إلا لطف الله سبحانه لا سوى.

فأمسى أول ليلة بمجهول من الحمادة، ومنه بماء الأسمام، وتلوّم فيه يومين للانتواء، ثم دخل [illegible] متراكما يعرف بالهبور، لا ينبت سوى الهبيد ولا يعرف به ماء سوى حسي أو اثنين موجفا عليهما بالجلود خشية الارتدام بالرمل؛ تطيش لدى ساحاته الهوج معالمه، فيضل سواء سبيله الخريت، ولسان حاله ينشد:

ونحن أناس لا توسط عندنا *** لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا في المعالي نفوسنا *** ومن خطب الحسناء لم يغلها المهر

ثم وصل السلوب بالإسآد، والعدو بالإدلاج، في بحر من الرمل محيط، وموج من الرعازع طام، فبعد خمس ورد ركبه حسيا يعرف بينوالو على حين

مشارفتهم الهلاك، وفرارِ كلِّ امرئٍ[41] من أخيه وأمّهِ وأبيه وصاحبته وبنيه لشأنٍ يومئذٍ في نفسهِ يُغنيهِ وقد نفقت الخيْلُ وكلُّ الظهر وعِيلَ الأمرُ ولله الاصطبار. فتلوَّمَ نصره الله بالناس هنالك خَمْسًا، رجعوا فيه[42] على آثارهم لالتِقاط ما طرحه يأسُ الحياة من أيديهم. ثم ارتحل خلّد الله مُلكه يَطوي السيرَ يومًا وليلة، وورد بمنقطع ذلك الرمل حسْيًا آخر، ودخل بعده القوارير فحوصًا فيحاء متنسقة تحيط بكلٍّ منها كثبان شواهِق وعند منتهاها قصورٌ تعرَفُ بالشّواني، يعمرها صِنفٌ من البشر يُعْرَفون ببني يالدز، أشباحٌ خاوية قد نشِرَتْ جَلدًا على عظمٍ لبَرْض القوت. فارتوى الناسُ بها ساعة من نهارٍ. ثم استمرَّ، نصره الله، إلى تيجورارين، قصور متكاثبة حفافيْ سَبْخَةٍ مستطيلةٍ تعمرها قبائلُ مختلِفة من زناتة وبني يالدز ووَنزيجَة[43] ومَسُوفة، أولو مذاهبَ مختلِفةٍ ونِحَلٍ مبتدِعة، يجلبون إليهم الماءَ من كثبانٍ محيطةٍ بهم رأيَ العَيْن في أسرابٍ مفضِيَةٍ إلى عقارهم. فسبحان الخالق الرزاق[44] الحكيم المدبِّر، لا إله إلَّا هو. فتلقى جميعُهم الخليفة، نصره الله تعالى، بالبرِّ والترحيبِ والإجلالِ والتعظيم، وعرفوا لِمَنصِبه المُلوكِيِّ قدرَه وبايعوا له من عند آخِرهم بالخلافة. ثم تشاحُّوا في إنزاله وخيَّروه، فارتضى قصرَ أولاد آدم من الشط الشمالي، فأفرجوا له عنه، وأكرموا به مثواه. وذلك آخِر السنة، ولسان حالِه ينشِد[45] قولَ السَّمَوْءَل بن عادِياء:

إذا المرءُ لم يَدنسْ من اللؤمِ عِرْضُه	فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ
وإن هو لم يحمِلْ على النفسِ ضَيْمَهَا	فليس إلى حُسْنِ الثناءِ سَبيلُ
تعيِّرُنا أنّا قليلٌ عَدِيدنا	فقلتُ لها إنَّ الكرامَ قلِيلُ
وما قلَّ مَنْ كانتْ بقاياه مِثلنا	قروم تسامى للعلا وكهولُ
وما ضرَّنا أنّا قليلٌ وجارُنا	عزيزٌ وجارُ الأكثرين ذليلُ
لنا جبلٌ يَحْتلُّهُ مَنْ نجيرُهُ	مَنيعٌ يَرُد الطَّرْفَ وَهْوَ كليلُ
رَسَا أصلهُ تحتَ الثرى وسَما بهِ	إلى النجمِ فرْعٌ لا يُنالُ طويلُ
وإنّا لقومٌ ما نرى القتلَ سُبَّة	إذا ما رأته عامِرٌ وسَلولُ
يُقرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالنا لنا	وتكرَهُهُ آجالُهُمْ فتطولُ

Scanned by CamScanner

وما مات مِنّا سَيِّدٌ حَتفَ أنفِهِ ... ولا طُلَّ مِنّا حيثُ كانَ قتيلُ

تَسيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نفوسُنا ... وليستْ على غيرِ الظُّباتِ تسيلُ

صَفَوْنا فلم نَكْدُرْ وأخلَصَ سِرَّنا ... إناثٌ أطابتْ حَمْلَنا وفحولُ

عَلَوْنا على خيرِ الظهورِ وحطَّنا ... لِوقتٍ إلى خيرِ البطونِ نزولُ

فنحن كماءِ المُزْنِ ما في نِصابِنا ... كَهامٌ ولا فينا يُعَدُّ بَخيلُ

ونُنكِرُ إنْ شِئنا على الناسِ قولَهم ... ولا يُنكِرونَ القولَ حينَ نَقولُ

إذا سَيِّدٌ مِنّا خَلا قامَ سَيِّدٌ ... قَؤولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعولُ

وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دونَ طارقٍ ... ولا ذَمَّنا في النازلينَ نَزيلُ

وأيامُنا مشهورةٌ في عَدُوِّنا ... لها غُرَرٌ مَعلومةٌ وحُجُولُ

وأسيافُنا في كلِّ شرقٍ ومغربٍ ... بها من قِراعِ الدّارِعينَ فُلولُ

مُعَوَّدَةٌ ألّا تُسَلَّ نِصالُها ... فتُغمَدَ حتى يُستباحَ قَبيلُ

سَلِي إنْ جَهِلتِ الناسَ عنّا وعَنهُمُ ... فليسَ سَواءً عالِمٌ وجَهولُ

فهل، أعزَّكَ الله، وَعى مِثلَ هذا التمحيصِ[46] سَمْعٌ، أو رأى مِثاله لأحدٍ من الملوكِ السالِفينَ بَصَرٌ؟ وإنه لأكبرُ دَليلٍ على عنايةِ الله تعالى بهذا الإمامِ الأعلى، وأوضَحُ بُرهانٍ قائمٍ بسعادته الأولى والأخرى. فقد قال رسولُ اللهِ[47] صلّى الله عليه وسلَّم: " أشدُّ الناسِ بَلاءً الأنبياءُ ثم الأمثَلُ فالأمثَلُ ". وقال: " إذا أحبَّ الله قومًا ابتلاهم، فمَن رَضِيَ فله الرِّضى، ومَن سَخِطَ فله السُّخْطُ ".

ولا أحد أشدُّ منه[48]، أيده الله، رِضًى بقضاءِ الله، ولا أكثرَ شكرًا على أحكامه، ولا أشرحَ صَدرًا بقَدَره[49]، ولا أحسنَ ظنًّا بجلالـه، ولا أقوى رجاءً في كرمه سبحانه. فيلقى الأهوالَ الفادِحة والشدائدَ المبيرة بالمُحَيّا الطلق والخُلق السبط والجبين المتهلِّل، والجأش الرابط والهمّة العزوف عن الخضوع والاحتمال المحتقر للعظائم، ثم ينتظر الفرج بالصبر، ويدينُ لله بالحمد والشكر، أعظم الله ثوابه، وجعله آخر تمحيصه، وخلَّد في العزّ والتمكين دولته، وأعان على ما يجب من خدمته إن شاء الله.

قلتُ: وكلُّ مَعْلمٍ أسَمّيته في هاتيْنِ السنتيْنِ مِنْ مَغْدَى لأمير المسلمين، أيده الله، أوْ مَراحٍ فمِياهٌ معروفة، ومَناهِلُ[50] بالصحراء مشهورة، تستقِرُّ بها العربُ رحْلة الشتاء، وتربضها الوحشُ سائرَ الفصول. ومِمَّا نظمه أميرُ المسلمين، أيده الله، في هذه الحركة وموقعها الشنيع، بعد حلوله بتيجُورَارين، قوله:

قِفْ بالمَنازلِ وقفةَ المُترَدِّدِ ... ما بين نؤْيٍ بالطلول ومَوْقِدِ
وإذا مَرَرْتَ على الرُّبوعِ مُسَلِّمًا ... فاسْأَلْ على القلبِ الغريبِ المُفرَدِ
حَدِّثْ بها خبَرَ الأسَى عن مُدنِفٍ ... بحُلى الغرامِ مُوَشَّحٍ ومُقلَّدِ
هَجَرَ السُّلوُّ فما يَقِرُّ قرارُهُ ... فيَظَلُّ حِلفَ تأوُّهٍ وتنهُّدِ
نزَحَتْ مَنازلُهُ وشَطَّ مَزارُهُ ... ونأتْ أحِبَّته بغيْر تعمُّدِ
فغَدَا يُكابدُ عَبْرَةً في زَفرَةٍ ... للبَيْنِ بَيْنَ مُصَوِّبٍ ومُصَعِّدِ
يا سائِقَ الأظعَانِ هلْ لي بعدَهمْ ... مِنْ مُنجدٍ في حُبِّهِمْ أوْ مُسْعِدِ
رَكِبوا بُدورًا في الخدور وأدلجوا ... فسَألتُ توْدِيعًا فقالوا إلى غدِ
فغرَقتُ في دَمْعِي وما يُغنِي البُكا ... ضَنُّوا بتوْدِيعٍ فكيْفَ بمَوْعِدِ
لوْ كانَ لي يَوْمَ الفِراقِ تخيُّرٌ ... لفدَيْتُ ظعْنهُمْ بمَا مَلكتْ يَدِي
ترَكوا المَنازِلَ بلقعًا وترحَّلوا ... فغدَتْ مَعَاهِدها كأنْ لمْ تعْهَدِ
سَحَبَتْ عليها الرَّامِسَاتُ ذيولها ... مِنْ شمْألٍ وصَبًا ترُوحُ وتغتدِي
وتعَوَّضَتْ بالأثلِ بيْنَ عِراصِها ... مِن بعدِ ذاك الزَّهْرِ والوَرْدِ الندِي
ومِنَ الأوانِسِ بالرِّيَاضِ نواعِمًا ... بالوَحْشِ يَرْتعُ في خَلاءٍ فدْفدِ
مِنْ بَعْدِ طولِ تنعُّمٍ ونضَارَةٍ ... للعَيْشِ فيها بالحِسَانِ الخُرَّدِ
وغِناءِ غانِيَةٍ سَبَتْ بجَمَالِهَا ... تزْهَى بكلِّ مُغَنَّجٍ ومُوَرَّدِ
للشعْرِ[51] ليْلٌ فوْقَ صُبْحِ جَبينِها ... يَحْمِي لِعَقرَبِ صُدغِهَا بمُجَعَّدِ
ولِحَاظُهُنَّ صَوَارِمٌ مَسْلولة ... فتكتْ بألبَابِ ولَمَّا تغْمَدِ
ومَباسِم كالأقحُوَان تخَالها ... دُرًّا بسِمْطٍ في العَقِيقِ مُنضَّدِ

Scanned by CamScanner

وَلَكَمْ ظَفِرْنا بالرِّضَى مِنْ دَهْرِنا ... وأتَتْ لنا الدنيا بِوَقْتٍ مُسْعِدِ
نَجْنِي المُنَى وبنو الزمانِ عَبِيدُنا ... والسَّعْدُ يُدْنِي ما لنا مِنْ مقصَدِ
لا نَخْتَشِي في الحَيِّ رَقَبَةَ عاذِلٍ ... كَلَّا ولا نُصْغِي لِقَوْلِ مُفَنِّدِ
نِلْنا الذي شِئْنا بِدَهْرٍ طائِلٍ ... مِنْ أنعُمٍ دَامَتْ بِرَغْمِ الحُسَّدِ
حتى إذا شَهَرَ الزمانُ سِلاحَهُ ... بِيَدِ العِدَى مِنْ أسْمَرٍ ومُهَنَّدِ
ورَمَى سِهامًا للفِراقِ كأنما ... كانَتْ لِشَتِّ جَمِيعِنا بالمرصَدِ
وأرى بُروقَ القُضْبِ في لَيْلِ الوَغَى ... ذهبتْ بأبصار العُلى والسُّؤدَدِ
والخَيْلُ تعْثُرُ في طُلَى صَرْعائها ... ما بين مُضْطجعٍ وبين مُوَسَّدِ
مِن كلِّ أشْهَبَ كالشهابِ تَخالُهُ ... أوْ أدهَمٍ مثْلَ الغرابِ الأسْوَدِ
أوْ أحْمَرٍ كالوَرْدِ لَوْنُ أدِيمِهِ ... أوْ أشقرٍ مُتجَلِّلٍ بالعَسْجَدِ
أوْ أصْفرٍ منهنَّ كالخَيْرِيِّ في ... حُسْنِ مَعَارِفِهِ كخَطٍّ باليَدِ
أوْ أبْلَقٍ حَسَنِ الحِجَالِ مُدَثَّرٍ ... ومُدَرْهَمٍ ومُقَضْدَرٍ ومُحَدَّدِ
أوْ أشْقَرٍ أصْدَى فسحْرَة لَوْنِهِ ... سِحْرٌ وغُرَّة وجْهِهِ كالفرقدِ[52]
وفَوَارِسٌ مِنْ فَوْقِهِنَّ عَوابِسٌ ... بِسِلَاحِها مِنْ أبتَرٍ أوْ أمْلَدِ
فكأنهُمْ أسْدُ الشرَى في غابِهَا ... والسَّيْفُ قَرْعُ زِنادِهِ لَمْ يُصْلِدِ
فيَجولُ بيْنَ جَماجِمٍ وغلاصِمٍ ... ويَقُدُّ كلَّ مُدرَّعٍ ومُحَدَّدِ
ومَقانِبٌ مِنْ خَلفِهِنَّ عَساكِرٌ ... طافتْ بنا مِن كلِّ شَهْمٍ أمْجَدِ
مِن عامِرِيِّ ضَيْغَمٍ يَوْمَ الوَغَى ... أوْ مَعْقِلِيِّ بُهْمَةٍ[53] لَمْ يُرفَدِ
وزَناتَةَ مِنْ خَلفِنا وأمامَنا ... مِن كل لَيْثٍ في الحروبِ مُمَجَّدِ
وطبُولُنا زَأرَتْ كأسْدٍ في الوَغَى ... وبنودنا خَفَقتْ بنصْرٍ مُنجدِ
واصْطفتِ الجَمْعانِ واحْتدَمَ الوَغَى ... لكِنها خَبُثتْ بسَعْيِ المُزْدِ
وجَرَتْ غَشائِمُ خاربِينَ لِحَزْبنَا ... مِن كافِرِي نغْمَائنا أوْ جُحَّدِ
حتى تفرَّقَ جَمْعُنا وتشتتوا ... بسعاة كلِّ مُضَلَّلٍ أوْ مُفسِدِ
فالبَعْضُ منهم قد أزَى[54] لِعَدوِّنا ... والبَعْضُ فرُّوا كالنعام الشُّرَّدِ

Scanned by CamScanner

نقضوا العُهود وخلّفوني في الوغى   بين الأعادي كالغريب المفرد
غدَروا بأنعُمِنا وخانوا عَهدَنا   وأتوْا من الخذلان ما لم يُعهد
فهناك فرسانُ العِدَى طافتْ بنا   من كلّ طاغٍ في الوغى أو مُعتد
فنضَيتُها صَمْصامةً روميّةً   وهززْتُ منها منتهى ضربِ اليد
أوْرَدتُها عِلقَ النجيع[55] من العِدَى   نهلاً وما رَويتْ بذاك المورِد
فلكمْ كرَرْتُ عليهمُ من كرّةٍ   بمُشطّبٍ ومُثقّبٍ ومُهنّد
مِن فوْقِ ضامِرَةِ الحَشا وَخشِيَةٍ فكأنها   جَرداءَ خَجْز[56] نعالُها كالجلمد
بَرقٌ يَلوحُ لِشائمٍ مِن   وكأنها نجْمٌ يَلوحُ لمُهتد
خَلفَنا النجْلُ الرِّضى مُتسرْبِلٌ   شَهْمُ اللّقاءِ فمِثلُهُ لم يولد
فكأنه في الخَيلِ ليثٌ عَابسٌ   يَسقي الفوارسَ في الوَغى كأسًا رَدي
وإذا انثنى نحو العُداةِ فكمْ له   مِنْ فارسٍ فوْقَ الترابِ مُوسَّد
مِنْ فوْقِ أشهَبَ ضامِرٍ حَسَنِ الحُلى   فكأنه ريحٌ تروح وتغتدي
دَارَتْ بنا الأعْدَا فصِرْنا بينهُمْ   كالدُّرّةِ البَيْضا بلَيلِ أسْوَدِ
اثنانِ كانَ الله ثالِثَنا بها   ولكمْ له عندَ الشدائدِ مِنْ يَدِ
ولكمْ عَفا ولكمْ أنالَ تفضُّلاً   والله رَبّي ناصِري ومُؤيّدي
يا رَبِّ كمْ آنستني في غربَتي   يا ربِّ كمْ فرّجْتَ كرْبَ المكمَد
يا رَبِّ فاجْبُرْ ما ترى مِن حالتي   يا رَبِّ واجْبُرْ قلبَ كلِّ مُوَحِّدِ
يا نفسُ لاتيئسْ وإنْ طالَ المَدَى   فالله يَجْمَعُ شمْلَ كلِّ مُبَعّدِ
سَتعُود أيّامُ السُّرورِ وطِيبُهَا   وتعُود عن قرْبٍ ليالي الأسْعَدِ
يا رَبِّ بالبَيتِ العَتيقِ وأهْلِهِ   وبجاهِ يثربَ والنبيِّ مُحَمّدِ
فرِّجْ بحَقِّكَ كرْبَتي يا مَوْئِلي   وبحَقِّ فضْلِكَ لا تخَيِّبْ مَقصَدي
ثمّ الصّلاة على النبيِّ مُحَمّدٍ   ما غرّدَتْ وُرْقٌ بغصْنِ أملدِ

Scanned by CamScanner

(1) قرآن، سورة الرعد، الآية 38.

(2) ط: نحو حضرته؛ ر، ب، ع: تلقاء العدو.

(3) ل: من بلد.

(4) ع +: به.

(5) ل، ب: آخذا جيج؛ ز، ط: على سوف أجيجي.

(6) ل، ب، ر، س -: الأول.

(7) ع: فيض الجمالة.

(8) س -: فملالا.

(9) ب، ل: تاجدميت؛ ع: تاجديت.

(10) ل، ب، ع: بماء مفسوخ.

(11) س: وإسارًا.

(12) س: الدار.

(13) ز، ط: الخضراء. ل: الحضرا. ع: الحضري.

(14) س: فالنبكة.

(15) ر، ط: الجيسة.

(16) ع: ندت.

(17) س: فنبكة الخباء.

(18) ع: الغسواء.

(19) ع: بوادي الغنم.

(20) ط: بو سمغون؛ س: سمغون.

(21) ح: تافراوت.

Scanned by CamScanner

(22) س، ر: المطرح. والمطرل يعني: المرد.

(23) ع: فالوين.

(24) ل، ع: من الأمور الكبار. والكبّار يعني: الكبير.

(25) ر: المحاريب.

(26) ع: بطمنها.

(27) ع: العدو.

(28) ل: واحزنه، ع: واحرقه.

(29) ل، ب، ع: المرامي. والموامي جمع موماة، يعني الفلاة.

(30) ل، ب، ع: يبليان. وأفلى القوم يعني: تخللهم.

(31) ز، ط: محلة.

(32) ع: فاصبحا. وصبّحه يعني: أتاه صباحًا.

(33) ع وجميع النسخ المخطوطة: ربا، وهو خطأ من عمل النساخ.

(34) ر، ل، ب، ع -: المتخلفة.

(35) ع: أعمل.

(36) س: والزقاق. والمزادات جمع مزادة، يعني المِزْوَد.

(37) أم دفر أو أم دفار هي: الدنيا.

(38) ل: الميد. والهيد هو الحنظل أو حبه.

(39) الساقياء يعني: الغبار.

(40) ع: ينتوالو.

(41) ع +: منهم.

(42) ع: فيها.

Scanned by CamScanner

(43) ع: تزنجفا ح: ئلديحة.

(44) ع: الرازق.

(45) س، ر: منشدا لسان حاله.

(46) ع +: الأكبر.

(47) س -: رسول الله.

(48) ع -: أحد.

(49) ع: لقدره.

(50) ع: ومواطن.

(51) ع: الشعر.

(52) الفرقد هو: ولد البقرة الوحشية.

(53) البهمة يعني: الشجاع.

(54) ع: انزوى. وأزى الرجلَ يعني: حاذاه وداناه.

(55) النجيع من الدم هو: ما كان مائلا إلى السواد.

(56) حجر الشيء يعني: ما يحيط به.

Scanned by CamScanner

سنة أربع وسبعين وسبعمئة

أهلَّ لأمير المسلمين، أيده الله، هلال محرم[1] هذه السنة المباركة بتيجوزاوين، حسبما قلناه، وعلى الحال التي وصفنا[2]، إلا أنَّ الرجاء في الله سبحانه قويٌّ، وحسْنُ الظنّ به مِنَ الظِّنَّةِ بَرِيٌّ، وصراط الصبر لانتظار الفرج سَوِيٌّ. فكان ممّا خوطِبَ به، أيده الله[3]، في عالم النَّوم بوَمَئِذٍ: "بعْدَ ستة تعود إلى مُلكِكَ". فعيّنها بميزة الصادِقُ أشهُرًا، فكان كذلك دونَ نقص ولا زيادةٍ، سُنة خلية في الحادِثات قبلُ وبعْد. قلت: لم يَزَلْ نصره الله في أكثر غدوات جلوسي بين يدَيْه للتوقيع، يُنبئ برؤيا رائعة ثم يُعَبِّرها، فما والله ينحرفُ أثرُها عن مَواقع قوْلِهِ، فكأنها فلقُ الصباح[4].

رجعَ الحديث. وأقامَ، نصره الله، بالقصر الذي أسمَيْناه بتلك البلاد، يرحل أيامَ الشِدَّة، ويزجي رياحَ الأمل، ويتنسَّم هبوبَ الفرَج ستة أشهرٍ، وكلُّ مَبْدَإ فإلى غاية، وكلُّ حادِثٍ فإلى تمامٍ، والله هو اللطيفُ الخبير. وفي اليوم الثاني والعشرين من ربيع الثاني قضى مَلِكُ المغربِ السلطان أبو فارس نَحْبَه من سلٍّ أصابه. وقامَ في أهل تلمسان بدَعْوَةِ مولانا أمير المسلمين أبي حَمُّو، أيده الله، مولاه الأوفى عطِيَّة بن موسى الركاب، وتغلَّب على دولة بني مرين وزيرُها أبو بكر ابن غازي بن الكاس بشبهة بَيْعَةِ ولد السلطان أبي فارس الخماسي السِّن. ثم ارتحل القومُ معزّين بعد أن صرفوا علي ابن هارون بن مَنديل بن ثابت المغراوي وقبيله إلى وادي شلف. ثم أرسلوا أيضًا مِن أثناء طريقهم إبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين مُلبِّسًا شارة الإمارة، مع أولاد منصور بن عبد الملك الخَرَّاجي[5] إلى تِلمْسان، فلم يَقبَلْه أهلها، فنازلهم ليالي قاتلوه فيها إلى أن يَئِسَ، فولَّى مُدبرًا ولم يعقب.

وبعدَ انصرافِه، وصل إلى الحَضْرَة الكريمة الحاج موسى بن علي بن برغوث والخونة محمد بن عمر البريطل ووادفل بن عَبُّو بن حمادن وسعيد ابن تصاليت، يعمهون في ضلالهم القديم، ويُبادرون لإطفاء نور الله المحقق التتميم، والله لا يهدي كيْدَ الخائنين[6]. فمنعهم الناسُ من دخولها حتى أحلفوهم بمؤكدات الأيمان

على التِزام بيْعَةِ أمير المسلمين أيده الله والكدح له. فأقسَمُوا باللهِ جَهْدَ أيْمانِهِمْ[7] على الوفاء بذلك، والله يَشْهَد أنَّ المُنافِقِينَ لكاذِبُونَ[8].

وفي سادس جمادى الأولى وردَ على الخليفة، نصره الله، بالقصر المسمَّى[9]، رُسُلُ نصيحِهِ عبد الله بن عَسْكر[10] بالبشارة، فقدَّم معهم بين يدَيْه الكريمتَيْن، خلَّد الله مُلكه، وَلَدَهُ المَوْلى الأمير الأعلى أبا تاشفين أعزَّه الله. ثم وصله بأولاد يَغمُور بن عبد المَلِك، من أولاد خَرَّاج، نصِيحُهُ الأوْفى الشيْخُ الأكمَل أبو عِمْران موسى بن خالد، أعزه الله، فارتحل أيده الله معهم قاصِدًا دارَ مُلكِهِ العزيز.

ففي الثاني والعشرين من جمادى المذكورة دخل الحضرة العَلِيَّة مولانا الأمير المعظم أبو تاشفين، عَلَمُ الكمال المنصور، ورَوْضُ الجمال المقصور، وأسَد الحروب الهَصور، وشرفُ الجحافِل والقصور، سِبْط الرسالة، وبدر هذه الهالة، ومظهر العلاء والجلالة، كنز المحتاج، وليث الشرى المهتاج، وأمير العرب والعجم والعمامة لِدَة التاج. أيُّ فضلٍ مبين، وعِزٍّ وَاضِحِ[11] الجبين، وفخرٍ موروثٍ ومكسوب، ومجدٍ إلى إمارته الفضلى منسوب.

خَيْرُ قرَيْش أبًا وأمْجَدها أكثرُها نائلاً وأجْوَدها
أطعَنها بالقناة أضْرَبُها بالسَّيْف جحْجاحُها مسوِّدها
أفرَسُها فارسًا وأطولهَا باعًا ومِغوارُهَا وسَيِّدهَا
تاج لؤيِّ بن غالِبٍ وبهِ سما لها فرْعُهَا ومَحتِدهَا
شمْسُ ضُحاها هِلالُ ليْلتِهَا درُّ تقاصِيرِها زَبَرْجَدها

فيا للهِ مِن شمائلَ فضحَتِ الخمائل، وضرائِبَ أبْدَتِ الغرائب، ومَواهِبَ أخجلت السَّحائب، وشجاعةٍ عوَّدت الضَّراغِمَ الضَّرَاعَةَ[12]، ورياسة أعملت في العالم السياسة، إلى الشرف والإباء، والعفاف والطاعة، والآداب غير المضاعة، نشأ أعزه الله كريمًا، ودرجَ عظيمًا، وشبَّ عليمًا حكيمًا، لا يعرفُ إلّا نورَ اللهِ سِراجًا، ولا يتخِذ سِوى مَرْضاةِ اللهِ ومرضاةِ رسولِهِ مِنهاجًا، فعمر بمَبَرَّةِ أبيه مولانا أمير

المسلمين، أيده الله، يوْمَه وساعَته، فكم احتقر له مِن نفيس، وبذل فيه مِن عطاءٍ غيْرِ مَقِيس.

زعمـوا بـأنَّ الغـيْثَ مِـثلُ يَمِيـنِهِ فأجَبْـتهُمْ مـا كـلُّ غـيْثٍ وابـلُ
قالـوا الـبحار إذن فقلـتُ ظلمـتمُ إنَّ الـبحارَ تُـرَى لهُـنَّ سَـواحِلُ

وكمْ شفى لصدره الكريم مِن نسِيس، وجادلَ عنه مِن مرؤوسٍ ورَئِيس، وصَلِيَ دونه بنفسهِ العزيزة مِن وَطِيس.

قالـوا ويَـنظمُ فارسَـيْنِ بطعْـنةٍ يَـوْمَ اللقـاءِ ولا يَـراهُ جَلِـيلَا
لا تعْجَـبوا فلـوَ انَّ طـولَ قـناتِهِ مِـيلٌ إذنْ نظـمَ الفـوارِسَ مِـيلَا

فحَلَّ مِن الشرَفِ أرْفعَ الطباقِ، وحازَ بمَيْدان الفخر قصَبَ السِّباق، وظفر بالعِزِّ العاجل والشرف الباق، فهو الذي إن وَعَدَ وَفى، وإن قدَرَ عَفا، وإن وَالى كفى، وإن عادَ اشتفى، وإن خَرَقَ الدهْرُ رَفا، وإن صَمَتَ فالطُّورُ، أوْ نطقَ فالدرُّ المنثور، أوْ قضَى فالعدلُ المأثور، وإذا ازْوَرَّ فالقسْوَرُ الهَصُور، أوْ رَضِيَ فالأرْيُ[13] المَشور، أو اخْتالَ فالرَّوْضُ المَمْطور، أو رَكِبَ فالبُند المنشور، أو صالَ فالحُسامُ المطرور، أو سَاسَ فالإسكندرُ المشهور، يَعْرِفُ ذلك الواحِدُ والجمْهور، وتشهَد به الأنجاد والغؤور، أميرٌ تزيَّى بالهُدَى، وتخلَّقَ بالجَدَى، فغاظ العِدَى، وسَبَقَ في الكمالِ المَدَى، خَلصَ مِن مُفتأدِ[14] التمْحِيصِ خُلوصَ النُّضَار، وارتفعَ مجْده السامِي عن الأنظار، فاشتهر بالأقطار اشتِهارَ النهار، قد هذبَته التجارب، وعرَفته المشارق والمغارب، وأذعَنَ لِسِلمِهِ وحزبه المُسالِمُ والمحارب، وقرَّتْ عيْنًا به الجحافلُ والمَحارب.

ولمَّا خبَرَ مولانا الخليفة أيده الله خَبَرَه، وأنِسَ برَّه، وابْتلى في الحادِثاتِ صَبْرَه، وشاهد امْتِثاله نهْيَه وأمْرَه، رفعَ في عِلِّيِّين قدرَه، وأنارَ بسَماءِ المُلكِ بدرَهُ، فسوَّغه مَناهِلَ اصْطِفائِهِ، وأجْناه ثمَراتِ تقريبه واحتِفائه، فألقى إليه مقاليدَ علانيَته وخفائه، ثم أشركه في السَّيْفِ والقلم، والطبْلِ والعَلم، والعَقدِ والحَلِّ، والترحال والحلّ، والمواكِبِ والقصور، وجَنَى العزِّ المهصور، وأخذ الناس بالبيْعَة له، وأبْلغه مِن رضاه

ما أمّه وأمّله. فهو وليّ عَهْدِه، والخليفة بعدَ طولِ العُمُرِ إنْ شاء الله مِنْ بعدِه، أبقاهُ الله فائحَ الثناءِ، لائحَ السناء، طامح العلاء، بمَنّهِ وكرمِه[15].

قلتُ: وهو، أعزَّه الله، أكبرُ أولادِ مولانا الخليفة أمير المسلمين أبي حَمُّو، أيده الله، وهم محمد المنتصِر وأبو زيان[16] ويوسف وعمر والناصِر وعثمان وفارس وعبد الله وأحمد والسعيد وعلي ويعقوب وأبو بكر وداود وزيان، غير مَن يتزايد له إن شاء الله في العمر الطائل بفضل الله، وسِوى البنات ومَنْ تُوفّيَ أعْظم به الله أجْرَه، وجملتهم الآن بين ذكرٍ وأنثى وحَيٍّ وميت ثمانون، أقرَّ الله بأحْيائهم عَينهُ، وأجْزَلَ في أمواتهم أجْرَه.

رجع التاريخ. وفي اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى المذكورة، كان دخولُ مولانا أمير المسلمين أيده الله وخلَّد مُلكه، ونظم إلى يوم القيامة في العِزّ سِلكه، دارَ خِلافتِهِ العظمى، معتقِدًا صَفحَه عن كلِّ قِزفةٍ، إلّا ما كانَ من خَوَنتِهِ المُسَمَّيْنَ في هذا الكتاب، الذين اصْطفاهم عن أوْلِيائِهِ، وقرَّبهم عن سائر قبيلِهِ، وأشركهم في الحلوِ والمُرِّ من أمره، ثم لم يَكفِهم أن كفروا نِعَمَه، وجحدوا حقه، واعتمدوا خِذلانه، حتى ارتكبوا الضَّلالَ المبين بسَعْيهم في فسادِهِ قوْلاً وعَمَلاً، وإسْماعِهم إياهُ هَجْرَ الكلام غيْبًا ومَشهَدًا، ومَشيِهِمْ بينه وبين عربه بالنمِيمَةِ والزور فباؤوا بالإثم الأكبر واستوجبوا القتلَ شرعًا وسياسة.

فلَمْ يَنشبْ نصره الله أنْ أخذ ثلاثتهم والحاج موسى بن علي بن برغوث لإشعاره إياه لِباسَ الوزارة ولم يعمل بمقتضاها، ثم أمر أيده الله بقتل الثلاثة وإجازة الرابع البحْرَ إلى عدوة الأندلس. وفي مِثلِهم يقال: مَنْ نسِيَ ذنبَه قتله. ولله درّ إدريس المامون ابن يعقوب المنصور حيث يقول، عند قتلِه أشياخَ الموحّدين الغادِرين به والناكثين بيعته بعد عهدها[17]:

أهلُ الحرابة والفسادِ من الوَرى ... يُغْزَوْنَ في التشبيه للـذُّكّار
ففساده فيه الصّلاحُ لغيْرِه ... بالقطع والتغليق في الأشجار
مَزآهُمُ ذكرى إذا ما أبْصِروا ... فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار

لَوْ عَمَّ حِلْمُ الله جُمْلَةَ خَلْقِهِ ... مَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ

قلتُ: إنما شبّهَ وزراءُ المَلِكِ بيده الباطِشة وعَيْنِهِ الباصرة وأذنِهِ الواعِيَة، ومَنْ كانَ بهذه الصِّفة، يجبُ عليه لزومُ مولاهُ، الذي حَلَاهُ مِن صِفةِ الوزارة بما حَلَاهُ لزومَ هذه الأعضاءِ للإنسان الذي لا تفارقه ما دامَ حَيًّا. فهلَّا عمِل هؤلاء المساكين بالواجبِ عليهم في ذلك، وتأسَّوْا بما ضَرَبَ لأمثالهم الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد ابن ظفر رحمه الله من المَثَل[18]...

رجع التاريخ. ثم شرع[19] نصره الله في جبر قبيلِهِ الأعزّ، وإركابِ جيوشه المظفرَة، وإقامة العُدَدِ، وإيلافِ العرب الشرقية والغربية لخِدمتِهِ. وفي آخر جمادى الأخرى أنهَضَ نصره الله مولاه عَطِيَّة بن موسى بالجيوش العديدة لاستئصال مغراوة، وتطهيرِ البلادِ من دَنسِهم، فلقِيَهم بظاهر مازونة مرَّتَيْنِ، هزمَهم فيهما ونكث قواهم، فانحَلَّتْ عُرى ضَلالِهم، ولجَؤوا إلى المَعاقِل متحَصِّنين بذمامهم[20]، واستوطن هو تِيمَزْوَغت، مركز دائرتهم، ورُكن بُغاتِهم. فراجعتْ ساعتئذٍ تَنَس ومليانة بَيْعَةَ الخليفةِ، أيده الله.

وفي أوَّل رجب الفرد قدِمَ على بابِ أمير المسلمين، نصره الله، رسولُ ملك الأندلس، السلطان الجليل المجاهد الأصيل، أبي عبد الله محمد الغنيّ بالله ابن السلطان أبي الحجاج ابن السلطان أبي الوليد ابن الرئيس أبي سعيد ابن السلطان أبي الوليد ابن السلطان أبي عبد الله ابن السلطان أبي عبد الله بن يوسف بن محمد بن نصر بن أحمد ابن محمد بن خميس بن عقيل الأنصاري الخزرجي، أبقاه الله، في غرَض الهناء والإتحاف بهدِيَّة حافِلة على العادة المفترضة بينهما. فأكرم، أيده الله، نزله، وأوسعَ برَّه وحباءه، وراجع[21] مُرسله بما يُناسب تودُّده من الشكر والثناء العاطِرَيْن، وصرَفه.

قلتُ: إنّ هذا السلطان النَّصْري لمن الملوك الأعلام، وأئمة الإسلام، ومستخدمي السيوف لحماية الدين والأقلام، وخير من طَلَّته بالأندلس بعد خلافتها أزوقة الأعلام، منتمى خزرجيّ النجار، وعلاء منشِئ المجار، ومخذ واضح النهار،

وكمالٌ مَجْلوٌّ بالأقطار، فوق منصّة الاشتهار، وشرفٌ بادي الإسفار، وحياةُ آمِنٍ به الذمّة من الإخفار، وجودٌ مُزرٍ بالأمطار، وبأسٌ في الله ماضي الشفار، يوم جهاد الكفّار. فكم دانَ فيهم لله بالجهاد، واستخفظ في سَبيله شهادتَي الرُّبى والوهاد، فأعمل الجلاد، ودوّخ البلاد، وسلب الطارف للشرك[22] والتلاد، وأشبع القشاعم والغربان، وكسر الصلبان، وأذلّ الرهبان، وأسر الشيبَ والشبّان، إلى أن جمع من الفخْر شتيتًا، ودنا فضلاً وبَعُد صيتًا، وأرغم من الكفر[21] مارنًا وأخضعَ ليتًا، فجنائبُ العِزِّ تمرحُ لدَيْهِ في الأرْسان، ومنصّاتُ العناية تجلو عليه وُجوه السّعادة الحِسان، وألسِنة الإسلامِ والمسلمين تشكر ما له عليها من الإحسان، شُكرَ الرِّياض لعارِض النيسان.

فأيُّ دنيا ودِين، واقتِضاءِ دَيْنِ زمَانٍ مَدِين، ومُكيِّف تمهيدٍ للمِلّة وتهْدين، ثم أحْرَزَ في مُراماة[24] جاره الجُنُب[25] الخَصْلَ، وسَدَّدَ لإشوائِهِ الفواقَ والنصْلَ، فأغمَلَ الفصْلَ، واجْتثَّ مِنْ قطرِهِ فرْعَهُ والأصْلَ. ولقد كان قعْقعَ إليه سِنانَهُ، فغَضَّ من الحِجاجِ[26] عِنانَهُ، وملأَ مِنْ نبْلِ غزْبهِ لِنِضالِ أمْثالِهِ الكِنانة فهو السّؤوسُ للمُلك، والنظومُ لشذورِ[27] السِّلك، والخَبيرُ باسْتِخدام الخَمِيسِ في سَبيلِ الله والفلك، وفي وصفِهِ قلتُ:

مَلِكٌ تبَخْبَحَ في الجَلالةِ والعُلى ... ضَاهَى المَجَرَّة رفعَةً وجَمَالَا
وامْتازَ بالفَضْلِ المُبينِ خَلِيقة ... شَأتِ الأنَامَ مَجادَةً وكمَالَا
وبَدَا بأفْقِ الدِّينِ شَمْسَ ظهيرَةٍ ... فانجَابَ لَيْلُ الكفرِ عنه ومَالَا
وَأشادَ للإسْلامِ رُكْنًا واهِيًا ... مستهْوِنًا نفسًا تعِزُّ ومالَا
وأتى بآياتِ الشجاعَةِ والنَدَى ... يُبْدِي بها التفْصِيلَ والإجْمَالَا
مِنْ كلِّ مُعْجِزَةٍ بفضْلِ خِطَابهَا ... ومُبينةٍ قد أغْنَتِ الأمْثَالَا
فهُوَ الذي مِنْ بَأسِهِ ونوالِهِ ... قهَرَ العُداة وأخْصَبَ الآمالَا
والدِّينُ والدنيا به نالَا المُنى ... لمَّا غدا وَزَرًا وراحَ ثِمالَا
فالزَّهْرُ يَنطِقُ عَرْفهُ بثنائِهِ ... والرِّيحُ إنْ خَفقتْ صَبًا وشمالَا

Scanned by CamScanner

فلِـذاك أسْـماهُ الإلـهُ مُحَمَّـدًا وحَـباهُ عِـزَّة نـصْره إكمـالًا
دامَـتْ لـه الدنـيا ودامَ لأهْلِهَـا يَجْنِـي السُّرورَ ويَخفـظ الإهْمـالًا

وتأشَّبَ بينه وبين مولانا الخليفة، نصره الله، وَشِيجُ إخاءٍ، مروح للوَفاءِ بِرَخاءٍ، غرَسَتْ دَوْحَه بِرَحِمِ الوُدِّ يَدُ المَجْدِ وصانته في القبْلِ والبَعْدِ عن النقدِ، ثم فجَّرَتْ عُيونه، وأهْمَرَتْ عيونه، وآنقتْ غيونه[28]، فزهرتْ خمائلهُ، ورقَّتْ شمائِلهُ، واجتلِيَتْ ببصَرِ الخلوص أنْوارُهُ، واجْتنِيَتْ بيَدِ التداني[29] ثِمارُهُ، وانشقتْ عن عَرْفِ الثناءِ العَطِرِ كمائِمُهُ، وصَدَحَتْ مِن فوْق أفانينِ الشكر حمائمُهُ. فالوَلاءُ بين مَقامَيْهِما الكريمَيْنِ أبَدًا مشدود الأواخِي، والفضْلُ لدى سلطانيْهِما مَقضِيُّ الفُرُوضِ على الفوْرِ لا على التراخِي، وشِعَارُ الصَّدَاقةِ ضافي[30] الصِّدارِ، وقطبُ التوَدُّدِ مستقِيمُ المَدارِ، وكؤوسُ المُخاطباتِ على ندامَى الصَّفاءِ تدار، أبقاهما الله عَلمَيْ فخرٍ وكمالٍ، ومَظهَرَيْ جلالٍ وجمال[31]، ومَحَطَّيْ رِحالِ مُنًى وآمال.

رجع التاريخ. وأخذ علي بن هارون المَغْراوي بعد هزيمَتيْهِ المذكورَتيْن في إيلافِ المخالِفين يومئذٍ عن أمير المسلمين أيده الله، كخالد بن عامر ومَنْ تبعه منْ قبيلِهِ وسُوَيْد والديالِم والعَطَّاف وتوجِّين، بجامِع الدعْوَةِ لأبي بكر بن غازي المتغلِّب على مَلِكِ[32] مرين حينئذٍ. وتمّ له ذلك في رَجَب هذه السنة. فاسْتنفرَهم لِمُصَارَخَتِهِ، فنهَضَ معه سُوَيْد والديالِم والعَطاف وتوجِّين، وبَغتوا عَطِيَّة بن موسى، فانحازَ عنهم القهقرَى إلى بَلدِ[33] تنس، فحَصَروه بها.

وأخذ خالد بن عامر ولِفُّهُ على تلِّ بني راشد قاصِدًا حضْرَة تلمسان الكريمة ضَلالاً وغرورًا. فلمَّا نزل الأحَد من مَلاتة[34] أنهض إليه أميرُ المسلمين، أيده الله، وَلدَهُ الأعلى أبا تاشفين، أعزَّهُ الله، بقبيلِهِ الأعزِّ وخلطائه منْ زناتة والعرب، وذلك في شهر شوَّال. فهزَمَ خالدَ بنَ عامر وقوْمَهُ هزيمة استئصالٍ، وجلاهم عن القطر بأسْره إلى الصحراء فغرَّبوا، وغلغلوا.

أبقاه الله، نحو[35] مغراوة ومن ظاهرهم، فأجفلوا خشيته عن تنس بعد إضاقتهم حصرها، وتذمموا بجبل بني يلسيت. فافترع عليهم ذراه إقدامه وحزمه أقرّ الله عين المجد به، واستأصل جميعهم سلبًا وأسرًا[36] وسبيًا، وقتل رخمون أخا علي بن هارون صبرًا، وفرّ فلّهم إلى متيجة مفلتًا بذمامه، كل ذلك بعد عيد الأضحى، والحمد لله.

وفي أخرياتِ هذه السنة، وجّهَ إليه، أيده الله، الفقيهُ الوزيرُ أبو عبدِ الله محمد ابن الخطيب، رحمه الله، أبياتًا لزوميّة في غرض الهناء، وهي قوله:

وقفَ الهَواءُ على ثناكَ لِساني ... رَغْيًا لِمَا أوليتَ مِنْ إحْسانِ
فكأنما شكري لِمَا أوليتَهُ ... شكرُ الرِّياضِ لعارِضِ النيسانِ
أنا شِيعَة لكَ حيثُ كنتَ، قضِيَّة ... لم يَختلِفْ فيها نفسانِ
ولقد تشاجَرتِ الرِّمَاحُ فكنتَ في ... مَيدانِ نصْرِكَ فارسَ الفرْسَانِ
ورَوَيتُ غرَّ مَآثِرٍ أسندتها ... لِعُلاكَ بينَ صَحائحٍ وحِسانِ
ولأنتَ أولى بالتشيُّعِ، شِيمَة ... لم تتفِقْ لِسِواكَ مِنْ إنسانِ
الشمْسُ أنتَ قدِ انفرَدتَ وهل ترى ... بينَ الوَرى في مَطلعٍ شمْسانِ
جُبِرَتْ بجَبْرِكَ كلُّ نفسٍ حُرَّةٍ ... وشدَا بشكرِ الله كلُّ لِسانِ
وبَدَتْ سُعودُكَ مُستقِيمٌ سَيْرُها ... وعَلتْ ففرَّ أمامَها النحْسانِ
فاستقبِلِ السَّعْدَ المُعاوِدَ سافِرًا ... عن أيِّ وَجْهٍ للرِّضى حُسّانِ
وَابْغِ المَزيدَ بشكرِ رَبِّكَ وَلتثِقْ ... بمُضاعَفِ الإنعَامِ والإحْسانِ
فالشكرُ يَقتادُ المَزيدَ رَكائِبًا ... تنتابُ بابَكَ منه في أرْسانِ
ثمَّ السَّلامُ عليكَ يُزْري عَرْفه ... طيبًا بعَرْفِ العُودِ والبَلسانِ

---

(1) س -: محرم.

(2) ع: الذي وصفناه.

Scanned by CamScanner

(3) س -: أيده الله.

(4) ل، ب، ع: الصبح.

(5) ع: من أولاد خراج.

(6) اقتباس من القرآن، سورة يوسف، الآية 52.

(7) اقتباس من القرآن، سورة المائدة، الآية 53.

(8) قرآن، سورة المنافقون، الآية 1.

(9) ع: بقصر أولاد آدم.

(10) ز، ط: عساكر؛ ر، ل، ب: سقير؛ ع: شيقر.

(11) ع: وضاح.

(12) الضراعة هي: الخضوع والتذلل.

(13) ب: المأري؛ ع: الأرى. والأرْي يعني: العسل.

(14) ل: من معتاد. والمفتأد يعني: موضع الوقود، أي المكان الذي توقد فيه النار.

(15) س -: بمنه وكرمه.

(16) ع: ومحمد أبو زيان.

(17) ز، ط: بعد عقدها؛ ع -: بعد عهدها.

(18) يلي هذا، في جميع النسخ المخطوطة، حكاية طويلة، نقلها المؤلف عن كتاب " سلوان المطاع " لابن ظفر الصقلي. وقد رأينا إثباتها في ملحق، في آخر هذا الكتاب.

(19) ع +: الخليفة.

(20) ر: بذمائهم؛ ب، ع: بدمائهم. والذمام يعني: الحرمة.

(21) ع: وأرجع.

(22) س، ز، ط -: للشرك.

Scanned by CamScanner

(23) ع: للكفر.

(24) ب: حرامات؛ ل، ع: حرمات.

(25) ع +: من المتغلبين. والجار الجنب يعني: الجار من غير قومك.

(26) الحجاج يعني: المخاصمة والتغلب بالحجة. وغضّ من الحجاج يعني: كفّ منه.

(27) ل، ب، ع: لشذر. والشذور هي الخرز التي يفصل بها بين الجواهر في السلك.

(28) س، ع -: وآنقت غيونه. والغيون هي: الأشجار الملتفة بلا ماء.

(29) ع: التهادي.

(30) ع: صافي. والثوب الضافي: أي الذي طال إلى الأرض.

(31) ع: جمال وجلال.

(32) ع +: بني.

(33) ع: مدينة.

(34) ع: حمدلاتة. وملاتة سهل يقع جنوب غربي وهران.

(35) ع: تلقاء.

(36) ب، س، ر: إسارًا.

Scanned by CamScanner

سنة خمس وسبعين وسبعمئة

في أوّل هذه السنة حذر خُدّام مولانا أمير المسلمين[1] من سُوَيْد وأخلافها فجأ خالد بن عامر وقومه المخالفين معه إياهم فرغبوا من المولى الأمير أبي تاشفين، أعزّه الله، الإصحار معهم لدفع عاديته، فأجابهم ونزل طرف الشَرشو فانتهز علي بن هارون ورهطه الفرصة[2] في القطر فعادوا إلى شلف، وبلغه الخبر، فأغذ نحوهم السّير غازيًا، ففرُّوا أمامه وتذمّموا بجبل زاتيمة، فخيّم أعزّه الله ظاهر مازُونة مُزاحمًا بمنكب إضاقته معقِلهم، وأطال اللبث[3]. ففي صفر، قدم أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد، عمّ أمير المسلمين أيده الله لحًا، من صحراء وارجلا مفرّة من بني مرين، على خضيته ونعالبته،

فعادوا إلى ضَلالهم القديم معه، وتوجّهوا به لحصار بني مَرين بالجزائر[4].

وأظلّتْ أميرَ المسلمين، أيده الله، ليلةُ الميلادِ النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام[5]، فأعاد عِيدَ احتفالِهِ بمَدعاها كأفضل ما مَرّ. فكان مِمّا أنشده مُسمِعُها للطالب النبيل أبي علي حَسُّون[6] بن إبراهيم بن سبع قوله[7]:

هو الحبُّ تهديهِ العيونُ الفواتِرُ ... ويَخفى فتُبْدِيه البَوادِي البَوادِرُ
وتغرِسُهُ في رَوْضةِ القلبِ رَوْضةٌ ... مِن الحُسْنِ مَزعاها جَوًى أوْ جَواهِرُ
تُثمِرُ إنْ وَصْلاً فحُلْوٌ وإنْ نَوًى ... فمُرٌّ وإنْ عَتْبًا فطَعْمٌ مُغايِرُ
كذا مُذْ عَرَفناهُ وصَعْبٌ مَرامُهُ ... يُنِيلُ المُنى طَوْرًا وطَوْرًا يُغادِرُ
ولمْ أُغنِ نفسِي لمْ أنلْ مِنْ أحِبّتِي ... مُرادِي حَمَتْنِي عن حِماهم كبائِرُ
جَنيْتُ ثِمارَالغيّ من دَوْحَةِ الهَوى ... وأطعَمْتُ قلبي فهْوَ قاسٍ وقاصِرُ
ولكِنْ بمَدحِ الهاشِمِيّ مُحَمَّدٍ ... رَجَوْتُ خَلاصِي يومَ تبلى السَّرائرُ
قصَدتُ رَسُولاً أكرَمَ الخَلقِ كلِّهِمْ ... وأفضَلَ مَنْ تثنِي عليه المَنابِرُ
وسيّدَ أهلِ الأرْضِ والكوْنِ كلِه ... وأوّلُ مَنْ تنشقُّ عنه المَقابِرُ

Scanned by CamScanner

أبو القاسم الهادي محمد أحمد   رسول كريم عاقب وهو حاشر

له المنزل الأعلى وفي حبه العلى   ومن أجله الدنيا ومنه المفاخر

تقدم فضلاً قبل كل مكون   وجاء لنصر الحق والكفر جائر

أيا خاتم الأرسال وهو إمامها   وسيدها والفضل في الكل باهر

فأحيا رسوم[8] الحق بعد دروسها   فآهلة بعد العفا وحواضر

وجدد للتوحيد عقدًا شهوده   براهين صدق كلهن بواهر

تبدت بآفاق القلوب قواطعًا   فقدت قميص الكفر فهي بواتر

وما برحت حتى أزاحت ضلاله   وحتى أراحت منه والحق ظاهر

وأعظم آيات النبي، وكلها   عظائم، آيات دواع زواجر

تبدت بأفق الدين[9] شمسًا منيرة   وقد أسبلت للغي سود غوادر

فأشرق بالتوحيد ما كان مظلمًا   وشابت بما لاقته تلك الغدائر

أتت معجزات المرسلين وقد مضت   ولم يلقها إلا الفريق المعاصر

ومعجزة الهادي الشفيع محمد   تدوم وترعى ما رعى النجم ساهر

وما الحصر قصد المادحين وإنما   لتشنيف آذان الفخار المفاخر

فما الفضل محدود ولا المدح بالغ   ولا الفخر محصور ولا المجد قاصر

كفى ليلة الإسراء فضلاً ورفعة   فكم خلعت فيها عليه مفاخر

على السبع[10] يرقى نحو مجد وسؤدد   بتزداده يشقى الحسود المكابر

إلى أن أتى من قاب قوسين منزلاً   أتته به تترى عليه البشائر

فما تثبت الأقلام ما نال من علا   ولو مد هذا البحر سبع زواجر

فصلى عليه الله ما لاح بارق   وما سبحت فلك وما سار سائر

وأيد بالنصر العزيز خليفة   له المجد إرثًا والعلى والمآثر

هو البحر جودًا والكواكب رفعة   وشمس الضحى نفعًا فمن ذا يفاخر

هو الملك الزابي موسى بن يوسف   أبى الله إلا نصره وهو قادر

ليهن تلمسانًا إياب مليكها   فقد ذهبت عنها النحوس الغوابر

Scanned by CamScanner

وَيهْنَ الوَرى طرًّا إيَابُكَ سالِمًا وسَعْدُك مَوْفُورٌ وأمْرُكَ ظاهِرُ
تبَدَّتْ بأفقِ اليُمْنِ شمْسُ سُعُودِكمْ فأجْفانُ شانيها سَواهٍ سَواهِرُ
وعَادَتْ تِلِمْسانُ لأحْسَنِ حالةٍ بكمْ بَعْدَما سِيمَتْ بخَسْفٍ يُسامِرُ
ومَدَّتْ ظِلاَلُ الأمْنِ فالكلُّ مَأمَنٌ وسَحَّتْ عهادُ الخَيْرِ والجودُ غامِرُ
فلله ما ألقى السُّرورُ لِمُهْجَتِي غداةَ اللقا أوْ ما حَوَتهُ الضَّمائِرُ
وما لي ونظم الشعْرِ لوْلا عَلاقة ومَنْ لي به لوْلا العُلى والمَآثِرُ
كلِفتُ بكمْ فاخْتلتُ في نَيْلِ قرْبكمْ وأمْلتْ مَعَاليكم وتلكَ المَفاخِرُ
فأصْبَحْتُ أهْدِي مِنْ ثنائي عليْكمْ جَواهِرَ نظمٍ كلُّهُنَّ جَواهِرُ
فقالوا مُحِبٌّ[11] وَهْوَ حَقًّا يُحِبُّكمْ وقالوا، وَزورٌ قولُهُمْ، هُوَ شاعِرُ
فكنْ مُنصِفي منهم وجُدْ لِيَ بالرضى[12] فلا شكَّ مولى العَبْدِ حامٍ وناصِرُ
ودمْ وابْقَ وانعَمْ واسْمُ واسْلمْ وسُد وجُد تضيءُ بكَ العَلْيَا وتزْهَى المَنابِرُ

وفي شهر ربيع الثاني اجتمع خالد بنُ عامِر وبنو يعقوب والمَعْقِلُ المُخالِفونَ، وغرَّ بهم[13] سرابُ الأمل اللامِع، فأرادوا مُقاربة تِلِمْسان، والعيثَ في سَاحِها بالفساد. فأنهضَ إليهم أميرُ المسلمين، أيده الله، الشيخ أبا عِمْران موسى بن خالد بن محمد بغزيَّةِ عبد الواد وجيش الحضرة، فنزل آبرِدِين[14] من جبل بني يزناسن، وأحسُّوا به فأجْفلوا مغرِّبين، لايَلْوِي متقدِّمٌ منهم على متأخِّر، إلى أن جازوا وادِيَ القصَب الفاصِل بين وطنَيْ بني عبد الواد وبني مرين، ثم راجع بنو يعقوب والمَعْقِل الطاعة وانقلبوا إلى أوطانهم صاغرين.

وغدَا خالد بنُ عامِر بقومه لا سِوى جارًا لعرب المغرب، والمولى أبو تاشفين أعزَّه الله تعالى، أثناءَ هذا كلِّه، آخِذ بمخْنَقِ مَغراوَة إلى أن طالَ عليهم الأمَد، ويئِسوا من إقلاعِهِ عنهم، فاستنصروا بأبي زيان وحُصَيْن والثعالِبة والذَّيالِم والعَطَّاف، ففزعوا من عند آخرهم إليهم، وذلك في رجب السنة. واعتمَدَ الجميعُ معسكر المولى أبي تاشفين، أعزَّه الله، مسوِّلة لهم أطماعُهم فيه ما أباه الله وقوَّة عارضَتِه، وكرمُ صبْرِه وحيائِهِ، وفضلُ شجاعته. وأطلُّوا على مَحَلَّتِهِ، فخَبَّ رعيلُهم بساحها

Scanned by CamScanner

وأوْضَع، وتظافرتْ خلفه الساقات، يَحْسبونَ أنهُم على شيْءٍ إلَّا أنهُمْ هُمُ الخاسِرونَ[15].

وركِبَ المولى أبو تاشفين فقرِعَتْ طبولهُ، وترَتبتْ مَصافُّ جيوشِهِ. ثم أخذ الناسَ بالثباتِ لصدمَةِ العدوّ الأولى، وأن لا يَعْدوَ أحد منهم مركزَه، ودفعَ المقاتِلة بين يدَيْهِ. فلمْ يَكنْ إلَّا كطرْفة العيْن أوْ أقرَب حتى وَلّوا الأدبارَ منهَزمين، والأولياءُ البَرَرَة يقتلون ويأسرون ويُرْجلونَ فيهم إلى أن ضرَبَ الليْلُ بين الفريقيْن سُورَه، فاسْتمَرَّ أبو زيان ولِفُّهُ، غيْرَ مصَدِّقِينَ النجاة، إلى مألفهم. وعادَ علي بن هارون المغراوي وقوْمُهُ إلى وَطنهم وقد خذلتهم الأطماع وتبرَّأ منهم الغواة وضاقتْ عليهم بما رَحُبَت الأرْضُ[16] وَمَنْ لمْ يَجْعَل الله له نورًا فما له مِنْ نورٍ[17]، فهنالك استوطنَ المولى أبو تاشفين بلدَ مَازونة، واسْتَعَدَّ بها لطولِ المُقام.

وفي أوَّل شهر شوَّال تحرَّك ركابُ مولانا أمير المسلمين، أيده الله، مشْرِقًا بمُدَوَّنتِهِ وحَشدِهِ وكافةِ أنصارهِ. وأخذ على وهران، فأوسَعَ بها عَطايا الناس مِن الزرع والمال. ونزلَ البطحاء، فصرَف منها العرب إلَّا ما كان مِن زمل كلِّ قبيلٍ منهم. واستمَرَّ فلقِيَهُ ولده المولى أبو تاشفين صان الله مجدَه بإزاءِ مازونة، ونزلا معًا ظاهِرَ تيمَزْوَغت آخِذِينَ بمخنق طائفةِ الغيِّ مَغراوَة. وأمرَ مولانا أمير المسلمين أيده الله بتشييدِ البناء هنالك لسُكناه، واستعَدَّ لمطاولتِهم الحِصار بالأقوات النامية تجلب إلى معسكره المنصور من كل قطر، وولده المولى الأعلى أبو تاشفين، أعزَّه الله، يُراوحهم بالقِتال ويُغاديهم، وانتهت السنة، ولله وحده البقاء سبحانه.

وفي آخِرها وَرَدَ[18] على الخليفة، أيده الله، من الفقيه الوزير المرحوم أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب رحمه الله عند استشعاره المخافة من أهل المغرب، قصيدة سِينيّة غرَّاء يَعْقبها سَجْعٌ بَلِيغ، وهي[19] قوله:

أطلعْنَ في سُدَفِ الظلامِ شمُوسَا ... ضحكَ الظلامُ لها وكانَ عَبوسَا
وعطفنَ قضبًا للقدودِ نواعِمًا ... بُوِّئْنَ أدوَاحَ النعِيم غروسَا

وعدلن عن جهر السلام مخافة الـــوَاشِي فجئنَ بلفظِهِ مهموسا
ونـــفزنَ مِـــن دَهشِ الوداعِ وقـــومُهُـــنَّ إلى الترحُّلِ قد أناخوا العيسا
وخلسْنَ مِنْ خللِ الحِجالِ إشارَة   فتـرَكنَ كـلَّ حِجًـى لهـا مَخْلوسَـا
لـمْ أنـسَها مِـن وَحْشةٍ والحَـيُّ قـد   زجـرَ الحمـــول وآثـــرَ التغليـــسا
لا الملتقى مـــن بَعـــدِها كـــثبٌ ولا   عُـــوجُ الـــرُّكائب تـــشأمُ التحْييـــسا
نـــوَقفتُ مَوْقِـــفَ هـــائمٍ بُـــرَحَاؤهُ   وقفـــتُ علـــيه وحَبَّـــسْتُ تحْبيـــسا
ودعـــوتُ عَيْنِـــي عابـــثًا وعُـــيُونها   بعَـــصَا الـــنوى قـــد بَجَّـــسَتْ تبْجِيـــسا
نافـــسْتِ يـــا عَيْنِـــيَ دُرَّ دمـــوعِهِمْ   فعَرَضْـــتِ دُرًّا للدمـــوعِ نفيـــسا
مـا للحِمَـى بعـدَ الأحِـبَّةِ مـوحِشٌ[20]   ولكـــنْ تـــراءَى آهِـــلاً مَأنوسَـــا
ولِـــبِزِيهِ حَـــوْلَ الخَمِـــيلةِ نافِـــرٌ[21]   عَمَّـــنْ يُحِـــسُّ بـــه وكـــانَ أنيـــسا
ولِظِلِّـــهِ المَـــوْرودِ غمْـــرُ قليْـــبهِ   لا يَقتـــضي وِرْدًا ولا تغريـــسا
حَيَّـــتهُ فأجَابَنِـــي رَجْـــعُ الـــصَّدَى   لا فـــرْقَ بَيْـــنهما إذا مـــا قِيـــسا
مـا إنْ يَـزيد علـى الإعَـادَةِ صَـوْتهُ   حَـــرْفًا فيـــشفِي بالمَـــزيدِ نسِيـــسا
نضَبَ المَعِينُ وقلَّصَ الظِّلُّ الـذي   ظَلْـــنا عُكـــوفًا عـــنده[22] وجُلوسَـــا
نـتواعَد الرُّجْعَـى ونغتـنِمُ اللِّقـا   ونُدِيـــرُ مـــن شـكوى الغَـرَامِ كؤوسَـا
فـإذا سَـألتَ فـلا تـسائلْ مُخْـبِرًا   وإذا سَـمِعْتَ فـلا تجِـسُّ حَسِيـسا
عهْدِي بـه والدَّهـرُ يُـتحِفُ بالمُنـى   وقـدِ اقتـضَتْ نعْمـاهُ أنْ لا بُوسَـا
والعَيْشُ غـضُّ الـربيعِ والدنـيا قـدِ اجْـــتلِيَتْ بمَغناهُ[23] عَلَيَّ عرُوسَـا
أتـرى يُعِـيد الدهْـرُ عَهْـدًا للـصِّبَا   درسَـتْ مَغانِـي الأنـسِ فـيه دروسَـا
أوْطَـانُ أوْطَـارٍ تعَـوَّضَ أفقهَـا   مِـن رَوْنـقِ البِـشْرِ البَهِـيِّ عُبوسَـا
هيهاتَ لا تغنِـي لعَـلَّ ولا عَـسَى   فـي مِـثلِها إلَّا لآيِـسَةِ عيـسَى
والدَّهـرُ فـي دَسْـتِ القَـضَاءِ مُـدَرِّسٌ   فـإذا قـضَى يـستأنِفُ التدريـسَا
تفـنَّنُ فـي جُمَـلِ الـوَرى أبحاثُـهُ   لاسِـيَّمَا فـي بـابِ نِعْـمٍ وبِئـسَا
وسجيَّةُ الإنـسانِ لـيْسَ بناصِـلٍ   مِـن صِـبْغِها حتـى يُـرى مَرْمُوسَـا

يعتزُّ مهما ساعدتْ آمالُهُ   فإذا عراهُ الخطبُ كانَ يؤوسا

فلوَ انَّ نفسًا مكّنتْ مِن رُشدِها   يومًا وقدَّسها الهُدى تقديسا

لم تستجِزْ رُسوخَها[24] النُّعمى ولا   هلعتْ إذا كثرتْ إليها البُوسا

قُلْ للزمانِ إليكَ عن مُتقدِّمٍ   بضمانِ عِزٍّ لم يكنْ ليخيسا

فإذا استحرَّ جِلادُهُ فأنا الذي   استغشيتُ مِن سَرْدِ اليقينِ لَبوسا

وإذا طغى فرعونُهُ فأنا الذي   مِن ضرِّهِ وأذاهُ عُدتُ بموسى

أنا ذا أبو مثوايَ مَنْ يحمي الحمى   ليثًا ويعلمُ بالزئيرِ الخِيسا

بحمى أبي عَمْرٍو حططتُ ركائبي   لمّا اختبرتُ الليثَ والعِرّيسا

أسدُ الهياجِ إذا خطا قدمًا سطا   فتخلّفَ[25] الأسدُ الهِزَبْرُ فريسا

بدرُ الهُدى يأبى الضلالَ ضياؤُهُ   أبدًا فيجلو الظلمةَ الحِنْدِيسا

جبلُ الوقارِ رسا وأشرفَ واعتلى   وسما فطأطأتِ الجبالُ رؤوسا

غيثُ النوالِ إذا الغمامُ حلوبةٌ   مُثلتْ بأيدي الحالبينَ بَسوسا

تلقاهُ يومَ الأنسِ روضًا ناعمًا   وتراهُ بأسًا في الهياجِ بَئيسا

كم عثرةٍ جلّى وكم خطبٍ كفى   أنْ أوطأ الجُردَ العِتاقَ وطيسا

كم حِكمةٍ أبدى وكم قصدٍ هدى   للسالكينَ أبانَ منه دريسا

أغلى بني زيّانَ والفذُّ الذي   لبسَ الكمالَ[26] فزيَّنَ الملبوسا

جمعَ الندى والبأسَ والشيمَ العُلى   والسؤددَ المتوارثَ القُدموسا

والحِلمَ ليس يُباينُ الخُلُقَ الرِّضى   والعِلمَ ليس يُعارضُ الناموسا

والشغلَ يُغني حكمةً[27] عن نطقِهِ   تستخبرُ التربيعَ والتسديسا

كم راضَ صعبًا لا يُراضُ مُعاصيًا   كم خاضَ حزنًا لا تُخاضُ ضروسا

بلغَ التي لا فوقها مُستمهِلًا   وعلا السُّها واستقلَّ البرجيسا[28]

يا خيرَ مَنْ خفقتْ عليهِ سحابةٌ   للنصرِ تُمطرُهُ أخسَّ نحيسا

وأجلَّ مَنْ حملتْهُ صهوةُ سابحٍ   إنْ كرَّ ضعضعَ كرَّةَ الكردوسا

قسمًا بمَنْ رفعَ السماءَ بغيرِ ما   عَمَدٍ ورفَّعَ فوقها إدريسا

ودحى البسيطة فوق لجّ مزبدٍ / ما إن يزال على القرار حبيسا
حتى يهيب بأهلها الوغد الذي / حشر الرئيس إليه والمرؤوسا
ما أنت إلّا ذخر ربّك دمت في الـ / ـصون الحريز ممتعا محروسا
لو ساومته الأرض فيك بما حوت / لرآك مستامًا بها مبخوسا
كلف البرور بها أليّة صادقٍ / ويمين من عقد اليمين غموسا
من قاس ذاتك بالذوات فإنه / جهل الوزان وأخطأ التقييسا
لا تستوي الأعيان فضل مزيّةٍ / وطبيعة فطر الإله وسوسا
فعناية التخصيص سرٌّ غامضٌ / من قبل ذرء الخلق خصّ نفوسا
من أنكر الفضل الذي أوتيته / جحد العيان وأنكر المحسوسا
من دان بالإخلاص فيك فعقده / لا يقبل التمويه والتلبيسا
والمنتمى العلويّ عيصك لم تكن / لترى دخيلاً في بنيه دسيسا
بيت البتول ومنبت الشرف الذي / يحمي الملائك دوحه المغروسا
أمّا سياستك التي أحكمتها / فرميت بالتقصير رسطاليسا
فلوانّ كسرى الفرس أبصر بعضها / ما كان يطمع أن يعدّ سؤوسا
لو سار عدلك في التنّين لما اشتكت / بخسا ولم يك بعضهنّ كبيسا
ولو الجواري الخنّس انتسبت إلى / إقدام عزمك ما خنسن خنوسا
قدت الصعاب فكلّ صعبٍ سامحٌ / لك بالقياد وكان قبل شموسا
تلقى الليوث وللقتام غمامة / قدح الصفيح وميضها المقبوسا
وكأنها تحت الدروع أراقمٌ / ينظرن من خلل المغافر شوسا
ما لابن مامة في القديم وحاتمٍ / ضرب الزمان بجودهم ناقوسا
من جاد منهم مثل جودك كلّما / حسبوا المكارم كسوة أو كيسا
أنت الذي افتكّ السفين وأهله / إذ أوسعت سبل الخلاص طموسا
أنت الذي أمددت ثغر الله بالـ / ـصدقات تبلس كرّة إبليسا
وأغثت أندلسا بكلّ سبيكةٍ / موسومةٍ لا تعرف التدليسا

Scanned by CamScanner

وشجينةٍ بالبُرّ في سُبُلِ الرّضى   والبرّ قارَبَ قاعُها القاموسا
إنْ لمْ تجرّ بها الخميسَ فطالما   جهّزتَ فيها للنّوالِ خميسا
وملأتَ أيديَها وقد كانتْ على   حُكمِ القضاءِ تُشافهُ التفليسا
صدّقتَ للأموال[29] صنعةَ جابرٍ   وكفيتَها التشميعَ والتشميسا
والحلَّ والتقطيرَ والتصعيدَ والتّخميرَ والتضويلَ[30] والتكليسا
فسبكتَ منْ آمالِها مالاً ومنْ   أوراقِها ورِقًا وكنّ طُرُوسا
بُهِتوا فلمّا استخبروا لمْ يُنكِروا   وزنًا ولا لونًا ولا مَلْمُوسا
تدبيرُ مَنْ قلبَ السُّطورَ سبائكًا   منها ومَنْ طبَعَ الحُرُوفَ فلوسا
ونحوْتَ نحوَ الفضلِ تعْضُد منه بالمَسْمُوعِ ما ألفيْتَ منه مَقِيسا
وجَبَرْتَ بعد الكسْرِ قوْمَك جاهِدًا   تغني العَدِيمَ وتطلِقُ المَحْبُوسا
ونشرْتَ رايَةَ عِزّهِمْ مِنْ بعدِمَا   دالَ الزّمانُ فسَامَها تنكيسا
أحكمْتَ حِيلة بُرئِهِمْ بلطائِفٍ   قد أعْجَزَتْ في الطبِّ جالينوسا
وفللتَ مِنْ حَدِّ الزّمَانِ وإنّهُ   أرْحَى وأمْضَى مِن غِرارِ الموسى
وشحذتَ حَدًّا كانَ قبلُ مُثلّمًا   ونعَشتَ جَدًّا كانَ قبلُ تعيسا
لمْ ترْجُ إلّا اللهَ جَلّ جَلالُهُ   في شِدّةٍ تكفي وجُرْحٍ يُوسَى
قدّمْتَ صُبْحًا فاسْتضَأتَ بنورِهِ   ووَجَدتَ عند الشِدّةِ التنفيسا
ما أنتَ إلّا فالِحٌ مُتيَقِّنٌ   بالنجحِ تغْمُزُ مُمْرِعًا ويبيسا
ومُتاجِرٌ جَعَلَ الأريكةَ صَهْوَةً   عَرَبيّةً والمُتّكى القرَبُوسا
ما إنْ يُبايعُ أوْ يُشاري وَاثِقًا   بالرِّبْحِ إلّا المالِكَ القُدُّوسا
والعزْمُ يفترِعُ النجومَ بناؤهُ   مهما أقامَ على التقى تأسيسا
ومقامُ صبرِكَ واتكالِكَ مُذكِرٌ   بحديثِهِ الشبلي أو طاووسا
ومَنِ ارتضاهُ اللهُ وفّقَ سعْيَهُ   رأى العظيمَ مِنَ الأمورِ[31] خسيسا
ما ازددتَ بالتمحيصِ إلّا جِدّةً   ونضوْتَ مِنْ خلعِ الزمانِ لبيسا
ولطالما طرقَ الخسوفُ أهلّةً   ولطالما اعترضَ الكسوفُ شموسا

Scanned by CamScanner

ثم انجلتْ قسَمَاتها عن مُشرِقٍ للسَّعْدِ ليْسَ بحَاذِرٍ تتعيسَا
خُذها إليكَ على النوَى سِينِيَّة ترْضَى الطِّبَاقَ وتشكرُ التجْنِيسَا
إنْ طوولتْ[32] بالدُّرِّ من حَوْل الطُّلى يَوْمًا تشكَّتْ حَظَّها المَركوسَا
لَوْلاكَ ما أصْغتْ لِخُطبَةِ خاطِبٍ ولغَنَّستْ في بَيْتِهَا تغنِيسَا
قصَدَتْ سُليمانَ الزمَانِ وقارَبَتْ في الخَطوِ تحْسِبُ نفسَهَا بلقِيسَا
لِي فيكَ ودٌّ لمْ أكنْ مِنْ بَعْدِ مَا أعْطيت صَفقة عَهْدِهِ لأخِيسَا
كمْ لِي بصِحَّةِ عقدِهِ مِنْ شاهِدٍ لا يَحْذر التجْرِيحَ والتدنيسَا[33]
يَقفو الشهادَة باليَمِينِ وإنَّهُ لمُؤمَّنٌ مِنْ أنْ يُعَدَّ قِسيسَا
لا يَستقِرُّ قرَارُ أفكاري إلى أنْ أسْتقِرَّ لدَى عُلاكَ جَلِيسَا
وأرى بجاهك مستقِيمَ السَّيْرِ للقصْدِ الذي أعْمَلتهُ مَعْكُوسَا
هِيَ دَيْنُ أيَّامِي فإنْ سَمَحَتْ بهِ لمْ يَبْقَ مِنْ شيْءٍ عليهِ يُؤسَا
لا زالَ صنعُ اللهِ مَجْلوبًا إلى مَثوَاكَ يَهْدِي البشرَ والتأنِيسَا
مُتتابعًا كتتابُعِ الأيَّامِ لا يذرُ التعَاقبَ جُمْعَة وخَمِيسَا
فلوَ انصَفتكَ إيالة المُلكِ التي رُضْتَ الزمانَ لها وكانَ شريسَا
قرنتْ بذِكرِكَ والدُّعَاءِ لكَ الذي تخْتارُهُ التسْبيحَ والتقدِيسَا
القلبُ[34] أنتَ لها رئيسُ حَيَاتِهَا لمْ تغتبرْ مَهْما صَلحْتَ رَئِيسَا

هذه القصيدة أبقى الله أيام المثابة المولوية الموسَويَّة مُمَتعَة بالشمْلِ المجموعِ، والثناءِ المسموعِ، والملك المنصور الجَموعِ، نفثة مَنْ بَاحَ[35] بسرِّ حُبِّهِ، ولبّى دَعْوَة الشوْقِ العابث بلبِّهِ، وقد ظفر بمَنْ يَهْدِي خبرَ جَواه، إلى محلِّ هَواه، ويختلِسُ بعث تَحِيَّتِهِ إلى مُثير أرْيَحِيَّتِهِ، وهي بالنسبة إلى ما يعتقِدُ من ذلك الكمال، الشاذ عن الآمال، عنوان مِنْ كتاب، وذواق من أوقار ذات أقتاب، وإلا فمَنْ يقوم بحَقِّ تلك المثابة لسانهُ، أو يُكافي إحْسانَهَا إحْسانهُ، أو يستقِلُّ بوصْفِها يراعُهُ، أو تنهض بأيْسَر وظيفِها ذراعُهُ، ولا مكابَرَة بعد الاعتراف، والبحر لا ينفد بالاغتراف، لاسيَّما وذاتكم اليوم

والله يُبْقِيها، ومن المَكارِهِ يَقِيها، وفي مَعارج[36] القدس يُرَقيها، ياقوتة اختارها واعْتبَرَها، ثم بلاها بالتمْحِيص في سبيل التخصيص واخْتبَرَها، وسَبيكة خلَّصَها وسَحَرَها[37]، فخَلَّصَتها السَّحِيرَة[38] من الشوْبِ، وأبْرَزَتها من لبابِ الذوْبِ، وقصَّرَتْ عن هذه الأثمان، وسُرَّ بصِدق دغْوَتِهِ البَهْرَمان[39]، لِيُفاضِلَ بين الجَهامِ والصَّيِّبِ، ويُمَيِّزُ الله الخَبِيثَ مِنَ الطَّيبِ[40]، فأراكم أن لا جدوى للعَدِيد ولا للعُدَّة، وعرَّفكم بنفسه في حالِ الشدَّة، ثم فسَحَ لكم بعد ذلك في المُدَّة، لِتعْرفوه إذا دَالَ الرَّخَاءُ، وهَبَّتْ بعد تلك الزعازعِ الرِّيحُ الرُّخاءُ، وملأكم من التجارب، وأوردَكم من ألطافِهِ أعْذبَ المَشارب، ونقلكم بين أمْرار الزمان وأحْلائه، ولم يسلبكم إلَّا حقيرًا عند أولِيائه، وأعادَكم المَعادَ المُطهَّر، وألبسَكم من أثوابِ اختِصاصِهِ المعلم المشهَّر.

فأنتم اليومَ معيَّنُ العِناية، بالإفصاح والكِناية، قد وقفَ الدهرُ بين يديْكم مَوْقِفَ الاعترافِ بالجناية، فإن كان المُلكُ اليومَ عِلمًا يُدرَسُ، وقوانِينَ في قوَّةِ الحِفظِ تغرَسُ، وبضاعة برصد التجارب تحْرَسُ، فأنتم مالِكُ دار هِجْرَتِه المحسوبة، وأصْمَعِيُّ شعوبه المنسوبة، إلى ما حُزتم من أشتات الكمال، المُرْبيَةِ على الآمال. فالبيْتُ عَلويٌّ المنتسَب، والمُلكُ بين المَوروثِ والمُكتسَب، والجود يعترف به الوُجود، والدِّينُ يَشهَد به الركوعُ والسُّجود،، والبأسُ تعْرفه التهائِمُ والنجود، والخُلقُ يَحْسُده الرَّوْضُ المَجود، والشعْرُ يغترف من عَذبِ نميرٍ، ويصدق مَنْ قال: بُدِئَ بأمير وخُتِمَ بأمير.

وإنَّ مَملوككم حَوَّمَ من بابكم على العَذبِ البَرُود، فعاقه الدَّهرُ عن الوُرود، واستقبل أفقه ليُحَقق الرصد، ولكنه أخطأ القصْد، ومَن أخطأ الغرَضَ أعاد، ورَجا من الزمن الإسعاد، فرُبَّما خبى نصيبٌ، أو كان مع الخواطي سهمٌ مُصيبٌ. وكان يؤمل صحبة ركاب الحجاز، فانتقلت الحقيقة

منه إلى المجاز، وقطعت القواطعُ التي لم ينلها الحساب، ومنعت المَوانِعُ التي خلص منها إلى الفتنة الانتِساب، ومَنْ طلبَ الأيامَ أنْ تجْريَ على اقتراحِهِ، وجبَ العَمَلُ على اطّراحِهِ، فإنما هي البحر الزاخر، الذي لا يُدرَك منه الآخِر، والرياحُ متغايِرَة، والسفينة الحائرة، فتارة يتعذر من المَزْفإ الطرْفُ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتدَّ الطرْفُ، هذا إنْ سالمَها عَطَبُها، وأغْفِيَ مِن الوَقودِ حطبُها.

ولقد عَلِمَ الله، جلَّ جلالهُ، أنَّ[41] ذلك المَقام[42] عند المَمْلوك تمامٌ في المطلوب، مِمَّنْ يَجبُرُ كسْرَ القلوب، فإنه مِمَّن انعقد على كمالِهِ الإجماعُ، وصَحَّ في عَوالِي مَعاليهِ السَّماعُ، وارتفعتْ في وجودِ مِثالِهِ الأطماعُ، أخلاقًا هذبها الكرمُ الوضَّاحُ، وسَجيَّة كلِفَ بها الكمالُ الفضَّاحُ، وحِرْصًا على الذكر الجميل، وما يتنافس فيه إلَّا مَنْ سَمَتْ هِمَمُهُ، وكرُمَتْ ذِمَمُهُ، وألِفت الخُلدَ رِمَمُهُ، إذ الوجودُ سَرابٌ، وما فوقَ الترابِ ترابٌ، ولا يبقى إلَّا عَمَلٌ راقٍ، أوْ ذِكرٌ بالجميل يُسَطَّرُ في أوْراقٍ، حسبما قلتُ من قصيدةٍ كتبتها على ظهر موضوعٍ أشارَ به مَنْ كانتْ له طاعة، فوَفَّتْ بمُقترَحِهِ الاسْتِطاعَة:

يَمْضِي الزَّمانُ بكلِّ فانٍ[43] ذاهِبٍ ... إلَّا جمِيلَ الذكرِ فهْوَ الباقِي
لمْ يَبْقَ مِنْ إيوانِ كِسْرَى بعْدَ ذا ... كَ الحَفلِ إلَّا الذكرُ في الأوْراقِ
هَلْ كانَ للسَّفاحِ والمنصورِ والـ ... ـمَهْدِيِّ مِنْ ذِكرٍ على الإطلاقِ
أوْ للرَّشيدِ وللأمِينِ وصِنْوِهِ ... لولا شَبَاة يَراعَةِ الوَرَّاقِ
رَجَعَ الترابُ إلى الترابِ بما اقتضَتْ ... في كلِّ خَلقٍ حِكمَةُ الخلَّاقِ
إلَّا الثناءَ الخالِدَ العَطِرَ الشذا ... يُهْدِي حَدِيثَ مَكارِمِ الأخلاقِ

والرغبة من مَقامِكم العلي الجَناب، أن يمكنها من حُسْن المآب، فتحظى بحُلول ساحَته، ثم بلثم راحته، ثم بالإصغاء، ولا مزيدَ للابتغاء، إلى أن ترتفع الوساطة، وتغنيَ عن التركيب البساطة، ويُنسى الأثر بالعيْن، ويَخْسَ الدهرُ قضاءَ هذا[44] الدَّيْن. ونسألُ الله الذي أغرى بها القريحة، ولم يجعل الباعث إلَّا المحبَّة

الصَّريحة، أنْ يُبْقِيَ تلك المَثابَة زَيْنًا للزمان، وذخْرًا مكنوفًا باليُمْنِ والأمان، مُظلَّلاً برحمةِ الرحمان، بفضْلِه[45] وكرمِهِ.

وبعثتُ في خفارتها إلى بابه الكريم من المغرب، تشيُّعًا لمَقامه العَلِيّ، واعتِرافًا بنِعَمِهِ السَّالفة والخالفة، والتِماسًا لرضاهُ، كلمة نونيَّة هي:

هاتيكَ رامَةُ كثْبُها والبانُ ... يُنبيكَ عنها العَرْفُ لا العِرْفانُ
بانوا وقد تركوا بها لجمالِهِمْ ... معنى فتحسِبُ أنهم ما بانوا
وإذا الدِّيارُ تعرَّضَتْ لأخِي الهَوى ... لمْ يُغْنِ عنه الصَّبْرُ والكِتمَانُ
يَعتادهُ الذكرى ويبْعَث وَجْدَهُ ... أثرٌ تخلَّفهُ بها السُّكَّانُ
يا سائلَ العَرَصاتِ أقوَتْ ضَلَّةً ... منْ أيْنَ تدري الدَّارُ ما الأظعَانُ
لا تخْشَ إنْ ضَنَّ الغمامُ لربْعِهَا ... ظمَأً فدَمْعِي عَارِضٌ هَتَّانُ
يا أهْلَ نَعْمَانَ وأصْلُ[46] صَبابَتِي ... شغفًا بحُبِّ فريقِها نَعْمَانُ
هلْ عِندكمْ أنِّي لذِكرى عَهْدِكمْ ... طرَبًا أمِيلُ كأننِي نشوانُ
للهِ عَصْرٌ باللِّوى قضَّيْتهُ ... حُلُمًا وأحْسبُ أننِي يَقظانُ
أيَّامَ لا ظِلُّ الرِّضَى بمُقلَّصٍ ... عنا ولا نزحَتْ بنا الأوْطانُ
يا جيرَةً بالغور ضاعَ بحَيِّهِمْ ... قلبُ المتيَّمِ ما كذا الجيرانُ
إنْ كانَ رَأيُكمُ البعَادَ فما اعْترى ... ذاكَ الهوى مَللٌ ولا سُلوانُ
رُدُّوا الفؤادَ لِمُغْرَمٍ في صَدرهِ ... لِفِراقِكمْ فِكَرٌ هِيَ الأحْزانُ
خطَّتْ يَدُ الأشواقِ طَيَّ ضُلوعِهِ ... صحفًا لها منْ دَمْعِهِ عنوانُ
لمْ يَبْقَ غيْرُ الطَّيْفِ منْ مُتعَلِّلٍ ... للصَّبِّ لوْ لمْ تسْهَرِ الأجْفانُ
وَلرُبَّ لَيْلٍ مَزَّقتْ أحْشاءَهُ ... وحَشايَ أيْدِي البَرْقِ والأشْجانُ
راعَيْتُ أنجُمَهُ تسِيرُ كأنهَا ... وَسْطَ المَجَرَّةِ للنَّوَى أظعَانُ
وعلى الثرى منْ طَلِّهِ ومَدامِعِي ... بَحْرٌ لدَيْهِ الدُّرُّ والمُرْجانُ
حتى بَدَا ضَوْءُ الصَّباحِ كأنهُ ... وجْهُ الخَليفةِ نورُهُ فتَّانُ
وسَرَتْ بِرَيَّا المِسْكِ أنفاسُ الصَّبَا ... كثنائِهِ تسْرِي بِهِ الرُّكبانُ

Scanned by CamScanner

مَلِكٌ تعالى عن نظيرٍ قدرُهُ   فيه كمالاً يفخرُ الإنسانُ
خُلُقٌ يغارُ الروضُ منها والحيا   وشهامةٌ خضعت لها التيجانُ
وجمالُ مرأى في جلالِ مهابةٍ   كالشمسِ، ترهبُ نورَها الأجفانُ
وأرومةٍ في هاشمٍ شرُفت بها   مُضرٌ وسادت عندها عدنانُ
من آلِ زيّانَ سلاطينِ الورى   أهلِ المفاخرِ والعُلى مُذ كانوا
شُهبٌ بآفاقِ الكمالِ مُنيرةٌ   خفيت ولاحَ لشمسِها لمعانُ
موسى بنُ يوسفَ حُجّةُ الفضلِ الذي   لا يعتريها الجحدُ والبهتانُ
في ذاتِهِ انحصرت على أنواعِهِ   فهوَ الذي ما مثلُهُ سلطانُ
تعنو إليهِ رغبةً أو رهبةً وعليهِ   في عزِّها الأملاكُ والشجعانُ
من تقوى الإلهِ سكينة   سيّانِ فيها السرُّ والإعلانُ
أحيا بهِ اللهُ الخِلافةَ بعدما   كادت تخرُّ بعرشِها الأركانُ
آراؤهُ حِكمٌ وفضلُ قضائِهِ   عدلٌ وفضلُ خِطابِهِ بُرهانُ
رحبُ الجنابِ غزيرُهُ[47] لِعُفاتِهِ   والجارِ مجدًا دونَهُ الشهبانُ
إذ كانَ جودًا عمَّ أصنافَ الورى   بالوبلِ يَزوَى النجدُ والغِيطانُ[48]
أو فلَّ من قبلِ اللقاءِ عُداتَهُ   بالرغبِ أيّدَ أمرَهُ الرحمانُ
يا أيُّها المَلِكُ الذي اعترفت لهُ   بالفضلِ فيها العُجمُ والعُربانُ
للهِ في تأييدِ أمرِكَ حِكمةٌ   هيَ للعنايةِ والرِّضى عُنوانُ
واللهُ يجزي الشاكرينَ بما ابتلى   فيهم وأنتَ مقامُكَ الشكرانُ
بعثت عزيمتَكَ الحميّةَ غيرةً   للمُلكِ وهيَ كما ترى إيمانُ
وطلعتَ بدرًا في ظلامِ ضلالةٍ   ضاءت بنورِ جبينِهِ الأكوانُ
فالناسُ لا يرجونَ غيرَكَ مالكًا   نطقت بذاكَ الشيبُ والشبّانُ
ولهم لسانُ زمانِهم لا سيّما   إن وافقوا ما قالَهُ الكهّانُ
... بعزِّ النصرِ والملكِ الذي   ما نالَهُ كسرى ولا خاقانُ
... الملكُ الذي بزمانِهِ   تبأى القصورُ وتفخرُ الأزمانُ

وإليكَ نظمًا مُعجِزًا لا ينتهي لِبديعِهِ قسٌّ ولا سَحبانُ[49]

أهداكَهُ عبدٌ تملّكَ رِقّهُ في بابكَ الإيثارُ والإحسانُ

أقصاهُ لا بمُرادِهِ عن بابكَ الـ أعلى قضاءٌ شاءَهُ الديّانُ

والحُبُّ باقٍ والتشيّعُ ظاهِرٌ يقضي على سِرّي بهِ الإعلانُ

أدعُو بعِزّ النصْرِ في طولِ البَقا لكَ والدعاءُ يُجيبُهُ الرّحمانُ

شكرًا لِصنعٍ طالمَا[50] أوليتني منهُ الجَميلَ وشكرُهُ إيمانُ

لا زِلتَ ترقى سامِيًا نحوَ العُلى حتى تُرى مِن دونِكَ الشهبانُ

تنهَى وتأمُرُ والقضاءُ مُساعِدٌ والناسُ والدنيا، لكُمْ أعوانُ

---

(1) ر +: أيده الله.

(2) ع +: بمغيه.

(3) ل -: وأطال اللبث.

(4) س: لحصر الجزائر على مرين.

(5) النص من " ليلة الميلاد " إلى " والسلام " عوّض في ع بما يلي: " ليلة ميلاد شفيعه خير الأنام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ".

(6) ع: حسن؛ ز، ط: حصون.

(7) وفي س عوّضت كلمة " قوله " بما يلي: " كلمة قصيرة عن مسمى الشعر، ولو وجدت سواها بهذا المولد السعيد ما أثبتها لرداءتها، وهي ".

(8) ع: ربوع.

(9) ع: الرشد.

(10) س، ط: الجد. والمقصود بالسبع هو: السماوات السبع.

(11) ع: ل، ب، ع: محيًا.

Scanned by CamScanner

(12) ع: بالمنى.

(13) ع: وغزهم.

(14) ع: أبريدين.

(15) اقتباس من القرآن، سورة المجادلة، الآيتان 18 و19.

(16) ع: وضاقت عليهم الأرض بما رحبت. اقتباس من القرآن، سورة التوبة، الآية 25.

(17) قرآن، سورة النور، الآية، 40.

(18) ع: وردت.

(19) ع: وذلك.

(20) ع: موحشًا.

(21) ع: نافرًا.

(22) ع: حوله.

(23) ل: بمعناه.

(24) ل، ب، ع: رسومها.

(25) ر: فيخلف.

(26) ر: الوقار.

(27) ع: حكمة.

(28) البرجيس: نجم، وهو المشتري.

(29) ل، ب، ع: للآمال.

(30) ل، ب: التطويل. والتصويل هو إخراج الكلس وغيره بالماء.

(31) س: الخطوط.

(32) ع: طوقت. وطاوله يعني: غالبه في الغنى أو الفضل أو العطاء وغير ذلك.

Scanned by CamScanner

(33) س: والتدليسا.

(34) ع: والقلب.

(35) ل، ب، ع: بانت.

(36) ع ٥: القرب من حضرة.

(37) ل، ب، ر: شحرها، ع: شجرها. يقال: خلّص الشيء أي صفّاه وميّزه عن غيره، وسحر الفضة أي طلاها بالذهب.

(38) ر: الشحرة، ل، ب: الشحيرة.

(39) ل: البرهمان، ع: البرهان. والبهرمان هو نبات يستعمل كصباغ أصفر.

(40) قرآن، سورة الأنفال، الآية 37.

(41) ع ٥: لقاء.

(42) ع ٥: الكريم.

(43) ع: فكل فان.

(44) ع -: هذا.

(45) ر: بمنه.

(46) ل، ب،، ع: وأهل.

(47) س، ل، ب، ع: عزيزة.

(48) ل، ب، ع: الغيضان، والغيطان جمع غوطة، وهي المطمئن من الأرض.

(49) هاذان البيتان ساقطان في س.

(50) ل، ب، ع: طول ما.

Scanned by CamScanner

سنة ست وسبعين وسبعمئة

أهلَّ هلالُ محرّمِها وأميرُ المسلمين، أيده الله، آخِذ بمخنق مغراوة، قد أرهقهم عسْرًا، وأحاق بهم خسْرًا. وهنالك وصله أيضًا من الوزير الفقيه المرحوم أبي عبد الله محمد بن عبد الله ابن الخطيب، برّدَ الله ثراه، عندما اشتدّتْ مخافته من بني مرين، وعِيلَ اضطِبارُه، وقلبَتْ له دنياه ظهْرَ مِجَنها، قصيدة غرّاءُ مِيمِيّة في غرض الاستصراخ والاستشفاع بمولانا أمير المسلمين أبي حمُّو، أيده الله، عند مولاه السلطان الغنيّ بالله أبي عبد الله محمد بن نصر، أعزه الله، ثم عاجله الامتحان، ومات رحمه الله كيف قدر، وإلى الله تصِيرُ الأمُورُ[1]، وهي قوله:

أما لَوْ علِمْنا أنه يَنطِقُ الرَّسْمُ ... ولَمْ يَبْقَ يومًا مِنْ مُسَمَّاهُ إلّا اسْمُ

وأنّ سؤال الرَّبْعِ ينقع غلَّة ... فيحصل من أنباءِ مَنْ ظعَنَ العِلْمُ

لطالَ وقوفٌ واسْتهَلَّتْ مَدَامِعُ ... وبُثَّ غرامٌ طالما صانهُ كتمُ

ولكنهُ جِسْمٌ تحمَّل رُوحَهُ ... ومهما تَوَلَّى الروحُ لا يُسْألُ الجِسْمُ

وحتى مَتى شغلٌ بما شاءَهُ الهَوى ... وكيْفَ بعَزْمٍ بعدَما خذَل العَزْمُ

لِيَ الله مِنْ نفسٍ شَعَاعٍ[2] ومُهْجَةٍ ... هِيَ الغرَضُ المقصود يُثْبتهُ السَّهْمُ

يَصولُ عليَّ الشوْقُ صَوْلة جائرٍ ... إذا اغتاظ لا عَفوٌ لديْهِ ولا كظْمُ

ويَنفرُ عن عيْنِي المَنامُ كأنما ... قطًا صَدَّهُ عن وِرْدِ مَشْرَعَةٍ شَهْمُ

ويُسْلِمُنِي الصَّبْرُ الجَمِيلُ إلى الجَوَى ... فتغزونِيَ البؤسَى ويَكسونِيَ السّقمُ

لقد شَقِيَتْ طوْعَ الصَّبابَةِ أنفسٌ ... جَفا الرُّشْدُ مَثواها وبايَنها الحُلمُ

وما فتِئتْ أنْ أمْكنتْ مِنْ قِيَادِها ... يَدًا سَاءَ في الأفلاذِ[3] منها لها حُكمُ

تَفنَى بورْدِ الظَّلْمِ غُلةَ هائمٍ ... وما هو إلّا الظّلْمُ أوْ دونه الظُّلمُ

وتأمَلُ أنْ تجْنِي القدودَ ودونَها ... قتادٌ فلا مَجْنى يُنالُ ولا شَمُّ[4]

وتهْلِكُ دونَ الشهْدِ شأنَ ذبابَةٍ ... ومِنْ دون ذاك الشهْدِ لوْ يَشْعرُ السُّمُّ

علاقةُ وَهْمٍ في الخَيالِ تحكَمتْ ... ويا شَدَّ ما يَجْنِي إذا استحكم الوَهْمُ

Scanned by CamScanner

إذا لــمْ يَقــدها بالغــرامِ وُجُــودُهَا   إلـى عَـدَمٍ ألــوَى بمُـوجِدِها[5] العُـدْمُ
فكـــنْ للمَعَالِـــي والفــضائلِ عاشِـــقًا   وإنْ عَـسُرَ المطلـوبُ أوْ ثقـلَ العَـزْمُ
خِـلالُ الـندى والـبأسِ تـسْتلزِمُ الثـنا   إذا مــا تــسَنَّى لامْــرِئٍ مـنهما قـسْمُ
ولا يُـــشْهِرُ الإنـــسَانَ إلَّا امْتِـــيازُهُ   بفـضْلٍ فلـوْلا الخمْـرُ مـا كـرُمَ الكـرْمُ
فـــلا دَرَّ إلَّا دَرّ مُكـــتمِلِ النُّهَـــى   بغيْـــر المَعَالِـــي لا يُـــرى وَهْـــوَ مُهْـتمُّ
أعــارَ جَـنابَ اللهْــوِ صَـفحَة مُعْـرِضٍ   وعـافَ الهَـوى وردًا وإنْ عَـذبَ الطعْـمُ
وأضْـرَبَ عـن حَـظِّ[6] الهَـوى عندما اسْتوى   وقـد أجْمَلـتْ جُمْـلٌ وقـد أنعَمَـتْ نُعْـمُ
حَمَـى سـاحَة الطبْـعِ العَفِـيفِ كمِـثلِ مـا   حَمَـى سـاحَة المُلْـكِ المُنِـيفِ أبوحَمُّـو
ومــا هُـــنَّ فـــي التحْقِـــيقِ إلَّا صِـــفاتهُ   بهِـــنَّ إلـــى إطــرائه اسْـــتطرَدَ الـــنظمُ
و مَـــنْ مِـــثلهُ قــد أعْجَـــزَ الدَّهْـــرَ مِـــثلهُ   إذا ذكِـــرَ العَـــزْمُ الـــصَّريحُ أوِالحَـــزْمُ
أو الــدينُ مــرفوعًا علــى عَلــمٍ[7] التقــى   أوِ الكلِــمُ الحِكمِــيُّ يُـشفى بــه الكَلْــمُ
يَغـــضُّ عـــن الطَّـــيْفِ المُلِـــمِّ لِعِفَّـــةٍ   و فـــضْلِ حَـــيَاءٍ لا يكـــيدهُما الحُلْـــمُ
ويُخْجِـلُ سُـحْبَ الغيْـثِ فالبَـرْقُ[8] خجْلـة   إذا مــا هَمَــى فــي كفــهِ وابــلٌ سَـجْمُ
ويُـسْمِعُ يـومَ الخَطـبِ خُطـبَة صَـادعٍ[9]   ومِــن ضَــرْبهِ نثــرٌ، ومِــن طعْــنِهِ نظــمُ
غنِـــيٌّ بتـــضْهالِ الجـــيادِ عـــن الغِـــنا   فــلا الزِّيــرُ يَــستهْوِي نهــاهُ[10]، ولا البَــمُّ
وبالبـيْضِ راقَ الوَسْــمُ فـوْقَ صِـفاحِها   عـن البيض يُصْبي في مَعاصِمِها الوَشْمُ
إذا مـــا بَنـــى يـــومًا بـــناءَ صَـــنِيعَةٍ   تعَاهَـــدَهُ مـــنه الـــتفقدُ والـــرَّمُّ
ومهمــا اسْــتقلَّتْ فــي الــرِّقابِ حُقــوقهُ   فــلا يُعْــدَمُ الإبْــراءُ فــيها ولا الهَــضْمُ
ويُعْلــمُ ثــوْبَ المَجْـدِ بالخُلـقِ الرِّضَـى   كمــا يُعْلِــمُ الــثوْبَ الطِّــرازُ أو الــرَّقمُ
وجــاءَتْ بــه الدنــيا النــزورُ، فأنجَــبَتْ   و أزحامُهـــا فـــي مِـــثلِهِ شَـــأنها العُقـــمُ
أجَـــلُّ المُلـــوكِ الـــصِّيدِ ذاتًـــا ومَحْـــتِدًا   فمــا فــوقه مَــنمًى لِمَــنْ شــاء أنْ يَــسْمو
وفخْـــرُ بنـــي زيـــانَ يَخْـــضرُ إنْ خطـــوْا   ويُـــسْرعُ إنْ أبْطـــؤوا ويَمْـــضي إذاهمُّـــوا
فلــوْلا ولــيُّ العهْــد مــا ضَــلَّ قائــلٌ   بــه الــبذءُ فــي علــيائهمْ وبــه الحَتْــمُ
ولكــــنه إرْثٌ قـــــديمٌ وحـــــادثٌ   ومنبتُ فضْلٍ ليس يلوي له جذْمُ

Scanned by CamScanner

وإنَّ بني زيانَ في أفقِ العُلى   لأنجمُ هذي كلّما أفلَ النجمْ
غيوثٌ إذا أعطَوْا ليوثٌ إذا سطَوْا   أهِلَّةُ هالاتِ البهاءِ إذا اعتمُّوا
أُمُعْمِلَها في حَوْمَةِ الجُودِ غارةً   تأزَّرَ فيها النصرُ، واستبحرَ الغُنمْ
وقادِحَها في هَضْبَةِ الحزبِ(12) جَذوةً   رَمتْ شرَرًا يَشقى بها العُرْبُ والعُجْمْ
تباركَ مُعْطِيكَ الكمالَ كأنما   تصَوَّرْتَ مُختارًا وكانَ لكَ الحُكمْ
ظهَرتَ وُجودًا واحتجَبتَ لطافةً   كأنكَ رُوحٌ لا يُصاحِبُهُ جِسْمْ
يقولونَ مختارٌ(13) بنِصْبةِ مَولِدٍ   وما إنْ يُنيلُ الحظَّ شَمسٌ ولا نجمْ
وما هي في التحقيقِ إلّا مَواهِبٌ   مِنَ الله قبلَ الكَونِ عيّنها القَسْمْ
أموسى لقد أمسَى حَديثك في الوَرى   صَحائفَ تتلى ما لِشائِعِها كَتْمْ
على قَدَرٍ قد جئتَ قومَكَ عندما   تناهتْ بها البُؤسَى وأجْهَدَها الأزْمْ
طلعتَ لها في الجُنحِ شَمسًا مُنيرَةً   فأشرَقتِ الأرجاءُ وانفرَجَ الغَمّْ
وجَدَّدتَ فيها دَولةً مُوسَوِيَّةً   سَجِيّتُها عَدلٌ، وشِيمَتُها حِلمْ
أبو تاشفينَ حَدُّها وحُسامُها   قد صَحَّ منها الحَدُّ في المَجدِ والرَّسْمْ
فأنتَ بها لا زِلتَ شَمسَ ظَهيرَةٍ   وها هُوَ مِنْ إمدادِكَ القَمَرُ التِّمُّ
أما والذي أغنى وأقنى ومَنْ لهُ   مِنَ النَّسَمِ الرُّجْعَى بَلى ولهُ الحُكمْ
ومَنْ أوجَدَ الكَوْنَ اختِراعًا ولم يَكنْ   مِثالٌ لهُ يُحْذى عليهِ ولا رَسْمْ
و دَارَ المُحيطُ المستديرُ بأمْرِهِ   على قُطُبٍ بادٍ وإنْ عَظُمَ الجِرْمْ(14)
ومَنْ سَجَدَ الخَلقُ اعتِرافا لِعِزِّهِ   فلا شَجَرٌ يَأبَى السُّجُودَ ولا نَجْمْ
لقد فزتَ بالقدحِ المُعلَّى من العُلى   وسَلَّمَ في الحَقِّ الصَّريحِ لكَ الخَصْمْ
وباتتْ(15) لِرَبِّ الخَلقِ فيكَ عِنايَةٌ   وآياتُ لطفٍ لا يُخَيِّلُها الحُلْمْ
فكمْ فتَّ مِن خَطبٍ وجَاوَزْتَ مِن رَدى   تذوبُ لِحَرّاه المُلمْلَمَةِ الصُّمُّ
فما كنتَ إلّا دُرَّةَ المَجدِ كلّما   تَرَدَّدَ فيها الوَصفُ لم يَعرفِ الوَصْمْ
وياقوتةً قد مَحَّصَ الدَّهرُ سِنخَها   صَليًّا فلا ثَلبٌ لَدَيها ولا ثَلمْ
عَلِقتَ بحَبْلِ اللهِ كفًّا تمكّنتْ   مِنَ العُروَةِ الوُثقى التي ما لها فَصْمْ

Scanned by CamScanner

وقد ذعرَ الغُربانَ منك غضنفرٌ ... أزَلُّ عريضُ الصَّدرِ ساعِدهُ فعْمُ

ومُلتفِتٌ عن جَذوتينِ[16] إذا هَوى ... أو انقضَّ قلتَ الشهْبَ يَقذفُها الرَّجْمُ

إذا ضَمّ أبْطالَ الهياجِ تعانقًا[17] ... فكمْ مفرَدٍ أوْدَى عَلامَتهُ الضَّمُّ

فقلْ لهُمْ للحقِّ في الخَلقِ صَوْلة ... ولوْ نفرَتْ ياجوجُ وارْتفعَ الرَّدم

ولوْ أجْلبَتْ للحَرْبِ عادٌ وجُرْهُمٌ ... ولبَّتْ جَدِيسًا إذ دَعَتْ أختها طسْمُ

ولوْ أقسَمَتْ أنْ تغْلِبَ الجَمْعَ تغْلِبُ ... وتنسِفُ جِزمَ الأرض إنْ حَملتْ جَرْمُ

وَراءكُمْ عَمَّا أردتمْ فإنها ... لدائِرَةٌ للرَّأي[18] دَاخِلُها الخَرْمُ

متى تزجَحُ الشهْبَ الحَصى لافتِخارِها ... بكثْرَتِها أو تذعَرِ الأسْدَ البَهْمُ

فلوْلا التقاضِي جَبَّ غاربَها الرَّدَى ... ولوْلا التجافي عاثَ في ظهْرِها القصْمُ

لِموسى أبي حَمُّو بن يوسُفَ آيَة ... وبُرْهانُ صِدقٍ لا يُعَانِدهُ خَصْمُ

وَرُبَّتَما نالَ المُسَمَّى مِنِ اسْمِهِ ... نَصِيبٌ على حُكمِ العِنايَةِ أوْ قسْمُ

أدَالَ مِن البُؤسَى ونجَّى مِن الرَّدَى ... فعَمَّتْ به في قوْمِهِ النعَمُ العُمُّ

وأنقذهمْ مِن حَيْرَةِ التيهِ بعْدَمَا ... تقطعَتِ الأسْبابُ وانتثرَ النظمُ

وهَشَّ على يَمِّ الشدائِدِ بالعَصَا ... ووَافقَ إذنَ اللهِ فانفلقَ[19] اليَمُّ

لك الله مِن مَبنى على مشرق السَّنا ... حَرامٌ على أركانِهِ الهدُّ والهَدْمُ

ومِن جَبَلٍ للحِلمِ أشرَفَ وَاعتلى ... فدانتْ له بالعِزَّةِ القُلَلُ الشمُّ

لك الله مِن قلبٍ له خُلقَ الهُدَى ... لك الله مِن كفٍّ لها خُلِقَ اللَّثمُ

لك الله مِن وَجْهٍ وَجيهٍ يَجِلُّ عن ... شبيهٍ فلا فظُّ اللِّقاءِ ولا جَهْمُ

له الحُسْنُ خَالٌ والقبُولُ قبيله ... ومِن مَحْتِدِ الفضْلِ المُبينِ له عَمُّ

إذا زَعَمَتْ شمْسُ الظهِيرَةِ أنهُ ... أخوها بلا شكٍّ فقد صَدَقَ الزَّعْمُ

توالي مَنِ استرْعَيتَ أمْنًا ورَأفة ... ورِفقًا كما تحْنو على المرْضَعِ الأمُّ

وتبلغ أعنانَ السماءِ بهِمَّةٍ ... بغيْرِ جَمِيلِ الذكرِ ليسَ لها هَمُّ

وتوجِفُ مِن فضْلِ الخِطابِ لغَايَةٍ ... أنافتْ[20] وجلَّتْ أنْ يُحِيطَ بها وَهْمُ

وتصمي رمايا الغائِباتِ بفِكْرَةٍ ... يُؤيِّدها[21] التقوى ويُنجدها العِلْمُ

Scanned by CamScanner

كمالٌ ولا نقصٌ ورُشدٌ ولا هَوَى   ومَنحٌ ولا مَنعٌ ومَدحٌ[22] ولا ذمُّ
وما شِئتَ مِنْ فضْلٍ و لطفِ سِياسةٍ   يُطِيعُ بها العَاصِي وتستنزَلُ[23] العُصْمُ
ومُقعَدِ مُلكٍ طالِبيّ نِجَارُهُ   عَلاهُ مُرَدًّى بالمَهابَةِ مُعْتَمُّ
مَلِيٌّ بأوْصافِ الإمامِ بمِثلِهِ   ولا مثلِ مَن يَبْغِي الإمامَةَ يُؤتَمُّ
إذا اجتمَعَ الإقدامُ والرَّأيُ والتقى   وسَاعَدَ سَعْدٌ واسْتقلَّ بِه عَزْمُ
ولاحَتْ بآفاقِ السَّماحِ مَخيلة   من الجودِ يَتلو بَرقها العارضُ السَّجْمُ
وقامَ على التقوى بِناءُ سِياسَةٍ   يُمَهِّد مِنْ أساسِ أرْكانِها عِلمُ
ورفَّتْ عليها نِسْبَة طالِبيَّة   فليْسَ ظلامٌ في الوجُودِ ولا ظُلمُ
هَنِيئًا لِضَيْفٍ في ذراكَ قرَارُهُ   بحَيْثُ النوالُ الغمْرُ والكرَمُ الجَمُّ
فآمالُهُ للفِكرِ نضبٌ وعَيْشهُ   كما شاءَهُ خَفضٌ وطاعَتهُ جَزْمُ
أطيَّة تهْجيري وباعِثَ رِحْلَتِي   فلوْلاكَ لمْ يُذكرْ عِقالٌ ولا خَطمُ
أتتك على حُكمِ الوِدَادِ غريبة   نتيجَة فِكرٍ لا يُبينُ له[24] رسْمُ
وهَلْ مُنة ترْضِي إذا كلَّتِ القوى   وبَانَ اشتِعَالُ الرَّأسِ أو وَهَنَ العَظْمُ
على أنها البُرْدُ اليَمانِيُّ كلَّما   تقادَمَ أهْوَى نحْوَهُ[25] اللثمُ والشمُّ
وأذكرَ مهما رِيءَ أرْضًا بَعِيدَة   وبانَ له فضْلٌ[26] ورَاقَ به رقمُ
فلوْ زَمَن ابْنِ الجَهْمِ أشْرَقَ بشرُها[27]   لمَا سُرَّ بابن الجَهْم والِدُهُ الجَهْمُ
ولوْ نشِرَ الطَّائِيُّ يوْمَ اجتِلائِها   لجَلَّلهُ[28] مِن أجْلِ إيثارِها غمُّ
جَعَلتكَ مَرْمَى هِمَّتِي ومُؤَمَّلاً   لِنيْلِ التي ما هَامَ في غيْرِها هَمُّ
وقوَّضتُ رَحْلِي عن بلادٍ نبَا بها   مِهادِي إلى حَيْثُ السَّلامَة والسِّلمُ
وما كنتُ أخْشى الجَوْرَ في حُكمِ جيرَةٍ   أجَرتهُمُ فاغتدَّ ذلك لي جُرْمُ
أتيتهُمُ بالصُّبحِ لكِنهُمْ عَمُوا   وآذنتهُمْ بالنصحِ لكِنهُمْ صَمُّوا
سَأذكرُهُمْ حَيْث اختللتُ وإنْ نسُوا   وأمْدَحُهُمْ مهمَا قدَرْتُ وإنْ ذمُّوا
وأنتَ لها مِن بُغيَةٍ مَطلتْ بها   صُرُوفُ زَمانٍ نالَ أنفِي بها رَغمُ
إلى أنْ أقضِي في مِنَى الفوْزَ بالمُنى   ويَثبُت في أهْلِ السعادة لي سَهْمُ

Scanned by CamScanner

فيا مَنْ رَآني والحُدَاةُ مُرِنَّةٌ بِشِعْري إذاما زَمْزَمَ القومُ أوْ زَمُّوا
تَخُبُّ بِرَحْلِي كلُّ شاكِيَةِ الوَجَى هي القوسُ تَرْمِي الرُّكنَ راكِبُها سَهْمُ
خَمَتْها النَّوَى قُرْبَ القصِيمِ[29] أوالنوى فلم تَبْقَ إلّا جِلْدَةٌ تحتها عَظْمُ
وقد حَطَّ كُورِي في جِوارِ مَثابَةٍ بها تُكْتَبُ الزُّلْفَى ويُغْتَفَرُ الإثْمُ
وكان بحجِّ البيتِ بَدْئِي ويَعْدَهُ بقَصْدِ رسولِ الله يُسِّرَ لي خَتْمُ
ولَمْ لا يَنالُ السُّؤْلَ عندك قاصِدٌ ومِثْلُكَ مَنْ لَمْ يُخْطِ قاصِدَهُ غُنْمُ
فلا زِلْتَ في عِزٍّ مَنِيعٍ جَنابُهُ مُطِلٍّ على الأيامِ مَنْكِبُهُ الضَّخْمُ
لذِكْرِكَ في الآنافِ عَرْفٌ مُؤَرَّجٌ كما انتشقَ الرَّيْحانَ والرَّاحَ مُشْتَمُّ
ومَثْواكَ مَقْصُودٌ وحُبُّكَ طاعَةٌ وأمْرٌ على الأعْيانِ مُفْتَرَضٌ حَتْمُ[30]
أعَدْتَ على الأيامِ رَوْنَقَ بِشْرِها ومَنْظَرُها بادِي الكآبةِ مُغْتَمُّ
وصارَتْ ليالِي الدهرِ غُرًّا وُجُوهُها وناصِعَةً أوْضاعُها وَهِيَ الدُّهْمُ
فدُمْ ما بَدَا صُبْحٌ ودُمْ ما دَجى دُجًى ودُمْ ما هَمَى غَيْثٌ، ودُمْ ما بَدَا نَجْمُ

قلتُ: وفي غرّةِ شهر ربيع الأول كان قدومي على بابهِ الكريم مُعترفًا بالكثيرِ، متبرّئًا من الإصرار، مُستقيلاً العِثار، لم أقدِمْ إليه شافِعًا غيرَ حُبّي فيه، ولا عَرَفْتُ إليه وسيلة سِوى إحسانِه السابقِ إليَّ، ولقِيته بالوجه الذي ألقى به غافِرَ الخطايا[31]، وقابلَ التوْبِ يوْمَ لا يَنفعُ مالٌ ولا بَنونَ إلّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سَليمٍ[32]، فعفا، نصره الله وخلّدَ مُلكه، وأصْلح وجَبَر ونوّه، وتجاوز عن الفرط، فضلاً لا يليقُ إلّا به، ومَجدًا قلَّ أن يُعرَف مِن سِواه، أوزعَني الله شكرَ نعمائه. ثم أخَذ، أخذ الله بيدِه يومَ الفزعِ الأكبر، بالضَّبْع، واستردَّ الخطَّة، وأعادَ كما كانت الجراية. فالحمد لله الذي لم يَقضِ المَنيّة، حتى بلغت من رضاه الأمْنِية، وتبَحْبَحْتُ ببابه الكريم في العيشة الهنيّة، دامتْ أيامُه، وعلا[33] مَقامُه، وانقادَ برَسَنِ اقتراحِه أمَلُه ومَرامُه، إن شاء الله تعالى.

رَجعَ التاريخ. وفي ثالث يوم وُرُودي على بابه الكريم استرْكَبَ، نصره الله، ولَده المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين، أعزه الله، ليلاً في خِفٍّ[34] من الناس لارتياد منزلٍ بكائنِ مَعْقِل أشقياءِ مغراوة، كي ينزله نصره الله للإضافة عليهم، وأصبح

Scanned by CamScanner

أعزه الله بسفح جبلهم. فلما بصروا به أشرفوا إشراف الوعول من صياصيهم شاخِصة أبصارهم، قد قذف الله في قلوبهم الرُّعْبَ، فطارت إليهم مَناسِرُ أبطاله الشجعان، وناشبوه الحرب، فكسحوهم، ثم ركبوا عليهم الذرى كالفُتْخ الكواسِر. فيا سرعانَ ما ملكوا ذلك المعقل، واحتازوا حِللَ تلك الشياطين بما ضمّته من مالٍ وحُرَم، وتفرّقوا أيدي سَبَأ. فاعتمدَ كبيرُهم علي بنُ هارون بجاية، فركب بحرها إلى المغرب، وراح المولى أبو تاشفين، أعزه الله، ليْلاً إلى باب مولانا أمير المسلمين، أيده الله، بالنصر العزيز والفتح المبين. ويا بَرْدَها على كبدِي، فلقد كان أول إنشاءٍ أتِيَ ببابه الكريم[35] كتاب هذا الفتح العلي[36].

وغدا خبرهم على أبي زيان وحُصَيْنِهِ وثعالِبَتِهِ، فضاقتْ عليهم الأرْضُ بما رَحُبَتْ وتنادَوْا مؤتمِرين، وصرف الخليفة، نصره الله، وجهَ القصْدِ لمَحْو ضلالِهم، فلم يجدوا بُدًّا مِن الانقِيادِ إلى طاعته الكريمة[37] واسْتِقالتِهِ عثرَاتهم، فأتته رُسُلهم بالخُنوعِ والانقِياد. ورغِب أبو زيان من مَقامِه العَلِيّ صِلة رَحِمِهِ بإحسانٍ يَترمّقه في سبيلِ حَجِّه. فقابَلَ، نصره الله، ذلك منهم بالقبول وإجابةِ الداعي، وصرف الشيْخَ أبا عبد الله محمد ابن عريف بن يحيى السُّوَيْدِيّ، أنصح عربه الآن إليه، بما سأله أبو زيان، ليصرفه إلى قصْدِه، ويُؤمِّنَ كلَّ خائف من البوادي الشرقية والحواضر، فتمَّ ذلك حسب المُنى والاقتراح. وعاد المذكورُ إلى بابه العَلِيّ بأشياخ حُصَيْن والثعالِبَة وأعيان حَضَرِ الجزائر والمَدِيَّة مُقِرّين بخطاياهم، مستغفِرين لذنوبهم. فتلقاهم، أيده الله، بالرضى والبشر، وخفض لهم جناحَ الغفران والأمْن، وصرف الجميعَ بقرَّة العيون وشِفاء الصدور، لا زالت أيامُه مَظاهر فخرٍ، ومَقامُه مَحَلَّ كمالٍ إنْ شاءَ الله.

وعيَّن، نصره الله، لكُوَرِ بلادِه الشرقية القوّادَ والعُمَّالَ، وجدَّد[38] بها الحدودَ ورتبَ الألقابَ ومهّد الأرجاءَ وأمَّن السُّبُل، وأعاد للرَّعايا مواسم العدل، وأضحك فيهم مباسم الفضل، ونشر الأعلام إلى حضرته العَلِيَّة، فدخلها يومَ الأحد الثاني والعشرين لجمادى الأولى منصورَ البنود، مؤيَّد الجنود، والحمد لله، وقد فاتت ليلة المولد الكريم. فأرسل لِحِينِه الشيخَ أبا عِمران موسى بن خالد بن محمد، إلى مَلِك

المغرب السلطان أبي العباس أحمد ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن لتجديد عهد المصادقة وتثبيت عقد السِّلم فتكمّل ذلك وعاد المذكورُ إلى الحضرة العلية[39] في الثاني والعشرين من شعبان المكرَّم.

وفي شهر رجب الفرد، حذق ولده المولى الأمير الأسعد أبو زيان محمد، أسعده الله تعالى، سورة البقرة، فأقام، نصره الله، لسروره مَدعًى كريمًا وعُرْسًا حافِلة، جمَعَتْ الشريف والمشروف، والرفيع والوضيع. ونوديَ في أرباب الغِناء والعزف والطبرخانات والكريج[40] وسواهم بالمدينة حاشرين، فاجتمعوا بمشوار داره الكريمة يروقون الأبصار ويبهجون الأسماع. واستناب أيده الله، للحضور، ولده المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين، أبقاه الله. وجيءَ بخوانات الطعام الكثيرة[41]، من كل ما حلا في الفم، وحَلِيَ في العيْن، فطَعِمَ الناسُ، وحمدوا الله تعالى على ما مَنحَ مولاهم من قرّةِ العَيْن في النفس والمال والبَنِين، خَلَّدَ الله سلطانه، وأسعد الكريم زمانه. ورَفَعَ يومئذٍ محمد بن يوسف القيسي الأندلسي قصيدة هي قوله:

تهلَّـلَ وجـهُ الـرَّوْض[42] وابْتَـسَمَ الزَّهْـرُ وغـارتْ بـه فـي أفقِهـا الأنجُـمُ الزُّهْـرُ
وضـاحكتِ الأرْضُ الـسَّماءَ مَـسَرَّةً وقابلهـا مـن كـلِّ رَيْحانـةٍ ثغـرُ
ومالـتْ قـدودُ القـضْبِ زَهْـوًا كأنهـا نـشاوَى تَمَـشتْ فـي مَعاطِفِهـا الخَمْـرُ
وغَـنَّتْ قِيـانُ الـوُرْقِ خَلـفَ ستورِها ولِلْـوُرْقِ إنْ غـنتْ بأوراقِهـا سِـتْرُ
أجَـدَّتْ سُـرُورًا فـي صَنيعِ خليفةٍ أتاحـتْ لـه الأقـدارُ ما يقتضِي القدرُ
لِمَـوْلايَ موسـى أبْـدَتِ الأرْضُ زِينـةً فـتوَّجَهَا زَهْـرٌ ووَشَّـحَها نهْـرُ
وقـد رَفلـتْ فـي حُلّـةٍ سُندُسِـيَّةٍ وَشـاها الـصَّبَا وَشْـيًا ودَبَّجَها القطرُ
فَلِلـرَّوْضِ إيـراقٌ بـنائِلِهِ الـذي غـدَا الرَّوْضُ منه وَهْوَ فَينانُ مُخْضَرُّ
وللزَّهْـرِ إشْـرَاقٌ بمَخْفلِـهِ الـذي غـدَا الدَّهْـرُ مـنه وَهْـوَ جَذلانُ مُفتَرُّ
ولِلّـهِ مِـنْ يَـوْمٍ أغَـرَّ مُحَجَّـلٍ وأيَّـامُ مـولانا مُحَجَّلـةٌ غُـرُّ
بـه الحُـسْنُ والحُسْنى جَميعًا تجَمَّعـا تلاقـتْ بـه البُـشرى وراقَ بـه البِشْرُ
وقـد سُـرَّ أبنـاءُ الملـوكِ بأنـسِهِمْ وناهِـيكَ مِـنْ أنسِ المُلوكِ إذا سُرُّوا

Scanned by CamScanner

أشمسَ الهُدى أطلعْتِ في أفقِ العُلى … نجومًا ولِيُّ العهْدِ بينهُمُ البدرُ

أبو تاشفين سَيفُ دَوْلتك الذي[43] … له السؤددُ المأثورُ حيثُ انتهى الفخرُ

له العَلم المَنصورُ في الحزب دائمًا[44] … له الكرَمُ المشهورُ والنائلُ الغمْرُ

أميرُ هدى[45] أرضَى الخِلافةَ أمْرُهُ … فقد فازَ بالرِّضْوانِ مِمّنْ له الأمْرُ

تلاهُ أخُوهُ في عُلاهُ وإنهُ … لمُنتصِرٌ باللهِ عَزَّ به النصْرُ

وإنَّ أبا زيّانَ زَيْنٌ لِذاتِهِ … زَكى منه نجْلٌ حِينَ طابَ به نجْرُ

وقد حَذقَ القرآنَ حَذقَ مُجوّدٍ … فأشرَقَ منه القلبُ وانشرَح الصدرُ

وهَشتْ له الجوْزاءُ تخْدم حَفلهُ … و قد شُدَّ للجوزا بمِنطقِهِ خَصْرُ[46]

ويَتلو كتابَ اللهِ واللهِ حافِظ … لِتالِي كِتابِ اللهِ ما حُفِظَ الذكرُ

وقرّة عَيْنِ المَجْدِ يوسُفُ صِنوُهُ … بمجدِهِمْ العَلياءُ شُدَّ لها أزْرُ

وكوْكبُ أفقِ السَّعْدِ خامِسُهُمْ أبو … عَلِيّ عَلا في المَغْلُوَاتِ له قدْرُ

وناصِرُهُمْ يَتلوهُ عُثمانُ واقتدَى … بفارس عبدُ اللهِ فانتظَمَ الدُّرُّ

فيا مَلِكًا فاضَتْ أشِعَّة نورِهِ … فأشرَقَ منها للعُلى أنجُمٌ زُهْرُ

لِيَهْنِكَ أبْناءٌ بَنيتَ بهَديِهِمْ … من الدِّينِ أركانًا يُهَدُّ بهَا الكفرُ

بهِمْ تزْدَهِي الأعلامُ والبِيضُ والقنا … كمازَهَتِ الأقلامُ واللوْحُ والحِبْرُ

فما منهُمُ إلّا أمِيرٌ مُمَجَّدٌ[47] … وما منهُمُ إلّا رِضًى ماجدٌ بَرُّ

جمَعتمْ لدَى القَصْرَيْنِ كلَّ فضِيلةٍ … سَمَا لكمُ في الخافِقيْنِ بها ذِكْرُ

مَآثِرُ شتّى من قِرًى وقِراءةٍ … تضَمَّنَ منها كلَّ مَأثرَةٍ قصْرُ

فمِنْ صَدَقاتٍ غارَ مِنْ جودِها الحَيَا … وفيْضِ هِباتٍ غاضَ في جودِها البَحْرُ

دَعَوتمْ إليها كلَّ بادٍ وحاضِرٍ … فلبَّوْا كأنَّ الناسَ ضَمَّهُمُ الحَشْرُ

كأنَّ الثُّرَيّا نحْوَكم مُدَّ كفُّهَا … فمِنْ نيْلِكمْ في كفِّهَا وَرِقٌ وَفْرُ

كذا تُبْتنَى العَلْيَا ويُذخَرُ الثنا … وتكتَسَبُ الزُّلفى ويُغتنمُ الأجْرُ

مَكارِمُ لا تنفكُّ تزْدَادُ جِدّةً … على الدهرِ لا تبلى وإنْ بَلِيَ الدهْرُ

فدامَتْ بكَ الأيامُ تظهِرُ حُسنَها … فيَحْسُنُ في أوْصافِكَ النظمُ والنثرُ

Scanned by CamScanner

فيا مَنْ رأى الشعْرَى ينظمها الشعْر ... ودونك مِنْ دُرِّ الدَّراري قوافيا
قوافٍ قفتْ أثْر النجوم مناهجًا ... فليْسَ بمقفيّ لها أبدًا أثر
وما هي إلّا بكرُ[48] فكرٍ أتتكمُ[49] ... وفي لفظها دُرٌّ وفي لحظها سِحْر
مُخبِّرة مَنْ قال مُستخبرًا لها ... سلا[50] هل لديها مِنْ مُخبِّرة ذكْر

وفي اليوم الثلاثين من شعبان[51] المكرم، صدر أمره الكريم، أعلى الله مقامه، باستنابة ولده المولى الأمير الأعلى أبي تاشفين أعزه الله، وقصر النظر في المُلك عليه، وإطلاق يده على السيف والقلم والخراج والحكم، وكتب بذلك صَكٌّ كريم. فأبى[52] المولى أبو تاشفين، أنجح الله مساعيه[53]، من قبول ذلك، بُرورًا بمولاه، واستنكافًا من التقدُّم بين يديْهِ أو تفويت عقدٍ أو حَلّ عليه. فأحضره نصره الله بين يديْه، وعاتبه[54] في ذلك، وألقى إليه بمقاليد الخلافة، فغضّ الحياءُ من بصره، وأخذت الهَيْبة بمجامع نطقه[55]، فما تَبس ببنت شفةٍ وانصرف فأمرَ لحينه بإنعال مراكبه، وأزمع الانتباذ إلى بعض الزوايا، أو الإفحاص إلى جانبٍ من البادية، تخلُّصًا من ذلك، فرفع عنه نصره الله الحرج، وأقاله ممّا ندبه إليه. وأنتَ ترى، أعزك الله، فضلَ هذا الخليفة، خلّد الله مُلكه، وبرّ ولده، أبقاه الله تعالى به. واعتماده السبيل الأقوَم من طاعته دليل شرفٍ وضّاحٍ، ونور كمالٍ لِيَاحٍ، خلّد الله مُلكهم، وأبقى عِزّهم، وضاعف معارجَ كمالهم.

وفي ثاني شهر رمضان المعظم، ورد الخبر بأنَّ يحيى بن عمر العجيسي، قدّم وَطَنِ زَوَاوَة وفخله، خدَعَ حَمْزَة بن عُمَر بن موسى المَطهَريَّ، كبيرَ قوّادِ مولانا أمير المسلمين، أيده الله، هنالك، بطلبه اجتماعَهما عند صالح ذلك القطر ليتقاسما على المصادقة والكدح في خِدمة الخليفة نصره الله. فأجابه إلى ذلك. واتفق أنْ مَرّ حمزة بأبيات يحيى المذكور، فأقسم عليه لينزلنَّ، مُوَرِّيًا بقِراه، فنزل[56] وافترقَ أصحابُه بالأبيات، فركب يحيى فرَس حمزة، وصاح بعبدانه: " اقتلوه "، فاغتوَرَتْ حمزةَ السّكاكينُ وسط البيت، فردّتها عن أدِيمه دِرْعٌ كان قد تدَثّرَها حزمًا، وخرج فارًّا عن البيت، ثم اعْرَوْرَى فرسًا سائمًا[57] بِسَاحِ البيوت ونجَا. فاتبَعَه يحيى المذكور بعد أن

ناوله أحد خُدَّامِه رمحًا، فكرَّ به على يحيى الغادر المذكور، فضربَه فأشوَاهُ، فاحتضن تلِيلَ[58] فرسِه عاجزًا عن المدافعة، والفرسُ كما قلناه لحَمْزَة، فركِب به رأسَه إلى خِيامِ مولاه، إلى أنْ وقفَ بفِنائِها، فثار به النساءُ، فأجهزنَ عليه، وردَّ الله كيْدَ الغادر في نحره، سعادَة لأمير المسلمين، أيده الله، واضحة الدليل، وعناية من الله تعالى بأمره الكريم غريبة الأثر، والله لَا يَهْدِي كيْدَ الخَائِنِينَ[59].

وفي تاسع رمضان المعظم وصلت إلى بابه العَلِيّ بيْعَة مدينةِ تدلُّس، دخلها قوّاده الأنجاد عنوة في اليوم السادس والعشرين من شهر رمضان، فشمل أهلها الصَّفحُ والأمانُ، وعَفا عن قائدٍ للموحِّدين كانَ بها، فرَفعَ لمَقامِه العَلِيّ، في غرَض الهناءِ بها، الفقيهُ الكاتبُ أبو الفضْلِ ابن الشيخ الفقيه العدل أبي عبد الله محمد بن علي العِصامي، أحد كتَّابِ الإنشاءِ ببابه العَلِيّ، قطعة حسَنة، هي قوله:

بُشرَى كمُنبَلِجِ الصَّباحِ المُسفِرِ ... أوْ كالصَّبَا جاءتْ بِرَيَّا العَنبَرِ
حَيَّاكَ عاطِرُ نشرِها فكأنما ... دَارينُ أهْدَتْ طِيبَ مِسْكٍ أذفرِ
جاءتكَ تخْبرُ بالفتوحِ كريمة ... أكرِمْ بها مِنْ قادِمٍ ومُبَشِّرِ
وافتْ بفتحِ تدَلَّسٍ لكَ مَوْئِلي[60] ... فاهْنأ بمُلكِ بالفتوحِ مُؤَزَّرِ
فتدَلَّسٌ تقضِي بفتحِ بجايَةٍ ... فانهَضْ بعَزْمِكَ أوْ بسَعْدِكَ تظفرِ
واكرَعْ بوادِيها وجُلْ ببَدِيعِها[61] ... ورَفِيعِها الزَّاهِي بذاكَ المَنظرِ[62]
وافرَعْ مَعَاقِلها وجُسْ بخِلالِها[63] ... فالله يَمْنحُها بأمْرِ أيْسَرِ[64]
لا زِلتَ ذا سَعْدٍ جديدٍ[65] ترتقِي ... أوْجَ الكمالِ على توالِي الأعْصُرِ
وبَقِيتَ في العِزِّ المَكينِ مُؤَيَّدًا ... مَهْما سَرَتْ نفحَاتُ رَوْضٍ مُزْهِرِ
وشدَتْ بقضْبِ البانِ وُرْقُ حَمائِمٍ ... وسَرَتْ صَبًا تهْدِيكَ عَرْفَ الإذخرِ[66]

ورفع أيضًا في ذلك الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي بن قاسم المُرْسي[67] أحد الكتاب بداره العلية، قوله:

مَوْلى المُلوكِ ووَاحِد الخلفاءِ ... ومَقرُّ كلِّ مجادةٍ وعَلاءِ
ومَنوِّلَ العَافِينَ مَا لَمْ يَحْوِهِ ... فكرٌ ولا لمَحَتْه عَيْنُ الرَّائِي

Scanned by CamScanner

لِلهِ فـي تكييفِ أمـرِكَ حِكمَـةٌ بَهَـرَتْ شـواهِدُهَا وسِـرُّ سَـماءِ
حَكمَتْ بتسْويغِ السَّعَادَةِ والمُنَى وقَضَتْ لِعِزِّكمْ بنصْرِ لِـوَاءِ
فـشَأوْتَ أمْـلَاكَ الزَّمانِ بأسْرِهِمْ شَـأوًا عَلَـوْتَ بـه عـن النظـراءِ
وغـدَوْتَ أحْـرَزَهُمْ لأسْبابِ العُلَى طُـرًّا وأحْـوزَهُمْ لِطِـيبِ ثـناءِ
فلِيَهْـنِكَ الفـتحُ الـذي عَـذبَتْ بـه بـيْنَ الملـوكِ[68] مَـوَارِدِ السَّرَّاءِ
فـالله يَجعَلـه بدَايَـةَ أنعُـمٍ خُوِّلـتها مـن واهِـبِ الـنعْماءِ
مَـوْلَايَ يـا كهْـفَ العُفـاةِ ووَاهِـبَ الـنعْما ومَسْرَحَ ألسُنِ الشعَرَاءِ
أجْنيْتنِـي ثمَـرَ الأمانِـي دَانِـيًا فجـزَاكَ عنِّـي اللهُ خَيْـرَ جَـزاءِ
لا زِلـتَ مُظهِـرَ آيِ رَبِّـكَ ترْتقِـي أوْجَ الـسِّماكِ وكاهِـلَ الجَـوزاءِ

ورفع الفقيه أبو عبد الله[69] محمد بن يوسف الثغريُّ[70] الأندلسيُّ قصيدة هي:

أيُّهـا الحافِظـونَ عَهْـدَ الـوِدَادِ جَـدِّدُوا أنْـسَنا بـبابِ الجِـيَادِ
أيْـنَ أيامـنا وأيـنَ لـيَالٍ كـلآلٍ نُظِمْـنَ فـي الأجْـيادِ
فـي رِيـاضٍ مُنـضَّدَاتِ المَجانِـي بـيْنَ تِلـكَ الرُّبَـى وتِلـكَ الـوِهادِ
وبُـرُوجٍ مُـشيَّدَاتِ المَبانِـي بَادِيَـاتِ الـسَّنا كـشهْبٍ بَـوَادِ
رَقَّ فـيها النـسِيمُ مِـثلَ نـسِيبي وصَـفا النهْـرُ مِـثلَ صَـفوِ وِدَادِي
وَزَهَـا الزَّهْـرُ والغـصُونُ تثـنَّتْ وتغـنَّتْ علـيه وُرْقٌ شـوَادِ
وانبَـرَى كـلُّ جَـدوَلٍ كحُـسَامٍ عـارِيَ الغمْـدِ سُندُسِـيَّ الـنِّجَادِ
وظِـلالُ الغُـصُونِ تكـتبُ فـيهِ أحْـرُفًا سُـطِّرَتْ بغيْـرِ مِـدَادِ
تذكـرُ الوَشـمَ فـي مَعَاصِـمِ خَـوْدٍ قـضُبٌ فـوقهُ ذوَاتُ امْـتِدَادِ
وكـؤوسُ المُنـى تـدَارُ عليْـنا بجَنـى عِفَّـةٍ وثِقـلِ اعْـتِقادِ
واصْـفِرَارُ الأصِـيلِ فـيها مُـدَامٌ وصَـفِيرُ الطُّـيورِ نغمَـةُ شـادِ
كـمْ غـدَوْنا بهـا لأنـسٍ ورُحْـنا جَادَهـا رَائِـحٌ مِـنَ المُـزْنِ غـادِ
ولكـمْ روحَـةٍ علـى الدَّهْـرِ[71] كـادت أنْ تـريحَ الـصَّبا لـنا وَهْـوَ غـادِ
رَقَّـتِ الـشمْسُ فـي عَـشاياهُ حَتـى خـدَّثتْ مـنه رِقَّـة فـي الجمـادِ

جدّدتْ بالغروب شجوَ غريبٍ   هاجه الشوقُ بعد طولِ البعادِ
يا حيا المزن حيّها مِن عراصٍ   غرسَ الحبُّ غرسَها في فؤادي
وتعاهد معاهدَ الأنس فيها[72]   وعُهودَ الصّبا بصوْبِ العهادِ
حيث مغنى الهوى وملهى الغواني   ومُرادُ المُنى ونيْلُ المُرادِ
ومقرُّ العُلى ومرقى الأماني   ومَجرُّ القنى ومَجرى الجيادِ
كلُّ حُسْنٍ على تلمسانَ وقفٌ   وخُصوصًا على رُبى العُبّادِ
ضحكَ النورُ في رُباها وأربى   كهفُ ضحّاكِها على كلِّ نادِ
وسما تاجُها على كلِّ تاجٍ   وسَطَفُ صيفها[73] على كلِّ وادِ
يدّعي غيرُها الجمالَ فيقضي   حُسنهَا أنَّ تلكَ دعْوَى زِيادِ
و بِشعري فهمتُ مغنى غلاها   مِن حُلاها فهِمتُ في كلِّ وادِ
حضْرةٌ زانها الخليفة موسى   زينةَ الحَلْيِ عاطِلَ الأجيادِ
و حباها بكلِّ بذلٍ وعدلٍ   وحماها من كلِّ باغٍ وعادِ
ملكٌ جاوزَ المدى في المعَالِي   فالنهاياتُ عندَه كالمبادِي
معقلٌ للهُدى منيعُ النواحي[74]   مَظهرٌ للعُلى رفيعُ العمادِ
قاتلَ المحْلَ والأعادِي جميعًا   بغِزارِ الظبا وغرِّ الأيادي
كلما ضنّتِ السحائبُ أغنتْ   راحتاهُ عن السحابِ الغوادي
كم هِباتٍ له وكم صدقاتٍ   عائداتٍ على العُفاةِ بَوادِ
فأيادي خليفةِ اللهِ موسى   أبحرٌ عَذبةٌ على الوُرّادِ
ركّبت الجود في بسيط يديْهِ   فتلافى به تلافَ العبادِ
جلّ باريه ملجأً للبرايا   كالحيا ضامنًا حياةَ العبادِ
جلّ من خصّهُ بتلك المزايا   باهراتٍ من طارفٍ وتلادِ
شيمٌ حلوةُ الجنى وسجايا   شهِدَ المجدُ أنها كالشِّهادِ
يا إمامَ الهدى وشمسَ المعالي   وغمامَ الندى وبدرَ النادي
لك بين الملوك سبقُ خصلٍ   ليس مغناه للعقول بباد

فكأنَّ البلادَ كفُّكَ مهمَا كانَ فيها مَنْ ينتمي لِعنادِ
قبضتْ كفُّكَ البنانَ عليهِ فأتى بالإذعانِ والانقيادِ
بكمُ تصلحُ البلادُ جميعًا إنَّ آراءكم صلاحُ البلادِ
لم تزلْ دائمًا تحنُّ إليكُمْ كحنينِ السقيمِ للعُوَّادِ
لو أعينتْ بمنطقٍ شكرتكُمْ مِثلَ شكرِ العُفاةِ للأجوادِ
قد أطاعتكمُ البلادُ جميعًا طاعةً أرغمتْ أنوفَ الأعادي
فأريحوا الجيادَ أتعبتموها وأقرُّوا السيوفَ في الأغمادِ
واهنؤوا خالدينَ في عِزِّ مُلكٍ قائمِ السعدِ دائمِ الإسعادِ
وإليكمْ مِنْ مُذهَباتِ القوافي حِكَمًا سهلةً لِيانَ القِيادِ
كلُّ بيتٍ مِنَ النظامِ مَشيدٍ عطَّرَ الأفقَ بالثناءِ المُشادِ
ذو ابتسامٍ كزهرِ روضٍ مَجودٍ وانتظامٍ كسِلكِ دُرٍّ مُجادِ

ووقعَ بين يدَيهِ الكريمتينِ، أيدَه الله، في شهرِ شوَّال الحديث في مفاخرة السيف والقلم، فادَّعيتُ أخوَّتهما، وعدَمَ اشتراكِهما محلًّا يتنازعانه، بل لكل منهما فخرٌ يغاير فخرَ صاحبه، وأنهما متساعدان في تشيد مَباني المُلك، فأمرَ نصره الله بنظمِ هذا المعنى. فقلتُ قصيدة هي:

بينَ اليَراعِ ومُرهَفِ الأسيافِ نسبٌ حمَتهُ شريعةُ الإنصافِ
خُلِقا وكفُّ الملكِ آدمَ نوعِهِ والنوعُ مُنقسِمٌ إلى الأصنافِ
أوَلا فصِنوَا دَوحةِ الشرَفِ الذا قد أدنيا للفخرِ كلَّ قِطافِ
لانا مَهزًّ علًى وراقا منظرًا وتواخيا في تالِدٍ وطِرافِ
وتناسبا قِصَرًا وشقًّا جوهَرًا وتماثلا في البزِّي والإرهافِ
وتألَّفا خبَرًا وبانا مخبَرًا كالمَاءِ تمزجُهُ بصفوِ سُلافِ
رفعا سَماءَ المُلكِ فوقَ بَسيطةٍ لِترَى السيامةَ رحْبةَ الأكنافِ
وتقاسَما زمَنيهِ من حربٍ ومِنْ سِلمٍ وما اشتركا محَلَّ خلافِ
هذا يَصولُ وذا يقولُ فهلْ لما خرفاة من قولٍ وفعلٍ رافِ

فامــتازَ كُــلٌّ مــنهما بمَحامِــدٍ   واحــتازَ فــضْلاً لــيس فــيه بخَــافِ

فالـسيْفُ يُـنطِقُ صَـامِتَ الأمْـنِ الـذي   يُزْجَــى ويُــضمِتُ ناطِــقَ الإرْجَــافِ

والـسيْفُ إنْ يُـصْلتْ مَحَـا ظلمَ العِـدَا   كالــصُّبْحِ يَجْلــو اللــيْلَ حِــينَ يُوَافِــي

والــسيْفُ تــمَّ بجنــسِهِ وبفــضْلِهِ   حَــدُّ الــشرائِعِ واضْــمَحَلَّ النافِــي

والـسَّيْفُ مَـدَّ لِنـصْرِ أحْـزَابِ الهُـدَى   كفَّــا تلافــى الحَــقَّ بعــد تــلافِ

والــسيْفُ قــبْلُ أعَــزَّ أمَّــةَ أحْمــدٍ   وأذلَّ أمَّـــــةَ بابــــلَ وأســــافِ

والــسيْفُ مَـازَ مَناصِـبَ العَلـيا وكـمْ   فــي ظِلِّــهِ مــن جَــنةٍ ألفــافِ

شــرَفٌ بمنــتج ضَــرْبهِ وبفــضْلِهِ   صــدَقتْ قــضَايا المُلــكِ دونَ خِــلافِ

ومِــنَ اليَــرَاعِ أخٌ لــه[76] بجدَالِــهِ   قــد شَــدَّ أزْرَ جــلادِهِ المُتكافِــي

غــوَّاصُ بَحْــرٍ للــدَّوَاةِ إذا انثنــى   لفَــظَ الجَوَاهِــرَ مــنه فــي أصــنافِ

كالزَّهْــرِ أوْ كالسِّلكِ فـي نثـرٍ وفـي   نظْــمٍ بأسْــجَاعٍ وغـــرِّ قــوافِ

قلــمٌ بــه الــرَّحْمانُ أقــسَمَ عــندما   خَــطَّ الكِــيانَ بــنونِهِ والكــافِ

قلــمٌ بــإذنِ اللهِ يُكــتبُ وَحْــيُهُ   ويَبِــينُ مــنه كــلُّ سِــرٍّ خَــافِ

وبــه أحَادِيــث الرِّسَــالةِ والهُــدَى   تــرْوَى عــن الأسْــلافِ للأخْــلافِ

والعِلــمُ والآدابُ والحِكَــمُ التــي   بهــرتْ بــه ظهــرتْ بــنصٍّ شــافِ

وبــه الحِــسابُ غــدَتْ مَــراتِبُ أسِّــهِ   مَبْنــى قــوَاعِدِ شِــرْعَةِ الإنــصَافِ

وبــه حَــدِيث الأوَّلِــينَ تقــصُّهُ   فــي الآخِــرينَ صَــحَائِفُ الآلافِ

مَــا تُــبَّعٌ فــي حِمْيَــرٍ مَــا قيْــصَرٌ   فــي الــرُّومِ مَــا سَــابُورُ ذو الأكــتافِ

مَا القِبطُ مَا فِرْعَوْنها مَـا الفـرْسُ مَـا   كِــسْرَى ومَــا خاقــانُ ذو الأسْــيَافِ

مَـا جُـرْهُمٌ وجَـدِيسُ مَـا طـسْمٌ ومَـا   قحْطَــانُ أوْ عَــدنانُ فــي الأسْــلافِ

مَـنْ هُـمْ بَـنو مَـرْوَانَ يَـوْمًا أوْ بَـنو الـــــعَبَّاسِ فـي أقـيالِ عَـبْدِ مَـنافِ

وَمَــنِ العَــبَاهِلُ والقــرُومُ ومَــنْ هُــمُ الـــــأذوَاءُ والأبْــوَاءُ فــي الأشْــرَافِ

ذهَــبَتْ بهِــمْ أيْــدِي المَنــى وتخَلَّفــوا   هَــذي الــدُّنا رَغْمًــا علــى الآنــافِ

ومَــضَوْا ومــا كــنَّا لِنــسْمَعَ ذِكــرَهُمْ   لــوْلا شــباةُ يَــراعَةِ العَــرَّافِ

لَمْ يَبْقَ إلّا الذكرُ عمرًا خالدًا ... ولهم بما عملوا الجزاءُ الوافي
عَهْدِي بحيِّهِمُ الخلوفِ وأهلِهِ ... عهدي بأيامِ الشبابِ العافي
دارَ الهوى جادَتْكِ أخلافُ الحَيا ... مِنْ مَرْبَعٍ أقوى ومِنْ مُصطافِ
كمْ في عِراصِكِ للصِبا مِنْ مَلعَبٍ ... حالٍ عهدناهُ وورد صافِ
يا طالما قضَّيْتُ فيه لياليًا ... وَطَرَ الهوى والشمْلُ في إيلافِ
ما خِلتُ أنْ تذوي غضارةُ عَيْشِها ... حتى انقضَتْ والدَّهرُ ذو أخيافِ
فلئِنْ نَزَحْتِ فإنني بكِ جائلٌ ... بالوَهْمِ بَيْنَ مَواقِدٍ وأثافِ
مَنْ لي بقلبٍ فيكِ قد أضللتهُ ... بَيْنَ الغُصُونِ الهِيفِ والأحقافِ
ولَرُبَّ ليلٍ بِتُّ فيه كأنني ... مِنْ لاعِجِ البُرَحاءِ فوقَ أثافِ
أرْعَى كواكِبَهُ تمُورُ كأنَّها ... نورٌ على نهرِ الحَدِيقةِ طافِ
والدَّمعُ في خَدِّي تراهنُ شقرةً ... سَبَقَ المُجَلّي والمُصَلّي قافِ
حَضَأَتْ بصدري جاحِمًا[77] زفراته ... أرَأيتَ مُفتأدًا خِلالَ شُوافِ
قد كنتُ أرجو الطيفَ يَخطرُ في الكرَى ... لوْ أنَّ جَفْنًا مِنْ مُحِبٍّ غافِ
يا عاذِلَ المُشتاقِ قد بَرِحَ الخفا ... عني إليكَ فلستُ ذا إسعافِ
سلبَ الفِراقُ حُشاشتي وسَبَى الجَوَى ... لُبّي فهَلْ لِصَبابتي مُتلافي
أفدِي فتى وَنِيَتْ خُطاهُ عن الهَوَى ... وأراهُ صفحة مُعْرِضٍ مُتجافِ
وسَمَتْ بمَطلبِهِ إلى أوجِ العُلى ... هِمَمٌ أحَلَّتهُ ذرى الأعرافِ
يَا رَاكِبًا تخْدِي بهِ وَجْناؤُهُ ... كالرِّيحِ بَيْنَ تنائِفٍ وفيافِ
متطلِّبًا شأوَ المكارِمِ والعُلى ... عَرِّجْ على أسباطِ عبدِ مَنافِ
واقصِد أبا حَمُّو الرِّضى فهُوَ الذي ... دُونَ الوَرَى فيما تطلَّبَ كافِ
تلقَ المَعَالِيَ والعَوَالِيَ والندَى ... والدِّينَ والدنيا على أصنافِ
تلقَ السَّرَاوةَ والجَلالةَ والهُدَى ... والعِلمَ والإيمانَ في إيلافِ
تلقَ الخِلافةَ قِبلةً مَحجوبَةً ... طافَ الورَى منها بخَيرِ مطافِ
تلقَ المَفاخِرَ نيِّراتٍ شُهْبُها ... والمَجدَ ثوبًا مُعْلَمَ الأطرافِ

Scanned by CamScanner

تلفَ الكمالَ البختُ[78] والخُلقَ الرّضى   والبِشرَ مُقترنًا بوعْدٍ وافِ

ملكٌ أغارَ الرّوضَ طيبَ ثنائِهِ   والصبحَ نورَ جبينِهِ الشفّافِ

غمرَ الأنامَ مواهبًا كالقطرِ إذ   غمرَ الوهادَ ومُرتقى الأشرافِ

فبكلِّ قطرٍ من صنائعِ جُودِهِ   حفلٌ تروحُ إليهِ في الأضيافِ

إنْ صالَ طالَ الأسْدَ أوْ بذلَ الندى   بذَّ الغمامَ بعارضٍ وَكّافِ

يبدو فتحسبُهُ الكتائبَ هيبةً   لِلّهِ فردٌ قيسَ بالآلافِ

مَنْ ذا يُضاهي في العُلى موسى الرّضى   مَولى المُلوكِ وسيّدَ الأشرافِ

يا طالبي إدراكَ شأوِ كمالِهِ   طاشتْ سِهامُكُمْ عنِ الأهدافِ

خلُّوا لهُ طُرُقَ المَحامِدِ وافسَحوا   لِمُدَرَّبٍ بسُلوكِها عَرّافِ

جمّاعِ نهْبِ المَجْدِ من إرْثٍ ومن   كسْبٍ حَواهُ لِمالِهِ مِتلافِ

مِنْ آلِ زيّانَ الأُلى رَفعُوا على   عَمَدِ القَنا للعِزِّ أيَّ طِرافِ

نَهجُوا سَبيلَ المَعْلُواتِ وخلّدوا   شرَفًا على الأيامِ ليسَ بعافِ

وسَعَوْا لكسْبِ الحَمْدِ بالهِمَمِ العُلى   وكذا تكونُ خَلائِقُ الأشرافِ

أخليفةَ اللهِ الذي فضَلَ الوَرَى   بالذاتِ والآباءِ والأوْصافِ

للهِ دَولتُكَ الكريمةُ إنّها   زَيْنُ الحَياةِ ومَظْهَرُ الألطافِ

رَفتْ[79] على الأيامِ رَوْضَ سِياسَةٍ   رَتعَ الوَرى منه بظِلٍّ ضافِ

وكفتْ عليهِ للسّعادَةِ دِيمَةٌ   فاختالَ للإقبالِ في أفوافِ

كرُمتْ مَجانِي العِزِّ فيه وقد جَرَتْ   جُودًا مَجانِيهِ[80] بعَذْبِ نِطافِ[81]

وتمايلتْ قضبُ الفتوحِ بدَوْحِهِ   لِنَسيمِ نصْرٍ بينَها هَفّافِ

كمْ زهْرَةٍ للفخْرِ يَعْبَقُ طِيبُهَا   فيه وكمْ ثمَرٍ دَنا لِقِطافِ

فسَما بمَجْدِكَ وَهُوَ خيرُ أليّةٍ   آليتُ في ماضٍ وفي استئنافِ

ما أنتَ إلّا آيةٌ لِلّهِ في   فرقانِها للناسِ سِرٌّ خافِ

وأنا الذي للعالمينَ شرَحْتها   وأتيتُ عنها بالبَيانِ الشّافي

وجمعتُ في تأليفِها لأُلي النهى   عِبَرًا تبينُ مَواقِعَ الألطافِ

Scanned by CamScanner

وصـدغـتُ فـيـهِ للكمـالِ بحُجَّـةٍ قامـتْ علـى الأسْـلافِ والأخـلافِ

مـا الفخـرُ كـلُ الفخـرِ إلّا مـا بـه خُلِّـدتَ مِـنْ خَبَـرٍ بخُبْـرِكَ وَافِ

لـمْ آلُ فـيـهِ طـوْعَ أمـرِكَ غايَـةً بـلْ طِـرْتُ مِـلْءَ قـوادِمٍ وخَـوافِ

مَـوْلايَ خُـذها مِـنْ نَـتائجِ فِكرَتِـي بِكـرًا تـزَفُّ لـدَيْكَ أيَّ زِفـافِ

ألبَـستها حُلـلَ القـريض فأقبَلتْ تخـتالُ فـي حَبَـراتِهِ[82] الأفـوافِ

وأطبَـتها بخَلـوقِ مَـدحِكَ فاغـتدَتْ والعَـزْفُ مـنها فـاغِمُ الآنـافِ

فقـتَ المُلـوكَ مَمادِحًا فـشأتْ بكـمْ أمْـدَاحُها فـي تالِـدٍ وطِـرَافِ

لا زِلـتَ سُـلطانَ البَـرِيَّةِ كلِّهـا حتـى القِـيامَةِ يـا مَـآلَ العَافِـي

واشـتملتْ هـذه الـسنة، أجمـلَ الله ختـمَها، علـى مَجاعـةٍ شـديدةٍ أكـلَ فـيها بعـضُ الـناسِ بعـضًا، لـريح ذات إعـصار أهلكـت زرعَ صـائفتها وحـيوانها، والله يَحْكُـمُ لا مُعَقـبَ لحُكمِـهِ[83]، فافتقـر الـناس إلـى مـا عـند الخلـيفة، أعلـى الله مَقامَـه، فتـصدَّق نـصره الله بنـصف جـباية حـضرته الكـريمة كـلَّ يـوم علـى ضـعَفائها، تجْمَـعُ آلافـه العديـدة لآخـر سـبْعٍ، ثـم يُحْـشرون بمـشوار إيمِـي انْ تِجَمِّـي[84] وغيـره مِـن الـرِّحاب الفـسيحة الجنـبات، فيَقـسِمُ ذلـك حَفظَـتهُ عـدلاً بيـنهم، وربمـا شـهِدَهم[85]، أيـده الله، مـستعْبرًا خاشِـعًا لخالـق الجمـيع، ومقـدِّر الأرزاق، ومدِيلِ[86] العسر باليسر، لَا إلهَ إلَّا هُوَ.

ثـم اقتـضى نظـره الكـريم أن ضـمَّهم أجمعـين بمارسـتاناتٍ، يأتـيهم فـيها رزقهـم بكـرة وعَـشِيًّا شـتاءَ الـسنة وربـيعَها، إلـى أن دعـاهم خِـصْبُ الـبادية ودرورُ ضُـروعِ ماشِـيَتِها إلـى الإصـحار إلـيها، فكـان ذلـك عمـلاً فـي البـرِّ راجحًا، وأثـرًا فـي الـصالحات خالـدًا، لـم يُعْهَـد مِـثله لمَلِـك سـواه، والله جـلَّ وعـلَا هـو رازق الكمـال، والهـادي إلـى سـبيل الخيـر، خلَّـد الله مُلكـه، وضـاعف أجـره، ورفـع فـي علِّيِّـين درجـته. هـذا مـع أمـره أيـده الله بفـتح أهـراء الـزرع، وإباحـة بـيعه للـناس بعـد الحـط مـن سـعره الـذي اقتـضته المجاعـة، رفقًـا بالـناس، وحفظًـا لمُهَج حياتهم. أعلى الله كلمته، وأجزل مثوبته بمنّه وكرمه.

Scanned by CamScanner

وكان قد ورد على بابه العَلِيّ الأميرُ إبراهيم ابن الأمير أبي زكرياء ابن السلطان أبي يحيى[87] الحفصي من المغرب، راجيًا منه، أيده الله، إعانته على الثأر بأخيه السلطان أبي عبد الله محمد صِهر الخليفة أعلى الله أمره، واستنقاذ بجاية من يد مغتصبها قاتل أخيه المذكور، وماتًّا[88] إليه في ذلك بوسائل غير مضاعة. فأجاب نصره الله داعيه، ووَشحه زِيَّ الإمارة، وأضفى عليه لبوسَ المُلك، وأفاض عليه أبحُرَ النعَم، فما شِئتَ من مراكب فارهة وعُدَدٍ حالية، وقمُصٍ مُفوّقة، وبَدْرٍ موزونة ومعدودة، وسوّغه الطبلَ والبندَ ومَجبى مدينة تدَلُّس لنفقته، حتى يفتح الله عليه بلدَه. وأمر جيوشه المظفرة بقطرها أن ينهَضوا من عند آخرهم لمظاهرته. وكان انصِرافه عن الباب العلِي يومَ الأحد الموفّى عشرين لذي القعدة، أنجح الله في الفخر مَساعيَه، وأرجح في الكمال مَوازينه.

وفي يوم الجمعة سادس عشر ذي الحِجة المبارك عسكر، نصره الله تعالى، بأعالي المُنيَة من ظاهر الحضرة[89]، وأنهض ولده المولى الأمير الأعلى أبا تاشفين، أعزّه الله، مُشرِّقًا ليضمّ العَساكر الشرقية بالبطحاء، ويتصدّى بها للقاء ركاب الخلافة العَلِيّة عند نهوضه لتمهيد أرجاء قطره، والوقوف على حدوده، ومصارخة الأمير إبراهيم المذكور. وانقضت السنة، والبقاء لله وحده، وهو نعم المولى ونعم النصير، ولا قوة إلّا به.

تمّ السفر الأول من كتاب بُغْيَة الرُّوّاد في أخبَار المُلوك من بني عبد الواد وما حازه مولانا الخليفة أبو حَمُّو من الشرَف الراسِخ الأطواد[90]، بحمد الله وحسن عونه.

---

(1) قرآن، سورة الشورى، الآية 52.

(2) ل: شعار. والشعاع يعني: المتفرق من كل شيء.

(3) ع: في الأفلاك. والأفلاذ جمع فلذة، وهي القطعة من الكبد أو الذهب أو غير ذلك.

Scanned by CamScanner

(4) هذا البيت ساقط في ج.

(5) س، ر، ج: موجودها.

(6) ج: حط.

(7) ج: عند.

(8) ل: بالبرق.

(9) ج: فيصل.

(10) س: هواه.

(11) ل، س: جذم؛ ر: جذم، والجذم يعني: القطع.

(12) س، ر، ب: الجود؛ ل: الجود.

(13) ج: مستتر.

(14) هذا البيت ساقط في ل.

(15) ج: وبانت.

(16) س: جذوتين، الجذوة هي: الجمرة الملتهبة.

(17) ج: معاقل.

(18) ج: في الرأي.

(19) س، ر، ج: فافترق.

(20) س: أثبت.

(21) ج: يستحمل.

(22) ج: وحمد.

(23) ل: ويستزل.

(24) ج: لهد.

Scanned by CamScanner

(25) س: نجمه.

(26) س: فصل.

(27) ع: بشره.

(28) ل، ب، ع: حلّله. وجلّله يعني: عمّه.

(29) ل، ب، ر، ع: القضيم. والقصيم هو: رملة تنبت الغضا.

(30) ز: جزم؛ س: حرم.

(31) ع: الزلات.

(32) قرآن، سورة الشعراء، الآيتان 88 و89.

(33) ع: وأعلى.

(34) ع: في خفاء. والخف يعني: الجماعة القليلة.

(35) ع: العلي.

(36) ع -: العلي.

(37) ع -: الكريمة.

(38) ل، ع: وحدد.

(39) ل، ب، ع -: العلية.

(40) ل، ب، ر: الكريح.

(41) ع: العديدة.

(42) س، ر: الأرض.

(43) س: التي.

(44) في ع عوّض الشطر الأول من هذا البيت بما يلي: له السؤدد المأثور والمجد والعلا.

(45) ع: رضى.

Scanned by CamScanner

(46) في ع عوّض هذا الشطر بما يلي: وقد شد من عقد النطاق لها خصر.

(47) ع: مؤيّد.

(48) ر: بنت.

(49) ع: تبرجت.

(50) ع: سلي.

(51) ر: وفي موفى ثلاثين من شعبان؛ ش: وفي يوم متمّ شعبان؛ ع: وفي منسلخ شعبان.

(52) ع: فامتنع.

(53) ع: مقاصده.

(54) س: عتبه.

(55) ل، ب، ع: قلبه.

(56) ر، ل، ب، ع -: فنزل.

(57) ل، ب، ع: هائمًا.

(58) س: شليل. والتليل يعني: العنق.

(59) اقتباس من القرآن، سورة يوسف، الآية 52.

(60) ع: مالكي.

(61) س: وجس بخلالها.

(62) س: فالله يمنحها بأمر أيسر.

(63) س: وجل ببديعها.

(64) س: ورفيعها الزاهي بذاك المنظر.

(65) ع: حديد.

(66) هذا البيت لم يرد إلا في س.

Scanned by CamScanner

(67) س، ر، ز: المري.

(68) ع: بين الأنام.

(69) ع -: الفقيه أبو عبد الله.

(70) ع: القيسي.

(71) ع: الدوح.

(72) ع: منها.

(73) ر: صطفصيفها؛ ع: صطفطيفها.

(74) ع: النواصي.

(75) هنا ينتهي نص نسخة س.

(76) ب، ش، ع: له أخ.

(77) وفي ل، ب، ش جامحًا. ويقال جحم النار: أي أوقدها.

(78) ر، ع: البخت. والبحت يعني: الصرف الخالص.

(79) ل، ب، ش: زفت.

(80) ر، ع: مجانيه. ومحاني الوادي جمع محناة أو محنوة، وهي منعطفه.

(81) ع: قطاف. والنطاف جمع نطفة، وهي الماء الصافي قلّ أو كثر.

(82) ل: جراته. والحبرات جمع حبرة، وهي ضرب من برود اليمن.

(83) قرآن، سورة الرعد، الآية 41.

(84) كذا في ل، ر، ب؛ وفي ع: ايمى ان لجهى. وإيمي ان تِجَمِّي اسم لإحدى ساحات المشوار، ومعناها باللهجة الزناتية: باب البستان.

(85) ع: شاهدهم.

(86) ل: مبدل.

Scanned by CamScanner

(87) ع: أبي عبد الله محمد صهر الخليفة يحيى.

(88) كذا في ل، ب، ر. وفي ع: ما تأنى.

(89) ر: حضرته العلية.

(90) النص من " وما حازه " إلى " الراسخ الأطواد ": ساقط في ل، ب، ر.

Scanned by CamScanner

الملحق الأول

سنة سبع وسبعين وسبعمئة

في أول هذه السنة خرج عبد الله بن سقير بن عامر بإخوانه من المغرب، وشرَّق إلى قبيلِهِ بني عامر، فانضاف إليه منها غوغاء من أهل الفساد، وشايَعَه صديقه أبو بكر ابن عريف بن يحيى، لمرض قلبه إذ ذاك بإغراء[1] مولانا الخليفة أيده الله بلادَه الحفن والزكاة[2]. واستقدموا أبا زيان ابن السلطان المرحوم أبي سعيد عمّ أمير المسلمين[3]، فشرَّقوا وانجمع جميع المنافقين، والمولى[4] أبو تاشفين، أعزه الله، كما قلناه مع قبيلِهِ، والشيخ محمد بن عريف بن يحيى ومَنْ تبعه[5] بظاهر البطحاء وهو يضمّ جيوشه.

وفي سابع عشر، رحل مولانا الخليفة[6]، أيده الله، عن الحضرة العلية مشرِّقًا، ولقِيَه نجْعُ خدامه محمد بن عريف بن يحيى، ونزل على البطحاء، وأفاض في زناتة والعرب بحْرَ عطائه الذي لا ساحل له، والمخالفون مع أبي زيان بمنداس تلعب بصائرهم، وانجمع رأيهم على غدر القائد عطيّة بن موسى بمازونة عَشِيَّ يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول، فأفرغ الله عليهم النصر، ودهمتهم الخيل قبيل العشاء الآخرة، وهم في أوعارِ كؤودة ومَهاوٍ زليقة، فأوسعهم قتلاً وأسرًا، وسلب طبل أبي زيان وأعلامه، وأفلتوا[7] بغيْظِهِمْ لَمْ يَنالوا خَيْرًا وكفى الله المؤمنينَ القِتالَ وكانَ الله قويًّا عَزِيزًا[8].

ووفد البشير غدًا إلى الخليفة، نصره الله، فأنجز أيده الله بقايا العطايا. وارتحل سابع الشهر قصد القوم. وفي ظاهر البطحاء اعترضه ولده الأعز بعسكره، والقائد عطيّة بجنوده، فتضاعفت الكتائب واستبحرت المحلّة. وطار إلى المخالفين النذير، فأجفلوا كالظلمان، كلٌّ يبغي لنفسه النجاة،

Scanned by CamScanner

فغرَّبَ أولاد سقير بن عامر، وشرّق أبو بكر ابن عريف بن يحيى مع السلطان أبي زيان.

فبعث مولانا، نصره الله، ولده الأعلى المولى أبا تاشفين لاعتراضهما بأطراف التلِّ الشرقي. فجمع أعزه الله حصَين والثعالِبَة وقعد لهما بمرصد وطاء حَمْزَة، ونهض مولانا نصره الله في أثرهما مشرّقًا. وبظاهر المقرة أمر الناس بالتجريد[9]، وأخذ أهبة الصحراء. فضاقت على أبي بكر بن عريف الأرضُ بما رحبت، ويئس من النجاة. فأرسل إلى خليفة الله أكبرَ بنيه وأعزهم عليه، بأخٍ له صغير مرهونًا على مَقامه الكريم في إقالة عثرةِ أبيه، وقبول خِدمته، على شرط البراءة من أبي زيان وطرده، والرضى بغرامة وطنه[10] من الحفن[11] والزكاة، وأعطى أخاه رهنا آخر على ذلك. فوسعهم حِلمُ مولانا أيده الله، وسمح لهم وعفا عنهم وحاسَن أولاده وردَّهم إليه[12]، فضلاً منه وكرمًا. فلم يقرَّ بعدها لأبي زيان قرارٌ[13]، ولم يصدِّقْ بالنجاة. فشرَّق مفلِتًا[14]، واستقرَّ في جوار أبي الليل بن موسى[15]، قانعًا بسلامة رأسه، وثنى مولانا أيده الله العِنان إلى حضرة مُلكِه، فدخلها أواخر ربيع الثاني.

وفي غرّة جمادى الأولى وصل إلى باب[16] مولانا أيده الله رسول مَلِك المغرب أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن، شافعًا لخالد بن عامر وسَاسِي بن سليم المستقِرَّيْن يومئذ ببلاد المغرب، فشفعَه نصره الله فيهما على أن يصلا إلى بابه الكريم. وفي وسط هذا الشهر أنهض مولانا، أيده الله، الوزير أبا عبد الله بن مسلَّم بخدَّامه الحجز وأولاد ذياب، لأخذ أولاد سقير بن عامر أو طردهم من الصحراء. فتبعهم إلى السمَّام، منقطع رِفْلِهِ[17] وأقصى حدِّها.

وفي ثامن رجب وصل إلى باب مولانا نصره الله زكرياء بن عامر عن أخيه خالد، وسعيد بن عثمان عن ابن عمِّه ساسي بن سليم، مقتضِيَيْن[18]

Scanned by CamScanner

شفاعة مَلِك المغرب فيهما، ومتحدِّثين كيف تكون الخِدمة، فأبى الخليفة نصره الله إلَّا وصولهما إلى بابه الكريم. فصدَّهما الخوفُ، وخرجا إلى صحرائهما، ينطقان بالخدمة وتشهد أفعالهما الذميمة بالخلاف، فتبعهما من قبيلهما غوْغاء، وشرَّقوا لانتهاز الفرصة في وطن[19] أولاد عريف بن يحيى خلصاء الخليفة.

وكان المولى أبو تاشفين بمَحَلَّته بجبل هَوَّارة، فاقتضى نظره، أيده الله، أن ترك محلَّته بهوَّارة وجَدَّ بجيشه السير ورفع ثلاث علفات، وجنَّبَ نجْعَ سُوَيْد ومَنْ معهم من أولاد يعقوب وأصحر في أثر المخالِفين مُغِذا، إلى أنْ أدركهم بمَلَاكو[20] من أعالِي مِينة عَشِيَّ يوم الثلاثاء ثاني ذي الحِجَّة. فأحاطتْ بهم عساكره، فذهِلوا ولم يجدوا ملجأ ولا مدخلاً، فحبسوا ظعنهم وباتوا، وبات المولى أيده الله مُطانِبَهم، ورُسُلهم تترَى عليه لنيْلهم كلَّه راغبين منه الإقالة والإبقاءَ عليهم، فما رحِم ضراعتهم ولا رجع عن حربهم.

وفي الصبح من ذلك اليوم، رتب جيوشه، وقرع طبوله، ونشر بنوده، وحمَل عليهم حملة واحدة، فلم يكن إلَّا ساعة[21]، وإذا بها قامت على ساق واحد، وخلَّفوا النجع بأسره بما فيه من الكراع والضرع والذخائر، وقد عَلِقتهم الخيْلُ، وكان أول صرعائهم عبد الله بن سقير بن عامر وأخوه ملوك. فأرسل المولى أبو تاشفين لحينه برأسَيْهِما[22] إلى تلمسان، وزاد في أثر الآخَرين إلى غروب الشمس، فقتل منهم أيضًا العباس بن موسى بن عامر، ومحمد بن زيان الوَلَّادِي، وقتل منهم خَلقًا لا تحصَى. وفي ذلك اليوم انقطع دابر كِبار أولاد سقير بن عامر. وأمسى المولى أبو تاشفين بشوف من السرسو، وأخذ جميع النجع، ولم ينجُ منهم عقالٌ واحد، ورجع، أيده الله، إلى محلَّته بهوَّارة، واستأذن أباه[23] نصره الله، فأمره[24] بالقدوم عليه للحضرة العلِيَّة. وفي يوم الجمعة الحادي والعشرين لذي الحجّة قدم

المولى أبو تاشفين، أعزه الله، إلى الحضرة العليّة بالنصر والتعظيم والفتح المبين. انتهى ما وُجِدَ من هذا التاريخ المسمّى بغية الرواد في ذكر ملوك عبد الواد.

---

(1) يبدو أن المقصود بالإغراء هنا هو قرار فرض غرامة تؤدى بالحبوب، وضريبة الزكاة، على المخالفين من قبيلة سويد، كما يفهم من النص فيما يلي، ص 221.

(2) ع، ش، ز -: الحفن والزكاة. ويبدو أن " الحفن " هو مصطلح يطلق على الغرامة التي تؤدى بالحبوب من قمح وشعير.

(3) ع: أمير المؤمنين.

(4) ع: مولانا.

(5) ز، ش، ع -: بن يحيى ومن تبعه.

(6) ع: أبو حمو.

(7) ع: وانقلبوا.

(8) قرآن، سورة الأحزاب، الآية 25.

(9) ش، ع: بالتجديد. ولعل الغرض من التجريد هو: الاستعداد للقاء الثائرين وقتالهم (يقال جرّد السيف، أي سلّه).

(10) ع -: وطنه.

(11) ع: الحب؛ ش: الخير.

(12) ش، ع: إلى أبيهم.

(13) ع: امداد.

(14) ع: بعلته.

(15) ر +: جدّ أولاد بليل كافة.

Scanned by CamScanner

(16) ع -: إلى باب.

(17) ع: رمله. والرفل هو الذيل، يريد منتهى بلاده.

(18) ع: بمقتضى.

(19) ع -: وطن.

(20) في ر: بماء كرا؛ وفي ع: بماء اكر.

(21) ر +: واحدة.

(22) ش، ع: برأس عبد الله المذكور وبرأس ملوك.

(23) ش، ع: والده.

(24) ر: فقدم عليه الرسول يأمره.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

الملحق الثاني

قلتُ: وما أشبه حزم مولانا[1] أمير المسلمين، أيده الله تعالى، في خروجه الأول والآخر إلى الصحراء، متحَصِّنًا[2] بها من العدو، ثم انقلابه عليه عند ذبول شَوْكته، بما ذكره أبو عبد الله محمد بن أبي محمد[3] بن محمد ابن ظفر في سلواناته، إلَّا أنَّ ذلك المَلِك الهندي في مثاله آوى يومئذٍ إلى معقلٍ أشِبٍ بقِنَّةِ جبلٍ وَعْرٍ، ومولانا أمير المسلمين[4]، أيده الله، لم يكن له حِصن سوى متونِ عِرابِ الخيْلِ، والمُطهَّمَةِ الجُرْد، وهُجُنِ الإبل، ثم إبعادِ المغار والتنائي في تنائِفِ القِفار، وبينهما بَوْنٌ بادٍ. فلنأتِ بذلك الخبر السالف ليتضح فضلُ هذا الخالِف، إذ بضِدِّها تتبَيَّنُ الأشياءُ، فنقول:

وُصِفَ لكِسْرَى أنوشرْوان أرضٌ من التخوم الهندية تكاثِبُ إقليم بابل، وذكِرَتْ عنده بحسْن المنظر، وطيبِ الهواء والماء، وكثرةِ الإتاوةِ، وزكاءِ الإتاءِ[5]، وكثرةِ[6] العمائر، وحصانةِ المعاقِل. ووُصِفَ له أهلُ تلك الأرض بعِظَم الجسوم، وبلادةِ الفهوم، وشجاعة القلوب، وقوة الأبدان، والصبر على العمارة، وملازمة الطاعة، ولين المقادة.

فشرهت نفسُ كسرى إلى تملُّكِ تلك الأرض والتكثرِ بأهلها. وكان يُقال: الشرَهُ أعْرَقُ الخصائل في اللؤم، فالحِرصُ أبوه الذي يولده، والبغيُ ابنه الذي يلِدُهُ، والطمعُ شقيقه، والذلُّ رفيقه. وكان يُقال: مَنْ شَرِه وقع فيما كرِهَ. وكان يُقالُ: الشرَهُ شِدة يُنتجها طبعٌ ويهيجها طمعٌ.

قيل: فلما طمحت نفسُ أنوشروان إلى تملُّك تلك الأرض سأل عن ملكها، فأخبر بأنه عظيمٌ من أراكنة الهند، وأنه شابٌ منقاد لشهواته[7] مقبل على لذاته، إلَّا أنه سالك صراطًا من العدل لا يجور، ومالك منهلا من

Scanned by CamScanner

البذل لا يَغور، إلى رأفةٍ برَعِيَّتِهِ قد أشربتْ قلوبَهم وُدَّهُ وصرفت آمالهم إلى ما عنده.

فبعث[8] كسرى رجلاً من ثِقاتِ أصحابه، قد اقتبس أدبًا من آدابِ الملوك وتفقه في سياساتهم، وكان ذا دهاءٍ ومَكر، وحزامة ونكْر[9]. فأمره بتأمُّل مَسالكِ تلك الأرض، والبحثِ عن ثغورها ومعاقلها، وتطلُّبِ عوْراتها، وتفقدِ أخلاق مَلِكِها وأهلها. وكتب معه كتابًا إلى ذلك الأزْكن يدعوه به إلى الدخول في طاعته، ويحذره التعَرُّض لصَوْلته بمُخالفته.

فانطلق ذلك الرسول حتى قدِم على الأزْكن، فأحْسَنَ نُزْله وبالغ في برِّهِ وتكرمَتِهِ، وعَمَّى عليه الأخبار، وبالغ في قبضه عن التصرُّف، وفي قبض الناس عن لقائه. واحتجب عنه ولم يَسْتدعِ الكتاب منه، وندب لاختباره وعِلمِ ما قصد له رجلاً من دُهاةِ أصحابه، فأمره بالتجسُّسِ على أنبائِهِ، والتلطفِ في مداخلته ومخاتلتِهِ.

فانطلق ذلك الجاسوسُ، فاكتَرَى حانوتًا بحذاء دار الرسول، وملأه فخَّارًا، وجلس فيه يبيع ذلك الفخّار. وكان للرسول غلامٌ يخفُّ في حوائجه، ويتصرَّف في مَآربه. فجعل الجاسوس، إذا رأى ذلك الغلامَ، هشَّ له وأكرمه وسأله عمَّا له من حاجةٍ، إلى أنْ أنسَ به الغلامُ، فكان يجلس إليه ويستعين به على أمره.

فلبث على ذلك مدَّة لا يسأله عن شيْءٍ من أمْر سيِّده. فلمَّا تأكَّدَ أنس الغلامِ به قال له يومًا: مَنْ تكون ومَنْ لك في هذه الدار[10] التي تدخلها؟ فقال له الغلام: صَحِبْتني منذ كذا وكذا ولا تعْرفني؟ فقال له الجاسوس: وما عليَّ؟ فقال له: أنا غلام رسول كسرى، وسيِّدي في هذه الدار. فقال له الجاسوس: ومَنْ كسرى، ومَنْ رسوله؟ فقال له الغلام: هو مَلِك بابل[11]. فقال الجاسوس: قد عرَفتُ[12] حين ذكرتَ لي بابل لأني كنتُ في صباي أجيرًا لرجل من أهل بابل.

Scanned by CamScanner

ثم أمسك عن الغلام أيَّامًا لا يسأله عن شيءٍ. وكان يقال: التنقيرُ تنفيرٌ. وقيل: التنقيب يُريب الأريب. وقيل: مَنْ تسرَّعَ إلى الأمانة فلا لوْمَ على مَن اتهَمَهُ بالإضاعة، ومَنْ تسرَّعَ إلى المشاركة في السِّرِّ، فلا لوْمَ على مَن اتهمَه بالإذاعة، ومَنْ تنصَّح قبل أنْ يُستنصَحَ، فلا لوْمَ على مَن اتهمَه بالخِداع، ومَنْ عُنِيَ بكشف ما سُتِرَ عنه فلا لومَ على مَن اتهمَه بخبْثِ الطباع.

قيل: ثم إن الجاسوس قال للغلام يومًا: إذا خرج مولاك فأرِني إيَّاه. فقال الغلام: إن مولايَ لا يتصرَّف. قال الجاسوس: أمريض هو؟ فقال الغلام: لا، ولكنَّ مَلِككم حظر عليه الخروج، وعلى الناس الدخول إليه، فبكى الجاسوسُ. فقال له الغلام: ما الذي يُبكيك؟ فقال الجاسوسُ: أبكتني الرحمة لمولاك ممَّا هو فيه لأني ابتليتُ بمثله، وذلك أني حُبِسْتُ يومًا في دَيْنٍ كان عليَّ ومُنِعَت امرأتي[13] الدخولَ إليَّ، فلولا أن الله مَنَّ عليَّ برجل كان محبوسًا معي سَلَّاني بحديثه وأنسِهِ لهلكتُ غمًّا، فهل تحدِّثُ مولاك وتسَلِّيه؟ فقال الغلام: إني لا أعرف هذا ولا أدري خبرًا أطرِفه به. فقال الجاسوس: أفلا أدلُّكَ على ذلك؟ قال الغلام: بلى أحْسِنْ إليَّ بذلك. فقال له الجاسوس: إذا خرجتَ من عند مولاك فطفْ في المدينة وتأمَّلْ ما تراه فيها، وإذا رأيتَ جماعة يتحدَّثون فاجلس إليهم واستمِعْ ما يفيضون فيه، فإذا رجعتَ إلى سيِّدك وخلوْتَ معه، فقلْ له رأيتُ اليومَ كذا وكذا، وسمِعْتُ مَن يقول[14] كيْتَ وكيْتَ[15]، فإنَّ في هذا تسليَة له وأنسًا من وحشته، ويوشك إذا فعلتَ ذلك أنْ تحْظى به عنده.

ففعل الغلام ما أمَرَه به الجاسوسُ. فقال له سيِّده: مَن دلَّك على فعل هذا؟ فقال الغلام: أنا فطنتُ لذلك[16]. فقال له سيِّده: كلَّا ليس هذا في قوى عقلك، فأخبرْني بمَنْ دَلَّكَ عليه. فقال الغلام: دلَّني عليه جارٌ لنا يبيع الفخَّار، ما رأيتَ أجْهَلَ ولا أبْلهَ منه[17]. فقال له سيِّده: وما الذي دلَّك على جهله وبلهه؟ فقال الغلام: إنه صحبني أكثر من شهر وهو لا يعرف مَنْ أنا

ولا مَنْ سيِّدي، وذكرتُ له المَلِك كِسْرَى فإذا هو لا يعرفه.

فلمَّا سمِع ذلك الرسولُ استرابَ، وحدس أنه متجسِّسٌ عليه لِمَا أفرط فيه من التجاهُل[18]. وكان يُقال: مَنْ أفرط فهو كمَنْ فرَّط، ومَن احتفل في غلوِّه استفل عن عُلوِّه. وكان يُقال: ما دلَّ على الأحوال كالأقوال، ولا هتك قناعَ المعقول كسماع المنقول[19]. وكان يُقال: مَنْ لم تعْرفكَ غائبًا أذناه لم تعْرفكَ شاهِدًا عَيْناه.

قيل: فلمَّا سمِع الرسول مقالَ عبْده أمرَه أن يأتِيَه به ففعل. ولمَّا رآه الرسول حقق ما كان ظَنَّ فيه من كونِهِ جاسوسًا عليه وأكرمَه وقرَّبه، وتظاهر له بغباوةٍ وجهْلٍ لا مَزيدَ عليهما، وسأله أنْ يواصِلَ زيارته. فلبث الجاسوسُ متفقدًا حالَ الرسول في ليلِه ونهاره مدَّة مُتراخِيَة. ولمَّا ظنَّ ذلك الجاسوسُ أنه قد حصل ما أرادَ عِلمَه من أمْر رسول كسرى ذهب إلى المَلك، فأخبره أنَّ ذلك الرسول فَدْمٌ غبيٌّ لاذكاءَ له، ولا غَناءَ عنده أكثر من أنه ذو نجدةٍ وفروسيَّةٍ ونفس أبيَّةٍ.

فوثق الملك بقوله، وتخيَّل الرسولَ بالصورة التي مثله بها الجاسوسُ عنده. وكان يقال: إذا كان الخبرُ يدخله الصدقُ والكذِبُ، فالقضاءُ له بأحدهما قبل الامتحان جَوْرٌ. وكان يقال: إنما يَقضِي بصِدق الخَبَر عِصمَة المُخْبر لا صِدْقه. وشرحُ ذلك أن المخبر الصادق، إذا لم يكن معصومًا، فهو عُرْضة للتدليس وفرْصة للتلبيس، وكونُ المخبر ثِقة صَدوقًا إنما يُفيد سلامته من التحريف فيما نقله، ولا يُفيدُ عصمة إدراكِهِ فيما أدركه، فقد ينظر الصادق المُغَفَّلُ إلى الشمس فيُخبر أنها غيرُ سائرةٍ، وينظر إلى القمر ودونه مُقَطَّعات السَّحاب، فيُخبر بأنه أدرك سُرْعَة سيره، وينظر من سفينة جارية إلى البَرِّ، فيزعم أنَّ البَرَّ يجري[20]، وينظر إلى أفعال الشعوذيِّ فيخبر عن الأشياء بخلاف ما هي عليه، ويسمع كلامَ البَبْغاء المحجوبة عن بصره فيخبر عن إنسان، فلم يدخل الخللُ من جهة تحريفه، لكن من جهة إدراكه.

قيل: فلمّا وثق الأركن بمقالة جاسوسِهِ، أحضر رسولَ كسْرى، فأكرمه وخاطبه بكلِّ قولٍ حسنٍ وأخذ منه الكتاب وخلع عليه، وردّه إلى منزله مُكرَّمًا مبرورًا، وأباحَ له التصرُّف، وأذِن لمَن أراد قصْدَه في زيارته، وتابع إتحافه وتكرمَته، ولبث بذلك عامًا. ثمَّ أحضره وسلَّم إليه جوابَ كتابه[21]، وأعطاه هديَّة إلى كسرى يُقالُ إنَّ منها سَيفا، طولهُ خمسة أشبار، ولونه كلون النحاس الأحمر، يعمل في الحديد كما يعمل غيرُه من السيوف في الرَّصاص، وصحفة من الياقوت الأزرق تسع مَنًّا من الطعام، وكأسًا من الزُّمُرُّدِ البحريِّ يَسَع رطلاً من الشراب، وألف دُرَّةٍ فريدة، وقنديلاً من المَهَا[22]، فيه ياقوتة حمراء كبَيْضة الحَمام، إذا عُلِّقَ في بيت فيه مصباح لنِلاً ألقى شعاع الياقوتة على الألوان القابلة للحُمْرَة فلا يشكُّ أحد في حُمْرَتِها، وطِيبًا كثيرًا، ودروعًا ودرقا وغير ذلك، وخَصَّ الرسولَ بحباءٍ وذخائرَ نفيسةٍ، وصرفه إلى مرسِله.

فلمَّا قدِم الرسول على كِسْرَى سأله عمَّا ندبَه لِتعَرُّفِهِ، فأخبره بطِيب تلك الأرض وفضائل خصائصِها، وشرفِ مزاياها، وحصانةِ ثغورها، وأنه لم يجد لها[23] عَوْرَة تؤتى منها إلّا غرارة سُكانها، فإنَّ عقولهم متهيّئة لقبول الخَدْع، محجوبة عن النظر في العواقب، وأنَّ هذا هو مُوجبُ حُسْن طاعتهم لِمَنْ ألِفوا طاعته. فلوْ نُدِبَ إليهم رجالٌ[24] يحسِنون نضبَ الدعوات إلى الدول لاستمالوهم وصرفوا طاعتهم عن مَلِكِهم. فإذا انصرفت طاعتهم، لم تقمْ لمَلِكهم بعد ذلك قائمة، لأنهم أعْضَاده الذين يصولُ بهم. فهم في الرخاء ثِمارٌ مُجتناة، وفي البلاء سيوفٌ مُنتضاة.

فنظر كِسْرَى فيما كتب به إليه الأزْكنُ، فوجده قد خاطبه بالملاطفة، واعترفَ بفضله وتملقه، ورغب إليه في الموادعة والمؤاخاة. فاستشار أنوشروان وزراءَه في أمره، وأعلمهم أن نفسه لا تطيب بمُسالمَته. فاختلفوا عليه، فأجمع على أن يَردَّ هديَّته إليه، ففعل. ثم إنه ندَبَ لاستفسادِ رعيَّته

رجالاً يحسنون نصبَ الدعوات وقلبَ الدول، وأمدّهم بالأموال، وأزاحَ عِللهم، وبيّن لهم مثالاً يحذون عليه، فنفذوا لما أمرهم به، حتى انتهَوْا إلى مَمْلكة ذلك الأركن، فتفرقوا فيها، وأعمل كلُّ واحدٍ منهم قوّته فيما انتدبَ له.

فلمّا أتى عليهم عامان، أحكموا ما أرادوا من ذلك[25] في دار مَمْلكة الأركن، وفي غيرها من مدنه وحصونه ورَساتيقِهِ، وكتبوا بذلك إلى كِسْرَى. فحرّك إليهم المرزُبَان المُتولِّي رُبْع المَمْلكة المقابل لتلك الجهة الهنديّة. وذلك أنَّ إقليم بابل كان مصروفًا إلى أربعة مَرَازِبَة، لكلِّ مرزبانٍ رُبْعٌ منه، ومع كلِّ مرزبان منهم خمسون ألف مقاتل. فلمَّا شرَعَ ذلك المرزبان في الحَشد والإعداد، كتب عُيُونُ الأركن بتلك الجهة إليه، يُخبرونه بأنَّ المرزبان المجاور لجهة بلاده قد أخذ في حَشدِ الأجناد، وتأهّبَ للاستِعْدَاد، فعلِم الأركنُ أنه قاصِدُهُ. ونجَمَ[26] النفاقُ ببلادِهِ، وتحدَّث الناسُ بقصْدِ المرزبان إليه، وأكثروا الأراجيفَ. فانتبه الأركنُ من غفلته، وبحث عن الأمر، فوقف على حقيقته.

وكان أمر مَمْلكته يدور على خمسة رجال، أربعة منهم هم وزراؤه، والخامس هو صاحب بيوت النار ورئيس الزمازمة والذين يأخذون عنه دِينهم. فجمعهم الأركنُ وعرَّفهم بما بلغه من فساد قلوب رعيّته، وحَشدِ المرزبان لقصْدِ بلادِهِ، وأظهر لهم الحاجة إلى كِفايَتِهم. فجلسوا يتناظرون في ابتِغاءِ صواب الرأي. فقال أحد الوزراء الأربعة: الرأيُ أنْ يستصلح المَلِك رعيّته، فيَمْلأ أيدِيَها رغباتٍ، وقلوبَها آمالاً، حتى يستقيم معوجُّها ويأنَس نافرُها، فإنَّ عدوَّنا إذا علِم ذلك جَبُنَ عن الإقدام علينا، وإنْ أقدم لقيناه بكلمةٍ مُجتمعةٍ وأيْدٍ متناصرةٍ.

فقال رئيس الزمازمة: إنما يصلح هذا من الرعيّة لو كان فسادُها إنما أوْجَبَهُ هَضْمُ جَوْرٍ أو عَسْفُ سيرةٍ، فيزال عنها سببُ فسادِها فتصلح

وليست رعيّة الملك بهذه الصفةِ وإنما أوردَ عليها الفسادَ جهلها بمواقع الصَّواب وبَطَرُها لِترادفِ النعمِ. وقد قيل: أربعة إذا أفسدهم البَطَرُ لم تزدْهم التكرمة، فسادُ[27] الولد والزوجة والخادم والرعية. وضربوا لذلك مَثلاً القوَى الأربع المرذولة إذا هاجت لتعَدّي حدودِ المصلحة، وهي الغضبُ إذا تعدّى حدَّ الشجاعة وحدَّ الأنفة من الرذائل، والشهوة إذا تعدَّت حدَّ راحةِ العقل من كدِّ اكتساب الفضائل، والحِرْصُ إذا تعدّى حدَّ الكِفاية، والكسَلُ إذا تعدَّى راحة الجسْم مِنْ كدِّ اكتِسابِ المصالح. فإنَّ هذه القوى الأربعَ إذا تعَدَّت هذه الحدودَ، لم تزدهَا المداراة والرفقُ إلّا هَيَجانًا وطغيانًا، وإنما تعانى[28] بحَسْم موادِّها. فقال الملك: صدق الحكيم.

ثم قال وزيرٌ آخَر من الوزراء الأربعة: الرأيُ عندي أن يُضرَبَ بمَنْ صلح مِنَ الرَّعِيَّةِ مَنْ فسد منها حتى تستقيمَ وتستوثِقَ لنا، ثم نلقى عدوّنا بمَنْ لا نخافُ دَغلهُ ولا نحذرُ غشَّهُ، فإنّا مضطرُّون إلى الحرب لكوْن عدوِّنا لا يُرْضيه إلّا أخْذ ما بأيدينا جملة. فقال رئيسُ الزمازمةِ: هذا أنفعُ لعَدوِّنا[29]، مع أنه، إذا علِم تحزُّبَنا وتناصُبَنا، ذهبتْ هيبَتنا من نفسه وبلغ فينا أمَله. وقد قالت الحكماءُ: أربعة مَن استقبلها بالعنف والرَّدْع في أربعة أحوالٍ هلك بها، المَلِك في حال غضبه، والسَّيْلُ في حال صدمته، والفيلُ في حالِ غلمته، والعامّة في حال هَرَجها ومَرَجها. وقالوا: إنَّ أشبهَ شيء بردْعِ العامّة، عند تنمُّرها وهيجانها، معاناة الجُدَرِيّ حالَ انبعاثِه إلى سطح الجسد بالأطليَةِ الرَّادِعَة. فقالَ المَلِك: صدقَ الحكيمُ.

وقال وزير ثالث: الرأيُ عندي أن تطلب أوّلاً تعيينَ مَنْ فسدتْ طاعته من الرَّعِيّة فنمَيّزه عن سواه، ثم نرى فيه رأينا بما يقتضيه حاله من قلّةٍ أو كثرةٍ، وضعَةٍ أو نباهةٍ، وضعفٍ أو قوّةٍ، ونقابله بما توجبه حاله من التدبير. فقال رئيسُ الزمازمة: البحث الآنَ عن هذا خطرٌ عظيم، لأنه يوحش المريبَ، فيحرِّكه على اللحاق بعدوّنا، واعتماده بالنصائح، ودلالته على

عَوْرَتِنا، وإذا التَحَقَ بعدوِّنا قاتل معه على بصيرةٍ ليست لعدونا، وبذل جهده في العَوْدِ إلى وطنه وأهلِه ومالِهِ، وعدوُّنا لا يقابلنا[30] على مِثل ذلك، وربَّما لم يَنفصِلْ عنك المريب، بل يُقاوِمُنا بموضِعه ويُكاشِفُنا، ويتكثر علينا بشكله من الرعيَّةِ فينصرونه، وإن لم يكونوا على مِثل رأيِهِ بعِلَّةِ مُشاكلته لهم، كما أنَّ الكلبَيْنِ لا يَمنعُهما تعاديهما وتهارشُهُما من التعاوُن على الذئب إذا أبْصَراه، ولا يلتفتان إلى تَحَقُّقِ الذئب في الخَلق الكلبيّ، ولكنهما يُنافِرانِه، ويصطلِحان في التعاوُن عليه، نظرًا إلى خِصِّيصَى وحشِهِ وأنفتِهِ وجُرأتِه. وكذلك العامِّيُّ لا ينظر إلى المَلِك من حيث تَحَقُّقِهِ في الخَلق الإنسانيّ، بل ينظرُ إليه من حيث خِصِّيصَى تفرُّدِهِ وأنفته وعُلوِّ هِمَّته، فينافره لذلك، ويألف الذي شاكله في الأخلاق بعِلَّةِ المشاكلة. وقد قالت الحكماءُ: ثلاثة إنْ كاشفتهم في الامتحان[31] في ثلاثة أحوالٍ خسرْتهم، مؤدِّبُك في حال استقلالِك، وصديقك في حال اختِلالِك، وامرأتك في حال اكتِهالِك. والرعيَّة كالزوجة، وإدبارُ الدولة كالاكتِهال. وقالوا: مَثلُ ذلك مَثل امتحان قوَى مَعِدِ الناقِهين من الأمراض بالأطعِمَة الغليظة. فقال المَلِك: صَدَقَ الحَكيمُ.

فقال الوزيرُ الرابعُ، وكان أوسعَهم عِلمًا، وأفضلهم رأيًا: أمَّا أنا فأحدِّثُ المَلِكَ حديثًا أخبرني به مؤدِّبي، وكان[32] آخِر ما أفادَنِيه، وقال لي: " اخزنْ هذا الحديث في حبَّةِ قلبك، ولا تتمَنَّ أنْ تعِيش إلى اليوم الذي تحتاجُ فيه إليه "، وإني لأحْسب أنه هذا اليوم. فقال له المَلِك: قلْ نسْمَعْ لحديثك. فقال رئيس الزمازمة: ما أوْلاه بالإصابة. فقال الوزراءُ الثلاثة: إنه لكذلك. فقال الوزير الرابع: إنما نحن كأصابع الراحة في افتقار بعضها إلى بعض، وقوَّةِ بعضِها ببعضٍ، وتزيُّنِ بعضِها ببعضٍ. ثم إننا نستمِدُّ من نور عقل المَلِك السعيد بنظرنا[33] إليه، واستماعِنا منه[34] كما تستمِدُّ الدَّراري من نور الشمس. فكلُّنا إلى المَلِك محتاجٌ وبه مُقتدٍ. فقال المَلِك: قلْ أيها الوزير

Scanned by CamScanner

الصالح بالقبول والكرامة لك ولمَنْ نبْتَ عنه، فأنتم في مُناصحتنا، والغَناء عنا والأداء إلينا، كالحواسّ الخمس للقلب. فسجدوا له أجمعونَ.

ثم قال ذلك الوزير الرابع: زعم مؤدِّبي أنَّ رجلاً موسِرًا من التجّار كان يَأوي في داره إلى بيت مبطَّن السَّقفِ، وفيما بين ذلك السقف وبطانته فيران كثيرة. فكنَّ، فيما شِئنَ[35] من الأمَنةِ وتيْسِير الطِّعْمَةِ، يَمْرَحْنَ النهارَ كلَّهُ على حال طمَأنِينةٍ، فإذا جاءَ الليْلُ نزلنَ من السقف، فتفرَّقنَ في مخازن التاجر ومساكن عِيالِهِ، فأكلنَ واحْتمَلنَ، فكثر أذاهُنَّ على التاجر. وإنه دخل مسكنه يومًا فاستلقى فيه مفكرًا في بعض أمْرهِ[36]، وجعلت الفيران تمرَح على بطانة السَّقف، والترابُ يتساقط من خلل الألواح. فضجر التاجر ونهض مبادِرًا، فأمر بتحويل ما في البيت من الأثاث، ثم أمر عبيدَه فوضعُوا بطانة السقف، وانتشر الفيرانُ في الدار[37]، فقتِلنَ شرَّ قتلةٍ، ولم يَنجُ منهنَّ إلَّا جُرَذ وفارة كانا غائبَيْن عن السقف. فلمَّا رجعَا وأبصرا فسادَ وطنِهما ومَصارعَ الفيران في جميع الدار، راعَهما ذلك. وأقبل الجرذ على الفارة فقال لها: لقد صدق القائلُ " مَنْ صحِب الدنيا واثِقًا بها كان كالنائم في الظلِّ الذي يكون قبل بلوغ الشمس إلى نصف دائرة فلكِها الأعْلى، فيتقلَّص الظِلُّ عنه بتصويب الشمس، فيوقِظه حرُّها ولا يجد للظلّ عَينًا ولا أثرًا ". فقالت الفارة: صدقتَ، فماذا ترى؟ فقال الجُرَذ: أرى أن لا أسكنَ بموضع ينال منه هذا المنال، وأفِرَّ من الإنسان جهْدِي، فإنَّ هَجْنهم[38] شديد، وحِيَلهم أمْضى من قوَّةِ غيرهم من العالم. فقالت الفارة: أنا معك.

فانطلقا حتى إذا أتيا بَرَازًا[39] جرداء، ذاتَ أخلاطٍ من الوحوش تكتنف واديًا معشِبًا، فيه غدرانُ ماءٍ ذاتُ ضفادعَ وسلاحفَ فأعجبهما ذلك. وسارا في الوادي يلتمسان موضعًا يحتفران فيه جُحْرًا، فانتهيا إلى ربوة عالية في وسط ذلك الوادي، قد انجاب عنها مسيلُ الماء فيه يمينًا وشمالاً. فاحتفرا في أصل تلك الربوة جُحرًا رضِياه وأوطناه. وإنهما ظلّا يومًا من الأيام تلك

الرابية، فرأيا في أعلاها يَرْبوعًا قد علت سِنّهُ على باب جُحْرٍ له، فرحّب بهما وحادثهما وسألهما عن أمرهما، فأخبراه إلى أن ذكرا له أنهما أوطنا جُحْرًا في أصل تلك الربوة.

فقال لهما اليربوعُ: لولا أنَّ التنصُّح كثيرًا ما يدعو إلى التهمة لنصحتُكما. فقالا له: ما أحوَجنا إلى نصْحِك. فقال لهما: إنه كان يُقال: أربعة لا تقدِمْ عليها حتى تسألَ عنها الخبيرَ بها، السوقُ لا تقدِمْ عليها حتى تسألَ عن النافِق[40] والكاسد فيها، والمرأة لا تقدِمْ على خطبتها حتى تسألَ عن منصبها وخُلقها، والطريقُ لا تسلكها حتى تسألَ عن أمنها وخوفها، والبلدة لا توطِنها حتى تسألَ عن مرافِقِها، وسير سلطانها وأخلاق أهلها وقوّة مَنْ يَكيد أهْلها ويُعادِيهم. وكان يُقالُ: انظرْ إلى المتنصِّح، فإنْ أتاك بما يضرُّ غيرَك ولا ينفعُك فاعلمْ أنه شرّيرٌ. وإنْ أتاك بما ينفعُك ويضرُّ غيرَك فاعلمْ أنه طامِعٌ. وإنْ أتاك بما ينفعُك ولا يضرُّ غيرَك فاصْغَ إليه وعَوِّلْ عليه. وكان يُقالُ: إذا لم تعِنْ ناصِحَك على نفسِكَ، كان ناصِحُك كمَنْ يَرُومُ تقويمَ ظِلِّ عودٍ قد نُصِبَ مُعْوَجًا[41] قبل أنْ يُقيمَ العودَ في منصِبه. وكان يُقالُ: إذا أردت أن تعلم ما يَغلبُ على الإنسانَ من قوَى الخير والشرِّ فاستشِرْه بذلك رأيَه عليه[42]. وكان يُقال: شرُّ ما في عالم الأخلاق التعاطي، لأنَّ التعاطي يزيد المتخلِّقَ به شرًّا، ويعرضه في مَواسِم الخَزْيِ، وهو كالضعيف يتعاطى القوَّة، وكالجاهل يتعاطى العلم، وكالفقير يتعاطى الغِنى. وكان يُقالُ: إذا احتجْتَ إلى المشاورة[43] في أمرٍ ما فشاوِرْ[44] ذوي الحنكة والتجربة من طبقتِك وذوي صناعتِك، ولا تعْدِلْ عنهم إلى غيرهم ممَّنْ ليس من طبقتك فيُخرجك عن حدِّك لكونه خارجًا عن علم خصائصك. واعلما أنه قد جمعتني وإيّاكما مناسبة صناعيّة وهي حفر الجُحْر، إلا أني في علمها أرسخ منكما، فانتقِلا عن جُحْركما، فإنه بئس الجحر ومن شرّ الأوطان، وإنما لم يُخْصِبْ[45] هذه الأرض والخبيز بها. وقد قيل: " قتل أرضًا عالِمُها"[46]

فتحوّلا عن ذلك الجحر، واطلبا مَأْوًى سواه.

فخرجا من عند اليربوع يَهْزَءَان به ويسخران منه وينسُبانه إلى الهرم والخرف، ورجعا إلى جحرهما فلبثا به[47] مدّة طويلة وَوَلدَا فيه أولادًا. ثم إنَّ الجُرَذ خرج يومًا من الأيام فأوغل في تلك الأرض لبعض شأنه ثم عاد قاصدًا إلى الربْوَة فإذا السيل قد جرى في ذلك الوادي، وأحدق بالرَّبْوَة، وارتفع حتى صارت الربوة في مِثل البحر الزاخر، فوقف على ضَفةِ الوادي ينظر متحسِّرًا لفسادِ وطنه وهلاكِ إلفِه وولدِه، وذهابِ ما أعَدَّ من طُعْمَتِهِ، فرأى اليربوعَ قائمًا على الربْوة آمنًا.

فناداه اليربوعُ: أيُّها الجُرَذ، كيف وجدتَ ثمرة إضاعةِ الحزم ومعْصِيةِ الخبير النصيح؟ فقال الجرذ: وجدتها مرَّة. فقال اليربوعُ للجرذ: هَوِّنْ عليك وخفِّض من حَسْرَتِك، فإنَّ النعمة في بقاءِ نفسِك تُرْبي على المصيبة بأهلك وولدك، فأنِس النعمة بالشكر تألفك فتستمْتِع بها. وإنه كان يُقال: أظهِر البشرى لثلاثة، للصديق والغريم والنعمة. وكان يُقال: الحرُّ لا تذهِله إساءَةُ مَن كان أحْسَنَ إليه عن[48] شكر إحسانه السالف عنده. وكان يُقال: إذا أحسن إليك مُحْسِن، ثم تنكَّرَ لك، وأصابك بمَساءَة، فلا تنقبِضْ عنه، ودمْ على شكرك له وبرِّك به، فإنَّ ذلك أوْجَه شفيعٍ لك عنده.

فقال الجرذ لليربوع: ما كان أشقاني أيُّها الحكيم بمعصيتك والبُعْدِ عنك، وبحَقٍّ قيل: ينبغي للعاقل أن يصحبَ العقلاء المهذبين[49] بالحكمة والأدب، ويستشيرَ ذوي البصائر والحنكة. ولو كنتُ ذا بصيرةٍ لعَلِمْتُ أنك أيُّها الحكيم لم تكلِّفْ نفسَك صعودَ هذه الربوة الكؤود وهبوطها، على ضعف بدنك وكِبَر سِنك، إلَّا لأمْرٍ اقتضَته الحكمة، وأوْجبه الرأيُ المُصيب. ثم إنَّ الجرذ أمهل حتى ذهب السيلُ، فصعد الربوة، واتخذ بها جُحْرًا إلى جانب جحر[50] اليربوع، وأوطنه آمنًا قرير العين، فهذا ما أخبرني به مُؤدِّبي.

فقال المَلِك: صدقتَ أيُّها الوزيرُ الصالح قائلاً، وسَدَدتَ ناصحًا،

وأصبتَ مُشيرًا، ونلطَّفتَ مُبلِغًا، ودعوْتَ سميعًا. فالتمِسْ لنا ربوةً نرضاها لاستقرارنا، نلزمُ أنفسَنا الصَّبرَ على صعودِنا، ونقصُرُ عن مَيلِها إلى[31] مألوفِ ملاذِنا، وانبساطِها في هذا العالم الخبيث، فلعلَّنا أن نجتني السلامةَ التي اجتناها اليربوعُ من هذه الفِتَن. فقال الوزير: أيُّها المَلِكُ السعيد المُفدّى بالنفوس الزكيَّة، عِشتَ ما بَدا لك أنْ تعيش، وبلَغتَ ما أمَّلتَ، فما أعجبَ قبولَك لما نهديه إليك من نِعَمِك، ونجلوه عليك من حِكَمِك. وإنّي لأعرِفُ في ناحيةٍ من مَمالِكِك[32] معقلاً تطِلُّ منه على أهلِ الأرض إطلالَ زُحَلٍ على الكواكب، تُغَالُ[33] دونك الأبصارُ اللامحة والأفكارُ الطَّامحة، وهو مع ذلك ذو هواءٍ عَليلٍ، وماءٍ سَلسَبيلٍ، وحدائقَ باسقة، ومَرافقَ متناسِقة. وقد كان بعضُ سَلَفِ المَلِك السعيد عُنِيَ به بعضَ العِناية، فقطع عليه أملَه الدُّثورُ الحتمُ القاطع لعقود الحياة.

فلمَّا سمِعَ الملكُ ما دلَّه عليه وزيرُه مُلِئَ سرورًا، وركِبَ من فورِه في خاصَّتِه وثِقاتِه حتى انتهى إلى ذلك المَعْقِل الذي دَلَّه عليه وزيرُه، فوجده في رأيِ عينِه أفضلَ مِمَّا صوَّره الوزيرُ في نفسِه، ووَجد به رسومًا وثيقةً، وآثارًا أثَّرَها بعضُ مَنْ تقدَّمَ من آبائه. فحشد إليه المهندِسين والبنَّائين والعُمَّالَ، وأمرهم بالجِدِّ في إكمالِه. وبادر من فورِه، فنقل إليه خاصَّ بيوتِ أموالِه وخزائنَ سِلاحِه، ونفائسَ ذخائرِه. وحشد رعيَّتَه لحَمْلِ الأرز إليه، فأودعه منه مقشورًا وغيرَ مقشورٍ ما ظنَّ أنَّ فيه كِفايةً، وذلك أن الأرز الذي لم يُقشَر طويلُ البقاء، وأعدَّ لنزوله عدَّته، وهو مع ذلك يسدُّ الثغورَ، ويُجنِّد الجنودَ، ويشيد الحصون.

فلمَّا مضَتْ له ثلاثة أشهر من يوم كتبَ له جواسيسُهُ بحركةِ المرزُبان وحشدِه، اقتحم المرزبان ثغورَه في الجيوش المتوافرة والعُدَّة الكاملة، وظهر دعاةُ كِسرى بتلك الناحية فيمَن استفسدوه من الرعيَّة، فغلبوا على ما يليهم من البلاد، واستعمَل المرزبان عليها عُمَّالاً من ثقات أصحابه، ورتَّـ

فيها حُماة من جنده ومن أهلها. ثم دَنا يَطوي الأرْضَ[54]، فوافته جيوش الأركن، فدافعته ببعض الدفاع. ثم إنه انهزم مَن كان في نفسه[55] مرض، فانهزم المناصحون بانهزامهم واستولى المرزبان على عسكرهم، وأخذ الأموالَ، واستبقى النفوس، ثم تجاوزهم يطوي المَمْلكة طيًّا.

وكان الأركن عندما اقتحم المرزبان ثغوره قد بعث بأهله وحَشمِه إلى ذلك المعقل وجمع وجوهَ أهل حضرته، فوعظهم وذكّرهم ما سلف من إحسانه إليهم، وذكر ما بلغه عنهم من فساد الطاعة، وما كرهه من امتحانهم ومعاقبة المُسيئين منهم، فتنصَّلوا مِمَّا قرفوا به عنده، وحلفوا له على استِقامة طاعتِهم. فقال لهم المَلِك: إنّي لم أجمعْكم لهذا، ولست بناكِلٍ عن عدوّي، ولا بمُستبْعِدٍ الظفَرَ به والنصرَ عليه، ولا بمعَيِّنٍ تهمةَ أحدٍ منكم. غير أنه أخبرني بعضُ وزرائي عن مَلِكٍ من سَلفي أنه شرع في بناء مَعقِلٍ، وغنِيَ به بعضَ العِناية، فحال بينه وبين إتمامِ ما أرادَ من ذلك الانحِلالُ المحتوم على عالم التركيب. فحمَلني على تكمِلة ما شرع فيه جَدّي قولُ الحكيم: " إنَّ أبَرَّ الملوك مَنْ أتمَّ سعْيَ سلفِه وأعقَّهُمْ مَن انقطعَ سعْيُهم عنده ". ثم إني أحبَبْتُ أن أجعَلَ ذلك الحِصْنَ من عُدَدِي وذخائري، لقول الحكماء: " إنَّ أحزمَ الدعاةِ مَنْ أعَدَّ لجميع قضايا العقل أحكامًا "، وقولهم: " يجب على المَلِكِ ألَّا يَخلوَ من خمسةِ معاقل يتحَصَّنُ بها، أحدها وزيرٌ صالحٌ يتحَصَّنُ برأيِهِ في وقت شدائده[56]، والثاني سيفٌ قاطعٌ يتحصَّن بحَدِّه إذا غشِيَ[57]، والثالث فرسٌ سابق يتحصن بظهره إذا لم يُمكِنه الثباتُ، والرابع امرأة حسناء يُحَصِّنُ بها فرْجَه وبَصَرَه، والخامسُ قلعةٌ منيعة يتحصَّنُ بها إذا أحيط به ". فاتخذتُ هذا المعقل لأكمل[58] به حُصوني ونقلتُ إليه ذخائري وما يكرم عليَّ، فمَن أراد منكم أن يقتديَ بي في فِعْلي آخذًا بالحزم، فليفعل. ولمَّا فرغ من مخاطبتهم، أذِنَ لهم فخرجوا من عنده، فاقتدى به منهم مَنْ كان ذا عقلٍ وخِبرةٍ، فجهَّزوا إلى ذلك المعْقِل أهليهم وأموالهم وأقواتهم.

Scanned by CamScanner

وأمَّا المرزبان فإنه سار في تلك المَملكة يَطويها طَيَّ السِّجِلِّ، لا يُقاومُه جيْشٌ إلَّا هزمه، حتى أشرف على حضرةِ الأزكن. فنزل منها على فرسخ وتهَيَّبَ الإقدامَ عليها. وقد كان الأزكنُ أمَرَ الناسَ بالخروج[59]، فخرجتْ أمَّة عظيمة، وخرج الأركن في أربعة آلافِ مُقاتلٍ من عبيده وخاصَّته وثِقاتِه، فقام بهم في مَعْزِل عن حشودِه ورعيَّتِه بظاهر المدينة، وعَبَّأ فيوله ورتب صفوفه. وكان بالمدينة داعِيان من دُعاةِ كسْرى، فاغتنما الفرْصة واهتبلاها عند خروج الأركن[60] عن المدينة. فظهرا واتبعهما مَنْ كان أطاعهما، فوثبوا بخليفة الملك على المدينة[61]، فقتلوه واستولوا على المدينة وضبطوها. وبينما المَلِك قائم[62] في جنوده بظاهر المدينة، أتاه رئيسُ الزمازمة حافِيًا حاسِرًا، يلطم وجهه وينتف لحيته[63]. فأمر الملك بحمله معه على فيلِه واستخبره، فأخبره بذهاب دار مُلكِهِ وخِيانةِ رعيَّته، فانحاز المَلِك بخاصَّته ومَنْ كان معه على بصيرةٍ في طاعته، وتوَجَّهوا نحو الحِصْنِ. وانتهى خبرُه إلى المرزبان، فجرَّد خيْلاً لاتباعِهِ فأدركوه، فأوقف من جيْشه مَنْ كفاه أمْرَهم، وسارَ حتى دخل حِصنه.

وأمَّا المرزبان فإنه قصد المدينة فدخلها وضبطها وأحكم أمرَها. ثم سَارَ في جيوشه إلى ذلك الحِصْن. فرأى منظرًا عجيبًا رائعًا، ومعقِلاً أشِبًا مانعًا، ولم يُمْكنه النزولُ بالقرب منه. فنكصَ إلى حيث أمِنَ، ونزل في جيوشِه متحَفظًا، وكتب إلى المَلِك الهنديِّ كتابًا يُخاطبه فيه بالتعظيم والإجلالِ، ويَعْرِضُ عليه خِصالاً، منها أنْ يَرُدَّه إلى مَمْلكته مُكرَّمًا[64] موفورًا[65] على أنْ يَدِينَ لطاعةِ[66] كِسْرَى.

فلمَّا انتهى رسولُ المرزبانِ إلى المَلِك الهندي حجبَه ولم يأخذ كتابَه وأمره بالعَوْدِ إلى مُرْسِله فيَئِسَ منه المرزبان. وكان يُقالُ: صَرْفك البصرَ إلى عدوِّك إضاعَة، وإصغاؤك السمعَ إلى حديثه طاعة. وكان يقال: إذا أمكنْتَ عدوَّك من أذنِك فقد تعَرَّضْتَ للغرَق في بحرِه، والحصول في رَهَق[67]

سِحره. وكان يُقال: عجبًا لمَن يُصغي إلى عدوه سَمْعًا، وهو لا يرجو عنده نفعًا. وكان يُقال: إذا عجزتَ عن التحصُّنِ من كلامِ عدوِّك فأنت عن التحصن من كَيْدِه أعْجَزُ. ثم إنَّ المرزبان عاد إلى المدينة، وكتب إلى كِسْرَى بالفتح وبما تهيأ له وعليه من الأمور. فكتب إليه كسرى يأمره بأن يُقيمَ بتلك المَمْلكة، ويتركَ التعرُّضَ لذلك الأزكن في حِصنه، إلَّا أنْ يَبْدوَ منه فساد، وأن يُذكِيَ العيونَ عليه، ويُقيمَ المسالِحَ[68] في جهات حِصْنِه.

ففعل المرزبان ما أمره به كسرى، ولبث بذلك مدّة، وجعل أغتامُ[69] الفُرْس يَعِيشون في تلك المَمْلكة ويعاملون أهلها بالفظاظة والقساوة التي طبع الهند على ضِدِّها. فرَبَت[70] الشحناء في النفوس، ودخلتْ أهلَ تلك المَمْلكة الغيرة، لِمَا رأوْا أنَّ خراج أرضهم يُحْمَلُ إلى غيرها، ويُنفق في غير أهلها، وعرفوا فضلَ ما كانوا عليه، ومشقة ما صاروا إليه، فبسطوا ألسِنتهم، وخاف المرزبانُ أن يردعَهم عن القول، فيستوحِشوا منه فكفَّ عنهم، فكان ذلك داعِيَة إلى زيادتهم في بسط الألسِنة. وكان يُقال: أيْدِي الرَّعِيَّةِ تَبَعٌ لألسنتها، فإذا قدرتَ أن تقولَ، قَدَرْتَ أن تصولَ[71]. وكان يُقال: ترك نكير الصغائر مدعاة إلى ارتكاب الكبائر، فأوَّلُ نشوز المرأةِ كلمة سومِحتْ بها، وأول حَرَن الدابة حَيْدَة سُوعِدَتْ عليها.

وأمَّا الأزكن الهندي فإنه لمَّا استقرَّ في حِصنه شاوَرَ وزراءَه، فأشاروا عليه بالصبر وكفِّ الأذى، وبسْطِ العدل والإحسان، وتأمين السُبُل، وإجارة المستجير وتأليفِ المستوْحِش، والأخذ بالفضل والعفو. فاتخذ هذه الخِلالَ شرْعًا يَدينُ به، فازدادت سُمْعَته حُسْنًا، والقلوبُ إليه ميْلاً، والألسِنة له شكرًا.

واتفق أنَّ عاملاً للمرزبان، كان على ثغر من تلك الثغور، أساء السيرة فيهم، فقام إليه رجل كبير[72] كان أفضل أهل[73] عَمَلِهِ، فوعظه ونصح له، فكره العاملُ ذلك، وكتب إلى المرزبان يزعم أن رجلا من أهل عمله

يعارض أمره ويؤلب العامة عليه. فكتب المرزبان إليه بأمره بحمله إليه مقيَّدًا. فأخذ العاملُ الرجلَ وقيَّده، وبعث إلى المرزبان به مع رجال من الجند. فتبعهم أحداث من أهل[74] ذلك الثغر وفتاكهم، فقتلوا أولئك المُوَكلين بذلك الرجل وأطلقوه. فأتى الرجلُ إلى العامل وأخبره بما فعل أولئك الأحداث وأنه عَجَزَ عن دفعهم. فأمر به العاملُ فضُرِبَتْ عنقه، وكان ذا منزلةٍ عند أهل بلده. فوثبوا بالعامل فقتلوه وقتلوا أكثر رجاله وضبطوا ثغرَهم، وانضوَى إليهم مَنْ كان على مِثل رأيهم ومَنْ كان في غير حِصْن وكاتبوا مَنْ يليهم فأجابوهم إلى ما صنعوه فطردوا عُمّالهم، وانتقضت طاعة كسرى في مواضعَ كثيرةٍ من تلك المَمْلكة في أسرع مدّة.

ولمّا انتهى ذلك إلى المرزبان جمع جنده، وضبط حضرته على حال ذعْرٍ وتوَقٍّ[75] شديد، وكتب إلى كسرى يستمِدُّهُ. وكان أهلُ حضرته عندما خرج عنهم رئيسُ الزمازمة وتوجَّهَ مع مَلِكِهِم إلى حِصنه، قد قدَّموا مكانه خليفته، وكان مَرْضِيًّا عندهم. فلمّا رأى ما فيه المرزبان من الذعر والتوقي، وقصده مَنْ أخافه[76] بالمحنة والعقوبة، دخل على المرزبان فقال له: إني أريد أن أسألك عن أمرٍ ظننتُ أنَّ عِلمَه عندك. فقال له المرزبان: قلْ. قالَ: بَلَغني أنَّ[77] مِمّا أوْصى به أزدَشِير بن بابك مَلِك بابل، أنه قال: " قد تخرج الرَّعِيَّة بعُنف السياسة إلى ما لا تريد من المعصية "، وأنه قال في وصيّته: " ينبغي لمَنْ تغلَّبَ على مُلكٍ، وغصَبَه رَبَّه، أن يحفظ الصورة والشريطة التي تسلَّمَ عليها تلك المَمْلكة، فإنها محفوظة عليه، وثابتة في عقد تسلُّمِهِ تلك المَمْلكة، وإنها ستخرج من يدَيْهِ مِثلما صارت إليه "[78]. وقيل لي إنَّ هذه الوصيّة كانت مكتوبة في مجلسه بإزاء سريره وموضع قضائه.

ففهم المرزبان ما أراد، إلّا أنه أحبَّ الوقوفَ على آخر ما عنده. فقال: الأمر على ما بلغك أيها الشيخ. فقال رئيس الزماومة: إذا كان الأمر على ما بلغني، فمالك لم تستعمل الحكمة التي علمت، وعتّت في سياسة الرعيّة

غنفًا أخرجها، ولعلّه أن يُخرجها، عن الطاعة[79]. ولم تحذر خروج هذه المملكة من يدك مثلما[80] صارتْ إليك؟ فلمّا سمع المرزبان مقالة رئيس الزمازمة انتهره وتهدّده[81]، وكان شيخًا ضعيفًا[82] كبير السنّ. فسقط إلى الأرض مغشيًا عليه وحُمِلَ إلى منزله فمات بعد أيّامٍ. فعظمت المصيبة لموته، وساءت القالة، وسمحت الأنفسُ من الشقاق بما كانت منقبضة عنه. وفشا ذلك في الرعيّة فشوًّا تامًّا.

فاستحضر المرزبانُ وجوهَ مَنْ بحضرته، فوعظهم وحذّرهم بطش كسرى، ورغّبهم في العافِيَة فأرضَوْه بألسنتِهم وتسلّلوا عنه. وغلظ أمرُ أهل الأطراف المنتقِضة، وشغِل عنهم المرزبان بتحصين البيضةِ. فبعثوا رُسُلاً إلى الأزكن الذي كان مَلِكهم، يسألونه الصَّفحَ عنهم، وأن يبعثَ إليهم رجلاً ينحازون إليه، فأعطاهم أمانًا عامًّا، واستعْمَلَ عليهم عامِلاً. فألقوا إليه المقاليد واستبصَروا[83] في طاعته، ونصحوا في الذبّ عنه. واضطرَّ المرزبانُ إلى أن يبعَثَ إليه جيشًا فبعثَ، فعادوا مُنهَزِمين مَفلولين. ولم يجد بُدًّا من الخروج إليهم بنفسِهِ. فحصَّن دارَ المُلك، واستخلَفَ عليها مَنْ ظنّ أنه يضبطها، وخرج متوَجّهًا إلى عدوِّهِ. فلمّا فصل عن المدينة وثب أهلها بأصحابه، فاستوْعبوهم قتلاً وتشريدًا وأحرزوا مدينتهم. وبلغ ذلك المرزبان فاستمرّ لوجهه خارجًا من تلك المملكة حتى قدم على كسرى طريدًا مفلولاً. وعاد الأزكن إلى دار مُلكِه، فجرى على سيرة العدل، والأخذ بالحزم، وقمْعِ شهواته، واستعمل الحنكة التي أفادته التجارب إيّاها.

---

(1) ع: مولانا.

(5) ع: نحصنا.

(4) س: بن أبي محمد.

Scanned by CamScanner

(4) ع +: هذا.

(5) ع: الثمار. وإتاء الأرض يعني: ريعها وحاصلها.

(6) س -: الإتاء وكثرة.

(7) ل، ب، ع: لشهوته

(8) ع +: له.

(9) س -: وحزامة ونكر. والنكر هو الدهاء والفطنة.

(10) ع: ومن يكون ذلك الذي في هذه الدار؟

(11) ع +: أرسل سيدي إلى ملك أرضكم.

(12) ر: قد علمت.

(13) ع +: من.

(14) س -: من يقول.

(15) س: كذا وكذا.

(16) ع: أنا فطنت له ففعلته.

(17) ل، ب، ع: ما رأيت أجهل منه ولا أبله.

(18) ع: لما رأى أنه قد أفرط في تجاهله.

(19) ع: المقول.

(20) ع +: إليها.

(21) ع: الكتاب.

(22) المَهَا: جمع مَهاوَة، وهي البلورة.

(23) ع: إليها.

(24) ع: فلو ندب الملك إليهم رجالاً.

Scanned by CamScanner

(25) ع: أحكموا أمر ذلك.

(26) ع: ضجم. ونجم يعني: ظهر.

(27) ع: لم تزدهم التكرمة إلّا فسادًا.

(28) ع: تعافى. وعانى الأمرَ يعني: قاساه وعالجه.

(29) ع +: من جيشه وأدعى إلى طاعته من دعاته.

(30) ع: يقاتلنا.

(31) ع: بالامتحان.

(32) ع -: من.

(33) س: فمنظرنا.

(34) س -: واستماعنا منه.

(35) ع: فكن وادعات فيما اشتهين.

(36) ع: أموره.

(37) ع: في البيت

(38) كذا في ل، ب، ر، س. وفي ع وسلوان المطاع: هيجهم. والهجن يعني: القبح واللؤم.

(39) ع: حتى إذا أتيا أرضًا بارزة. والبراز يعني: الأرض الواسعة والخالية من الشجر.

(40) ع: النافد.

(41) ع: عود معوج قد نصب.

(42) ع +: أصح دلالة.

(43) ع: المشورة.

(44) ع: فلنشاور.

(45) ر، ع: ابن نجدة. يقال: هو ابن بجدة الأمر، أي العالم به.

Scanned by CamScanner

(46) س: غير عارفها. وقتل الأرض يعني: أحاط بها علمًا.

(47) ع: فيه.

(48) ل، ب، ر، س: عند.

(49) سلوان المطاع: أن يصحب العالم المتزين.

(50) س -: جحر.

(51) س، ع: ونقصر فيها على. وقصر عن الشيء يعني: كف عنه وتركه مع العجز.

(52) ل، ب: مماليكك؛ واسطة السلوك: ممالك الملك.

(53) يقال: غاله، أي أهلكه وأخذه من حيث لا يدري.

(54) ر: المراحل.

(55) ع: قلبه.

(56) س، ر -: في وقت شدائده.

(57) ع +: عدوّا.

(58) ل، ب، ع: لنكمل؛ سلوان المطاع: لتكمل.

(59) ع +: إليه.

(60) ع: الملك.

(61) في ع: بخليفة المدينة؛ وفي سلوان المطاع: بخليفة الأركن على المدينة.

(62) في ر، ل، ب، ع -: قائم.

(63) ع: شعره.

(64) ل، ب، ر، س -: مكرمًا.

(65) ع: مرفوعًا.

(66) ع: بطاعته.

Scanned by CamScanner

(67) ر، س، ل: وهن. يقال: وهقة وهقًا عن كذا: أي حبسة.

(68) المسالح جمع مسلحة، وهي مركز للجنود أمامي.

(69) كذا في ز. وفي س، ر، ل، ب، ع: أغشام. والأغتام جمع أغتم، يعني: من لا يفصح في كلامه.

(70) ع: ديث. ورَبَث يعني: نشأت.

(71) ر، س: أن تفعل.

(72) ل، ب، ع -: كبير.

(73) س، ر، ل، ب -: أهل.

(74) ع: فتيان.

(75) ع: وخوف.

(76) س، ر، ل، ب: خافه.

(77) ر، ع: أنه.

(78) ع: بمثل ما صارت به إليه.

(79) ل، ر، ب، س -: عن الطاعة.

(80) ع: بمثل ما.

(81) ل، ب: هدده.

(82) ع: ضعيف البدن.

(83) ع: واستنصروا.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

الملحق الثالث

لمّا عزم سابور بن هُرْمُز على الدخول إلى بلادِ الروم متنكرًا متجسّسًا، نهاهُ نُصَحاؤه، وحذروه التغريرَ بنفسه في أمرٍ يُمكنه أن يَستنيبَ فيه، فعَصَاهم. وكان يُقال: أشقى الناس وزراءُ الأحداث من الملوك، وعُشاقُ الفتياتِ من الشيوخ. وكان يُقال: إنما عَسُرَ صَرْفُ الأحداث عن غيِّ الهوى إلى رُشدِ الرأي لأمرَيْن، أحدهما قوّة سلطان الشهوات عليهم، والثاني أنَّ التجارب لم ترُضْ قواهم على مخالفة هَواهُم، وذوُو الحنكة بخِلافِ ذلك. وكان يُقال: لا تستخِفَّنَّ بأمرك، ولا تستبدَّنَّ بتدبيرك، فإنَّ مَن استخَفَّ بتدبيره ذلَّ، ومَن استبَدَّ برأيه زَلَّ[1].

ثم إن سابور توجَّه إلى بلاد الروم، واستصْحَبَ وزيرًا كان له ولأبيه من قبله، وكان شيخًا ذا دهاء وحزم، وسَدادِ رأيٍ وحنكةٍ، وبَصَرٍ بالديانات واللغات، وتبحُّرٍ في العلوم وخِبْرَةٍ بالمكائد. فسلَّمَ إليه سابورُ جميعَ ما يظنُّ أنَّ له إليه حاجة أوْ تدعو إليه داعِيَة. وأمره أن ينحازعنه في قربٍ منه، ومراعاةٍ لجميع أحواله في نهاره وليلِهِ، وتوَجَّها معًا نحو الشام.

فتزيَّا ذلك الوزيرُ بزِيِّ الرهبان، وتكلَّم بلِسان الجلالِقة، وتحرَّفَ[2] بصناعة الطِّبِّ الجرائحيِّ[3]. وكان معه الدهْنُ الصِّيني[4] الذي إذا دُهِنتْ منه الجراحُ بَرئتْ واندَمَلتْ في الحال. قال محمد بن ظفر[5] عفا الله عنه: قد رأيْتُ جماعة ذكروا أنهم رأوْا هذا الدهن المذكور، وحدثني بعضهم أنه امتحنه بأنْ شرَحَ اللحمَ ودهنه منه فالتأمَ مَكانه.

فكان ذلك الوزير، في مسيره نحو بلاد الروم وبعدما دخلها، يداوي الجرحَى بأدويةٍ يضيف إليها شيئًا يسيرًا من ذلك الدهن فتبرأ جراحهم بسرعة، وإذا عُنِيَ بأحدٍ من ذوي الأقدار، داواه بذلك الدهن صِرْفًا فيبرأ

Scanned by CamScanner

مكانـه، ولا يأخـذ علـى المـداواة أجـرًا. فانتـشرَ لـه فـي بـلاد الـروم ذِكـرٌ وصِيتٌ بـالعِلم والـزُّهْدِ. وكـان يُقـال: مَـنْ غـرس العِلـم اجتنـى النـباهَة، ومَـنْ غـرس الـزهد اجتنـى العِـزَّة، ومَـنْ غـرس الإحـسان اجتنـى المحبَّة، ومَـنْ غـرس الفِكـرة اجتنـى الحِكمَـة، ومَـنْ غـرس الـوَقار اجتنـى المَهابـة، ومَـنْ غـرس المُـداراة اجتنـى الـسَّلامة، ومَنْ غرسَ الكِبْـرَ اجتنـى المَقـتَ، ومَنْ غـرس الحِـرْصَ اجتنى الـذلَّ، ومَـنْ غَـرَسَ الطمَـعَ اجتنـى الخِـزْيَ، ومَـنْ غَـرَسَ الحَسَد اجتنـى الكمَدَ. وكـان يُقـالُ: الأمَـمُ علـى اختـلافِ أديانِهـا وأزمانِهـا وبلـدانِها مُـتفِقة علـى حَمْدِ أخلاقٍ أربعة، العِلم والزهد والإحسان والأمانة.

قـيل: فانطلـق سـابور ووزيـرُهُ منفـردَين، إلَّا أنَّ الوزيـرَ يراعـي أحـوالَ سـابور أشـدَّ المُـراعاة، فلـم يـزالا علـى ذلـك حتـى طَـوَّفا[6] جمـيعَ الـشام، وتجـاوزا الـدروب، وقـصدا القـسطنطينيَّة فقـدِماها. فـذهب الوزيـر إلـى البطـرك، وتفـسير هـذا الاسـم أبـو الآبـاء، فاستأذن علـيه، فـأذِنَ لـه وسـأله عمَّـا يـريد. فأخبـره أنـه هاجَـرَ[7] مـن أرض الجلالقـة ليتـشرَّفَ بخدمـته ويـدخل فـي أتـباعه، وأهـدى إلـيه هديَّـة نفيـسة حَـسُنَ مـوقِعُها مـن البطـرك. فقـرَّبه وأكـرمه وأحـسن نـزله وألحقـه ببطانـته واختبـره فـوجده لبيـبًا مُمْـتِعًا، فأعْجِـبَ بـه غايـة الإعجاب. وجعـل الوزيـرُ يـتأمَّلُ أخـلاقَ البطـرك لِيَـصْحَبَه بمـا يـوافِقه ويَتَـنفَّق عـنده ويَحْسُنَ مَـوْقِعُه مـنه. وكـان يُقـال: إذا أردتَ صُـحْبَة رئـيس، فانظـر مـا يـستميله[8] ويَنفُق عـنده مـن الآلات، فـإنْ كـنتَ مُطـيقًا للعمَـلِ بهـا فـي طلـب إقـباله علـيك وحظـوتك لديـه، فأقـدِمْ علـيه، وإلَّا فـرُضْ نفـسَك علـى ذلـك، حتـى تعلـمَ أنها قد أطاقته وأحكمته، فتقدِمَ على بصيرةٍ.

قـيل: فلمَّـا تأمَّـلَ وزيـرُ سـابور أخـلاقَ البطـرك، وجـده مـائلاً إلـى الفكاهـات، مُعْجَـبًا بـنوادِرِ الأخـبار. فأخـذ الوزيـر فـي إتحافـه مـن ذلـك بكـلِّ نـادِرَةٍ غـريبةٍ، ومُلحَـةٍ عجيـبةٍ. فلـم تَطـل المُـدَّة بـه فـي صُـحْبَته حتـى حلـيَ بعينيه وقلبه وصـار ألـصقَ بـه مـن شـعرات قـصِّه[9]. وجعـل مـع ذلـك يعـالج الجرحى

Scanned by CamScanner

ولا يأخذ على ذلك عِوَضًا. فعظم قدره في الناس، ووَمِقته[10] القلوب. وكان يقال: إذا كانت القلوبُ محمولة[11] على مِقةِ المحسنين وكانت المحبّة رقًا، والأحرارُ يكرهون الاسترقاق، فالحُرُّ على الحقيقة مَنْ فدَى نفسَه مِنْ رِقِ المحسنين بمكافأتهم على إحسانهم جُهْدَهُ، حتى إذا لم يستطعْ فليَرِقَّ نفسَه لهم مغذورًا.

وجعل الوزير يتعاهد أحوالَ سابور في كلّ وقتٍ، إلى أنْ صنعَ قيْصَرُ وليمة، وحشدَ إليها الناسَ على طبقاتهم، وتهدَّدَ مَنْ يتخلّف عنها. فأراد سابور حُضورَها ليطَّلِعَ على هَيْئةِ قيْصَر وهِمَّتِهِ في قصره وذخائره. فنهاه وزيرُهُ على التغرير بنفسه فعَصاه، وتزيَّا بزِيّ ظنَّ أنه يَستر به أمْرَه، ودخل دارَ قيْصر مع مَنْ حَضر الوليمة.

وقد كان قيصر، لمَّا بلغه ما أيَّدَ الله به سابور من لطفِ الفطنة، وعظم الهِمَّة، وشِدَّة البأس في حال صِباه، حذره حذرًا شديدًا، فبعث إلى حضرته بمصَوِّر ماهر، فحكى صورة سابور في مجلسه، وحال ركوبه، وغير ذلك من ضروب الأحوال التي شاهده المصوِّرُ عليها، وقدِم بتلك الصوَر على قيصر. فأمر قيصر بأن تصوَّرَ تلك الصورة[12] على فرُشِهِ وسُتوره، وفي آلات أكله وشربه، فصنَعَ ذلك على ما أمِرَ به ورسَمَه.

ولمَّا دخل سابور دارَ قيصر واستقرَّ في مجلسه وطعِم مع مَنْ حضر ذلك المجلسَ أتوْا بشرابٍ في كؤوس البلَّوْر والذهب والفِضَّة والزجاج. وكان في المجلس[13] رجلٌ من حكماء الروم ودُهاتِهم، ذو فِراسةٍ صادقةٍ. فلمَّا وقعت عيْنُه على سابور أنكره، وجعل يتأمَّلُ شخصَه ونظرته وإشاراته، فرأى عليه مَخائلَ الرياسة، فطفق يَستشِفُّهُ ولا يَطرِفُ بصرَه عنه، فأتِيَ ذلك المتفرِّسُ الرُّومِيّ[14] بكأسٍ فيها صورَة سابور، فتأمَّلها فانطبعت في نفسه مِثالاً لذلك الشخص الذي أنكره[15]، وغلب على ظنّهِ أنه سابور[16]، فأمسك القدحَ في ... طويلاً، ثم قال رافعًا صوته: إنَّ هذه الصورة التي في

هـذا القـدح تخبرُنـي خبـرًا عجيبًا. فقِيل لـه: مـا الـذي تخبـرك؟ فقـال: تخبرنـي هـذه الصـورة أنَّ الـذي هـي مـثالٌ لـه معـنا فـي مجلِسِنا هـذا، ونظـر إلـى سـابور وقـد تغيَّرَ حين سمِع مقالته، فحقـقَ مـا ظنه بـه وأعـاد القـولَ، فبلغ كلامُهُ قيْصَر، فأدناه وسأله. فأخبره أنَّ سابور معه في مجلسه، وأشار إليه.

فأمـر قيـصر بالقـبض علـى سـابور، فقـبض علـيه وقـرّبَ مـن قيـصر، فسأله عـن نفسـه، فـتعلَّلَ بـضروبٍ مـن العِلـل. فقـال ذلـك المتفـرِّس: لاتقـبلوا قـوله، فهـو سـابور لا محالـة. فأمـر قيـصر بقـتله ليُزعِجَه بـذلك فاعتـرف لهـم أنـه سـابور.

وكـان يُقـالُ: قلـوبُ الحكمـاء تستـشِفُّ[17] الأسـرار مـن لمحـات الأبـصار، وطالمَا دَلَّتْ أوائلُ المُبْصَرات على أواخر المُنتظَرَات.

وقـيل: كمـا أنَّ الأبـصارَ مَـراءٍ[18] تنطـبع فـيها بعـض المُـشاهَدات إذا سَلِمَتْ مـن صَـدَإ الآفـات، فكـذلك القلـوبُ مَـراءٍ تنطـبعُ فـيها بعضُ الغائبات[19] إذا سَـلِمَتْ مـن صـدإ الـشهَوات. وقـيل: مـن الأدِلَّـة علـى مُكاشـفة اللهِ القلـوب، فـي بعـض الغـيوب، أنَّ الإنـسانَ قـد يـتوَقعُ الـشيْءَ يَكـرَهُهُ أو يُحبُّهُ، ثـمَّ يكـون ذلـك الـشيْءُ الـذي توقـع علـى نحـو مـا تـوَقعَه، فقـد يـرى الإنـسانُ الإنـسانَ[20] فيحبُّه لغيـر إحسانٍ فـرَطَ منه إلـيه، أو يُبغِضه لغيـر إسـاءةٍ جناها علـيه، ثـم يكـون منه الإحسانُ أو الإساءة.

قـيل: فلمَّـا اعْتـرَفَ سـابور بـصِدق ذلـك المتفـرِّس حبَـسَه قيـصرُ مكـرَّمًا، وأمَـرَ فعُمِلَـتْ لـه مـن جلـودِ البَقـر صـورَة بقـرةٍ كـأعْظم مـا يكـون مـن البقـر، وطـبَقَتْ[21] علـيها الجلـود سَـبْعَ طـبقاتٍ، واتخـذ لهـا بابًـا مـن أغلاهـا فـي ظهْـر الـصورةِ يُـدخَلُ إلـيها[22] ويُخـرَجُ منه، وجُعِلـتْ فـيها كـوَّة فـي أسـفلها فـي موضـع المَـبال. وأمِـرَ بـسابور فجُمِعَـتْ يَـداه إلـى عـنقِه بجامِعـةٍ مـن الـذهب ذاتِ سلـسلةٍ، ليُمْكـنه معهـا تـناوُلُ مـا يُـصْلِحه مـن الطعـام وغيـره. وأدخِـلَ سـابورُ فـي جَـوْفِ تلـك الـصورةِ، وهـذا بعـد أن حـشد قيْـصَرُ جـنودَه، واسْـتعَدَّ لغـزْوِ بـلادِ الفُـرْس

ووَكَّلَ بتلك الصورةِ التي سجنَ فيها سابور مائة رجلٍ من ذوي البأسِ والقوّةِ يحملونها دولاً بينهم، وجعل على كلِّ خمسةٍ منهم رئيسًا يضبط أمرَهم، وصرَفَ أمرَ جميعِهم إلى المطران، ومعنى هذا اللقب صاحب البلد، إلّا أنها رياسة دينيّة[21]، وهو خليفة البطرك. فكانت تلك الصورة تحمَلُ بين يَدَي المطران، فإذا نزل العسكرُ أنزلتْ تلك الصورة التي فيها سابور في متوسّط المعسكر، وضُربَتْ عليها خيمة تسترها، وأطاف بها خمسون من المتوكلين بها ورُؤساؤهم معهم، وضُربَتْ حولها عشرُ قِبابٍ مستديرةٍ بها، فكان في كلِّ قبَّة خمسة ورئيسهم معهم، وضُربَتْ للمطران قبّة مجاورة لقبّة سابور، وضُرِبَتْ خارجَ القباب كلها خَيْمَة يُصْنع فيها طعامُ المُوَكلِين بقبَّةِ سابور، على حسبِ أقدارهم ومراتبهم.

وسارَ قيْصَرُ متحَفلاً في جنوده، وقد عزم على إخراب[24] بلاد[25] الفرس، وتعفيَةِ معالم مُلكِهم، لعِلمِه ألّا دافعَ يدفعُه عنهم. وكان يُقال: الحزم التِزامُ مُداجاةِ[26] العدوّ ما دامتْ لدولته ريحُ إقبالٍ، كما أنّ العجز إضاعة الفرصة فيه إذا أدبرتْ دولته وركدتْ ريحُ إقبالِه. وكان يقال: العاقل لا يكون في سلطان مَلِكٍ[27] اجتمعت فيه خصلتان الانهماك في اللذاتِ وإضاعة الفرَص. وكان يقال: تمَيُّزُ الملوكِ عن السُّوقة إنما يكون بفضيلة الذاتِ لا بفضيلة الآلات، وفضيلة ذاتِ الملك بخمسِ خِصالٍ: رحمة تشمل رعِيَّته، ويقظة تحوطهم، وصَوْلة تذبُّ عنهم، ولبابة يكيد بها الأعداء، وحزامة ينتهِز بها الفرَص، فهذه فضيلة الذات. وأمّا فضيلة الأدوات، فاتخاذ المَباني الوثيقةِ العلِيَّة، والملابس الأنيقة السَّريَّةِ، والذخائر النفيسة السَّنِيَّة، والمطاعم الشهِيَّة، والمراكب البهِيَّة، فهذه فضيلة تفضل بها هذه الأدوات[28] على ما هو دونها من أجناسِها، فيكون للقصر فضلٌ على غيره من القصور، وللثوبِ فضلٌ على غيره من الثياب، وللذخيرة فضلٌ على غيرها من الذخائر، وللطعام فضلٌ على غيره من الأطعِمة، وللدابّةِ فضل على غيرها

من الدوابّ، فالفضيلة لهذه الأشياء، لا لِمالِكِها.

قيل: فلمّا سار قيصر بجنوده، ومعه سابور على الهيئة التي ذكرناها، قال وزير سابور للبطرك: إنما استفدتُ بخدمتك والقرب منك الرّغبة في صالح الأعمال، وإنه لا عملَ أنفسُ[29] من تنفيس كربَةٍ عن مجهودٍ، وجَرّ نفعٍ إلى مضطرٍ، وقد علِمْتَ كِفايَتِي في مُعاناة الجزحى، وإنَّ نفسي لتنازعُني إلى صُحْبَة المَلِك قيْصر في سفره هذا، فلعَلَّ الله أنْ يستنقِذ بي نفسًا صالحة يُترَحَّمُ عليَّ من أجلها، ويُقدِّسُ قلبي بخِدمتها.

فكره البطرك ذلك، وقالَ له: قد علِمْتَ أني لا أستطيعُ فراقك ساعة، فكيفَ تطالبني بالسفر البعيد عني؟ ما ظننتُ أنك تلقاني بما أكرهه، وتسومني ما يشقُّ عليَّ احتِماله، كما لم أظن أنك توثِرُ شيئًا من الأشياء على القربِ مني والتحَبُّبِ إليَّ، فقد أزلتني عن حُسْن ظني بك. ولم يزلْ الوزيرُ يَضْرَعُ إلى البطرك ويتملّقه ويقرّبُ له العَوْدَة إلى أن سمح له بذلك.

فأذِنَ له وزوّده، وكتب معه كتابًا إلى المطران، يُخبره فيه أنه قد بعث إليه بسُوَيْداءِ قلبه وسَوادِ بصره، فليُخلِلْهُ[30] من نفسه بأعلى المراتب، ويَستضِئْ برَأيه فيما أشكلَ عليه. فقدِم وزيرُ سابور على المطران فعرف له حقه وأنزله معه في قبّتِهِ وجَعَل زمامَ أمْره ونهْيه بيَدِهِ. وجعل الوزيرُ يتنفقُ إلى المطران بما يعجبه، ويستميله بما يَميلُ إليه، ويُطرفه كلَّ ليْلةٍ بأخبارٍ مُمتِعَةٍ، رافِعًا بها صوته ليسمعَ[31] سابور حديثه، فيتسلّى بذلك، ويَدُسُّ في أحاديثِهِ ما يُحِبُّ أنْ يَعْلَمَه سابورُ من الأخبار، ويُفطِّنه له[32] من الأسرار، فكان سابور يجد لذلك أعْظمَ راحَةٍ.

وكان الوزيرُ قد أعدَّ لتخليص سابور أنواعًا من المكائد، رتبَها وأسّنها عندما قدِمَ على المطران. وكان يُقال: مَنْ ظنَّ من الملوك أنَّ لِفِطنتِهِ فضيلة على فِطنةِ وزيره فقد غلط، وإنْ أضافَ إلى هذا الغلط مُخالفة الوزير لم يُفلِحْ، وإنما كانتْ فِطَنُ الوزراءِ أثقبَ من فِطَنِ الملوكِ، لأنَّ الملوك

يتفقهون أبدًا في سياسةِ مَنْ دونهم من الرّعايا لا غير، والوزراء يتفقهون في سياسةِ الملوكِ والرّعايا[33]، فهم أشبَهُ شيءٍ بالجوارح التي تصيد وتفترس، وتصيدها أيضًا جوارحُ أشدُّ منها، فهي أغرَفُ الجوارح بمَكائدِ الاختِراس ومكائد الاكتساب. وكان يقال: أحسَنُ الوزراءِ حالاً مَنْ أعَدَّ لكلِّ أمرٍ يجوزُ وقوعُهُ ويُمْكِنُ كونه عُدَّة وإذا وقعَ الأمرُ قابَلَه بما كان أعدَّ له، وأسوَأُ الوزراءِ حالاً مَنْ توكَّلَ على لطفِ فِطنتِهِ وقوّةِ حِيلتِهِ ودُرْبَةِ مُمارَستِهِ، فترَكَ الإعْدادَ للأمور قبل نزولِها ثِقة بنفسِهِ. وإنما هو في ذلك بمنزلة مَنْ ترك تزويرَ القولِ بإعْدادِهِ[34] وتوريَتِهِ[35] توَكلاً على فصاحة لسانه[36]، وقوّة بَديهته وحسن ارتجاله، فيوشك أنْ يستوْلِيَ عليه العِيُّ والحَصَرُ في بعض مقاماتِهِ، وبمنزلةِ مَنْ ترك حَمْلَ السلاح، توَكلاً على قوّةِ بدنه وشجاعةِ قلبِهِ، فيوشِكُ أنْ يَظفرَ به عدوُّهُ في بعض المواطِنِ.

قيل: وكان من المكائد التي أعدَّها وزيرُ سابور أنه امتنع من مُؤاكلةِ المطران، وزعم له أنه لا يريد أن يَخلط بالطعام الذي زوَّدَه البطرك طعامًا غيرَه لِمَا يرجوه من بركةِ الاغتذاءِ به. فكان إذا حضر طعامُ المطران أخرج هو من ذلك الزاد، فانفرد بالأكل منه. فلم يزل قيْصَرُ سائرًا بجنوده حتى بلغ أرضَ فارس، فأكثر فيها القتل والسَّبْيَ، وتغويرَ المِياهِ وقطْعَ الشجَر، وإخرابَ القرَى والحصون، وهو مع ذلك يُواصِل السيْرَ مبادِرًا ليستوْلِيَ على دار مُلك سابور، ويباغِتَ مَنْ بها من رؤساءِ الفرْس قبل أنْ يُمَلِّكوا عليهم رجلاً، ولم يكن للفرْس هَمٌّ إلّا الفرار بين يدَيْهِ والتحَصُّن بالمعاقِل. فلم يزل قيْصَرعلى ذلك حتى بلغ مدينة سابور وقرارة مُلكِهِ، وهي المسماة جُنديسَابُور[37]. فأحاط بها جنوده، ونصب المجانيق، ولم يكن عند مَنْ بها من عظماء الفرْس حيلة في دَفعِه بأكثرَ من ضبطِ الأسوار والقِتال عليها. وكلُّ هذا قد علمه سابور على التفصيل بما يُفهِمه إيّاه وزيرُهُ، ويدسُّه في أحاديثِه من الإشارات والرموز والكِنايات.

وكان سابور لم تسمَعْ منه كلِمة منذ سجنه قيْصَر في تلك الصورة. فلمَّا عرف سابور أنَّ قيصر قد ثقلتْ وَطأته على أهْل جنديسابور، وقد ثلم الأسوارَ بالمجانيق وأشرف على افتِتاح المدينة، عِيلَ صبْرُه وساء ظنه بوزيره، وجزِع ويئِسَ من النجاة مِمَّا هو فيه. فلمَّا جاءَه المُوَكَّلُ بطعامِهِ، قال له: إنَّ هذه الجامعَة قد نالتْ مني مَنالاً ضعفتُ عن احتِمالِه، فإنْ كنتم تريدون بقاءَ نفسي فنفِسُوا عني منها، واجعلوا بينها وبين عنقي ويدي خرقًا من الحرير. فجاء المُوَكل بطعامه إلى المطران، فأعلمه بمقالة سابور. وسمِعها وزيرُ سابور، فعلم أنَّ سابور قد جزِع وساء ظنه، وفطن لِما قصده سابور. فلمَّا جَنَّ عليه الليْلُ وجلس لمسامرة المطران، قال له: لقد ذكرْتُ[38] الليلة حديثًا غريبًا ما ذكرته منذ كذا وكذا سنة، ولوَدِدتُ[39] أني كنتُ[40] حدَّثته البطرك قبل سفري عنه. فقال المطران: إني أرغب في أن تحدثني به الليلة أيها الحكيم الراهب،

فقال الوزير: نعم حُبًا وكرامة.

ثم اندفع يحدِّثه رافعًا صوته ليسمعَ سابور، فقال[41]: إنه كان عندنا بجليقِيَة فتى وفتاة في غايةِ الحسْن والظرَف، واسمُ الفتى ما معناه[42] عين أهْلِه، واسم الفتاة ما معناه سيدة النار، وكانا زوجَيْن مؤتلِفيْن متحابَّيْن لا يبغي أحدهما بالآخر بَدَلاً. وإنَّ عَيْنَ أهْلِهِ جلَس يومًا مع أصحابٍ له يتحادثون، فتذاكروا[43] النساءَ إلى أنْ وصف أحدُهم امرأة بالجمال البارع والظرَفِ الرائع، اسْمُها ما معناه سيِّدة الذهب. فوقع بقلب عين أهله مَيْلٌ إليها، فسأل الواصِفَ لها عن منزلها، فذكر له أنها بقريةٍ غير قرية عين أهله.

ففكَّرَ عينُ أهْلِه في أمرها، وخامره حبُّها، وطمحتْ نفسُه إليها طموحًا شديدًا. وكان يقال: العقلُ كالبَعْل، والنفسُ كالزوْجة له، والجسْم كالبيت لهما. فإذا كان سلطانُ العقل على النفس مبسوطًا اشتغلت النفس بمصالح الجسم كاشتغال المرْأةِ التي قهرَها بَعْلها بمصالح نفسها وبيتها وولدها

وبَغلِها، وصَلحَت الجملة. وإذا كان السلطان للنفس على العقل، كان سَخيّ النفس فاسِدًا ونزغاتها مذمومة كفعل المرأة التي قهرت بغلها.

قيل: فانطلق عينُ أهلِه إلى القريةِ التي بها سيّدة الذهب وطلب منزلها حتى عرَفه. ولم يزلْ يتردّد إليها حتى رآها فرأى منظرًا مُعجبًا، ولم تكن بأحسَنَ من امرَأتِه، ولكنه كان يقال: من ضرورةِ النفس أنْ تحنّ إلى التنقُّلِ في الأحوال، إذ كانتْ نقِلتْ بالتركيب إلى عالم الكوْن، ثم تنتقِل بالتفريق إلى عالم الفساد، وما افتتحَ أمْرُهُ واختتِمَ بالنقلةِ، فأليَقُ الأحوال به توسُّط النقلةِ.

ونازَعَتْ عينَ أهلِه نفسُهُ إلى الاستِكثار من رُؤيَةِ سيّدةِ الذهب، فلزم المعاودة إلى منزلها والتمتع بتأمُّلِها حتى فطَنَ له بَغلها، وكان جليقيًّا غليظَ الطبع، قاسِيَ القلبِ، شديدَ البطش، يسمّى الذئب. فترَصَّد عينَ أهلِه حتى مَرَّ به، فلمّا رآه وثب عليه فقتل فرسَه ومزّق ثيابَه، وتعتعَه وعنّف عليه، واستعان بأصحابٍ له، فاحتمَلوا عينَ أهلِه، وأدخلوه إلى دار الذئب، وربطوه إلى سارية في بيْتٍ من بيوتِها، ووَكلَ به الذئبُ عجوزًا قطعاءَ اليَدِ، جدعاءَ الأنفِ، عوراءَ العَيْن، شوهاءَ الحالةِ.

فلمّا جنَّ عليه الليْلُ أوْقدتِ العجوزُ نارًا تصطَلي بها. فتذكّرَ عينُ أهلِه ما كان فيه من السّلامةِ والرَّفاهِيَّةِ والعِزّ، فزَفرَ زَفرَة عالِيَة، فأقبَلتْ عليه العجوزُ وقالتْ له: أيُّها[44] الفتى، ما ذنبك الذي أوْرَدك مَوردَ الذلةِ والشدّة؟ فقال عينُ أهلِه: ما علِمتُ أنّ لي ذنبًا. فقالت العجوزُ: هكذا قال الفرَسُ للخِنزير فلم يُصَدِّقه الخنزيرُ، ثم باحَثه عن أمْره، فظهَرَ على ما خَفِيَ عنه، وعلِم صِدقَ ظنِّ الخِنزير. فقال عينُ أهلِه للعجوز: إنْ رأيتِ أنْ تحدِّثيني بذلك كيف كان[45] فإنكِ تحسِنينَ إليّ به.

فقالت العجوزُ: ذكِرَ أنّ فرَسًا كان لرجلٍ من الشجعان، وكان يُكرمه [illegible] عليه، ويُعدُّه لمُهمّاتِه، ولا يصبرُ عنه ساعة، وكان

يخرج به في الغدواتِ إلى مَرْج، فيُزيل سرْجَه ولجامَه، ويُطيل رَسَنه، فيتمرَّغ حتى ترْتفِعَ[46] الشمسُ فيرُدُّه، وأنه خرج به يومًا إلى المرج ونزل عنه، فلمَّا استقرَّتْ قدمُه على الأرض نفرَ الفرَسُ وجمح ومَرَّ يعدو بسرجه ولجامِه فطلبه الفارسُ يومَه كلَّه، فأعْجَزَهُ وغابَ عن عَيْنيْهِ[47] إلى غروب الشمس، فرجع الفارسُ إلى أهله وقد يَئِسَ من الفرَس.

ولمَّا انقطعَ الطلبُ عن الفرَس وأظلم عليه الليلُ جاع، فرام أنْ يَرْعَى فمَنعَه اللجامُ، ورام أنْ يتمَرَّغ فمنعه السَّرْجُ، ورام أنْ يستقِرَّ على أحدِ جنبَيْهِ فمنعه من ذلك الركابان، فباتَ بشرِّ ليْلةٍ. ولمَّا أصبحَ ذهب يبْتغِي فرَجًا مِمَّا هو فيه، فاعترَضَه نهرٌ، فدخله ليَقطعَه إلى ضَفتِه الأخرى، فإذا هو بعيد القعْر فسَبَح فيه، وكان حزامُهُ ولبَبُهُ من جلدٍ لم يُبالغ في دبْغِه، فلمَّا خرج من النهر، أصابت الشمْسُ الحزامَ واللبَبَ، فيَبِسا واشتدَّا عليه، فورمَ لبانُه[48] ومَحْزمُهُ، واشتدَّ الضَّررُ عليه إلى ما به من الجوع.

فلبث بذلك أيامًا إلى أنْ ضعُف عن المَشي، فأقام في موضعه ذلك. فمرَّ به خِنزيرٌ، فهمَّ بقتله، ثم عطَّفه عليه ما رأى به من الضعْف، فسأله عن حالِه، فأخبره بما هو فيه من أضرار اللجام والحِزام واللَّببِ وسأله أنْ يصْطنِعَ عنده معروفًا، ويُخلِّصَهُ مِمَّا ابتلِيَ به[49]. فسأله الخنزير عن الذنب الذي استحَقَّ به تلك العُقوبَة فزعم الفرَسُ ألَا ذنبَ له. فقال له الخنزيرُ: كلَّا بل أنت كاذِبٌ في زعْمِك أو جاهِلٌ بجرْمِك. فإنْ كنتَ، يا فرَسُ، كاذِبًا فما ينبغي لي أنْ أنفِّسَ عنك خِناقًا، ولا أنْ أصْطنِعَ عندك معْروفًا، ولا أنْ أتخِذَك وَلِيًّا، ولا ألتمِسَ عندك شكرًا وأطلبَ فيك أجْرًا. وإنه كان يقال: إذا رأيتَ نفسَ الكذاب قد تشبَّثَ بها عالمُ الفسادِ فكِلْها إليه، لأنه اللائقُ بها لِفسادِ تركيبِها. والدَّليلُ على فسادِ تركيب نفس الكذاب أنها مضطرِبةٌ، مُعْرِضةٌ عن الحقيقة في الحوادث، ونزَّاعة إلى العَدَم المحْض، فتتصوَّرُ الوجودَ عدمًا والباطلَ حقًا، وتصَوّرُ ذلك في نفس المغْترّ بها الرَّاكِنِ إلى

نزولها. وكان يقال: احذرْ مقاربة ذوي الطباع الفرذلة[50]، لئلا تسترق طباعَك من طباعِهم وأنت لا تشعر. وكان يقال: أصعبُ ما يعانيه الإنسانُ ممارسة صاحبٍ لا تحصُل منه حقيقة. وكان يقال: لا تطمعْ في استصلاح الرذل والحصولِ على مُصافاته، فإنّ طباعه أصدقُ له منك، فلنْ يتركَ طباعَه لك[51].

ثم قال الخنزير: وإنْ كنتَ يا فرس جاهلاً بجُرمك الذي استوجبْت به هذه العُقوبة فجهلُك بذلك أعظمُ منه، فمَنْ جهل ذنوبَه أصرَّ عليها ولم يُرجَ فلاحُه. وكان يقال: احذر الجاهل، فإنه يَجني على نفسه، ولستَ أحبَّ إليه منها. وكان يقال: ما شيْء أشبه بالكذِب من الجهل، وذلك لأنَّ الكذابَ يتناسى الصُّورة والقضيَّة المحسوستين، ويتخيَّلُ الكذِبَ الذي هو ضدُّهما حتى ينطبعَ ذلك في عقلِه، ويترك الصَّوابَ عمْدًا إلى غيره. والجاهلُ يرى الأشياءَ على خِلافِ ما هي عليه، فيرى القبيحَ حسَنًا والحسَنَ قبيحًا، وإنما الفرقُ بين الجاهل والكاذب، أنَّ الكاذبَ يأتي ما يعلم خطأه فيه، والجاهلُ لا يَعلم ذلك فهو على نفسِه وعلى غيره أشدُّ جناية من الكاذبِ.

فقال الفرَسُ للخنزير: ينبغي لك ألَّا تزهَدَ في اصطِناع المَعروف. فقال الخنزيرُ: لستُ بزاهدٍ في ذلك، ولكنه كان يقال: العاقل يتخيَّر لمعروفه كما يتخيَّر الباذرُ لِحُبُوبهِ التي يَبذرها فيما زَكا مِن الأرض، فحدِّثني، يا فرَس، عن ابتِداءِ أمْرك فيما نزل بك، وعن حالِك قبل ذلك، لأعلَمَ من أينَ دُهيتَ. فحدَّثه الفرَسُ بجميع أمْره، وكيف كان عند فارسِهِ، وكيف فارقه، وما لقيَ في طريقه إلى حين اجتِماعِهِ بالخِنزير.

فقال له الخنزيرُ: قد ظهر الآنَ أنك جاهلٌ بجُرمِكَ، وأنَّ لك ذنوبًا ستة، أولها خذلانك فارسَك الذي أحسَنَ إليك وأعدَّك للمُهمَّات، والثاني كفرُك لإحسانِه، والثالث إضرارُك به في طلبك، والرابع تعدِّيك على ما لبس لك وهو السَّرجُ واللجامُ، والخامس إساءتك إلى نفسك بتعاطيك التوحُّش

Scanned by CamScanner

الذي لستَ له أهلاً ولا لك عليه مَقدُرَة، والسادِس إضرارُك على ذنبك وتمادِيك في غوايَتِك، فقد كنت متمكنًا من العَوْدِ إلى فارِسك، والاستِقالة من فرْطِ جهلِك قبلَ أنْ يوهِنك اللجامُ بالجوع، واللبَبُ والحِزامُ بالضبطِ.

فقال الفرَسُ للخنزير: أمَّا إذ عَرَّفتني ذنوبي، وأيقظتِني لِمَا[52] كنتُ ذاهِلاً عنه، مخجوبًا بحِجاب الجهْل، فانطلِق الآنَ ودَعْني، فإني مُستحِقٌّ لأضْعَافِ ما أنا فيه. فقال الخنزيرُ: أمَّا إذ عرَفتَ وفطنتَ لهذا القدر ولمْتَ نفسَك ووَبَّختها واخترْتَ لنفسِك العقوبة على جهْلِها واستعْمَلتَ الحِكمَة التي وَعَيتها، فإنك حَقيقٌ بأنْ يُنَفَّس عنك. وإنه قِيلَ: إنَّ الأب لوقا كتبَ على بابِ بيته " لن ينتفِعَ بحِكمَتِنا إلَّا مَنْ عَرَفَ نفسَه ووَقفَ بها[53] عند قدرها، فمَنْ كانَ بهذه الصفة فليَدخلْ، وإلَّا فليَرجعْ حتى يَكونَ بهذه الصِّفة ". ثم إنَّ الخنزير قطع عِذارَ اللجام فسقط، وقطعَ الحِزامَ فنَفَّسَ عن الفرَس.

قال: فلمَّا سمِع عينُ أهْلِهِ ما خاطبَته به العَجوزُ، وفهم ما ضربتْ له من الأمْثال، أقبلَ على العجوز وقال لها: قد صَدَقتِ فيما نطقتِ، وضرَبْتِ لي مَثلاً كشفَ لي عن جَلِيَّةِ أمْري وأفدتِني حِكمًا لا كفاءَ لها، وأدَّبْتِني فتأدَّبْتُ، ووَعَظتِني فاتعَظتُ. ثم حَدَّثها حديثه ورَغِبَ إليها في أنْ تمُنَّ عليه بالاضطِناع، وتطلِقه كما فعل الخنزيرُ بالفرَس. فقالت العجوزُ: إنك غِرٌّ لا بصيرة لك بأكثر الأمور، وإنَّ الذي سألتني لا يُمْكِنني فِعْله الآنَ[54] ولعَلِّي أن أجد لك فرَجًا ومَخرَجًا مِمَّا أنت فيه، فعليك بالصبر، وأمْسَكت العَجوزُ عن مخاطبته.

قال: فلمَّا انتهى الوزير في حديثه إلى هذه الغاية أقبَلَ على المطران وقال له: إني أجِسُّ في رأسي صُداعًا، وفي أعْضائي خوَرًا[55]، ولا يُمْكِنني الليْلة إتمامُ الحديثِ، ولعَلِّي أنْ أكونَ في اللَّيلةِ القابلة نشيطًا إلى ذلك، قديرًا عليه، فأكمِلَ مَسَرَّتك بإكماله، ونهض إلى مضجعه. فجعل سابور

يتصفح حديث وزيره، ويتأمَّلُ الأمثال التي رَصَّعَهُ بها. ففهم أنَّ الوزير كنى عنه بعيْنِ أهلِهِ لأنه مَلِك فارس، وكنى عن مَملكته وإقليم بابل بسيِّدةِ النار لأنَّ رَعِيَّته يعبُدون النارَ، وكنى عن بلاد الروم بسيِّدةِ الذهب، وكنى عن قيْصَر بالذئب الذي ذكر أنه بَغلُ سيِّدة الذهب[56]، وكنى عن طموح نفس سابور إلى رؤيةِ مملكة الروم بطموح نفس عين أهلِهِ إلى رؤيَة سيِّدة الذهب، وكنى عن أخذِ قيْصَر له بقبْض الذئب على عيْن أهله، وقصد بما ضرب له من الأمثال الحِكميَّة تأديبه على شرَهِهِ وتغريره بنفسه ومخالفته لنصَحائِهِ، وكنى عن نفسه وحالِهِ وعَجْزِهِ وحُزْنِهِ، وذلِّهِ في خِدمَةِ المطران، وطلبه مَرْضاته وتمَلُّقِهِ بالعجوز القطعاء الجدعاء العَوْراء المُشوَّهةِ الخَلق، وعرفه أنه لا يُمْكِنُ[57] تخليصُهُ في ذلك الوقت، وأنه ساعٍ في خلاصه. فسَكنَتْ نفسُ سابور لمَّا فهم ذلك، وعاوَدَ ثِقته بوزيره، واسْتَرْوَحَ الفرَجَ، ولبثَ بذلك ليْلته وغدَها إلى اللَّيْلةِ القابلة.

فلمَّا تعَشى المطرانُ وأخذ مَقعَدَ المسامَرة، قال لوزير سابور[58]: أيها الراهِبُ الحكيم، أخبِرْني ما كان من أمر عيْن أهْلِهِ، وكيف كانت عاقِبة شدَّتِهِ، وهل خلَّصته العجوز من وثاق الذئب أمْ لا، فإنَّ نفسي إلى عِلم ذلك متطلِّعَة، وأراك الليْلة صالِح الحال. فقال الوزير: سمعًا لقولك وطاعة لأمرك. ثم أقبل عليه يحدِّثه، فقال: إنَّ عيْن أهله أقام على حالته مُوثقًا طول ليْلتِهِ تِلك. فلمَّا أصبح دخل الذئبُ، فتهدَّده بالقتل، وزادَه إلى وثاقه قيْدًا ثقيلاً وخرج عنه، فقطع عيْنُ أهله نهارَه ذلك بالأماني.

فلمَّا أجَنهُ اللَّيلُ قلِقَ واسْتوْحش فبكى وانتحَبَ. وجاءَت[59] العجوزُ فأضْرَمَتْ نارًا قريبًا منه وجلسَتْ تصْطلي، ثم أقبلتْ على عيْن أهله بالحديث فقالتْ له: تعَزَّ واصْبِرْ واذكرْ مصائبَ الناس فتأسَّ بهم، ولا تذهَلْ عن النعْمةِ العُظمَى في حِفظِ نفسِك. فقال لها عيْنُ أهلِهِ: لقد صَدَقَ القائلُ: هانَ على الطَّلِقِ ما لقيَ الأسيرُ. فقالت له العجوزُ: أيها الفتى، إنَّ حداثة

السِّنَّ قَصُرَتْ بِكَ عَنْ إدراكِ كثيرٍ مِنَ الحقائقِ، أفتسمَعُ[60] حديثًا لكَ فيه سلوة؟ قال: نَعَمْ، فأنعِمي عليَّ به.

فقالت العجوزُ: ذكِرَ أنَّ تاجرًا مُكثِرًا كانَ له ابنٌ ليسَ له ولدٌ غيرُه. وكان شديدَ المَحَبَّةِ له والشغفِ به، فأتحَفه بعضُ مَعارِفِه بغزالٍ شزخٍ صغيرٍ، فعَلِقَ به قلبُ الغلامِ ولدِ التاجرِ[61]، فكان لا يفارقُه. وجعلَ أهلُ الغلامِ على ذلكَ الغزالِ حَلْيًا نفيسًا، وارتبطوا له شاةً ترضِعه[62]، حتى إذا اشتدَّ الغزالُ وشدَنَ نجَمَ قرناه. فقال الغلامُ لأهلِه: ما هذا في رأسِ الغزالِ؟ قالوا: قرناه. فأعجبَه سوادُهما وبَريقُهما. فقيلَ للغلامِ: إنهما سيكبُران ويطولان، حتى تكونَ صِفتُهما كيتَ وكيتَ. فقال الغلامُ لأبيه: أحِبُّ أنْ أرى ظَبْيًا له قرنانِ كبيران. فأمَرَ أبوه، فصِيدَ له ظَبْيٌ ثَنِيُّ السِّنِّ، قد استكمَلَ قوَّةً ونمُوًّا. فأعجبَ به الغلامُ، وأكرَمَه أهلُه وحَلَّوْه، وآنسوه فأنِسَ، وألِفَ الغزالُ الظَّبْيَ للمُجانسةِ الطبيعيَّةِ.

فقال الغزالُ للظَّبْيِ: ما ظننتُ أنَّ لي في الأرضِ شكلاً، ثم لمَّا رأيتُك وقعَ في نفسي أنَّ لي أشكالاً[63] سِواك. فقال له الظَّبْيُ: نعَمْ إنَّ أشكالَك لكثيرة. فقال له الغزالُ: أينَ هِيَ؟ فأخبره الظَّبْيُ بتوَحُّشِها، وانفرادِها في فلواتِ الأرضِ فِرارًا من الناسِ، وحدَّثه عن مَراتِعِها ومَوارِدِها، وازدِواجِها وتناسُلِها. فارْتاحَ الغزالُ لِما سَمِعَ من الظَّبْيِ، وتمَنَّى أنْ يراها فيكونَ معها. فقال الظبيُ: هذه مُنيَةٌ ليسَ لكَ فيها خيرٌ، وأنتَ قد نشأتَ في رَفاهِيةٍ من العَيْشِ وأمَنةٍ لا تعرِفُ غيرَهما، ولو حَصَلتَ فيما تمَنَّيتَ لنَدِمْتَ. وإنه كان يقال: ثلاثةٌ مَنْ لم يُنزِلْها مَنزلتَها، ويَرْعَ لها حقَّها، أسْرَعَتْ مفارقتَه والتحَوُّلَ عنه عن قُرْبٍ، وهِيَ الملوكُ والعُلماءُ والنِّعَمُ. وكان يقال: الأماني في الشِّدَّةِ ارتياحٌ، وفي الرَّخاءِ جِماحٌ، فلا ينبغي أنْ يأذنَ العاقلُ لنفسِه من الأماني إلَّا في المِقدارِ الذي يؤنِسُ الوَحشةَ ويُنفِّسُ الكُرْبَةَ، فإنَّ استيلاءَ الأماني على النفوسِ كتأمُّرِ[64] السُّفَلِ الذين يُعيدونَ الرُّؤوسَ أعجازًا والأعجازَ رُؤوسًا،

Scanned by CamScanner

ويَسْعَوْنَ في قلب الأغيان، وتغيير صورةِ الصّواب.

فقال الغزالُ للظبي: لابُدَّ لي من اللحاقِ بأشكالي. فلمّا رأى الظبيُ أنّ الغزالَ غيْرُ مُنتهٍ، وخافَ عليه أنْ يقطع به قبل بلوغه ما تمنّاهُ، لأنه غِرٌّ لايَعْرفُ التحرُّزَ من مكائدِ الإنس، لم يَجد بُدًّا من اتباعِهِ والكوْنِ معه لِيَقضِيَ حقَّ حرمةِ ألفتهِ إيَّاه. فرَصَدَ حِينًا يُمْكِنه فيه الفِرارُ، وخرَجا جميعًا حتى لحِقا بالصحراء. فلمّا عاينها الغزالُ فرح ومرَح، وذهبَ يغدو لا يَثْنِيهِ شيْءٌ، فسَقط في أخدودٍ ضَيِّقٍ قد قطعَه السّيْلُ فنشِبَ فيه، وانتظرَ أنْ يأتِيَهُ الظبيُ ليُخلِّصَه فلم يأتِهِ، فبَقِيَ هنالك.

وأمّا ولد التاجر فإنه لمّا أصبَحَ عَدِمَ الغزالَ والظبيَ، فجزع لفقدهما، وأشفق أبوه عليه فاستدعى كلَّ مَنْ يعاني الصَّيد بذلك البلد، فعَرَّفهم القِصَّة[65]، وكلَّفهم طلبَ الظبيِ والغزال، ووَعَدَ مَنْ وجدهما له وَغدًا مرغوبًا فيه، وانبَثوا في سَهْل الأرْض وحَزْنِها يَطلبون[66]. ورَكِبَ التاجرُ دابَّته، وفرَّقَ أتباعَه على أبواب المدينة ينتظرون مَنْ يأتي مِن الصَّيّادين، وانطلق هو وعَبْدَانِ له[67] حتى أتوا الصحراء فرأوْا على بُعْدٍ رجلاً مُكِبًّا على شيْءٍ بين يَدَيْهِ، فأسْرَعَ نحوَه، فإذا هو صَيَّاد قد أوْثَقَ ظبيًا وهو يريد ذبْحَهُ. فتأمَّله التاجرُ، فإذا هو ذلك الظبيُ الذي يطلبه، فخلَّصه[68] من يد الصياد، وأمَرَ عبْدَيْهِ ففتشاه، فوجدا عنده الحَليَ الذي كان على الظبيِ. فسأله كيف ظفر بالظبي، وأيْنَ وجده. فقال: إني بِتُّ أتصيَّد، فنصبْتُ شرَكًا، وكمنتُ قريبًا منه. فلمّا أصبحَ، جاء هذا الظبِيُ ومعه غزال فمرَّ الغزالُ يَغدو ويمْرح في جهةٍ غير جهة الشرَك. وجاء هذا الظبْيُ يمشي حتى حصل في الشرَك فأخذته، وقصدتُ به المدينة. فلمّا بلغتُ هذا الموضع ظهر لي أني مُخطِئٌ في إدخال[69] الظبي المدينة حيًّا لِعِلمِي أنه إذا رِيءَ طولِبْتُ بما كان عليه من الزينة، فرأيتُ أنْ أذبَحَه وأدخلَ به لحْمًا، فهذا خَبَري.

فقال له التاجر: لقد جنى عليك شحُّك الخيبة والحِرمانَ. فماذا عليك

لـوْ أطلقـتهُ فـذهبَ، وحـصلتَ أنـتَ علـى خَليهِ وزينـتِهِ؟ ولقـد صَدَقَ القائـلُ: لا يَـدخل الـشرَهُ مَـدخلاً إلّا أعْقبَـته[70] الحَـسْرَة. ألا تـرى أنَّ مَـنْ حمَلـه السُبْخْلُ والـشرَهُ علـى أكـلِ اللقمَـةِ التـي عافـتها نفـسُهُ كـان متعرّضًـا للمحـرمة بتهوُّع ما أكله، والحسْرة عليه عند مفارقته.

ثـم إنَّ التاجـر بعَـثَ بالظبْـيِ إلـى ولـدِهِ مـع أحـدِ عـبْدَيْه، وقـال لـذلك الـصَّيَّاد: ارجـعْ فأرِنـي الجهـة التـي رأيْـتَ الغـزال سَعَى نحـوها. فـرجع بـه إلى تلـك الجهـة، وجعـل الـصياد يُفـتِّشُ ويتـشرَّفُ علـى المواضـع المـرتفعة، ومشى التاجـر علـى رِسْـلِه، فـسمِع نزيـزَ[71] الغـزال، وهـو صـوته، فـصاح بـه التاجـر. فلمَّا سـمِع الغـزال صـوته عـرفه فـصَوَّتَ، واتـبع التاجـرُ الـصوتَ حتـى قـام علـيه، فإذا هـو فـي أخـدودٍ، أيْ شـقّ مـن الأرض، مُنتـشِبًا[72] فـيه، فأخـذه ونـادى الـصياد، فـوهبَ لـه دراهِـمَ وصـرفه، ورجـع التاجـر بالغـزال إلـى ولـده، وكمُلـت مَسَرَّة الغلام.

وجعــل الغــزالُ يتجـنبُ الظبْـيَ إذا رآه ولا يألفــه كمــا كــانَ، وإذا حــصل معـه فـي موضـع نفـر مـنه أشـدَّ الـنفار. فتنغـصَتْ مَـسَرَّة الغـلام لـذلك، وجهد أهلـه بكـل حـيلة أن يجمعـوا بـينَ الغـزال والظبْـي علـى حـال ألفـةٍ وسـكونٍ، فلم يقـدِروا علـى ذلـك. فبيـنما الغـزالُ يـومًا قـائمٌ فـي بيـتٍ، دخـل علـيه الظبْـيُ فعاتبه علـى نفـاره مـنه وطـولِ هَجْـره لـه. فقـال لـه الغـزالُ: أنـسِيتَ غـدرَك لـي أحْـوَجَ ما كـنتُ إلـى عَـوْنِك، وأوثـقَ مـا كـنتُ بنـصْرك؟[73] فقـال لـه الظبْـيُ: إنـي لـم أغـدُرْ ولـم أخُـنْ، ولكـنَّ عـدمَ رسـوخِك فـي عِلـم التجـربة أوقعَـك فـي تهَمَـة البَـريء؛ وإنـي لـم أتأخّـز عـن تخلـيصِك مِمَّـا حـصلتَ فـيه إلّا مـضطرًا إلـى التأخُرِ عنك، عاجـزًا عـن المـبادرة إلـيك. وقـصَّ علـيه قِـصَّته وأنـه حـصل فـي شـرَكِ الـصياد فعلِم الغزالُ عُذرَه وعادا إلى تألفِهما.

قـال: فلمَّـا سـمِع عـيْنُ أهْلِـه حـديثَ العَجـوز، وفهـم مـا أرادتْ بـه من ذكر عَجْـزها عـن تخلـيصِه، أمْـسَك عـن خِطابهـا. قـيل: فلمَّـا انتهـى وزيـرُ سـابور من

حديثه إلى هذا الحدِّ سَكتَ. فقال له المطران: أيها الحكيم الراهب، ما هذا السُّكوت؟ لعَلَّك تريد أنْ تؤخِّرَ إخباري بما كان من عاقبة عيْنِ أهله، وما لقِيَ من الذئب، وما صنعَتْه معه العجوزُ. فقال له الوزير: إني عازم على ذلك لفتورٍ أجده في أعضائي. فقال له المطران: لا تفعَلْ، فإنَّ ذلك يسوءُني ويشقُّ عليَّ، فاحْمِلْ[74] على نفسِك اللَّيلة أيها الحكيم، فإني راغِبٌ في تأنيسِك مُعْجَبٌ بأحاديثك. فقال الوزير: أفعَلُ ذلك طلبًا لمَرضاتِك، ولو علِمْتَ أيها المطران ما ذخرتُ لك من عجائب الأخبار وغرائب الأسمار لعَجبتَ من ذلك أشدَّ العَجَب.

ثم اندفع يحدِّثه، فقال: إنَّ عيْنَ أهله، لمَّا سمِعَ حديث العجوز وفهِم ما أرادته، أمسَكَ عنها ولبثَ ليلته تلك بأسوَإِ حالٍ. ولمَّا أصبَحَ دخل عليه الذئب، فنال منه وتغتعَه وعنفه، وتهدَّدَه بالقتل، وزاده قيْدًا إلى[75] قيْدِهِ، وعرَّفه أنْ لا ناصِرَ له ولا مخلِّصَ من يدِهِ، وخرج عنه. فجعل يُعَلِّلُ نفسَه بَقيَّة نهاره، ويُمَنِّيها الفرَجَ. فلمَّا أقبلَ عليه الليلُ استوْحَش، واحتوَشَته الأفكارُ المُزمِضَة[76]. وانتظر أنْ تجلِسَ إليه العجوزُ أو تحادِثه، فلم تفعل، وجعلت العجوز تكثِرُ الدخولَ إلى البيت الذي فيه عيْنُ أهله ولا تستقِرُّ فيه، فساءَ ظنُّ عيْن أهلِهِ، وأيقنَ بالهَلكةِ، وما شكَّ في أنَّ الذئبَ يقتله تلك الليْلة. فأقبلَ على البكاء حتى ذهبَ صَدرٌ من الليْلِ. ثم قال للعَجوز: ما لكِ لم تؤنِسيني في هذه الليْلةِ بحديثِكِ ولا جلسْتِ إليَّ؟ فجلسَتْ إليه وقالتْ له: أمَا كانَ لكَ في رُؤيتي قطعاء جدعاء عوراء مشوَّهة سَيئة الحالِ ما يَحْمِلك على التأسِّي والتسلِّي؟ فاحْمَد الله واشكرهُ على سلامةِ نفسِك، ومُعافاتِك من بلاءٍ هو أعظم من بلائِك، حتى قلتَ: هانَ على الطليق ما لقِيَ الأسيرُ. ولو اعتبَرْتَ باطِنَ حالي بما ظهر لك منها لعَلِمتَ أنَّ أسْري أشدُّ من أسْرِكَ، فاستمِعْ إليَّ أحَدِّثكَ حدِيثي.

اعْلَمْ أيها الفتى أني كنتُ زوجةً لبعْض الفرْسان، وكان لي مُحْسِنًا،

وبي رفيقًا، ولي مُحبًا. فكنتُ معه في أرغدِ عَيْشٍ وأهنأه. فلبثتُ معه مدّة طويلة، وولدت له أولادًا ذكورًا وإناثًا، فكبُروا في رفاهية ونعمة. فغضب المَلِك على زوجي لأمرٍ كانَ منه، فقتله وقتل ذكورَ أولادي، وباعَني أنا وبناتي مفترِقات. فاشتراني هذا الفارس الذي عَدَا عليك، واحتملني إلى هذه القرية، وأساءَ إليَّ وكلَّفني من العمل ما لا طاقة لي به، وأكثرَ معاقبتي على غيْر ذنبٍ لِمَا طبعَ عليه من القسْوَة والفظاظة. فسألته مِرارًا أنْ يرفق بي، واستعَنتُ عليه بإخوانِهِ ومَنْ يكرم عليه لكي يُخفِّف عني أو يبيعَني، فلم يزده السُّؤالُ والشفاعاتُ إلّا قسْوَة عليَّ وإضرارًا بي.

فلبثتُ كذلك سبْعَ سنين، ثم فرَرْتُ منه، فتبعَني فأدركني فجدَع أنفي، ثم عاوَدَ قسْوَته عليَّ وإضرارَه بي[77]، وعاوَدتُ مسْألته والاستشفاعَ إليه، وهو مُقيمٌ على سوءِ رأيه فِيَّ. فمكثتُ كذلك[78] سبْعَ سنين أخرى. ثم فرَرْتُ منه فظفَرَ بي، ففقأ عيْني. ثم عاوَدَ عَسفي فمكثتُ كذلك سَبْعَ سِنِينَ أخرى[79]. ثم فرَرْتُ منه فظفرَ بي وقطع يَدي وقال لي: إنما بَقِيَ من أعْضائكِ التي أنتفِعُ بها عيْنكِ ويَدك ورجلاكِ. فإنْ فرَرْتِ بعدَ هذا قطعْتُ رجليْكِ معًا وأبقيتكِ أنتفِعُ بعَيْنِكِ في الحِراسَة[80] ويَدِكِ في العمل، وأقسَمَ على ذلك بغليظ الأيمَان، وعاوَدَ عَسْفِي ومضرَّتي. وقد عزمْتُ على أنْ أخلِّصك الليْلة وأقتل نفسي بيَدِي طلبًا للرَّاحة مِمَّا أنا فيه. ولهذا رأيْتني أكثِرُ الدخولَ عليك والخروجَ عنك، وإنما ذلك لحَيْرَتي وجزعي من المَوْت، وقد طابتْ نفسي على الموت.

ثم إنها فتحتْ قيودَ عيْن أهله وقطعتْ وثاقه وتناوَلتْ سِكينًا. فقال لها عيْنُ أهله: لئنْ تركتكِ تقتلِينَ نفسَكِ لقد شارَكتكِ في دَمِكِ. وانتزعَ السكينَ من يَدِها وقال لها: قومِي اذهَبي معِي لكيْ ننجوَ معًا أو نعْطَبَ معًا. فقالت له: إنَّ كِبَرَ سِني وضعْفَ بَدَني ليمنعاني من اتباعِك والهرَبِ معك. فقال لها: إنَّ الليْلَ مُتسِعٌ والموضع الذي نأمن إذا وصلنا إليه قريبٌ، وبي

قوّة[81] على حمْلِك. فقالت[82]: أمّا إذا عزمْتَ على هذا، فإني لا أخرجك إلى حمْلي ما دامتْ فيّ مُسْكة. وخرجا معًا فلم ينقضِ الليلُ حتى بلغا إلى حيثُ أمِنا، فجزاها عينُ أهله خيرًا بما صنعتْ، واتخذها أمًّا يسمعُ لها ويُطيعُ. فهذا ما بلغني من ذلك.

فقال المطران: ما أعجب أحاديثك أيها الحكيم، ولقد وددت ألّا أفارقك أبدًا، وأنّ سفري هذا يطول لتطولَ متعتي بك، ويعظم حظي من أنسِك، ولقد استعذبْتُ مُفارقة الأهل والوطن بقربك، ونهض كلُّ واحدٍ منهما إلى مضْجَعِهِ. وباتَ سابور يتصفحُ حديثَ وزيره، ويتأمّلُ أمثاله، ففهم أنّ الغزالَ مثلٌ لسابور[83]، وأنّ الظبيَ مثلٌ للوزير، وأنّ خروجَ الظبي مع الغزال إلى الصحراء، وحصول الغزال في الأخدود مثلٌ لصحبةِ سابور ووزيره حتى حصل سابور في حبْسِ قيْصَر، وأنّ نِفار الغزال عن الظبي مَثَلٌ لسوءِ ظنّ[84] سابور بوزيرهِ لتأخُرهِ عن استنقاذِهِ، وعرفَ أنّ الوزير قد عزم على تخليصِهِ والخروج به إلى المدينةِ ليلاً، وأنّ المدينة قريبة منهما، وأنه يَحمِله إنْ عجز عن المَشي، فأيقنَ سابور بقرْبِ الفرَج.

ولمّا كانت الليلة القابلة، تلطّفَ وزيرُ سابور حتى دخل الخيمة التي يُطبَخُ فيها الطعامُ للمطران والموكلين بحِفظ سابور، على حال خلوةٍ واحتراس[85]، فألقى في جميع الأطعِمَة مُرْقِدًا قويَّ الفِعْل. ولمّا حضر طعامُ المطران، انفرد الوزيرُ بأكل زادِهِ على ما جرَتْ به عادَته. فلم تكن إلّا ساعة حتى استحْوذ المُرقِدُ على جميعِهم، فانجدلوا في مواضِعِهم صَرْعَى على مراصدهم[86]. وبادر الوزيرُ بفتح باب الصورة عن سابور واستخرَجه، وأزالَ الجامعة من عنقِه ويدَيْهِ، وتلطّفَ حتى أخرجه من عسْكر قيْصَر، وقصَدَ به جُنديسابور، وهي مدينة مُلكِهِ؛ فانتهَيا معًا إلى سورها، فصَرَخَ بهما المُوكلون بحِراسةِ السور، فتقدَّمَ الوزيرُ إليهم وأمَرهم بخَفض أصواتهم، وعرّفهم بنفسِهِ، وأعْلمَهم بسلامة مَلِكِهم. فابتَدَرُوا وأدخلوهما المدينة،

Scanned by CamScanner

فقويت نفوسُ أهلها، وأمرهم سابور بالاجتماع، وفرّق فيهم السلاحَ، وعهد إليهم أن يأخذوا أهُبَتهم، فإذا ضرب[87] الرُّومُ نواقيسَهم الضربَ الأوّل خرجوا من المدينة واقتربوا من عسكر الروم، وقاموا على تعبئةٍ وتأهّبٍ. حتى إذا ضُرِبت النواقيسُ الضّربَ الثاني حملوا بأجمعهم كلُّ فرقةٍ على ما يليها.

فامتثلوا أمْرَه، وانتخبَ سابورُ كتيبة عظيمة فيها أشجعُ أساورَتِه، وقام معهم فيما يلي الجهة التي فيها أخبيَة قيْصَر. فلمّا ضُرِبَت النواقيسُ المرّة الثانية، حملوا من كلّ جهة، وقصد سابورُ أخبيَة قيْصَر. ولم يكن الرومُ متأهّبينَ لقتالهم[88]، لعلمِهم بضعْف الفرْس عن مقاومتهم، وأنهم قد بنَوا أبواب مدينتهم. فما شعروا حتى دَهَمَهم الفرْسُ، وأخذ سابورُ قيْصَرَ أسيرًا، وغنم جميعَ عسكره، واحتوَى على خزائنه، ولم يَنْجُ من جنوده إلّا القليلُ. وعادَ سابورُ إلى قرارِ مُلكِهِ، فقسم الغنائمَ بين أهل عسكره، وأفاضَ الصّلاتِ على جميع مَنْ في مدينته بقدر أحوالهم، وأحْسَن إلى حَفظَةِ مُلكِهِ وشرّفهم، وفوّضَ جميعَ أموره إلى وزيره الذي خَلّصَه.

ثم أحْضرَ قيْصَرَ فأكرَمَه ولاطَفَه، وقال له: إني مُبقٍ عليك كما أبقيْتَ عليّ، وغيرُ مُجازٍ لك بتضْييقِ مَخبَسي. ولكنّي آخذك بإصْلاح ما أفسدت من جميع مَمالِكي، فتبْني ما هدمته، وتغرس مَكانَ كلِّ نخلةٍ قطعتها من بلادي زيتونة، وتطلِق كلَّ مَنْ في مَملكتِك مِنْ أسرى الفرْس. فضَمِنَ له قيْصَرُ ذلك كلّه، ووَفى له به. ولمّا انتهى في الإصْلاح إلى بناءِ ما انثلمَ من سور مدينة جُنديسابور، قال سابورُ لقيْصَرَ: إنما تبْنِيهِ من تراب بلادِك. فأمَرَ قيْصَرُ رعيّته من الروم بحمْل التراب من بلادهم إلى جنديسابور، فرقعَ[89] ما انثلم من سورها. فلمّا تمّ لسابور ما أرادَ من ذلك كلّه، أحْسَنَ إليه وأطلقه إلى دار مَملكته بعد أنْ قال له: خذ أهْبَتك وأعِدّ عُدَّتك، فإني غازٍ أرْضَك عمّا[90] قريب.

(1) النص من " وكان يقال لاتستخفن " إلى " زل ": ساقط في س، ر، ل، ب.

(2) ع: واحترف.

(3) ع: الطب والجراحة.

(4) ع: اليمني.

(5) ز، سلوان المطاع: قال الشيخ الإمام حجة الدين أبو هاشم محمد بن ظفر.

(6) ع: طافا.

(7) ع +: إليه.

(8) ع: ماذا يستميل نفسه.

(9) ع: جفنه. والقصّ يعني: الصدر.

(10) ع: رمقته. ووَمق يعني: أحبّ.

(11) ع: مجبولة.

(12) ع: الصور.

(13) ع: بالمجلس.

(14) ع: الرومي المتفرس.

(15) ل، ب، ع: مثالاً لسابور.

(16) ل، ب، ع: أنه هو.

(17) ع: تستكشف؛ ل، ب: يستنشف.

(18) ع: مرايا.

(19) ل، ب: المشاهدات.

(20) س، ر، ل، ب -: الإنسانَ.

Scanned by CamScanner

(21) ع: طويت.

(22) ع: يدخل إليه شيء.

(23) س، ر، ل، ب: دنية.

(24) ع: خراب.

(25) ل، ب، ع: بلد.

(26) داجى العدو يعني: داراه وساتره العداوة.

(27) ع: في ملك سلطان.

(28) في ر: فهذه فضيلة الأدوات؛ وفي ل، ب، ع: فهذه فضائل الأدوات.

(29) ع: أفضل.

(30) ع: فليحله.

(31) س، ر، ل، ب: يسمع.

(32) ع: إياه.

(33) س، ر، ل، ب -: سياسة.

(34) كذا في ع وفي سلوان المطاع. وفي س، ر، ل، ب: بإعداده.

(35) كذا في كتاب " سلوان المطاع ". وفي جميع نسخ " بغية الرؤاد ": ترويته.

(36) ل، ب، ر، ع: على فصاحته.

(37) س، ر، ل، ب: جنداسابور.

(38) ع: تذكرت.

(39) ع: وددت.

(40) ل، ب، ر -: كنت؛ ع: أني لو كنت.

(41) النص من " نعم حبا وكرامة " إلى " فقال ": ساقط في س.

Scanned by CamScanner

(42) ل، ب، ع -: ما معناه.

(43) ر: فذكروا.

(44) ر، ل، ب، ع: وقالت يا أيها.

(45) ع -: كيف كان.

(46) ل، ب، ع: تطلع.

(47) ع: عينه.

(48) س، ع: لبابه. واللبان هو: صدر الفرس.

(49) النص من " وسأله أن يصطنع " إلى " مما ابتلي به ": ساقط في ل، ب، ر.

(50) في ر، ب، ل: الرذلة؛ وفي ع: المرذولة.

(51) ل، ب، ر، س: إليك.

(52) ع: ممّا؛ ز: إلى ما.

(53) س، ر، ل، ب -: بها.

(54) في ب، ل: لا يمكن الآن فعله؛ وفي ع: لا يمكنني الآن فعله.

(55) ع: فتورًا. والخور هو: الفتور والضعف.

(56) النص من " وكنى عن قيصر " إلى " سيدة الذهب ": ساقط في ع وكل النسخ.

(57) ع: يمكنه.

(58) ل، ب، ع: للوزير.

(59) ل، ب، ع: وجاءته.

(60) ر، س، ع: فتسمع.

(61) ع -: ولد التاجر.

(62) ل، ب، ع: مرضعة.

Scanned by CamScanner

(63) س: شكلا.

(64) كذا في " بغية الروّاد "، وفي " سلوان المطاع ": كتآمر. وتآمّر عليه يعني: تسلط وتحكم.

(65) كذا في سلوان المطاع؛ وفي ع وجميع مخطوطات " بغية الروّاد ": القضيّة.

(66) سلوان المطاع +: ذلك.

(67) ع: وعبدان من عبيده.

(68) كذا في سلوان المطاع؛ وفي ع وكل مخطوطات " بغية الروّاد ": فتخلصه.

(69) ع +: هذا.

(70) كذا في سلوان المطاع؛ وفي س، ر، ل، ب: اعتقبه؛ وفي ع: اعتقبته.

(71) س، ر، ل، ب: نزيف.

(72) كذا في سلوان المطاع؛ وفي ع: منشبًا.

(73) ل، ب، ع: بنصرتك.

(74) ع +: لي.

(75) ع: على.

(76) ع: الممرضة. وأرمضه يعني: أوجعه وأغضبه.

(77) كذا في سلوان المطاع. وفي س، ر، ل، ب: ثم عاود قسوة علي وإضرارًا بي. وفي ع: ثم تمادى في قسوته علي وإضراره بي.

(78) ع: بذلك.

(79) النص من " ثم فررت منه " إلى " سبع سنين أخرى ": ساقط في ع ومخطوطات بغية الرواد

(80) ل، ب، ع: بعبنيك للحراسة.

(81) ع: ولي قوة.

(82) [illegible]

(83) ل، ب، ع: مثل له.

(84) ب، ع: يمثل سوء ظن.

(85) كذا في سلوان المطاع؛ وفي ع: على خلوة.

(86) سلوان المطاع +: ومضاجعهم.

(87) ع: ضربت.

(88) لقتالهم: ساقط في ع وكل مخطوطات " بغية الرواد ".

(89) في ع: فرجع؛ وفي " سلوان المطاع ": وأصلح.

(90) في ع: عن؛ وفي ل، ب، ر: فيما.

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

الفهارس

1. فهرس الأعلام
2. فهرس القبائل والأجناس والدول
3. فهرس أسماء الأمكنة

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner

1. فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم (النبي) 147

إبراهيم ابن المهدي 49، 50 - 53

إبراهيم الموصلي 52

إبراهيم بن أبي إبراهيم 10

إبراهيم بن أبي زكرياء بن أبي عبد الله الحفصي 299

إبراهيم بن أبي يحيى بن أبي حفص، أبو إسحاق 20، 99، 107، 255

إبراهيم بن الحاج 107

إبراهيم بن محمد بن تاحاجيت المصوجي 187

أبو الجيوش (مخلوع بني نصر) 16

أبو العتاهية 10

أبو العلاء المعري،189

Scanned by CamScanner

أبو الفضل بن أبي عبد الله محمد بن علي العصامي 291

أبو القاسم بن يحيى البرجي 98

أبو الليل بن موسى بن أبي الفضل اليزيدي 127، 128،

أبو بكر (الصديق)54، 183

أبي بكر بن أبي حمّو الثاني

أبو بكر بن رحّو بن أبي الطلاق العسكري152

أبو بكر بن عريف 75، 186، 187، 198، 201، 212، 241، 261، 306

أبو بكر بن غازي بن الكاس 261، 230، 233، 234، 260، 229، 230، 233، 234، 261،

أبو تاشفين الأول17، 19، 53، 63، 68، 71، 73، 85، 86، 106، 125، 128، 137

أبو تمام 206

أبو ثابت (عم أبي حمو الثاني) 18

أبو حمّو موسى الثاني 154،

أبو داود (صاحب السنن) 4

Scanned by CamScanner

أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر (سبط عبد المؤمن بن علي) انظر: يحيى

أبو زكرياء يحيى بن موسى الجمي انظر: يحيى

أبو زيان محمد بن أبي حمّو الثاني 264، 288

أبو زيد عبد الرحمن بن أبي يفلوسن بن علي بن أبي علي المريني 125

أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي 24

أبو سالم بن أبي الحسن المريني 119

أبو سعيد الثاني الزياني 16

أبو سعيد بن يغمراسن 15

أبو سفيان 9

أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني انظر: سعيد

أبو علي حسن بن إبراهيم بن سبع انظر: حسن

أبو عمران موسى بن خالد بن محمد انظر: موسى

أبو عمران موسى بن علي بن برغوث انظر: موسى

أبو عنان بن أبي الحسن المريني 19، 54

أبو فارس عبد العزيز المريني 122، 134

Scanned by CamScanner

أبو فراس 140

أبو قحافة (والد أبي بكر الصديق) 54

أبو يشو بن عبد الله بن الناصر95

أبو يعقوب(والد أبي حمّو الثاني) 16، 17، 55، 56، 61، 72، 87، 98، 100، 128

أبو يعقوب،

أحمد بن أجانا 49

أحمد بن الحسن المديوني، أبو العباس 37، 160

أحمد بن محمد بن أبي بكر الحفصي، أبو العباس 73، 170

الأحنف 9

إدريس (النبي) 27، 42

إدريس المأمون بن يعقوب المنصور الموحدي 258

إدريس بن بزّو 95

آدم 183

أزدشير 326

الإسكندر 257

Scanned by CamScanner

إسماعيل أبو الوليد بن أبي سعيد بن فرج بن إسماعيل بن نصر، 54

الأعمش 9

أم دفر 246، 253

أم سالم 26

الأمين بن هارون الرشيد 54

إياس 9، 12

ابن أبي تجلى 76

ابن أحشمي 49

ابن الجهم 285

ابن روجي، 55

ابن صابوت 143

ابن عباس انظر: عبد الله بن العباس

ابن مامة، 9

ابن مساهل، 55

ابن مكدم 8

Scanned by CamScanner

امرؤ القيس، 112

بابو الرومي، 174

باقل، 46، 68، 236

البتول (فاطمة الزهراء) 100، 271

البرجلوني، 164

بسطام بن قيس 24

بشر، 204، 209، 222، 342

بطرو (ملك قشتالة) 160

بلقيس، 108

بن عبد الحق، 48، 55، 87، 125، 224

البوصيري، 245

تبّع، 294

جابر (الفيلسوف الكيميائي) 46

جابر بن عبد الله 9

جالينوس172

Scanned by CamScanner

جبريل، 182، 222

جرير 105

حاتم الطائي 236، 285

حسن بن إبراهيم بن سبع، أبو علي 265

الحسن بن علي بن أبي طالب 15

الحسن بن عمر الفودودي، 47

حسون بن علي الصبيحي، 224

الحسين بن علي بن أبي طالب 101

الحطيئة، 104

حمزة بن علي بن راشد المغراوي 234

حمزة بن عمر المطهري 290

حميد بن عبد الرحمن، 10

خاقان، 277، 294

خالد بن عامر، 127، 128، 145، 186، 188، 189، 198، 201، 233، 241، 243، 245، 261، 265، 267

الخنساء، 104

Scanned by CamScanner

دغار بن عيسى بن رحاب السعيدي 22

رحمون بن هارون 262

رحّو بن منصور بن عبد الله الخزّاجي 234

رسطاطاليس 271

الرشيد (العباسي) انظر: هارون الرشيد

رضوان، 15، 17، 31، 81، 87، 100، 133، 183، 219

زردال، 56

زكرياء بن عامر، 306

زيد الخيل (أو زيد الطعان)، 8

سابور، 294، 333، 334، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 344، 345، 348، 351، 352

ساسي بن سليم، 306

سالم بن إبراهيم الثعالبي، 186

سعد بن العباس الديالمي 212

سعدى، 217

السعيد بن أبي حمّو الثاني 53

Scanned by CamScanner

السعيد بن أبي عنان المريني 47 – 48
سعيد بن تاصاليت 187، 231، ، 243،235
سعيد بن عثمان 233، 306
سعيد بن محمد العقباني، أبو عثمان 160
سعيد بن موسى بن علي الغزّيّ 137، 145
سقير بن عامر، 23، 28، 245، 306، 307
سلمى، 88، 107، 108
سليمان (النبي) 53
سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، 54
سليمان بن داود بن اعراب العسكري، 20
سليمان بن عامر بن فتح الله 87
السموءل بن عادياء، 247
سهل بن خيثمة 10
شبل بن ملوك بن عثمان بن سبع 22
الشبلي، 272
Scanned by CamScanner

شعيب بن إبراهيم المعطاوي، 49

شعيب بن الحسن الوجديجي 56

شعيب بن عامر، 24

شعيب بن ميمون بن وادرار، 56

صريع الغواني، 10، 111، 197،

صولة بن يعقوب بن علي (شيخ رياح) 20

صياد الفوارس، 244

طاووس 272

عامر بن إبراهيم بن ماساي، 48

عامر بن الطفيل، 8

عامر بن محمد الهنتاتي، 225

عباد بن الحصين، 244

العباس بن موسى بن عامر، 307

عبد مناف، 295، 296

عبد الأعلى، 10

Scanned by CamScanner

عبد الحليم بن أبي علي بن أبي سعيد المريني 87، 106، 125، 137

عبد الرحمن بن أبي يفلوسن علي، 125، 152

عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، 54

عبد الرحمن بن محمد بن الإمام 119

عبد الرحمن بن مخلوف الشامي، أبو زيد انظر:أبوزيد

عبد الرحمن بن معاوية بن مروان بن الحكم 38

عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، أبو زيد 107

عبد الرزاق بن عبد الواحد 233

عبد العزيز المريني انظر: أبو فارس

عبد العزيز بن علي بن يشت، أبو محمد 107

عبد الكريم الطائع ابن الفضل المطيع (العباسي) 54

عبد الله بن أحمد بن تيفراجين، أبو محمد 19

عبد الله بن الزبير 11

عبد الله بن العباس، 8، 54

عبد الله بن سقير، 197، 232، 233، 305، 307

Scanned by CamScanner

عبد الله بن مسلم الزردالي 56

عبد المؤمن بن علي، 21

عثمان بن مسلم الزردالي، 185

عثمان بن موسى بن اطاع الله 107

عثمان بن ونزمار بن عريف 21، 85، 88

عثمان بن يوسف 194

عدنان، 276، 294

عطاء عطية بن موسى الركاب 96، 187، 234

علي بن أبي طالب، 8، 15

علي بن أجانا، 87

علي بن عمر بن إبراهيم، 23

علي بن مسعود الونجاسي 33

علي بن هارون بن منديل بن ثابت المغراوي 255

علي بن يعلى 87

عمر بن أبي حمّو الثاني 23، 187، 188

Scanned by CamScanner

عمر بن عبد الله بن علي اليباني، 86، 98

عمر بن عبدود 244

عمر بن عثمان، 185

عمر بن محمد بن مجن، 193

عمر بن مسعود التيربيعي، 98، 234

عمر بن موسى المطهري، 99، 146، 290

عمران بن موسى بن فارس اللؤلئي 63، 144،

عمرو الحروب، 8

عمرو بن العاصي 9

عمرو بن معديكرب 205

عيسى (النبي) 42

غانم بن موسى 233

فارح، 18

فرعون، 3

قتادة 123

Scanned by CamScanner

قس، 277

القند، 164

قيس، 180، 244، 297

قيصر، 294، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 345، 351، 352، 355

كسرى، 119، 167، 271، 275، 277، 294، 311، 312، 314، 315، 316، 322، 324، 325، 326، 327

لؤي بن غالب، 256

لبنى، 217

المأمون بن هارون الرشيد 54

مادر، 236

المتنبي، 221

محمد (النبي) 12

محمد السبيع بن موسى بن إبراهيم اليرنياني 88

محمد الغني بالله ابن الأحمر، أبو عبد الله 259

محمد المنتصر بن أبي حمّو الثاني 246، 258

Scanned by CamScanner

محمد بن إبراهيم البلفيقي 160

محمد بن أبي الحجاج بن أبي الوليد بن نصر 160

محمد بن أبي جمعة التلالسي أبو عبد الله، 44، 69، 84، 158

محمد بن أبي سعيد الثاني، أبو زيان انظر: أبو زيان

محمد بن أحمد الشريف، أبو عبد الله، 127

محمد بن إسماعيل بن محمد بن فرج بن إسماعيل بن نصر، 87

محمد بن الزبير بن طلحة بن مظفر العمراني 152

محمد بن النوار 86

محمد بن زيان الولادي 307

محمد بن صالح شقرون، 137

محمد بن عبد الله بن الخطيب لسان الدين 163، 165، 262، 268، 281

محمد بن عتو المنتاوي 152

محمد بن عثمان بن أبي تاشفين، أبو زيان63، 73، 75، 76، 82، 85، 137، 145، 146

Scanned by CamScanner

محمد بن عريف السويدي 21، 47، 63، 74 - 75، 85 - 87، 98، 128، 146، 186 -187، 198، 201، 212، 233، 241، 287، 305 - 307

محمد بن علي العصامي أبو عبد الله، 291

محمد بن علي بن قاسم المرسي، 291

محمد بن عمر البريطل، 187، 217، 224، 229، 232، 235، 243، 255

محمد بن قضيب الرصاص 185، 315

محمد بن محمد بن ظفر، أبو عبد الله 259، 311، 333

محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد الحق 244

محمد بن يحيى بن أبي يحيى الحفصي، أبو عبد الله 73، 299

محمد بن يعقوب بن علي الرياحي 125

محمد بن يوسف 10

محمد بن يوسف القيسي، أبوعبد الله 42، 53، 65، 102، 182، 218، 288، 292،

محمد بن يوسف بن أومازير (الحفصي) 125

Scanned by CamScanner

مرين بن حامد بن خلف الله المنادي 245
مسعود بن رحّو بن علي بن ماساي الفودودي، 47
مسعود بن علي التوجيني 187
مصعب بن سعيد، 4
مضر، 10، 84، 122، 147، 152، 276
المعرّي، أبو العلاء انظر: أبو العلاء
معمر الزهري، 10
مكحول، 10
منديل بن أبي يحيى الصغير 193، 255
منصور بن الخلوف الياباني، 75
منصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب المريني، 48
المنصور(أبو جعفر)، 54، 68، 72، 75، 81، 98، 137، 208، 256، 258، 268، 273، 288
المهدي (العباسي)، 49، 50، 51، 54
مهدي بن عيسى اللؤلئي، 152
موسى (النبي) 46، 71، 84 – 85، 88، 97 – 98، 105، 122

Scanned by CamScanner

موسى بن خالد بن محمد، ، أبو عمران 155، 267، 287

موسى بن سيد الناس الونجاسي 33

موسى بن علي بن برغوث، أبو عمران 23، 37، 47، 179، 185، 201، 255، 258

ميّ، 64

النابغة الذبياني 11

الناصر بن أبي حمّو الثاني 54، 95، 258

نوح (النبي) 146، 201،

هاروت 138

هارون الرشيد 54

هاشم، 15، 30، 90، 207، 218، 276، 353

هند 217

وادفل ابن الوزير عبد الله بن مسلم 98

وادفل بن عبّو بن حمادن107، 235، 243، 255

الواقدي، 49

الوزجوني، 20

Scanned by CamScanner

ونزمار بن عريف، أبو يعقوب 21، 85، 86، 87، 98، 128، 146، 154، 233

يأجوج، 284

يحيى بن أبي بكر، أبو زكرياء (سبط عبد المؤمن بن علي) 21

يحيى بن داود بن علي بن ماجد 49، 68، 88، 102، 205، 289

يحيى بن علي البطوي 55

يحيى بن عمر العجيسي، 290

يحيى بن موسى الجمي، أبو زكرياء 48

يحيى بن يغمراسن، 15

يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة، 73

يزيد بن سليم السليمي الغساني 73

يزيد بن عمرو، 10

يعقوب (النبي) 54، 307

يعقوب بن أبي حمّو الثاني 258

يعقوب بن علي بن أحمد، 20، 107، 125، 194

يعيش بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق، 48

Scanned by CamScanner

يعيش بن راشد بن الزعيم المجني، 146، 155

يغمراسن بن زيان، أبو يحيى، 15، 63

يغمراسن بن عثمان الورسيفاني 23

يوسف (النبي) 50، 79، 105، 146، 289

يوسف بن أبي حمّو الثاني 109، 258

Scanned by CamScanner

2. فهرس القبائل والأجناس والدول

(أ)

آل حمدان 221

آل زيان 23، 112، 277، 297،

آل هاشم 30، 90، 107، 218

الأزد 108

أولاد آدم 247

أولاد جفنة 221

أولاد حسين 72، 75، 212، 230، 233، 242

أولاد خراج 72، 256،

أولاد ذياب 306

أولاد سواق 21

أولاد سقير بن عامر 245، 306

Scanned by CamScanner

أولاد عثمان بن سباع بن يحيى بن مسعود 20

أولاد عريف بن يحيى 21، 47، 63، 74، 307

أولاد عسكر بن معرف العامري 187، 196 - 197، 241

أولاد عمر بن إبراهيم 187 - 188

أولاد عمر بن عثمان 185

أولاد محمد (رياح) 230

أولاد منصور بن عبد الملك (خراج) 255

أولاد هداج 72، 74 - 75

أولاد يحيى (المسيلة) 230

أولاد يعقوب 307

أولاد يغمور بن عبد الملك (خراج) 256

(ب)

بنو أطاع الله 116

بنو حسن 18

بنو راشد 23، 74، 155، 179، 185، 194، 212، 241، 243، 244، 230، 261

Scanned by CamScanner

بنو زردال 56

بنو زيان 54، 109، 139، 159، 270، 282، 283

بنو عامر 20، 21، 48، 72، 74، 75، 128، 145، 151، 170، 187، 189، 225، 229، 230، 231، 232، 241، 242، 244، 245، 305

بنو العباس 38، 73، 295

بنو عبد الواد، 15، 23، 98، 99، 145، 179، 231، 267، 299

بنو عثمان 22

بنو عسكر 95

بنو مروان (بنو أمية) 295

بنو مرين 20، 21، 23، 24، 25، 37، 38، 47، 48، 53، 72، 87، 91، 232، 233، 234، 241، 243، 246، 254، 255، 265، 267، 281

بنو نصر 16

بنو وريند (بنو ورنيد) 106، 233

بنو يالدز 247

بنو يبقى 22، 188، 233

بنو يزناسن 63، 137، 233، 267،

Scanned by CamScanner

بنو يعقوب 75، 188، 189، 212، 229، 230، 233، 241، 267

(ت)

تغلب 284

توجين 55، 74، 75، 179، 185، 187، 193، 230، 261

(ث)

الثعالبة 224، 267، 287، 306

(ج)

جديس 284، 295

جرهم 284، 295

(ح)

حصين 55، 76، 170، 179، 188، 189، 194، 212، 217، 265، 267، 287، 306

حِمْيَر 295

حمَيْد (من بني عثمان) 188

(خ)

خرّاج انظر: أولاد خرّاج

Scanned by CamScanner

(د)

الديالم 170، 179، 189، 212، 233، 241، 242، 261، 267

(ر)

رياح 20، 21، 22، 107، 119، 127، 128، 139، 193، 217، 230

الروم 16، 160، 295، 333-335، 345، 352

(ز)

زغبة 127، 186، 233، 234، 241 - 243

زناتة 16، 20، 23، 24، 56، 72، 73، 145، 188، 197، 201، 233
247، 250، 261، 305،

زواوة 100، 290،

(س)

سبأ 76

سلول 247

سليم 19

سويد 75، 145، 170، 179، 187، 188، 197، 292، 230، 233،
241، 261، 265، 307، 388

(ط)

طسم 284، 295

(ع)

عاد 293

عامر (بنو) انظر: بنو عامر

عبَيْد الله 82، 85، 151، 225، 229، 232، 233، 241، 242

عدنان 277

عروة 242

العطاف 170، 179، 188، 189، 195، 230، 233، 241، 242، 261، 267

العمارنة 72، 212، 230، 233، 242

العمور 242

العرب 22، 23، 28، 41، 48، 63، 72، 75، 107، 125، 128، 140، 151، 179، 187 - 189، 193، 195، 210، 212، 217، 222 - 224، 232، 233، 249، 256، 259، 261، 268، 283، 305

(غ)

غريب 155، 156، 159

(ف)

الفرس 141، 271

(ق)

القبط 295

قحطان 295

قرَيْش 9 - 11، 120، 256

(م)

مسوفة 247

مضر 10، 50، 84، 122، 148، 152، 277

المعقل 38، 48، 63، 72، 75، 82، 145، 146، 152، 170، 188، 189، 229، 229، 232، 242، 243، 246، 267، 287، 322، 323

مغراوة 76، 81، 99، 259، 262، 267، 268، 281، 286

المنتبات 212، 230، 233، 242

الموحدون (أي الحفصيون) 19، 21، 100، 126، 258

Scanned by CamScanner

(ن)

نزيجة 247

النصارى 169، 185، 196

(هـ)

هداج انظر: أولاد هداج

Scanned by CamScanner

3. فهرس اسماء الأمكنة

(أ)

آبردين 267

الأبيض (أو غدير البقر) 232، 246

أبيض عنتر 233، 243

أجادير (تلمسان) 24 - 25

أجرسيف 73

أحد بني زيد 48

الأخضر 22

أرجو 41

أصطفصيف انظر: وادي الصفصيف

أشر (حصن) 9

أشير 195

Scanned by CamScanner

أعلوف 243

إغيل ان ييزان 140، 189

إفريقية 19، 73، 99، 171، 193

أم الجرابيع 232

أم عسكر انظر: معسكر

أميسون 72

أنجاد 21، 63، 82، 85، 98، 203، 257، 291

الأندلس 15، 16، 38، 42، 65، 102، 107، 185، 212، 258، 259

أوماكرا 23، 243، 245

إفرطن 233

إيفني 242، 246

إيلوان 239

(ب)

باب إيلان (تلمسان) 100

باب الجياد (تلمسان) 292

Scanned by CamScanner

باب السلام (المدينة المنورة) 45

باب العقبة (تلمسان) 25

باب كشوطة (تلمسان) 25

باغة (حصن) 168

بئر الذبّان 231

بئر طرفا 113، 182

بجاية 18، 20، 21، 73، 99، 107، 125، 127، 152، 171، 287، 291، 299

بحائر الشيخ 230

بحر الزقاق 229

برشك 224

برغة 168

البرواقية 195

بسكرة 171، 193 194

البطحاء 47، 75، 81، 107، 125، 140، 146، 185، 188، 189، 193، 212، 217، 225، 229، 230، 234، 268، 299، 305

Scanned by CamScanner

بغداد 38، 98

بقود 217، 230، 225

البقيع 68، 158

بَلخَنِّي 139

بنو راشد (قلعة) 230

بني ورا (قلعة) بيره (ثغر) 21

بيضاء راشد 234

بيطار 100

(ت)

تابريديا 149

تاجديت 252

تاجرنا 232، 242 - 243

تاجزرت 79

تاربايا 232

Scanned by CamScanner

تازا 74، 149

تاسالة 75، 141، 154، 188، 225، 243، 245

تاسالة (جبل) انظر: جبل تاسالة

تاسين 241

تافراوت 252

تافنا 48

تالوين 253

تامرابطت 243، 245

تامزجزجت 233

تامَسْلمْت 151

تامَلحَت 233، 234

تامنصرت 73

تانيرة 188

تاوريرت 63

تبشة 19

Scanned by CamScanner

تجيس 364

تدلس 99، 146، 152، 155، 291، 299

تغالين انظر: ماء تغالين

التل 55، 73، 139، 179، 187، 195، 232، 233، 242، 306

تلمسان 15، 17، 21، 23، 30، 41، 44، 46، 54، 56، 71، 73، 75، 85، 91، 98، 119، 124، 136، 159، 179، 219، 225، 229، 230، 232، 233، 234، 243، 255، 261، 266، 267، 293، 307

تماسين 231 - 232

تمزغران 47

تنس 49

تونس 18، 19، 99، 128

تيجورارين 247، 249، 255، 247، 249، 255

تيدلي 231

تيزي واجمار 23

تيسمرين 22

تيط وشقوف 24، 87، 141

Scanned by CamScanner

تيطري 179، 185، 193، 195، 197، 217

تيكلات 18

تيمزغارين 243

تيمزوغت 259

تيوت 242

تيولي 233

(ث)

ثنايا الغنم 230

ثنية الأمطُلُن 230

ثنية بلزوز 73، 149، 151

ثنية تاغروطت 73

ثنية تاغزوت 100

ثنية تيزي 149

ثنية تيقن بريد 140

ثنية الجبيسة 241

Scanned by CamScanner

ثنية الجليبة 241

ثنية الحصباء 234

ثنية الرملة 243

ثنية الصيادة 241

ثنية غان 230

ثنية غنية 21

ثنية فرتون 23، 145

ثنية لتات 139

ثنية وادي شلف 195

(ج)

جبل أوراس 21

جبل بني ثابت 20

جبل بني عبد الجبار 171

جبل بني ورنيد 233

جبل بني يرناسن 137، 233، 267

Scanned by CamScanner

جبل بني يلسيت 262

جبل تاسالة 188

جبل تيزي 127

جبل تيطرّي 185

جبل جريجرة 187

جبل جزول 242

جبل الحديد 24

جبل دبدو 137، 149

جبل راشد 234، 241، 242

جبل زاتيمة 76، 265

جبل شعيب 246

جبل عياض 21

جبل الفتح 168

جبل مصاب 21

جبل هوارة 187، 197، 307

Scanned by CamScanner

جبل وارصلف 246

جبل وانشريس 55

الجديدة 48

الجريد 19، 232

الجزائر 55، 56، 81، 87، 91، 99، 100، 128، 141، 146، 149، 171، 186، 189، 193، 224، 225، 265، 287

جنديسابور 339

جيج 252

(ح)

الحجاز 42، 64 - 66، 181، 207، 274

الحليات 241

الحمادة 232، 246

حمراء غرناطة 163، 166

حمزة (فحص أو وطاء) 100، 127، 234، 290، 306

الحنايا 48

حنش 242

Scanned by CamScanner

(خ)

خربة عنتر 232

الخضراء 22

خضراء كبود 22، 28، 241

خميس تيكلات 18

خنق الحديد 232، 243

خيزرانة 230

(د)

دار الراحة (الجامع الأعظم بتلمسان) 15

دار يومن (تلمسان) 126

دارين 291

دبدو 48، 137، 149، 151، 234

درج 28، 29، 48

درعة 56، 259

درمل فيجيج 242

Scanned by CamScanner

الدوسن 230

(ذ)

ذراع الصابون 145

ذراع الوسط 242

ذو سلم 41

(ر)

راس العين 48، 137، 151، 225

رامة 42، 64، 203، 221، 276

رجل الدبا 23

رحبة إيمي ان تجمّي 298

رندة 168

الريّ 49

ريغ 21، 27

(ز)

الزاب 21، 27، 30، 44، 109، 230، 266

Scanned by CamScanner

زاغز 230

زروفيا 243

الزيادي 242

(س)

سبتة 229

سبخة زاغز 230

سبخة كبود 22، 241

سجلماسة 15، 106

السخونة 241

السرسو 75، 234، 265، 307

سعيدة 46، 155، 234

سلع 37، 45، 64، 110

السمام 306

سمجاج (حصن) 234

السهلة 169

Scanned by CamScanner

السواني 247

السوس الأقصى 229

سوف 45

سيرات 126، 198

(ش)

الشام 38، 204، 333، 334

الشجرة 241

شرشال 224

شلف 17، 55، 75، 76، 81، 155، 179، 189، 193، 195، 224، 234، 255، 265

(ص)

الصحراء 47، 179، 187، 231، 242، 246، 249، 261، 306، 311، 347، 351

الصفا 28، 137، 162،

الصفصيف (أو اصطفصيف) انظر: وادي الصفصيف 33

الصفيصيفة 242

Scanned by CamScanner

الصوان 241

صيدور 128، 243

الصين 333

(ط)

طارن 193

طاقين 234

طيبة (المدينة المنورة) 42، 65 - 67، 96، 135، 156، 203، 207، 219، 222

(ع)

العبّاد (تلمسان) 74، 100،

عرفات 65

العقيق 42، 53

عقيلة السدرة 246

عمان 110

عنابة (بلد العناب) 19

عين النور 234

Scanned by CamScanner

عين الحجر 23، 48

عين الصفا 137

عين العسل 232، 243

عين العنب 241

عين المجاذم 48

عين وهب 242

عيون السرايا 242

عيون النشاب 48، 233

عيون يشر 48

(غ)

غار وجبر 168

غدير البعر (الأبيض) 232

غدير الخشبة 232

غرناطة 16، 87، 163، 166

الغور 276

Scanned by CamScanner

(ف)

فارس 122، 134، 158

فاس 19

فاطيس 193

فحص أداد 245

فحص بازر 21

فحص حمزة 127

فحص ملاتة 145

فرط 64، 84، 149

فيجيج 232

فيض الجرنينة 241

فيض الجزار 243

فيض الحجالة 250، 269

(ق)

قارة المهمر 238

Scanned by CamScanner

قبا 64، 134

القرارة الحمراء 232

القرارة الغشواء 242

قرية بني ورا 20

قرية تابريديا 149

القسطنطينية 334

قسنطينة 19 - 21، 73

قشتالة 160

القصبات 22 - 23

قصبة ندرومة 17

قصر أبي سمغون 243، 246

قصر أولاد آدم 247، 263

قصر ربا 201

قصور بني عامر 231

القطفة 76، 82، 217

Scanned by CamScanner

قطلان 37

قلعة أوغزوت 187

قلعة ابن سلامة 241

قنطرة الصفصيف (تلمسان) 33

قنطرة وهران (تلمسان) 24

القوارير 247

قور الدنانير 231

(ك)

كدى السباع 232

الكعبة 149

(ل)

ليزو 18

(م)

ماء الأسمام (أو عمود الأسمام) 246

Scanned by CamScanner

ماء تاملحت 233

ماء تغالين 187، 195

ماء تونكيرة 241

ماء تيسبرين 33

ماء الخضراء (الأخضر) 22

ماء سلدن 231

ماء السمارة 21، 231

ماء ساوس 241

ماء الشجرة 242

ماء شعيب 22

ماء عمود الأسمام 232

ماء عين الكلب 241

ماء قارة المهمر انظر: قارةالمهمر

ماء قوفافة 231

ماء كرط 231

Scanned by CamScanner

ماء مرسيط 48

ماء مفسوخ العقل 242

ماء نبش الذئب 233

مأرب 202

مازونة 259، 265، 268، 305

مالقة 168

متليلي 238

متيجة 72، 75، 186، 262

مجرس 241

مجمع 76، 189، 193

مجهل 232، 233، 241 243، 246،

مدغوسة 241

المدية 55، 56، 75، 127، 155، 179، 185، 186، 187

مرادة 146

مراكش 224

Scanned by CamScanner

مرسيط 48

المرية 164

مزغران 47

مستغانيم 47

المسجد الأقصى 136، 222

المسيلة 139

المشوار (تلمسان) 11، 39، 126، 213، 288 303

مشوار إيمي ان تِجَمّي انظر: رحبة إيمي ان تجمي

مصاب 21، 231

مصر 38

مصران 243

المطمر (تلمسان) 25

معسكر (أم عسكر) 72

معقل بني ورا 21

معقل جرجرة 127

Scanned by CamScanner

معلم 7

المقرة 306

مقطع الغاسول 234

مكة 11، 204

الملعب (تلمسان) 25

ملاتة 145

ملالا 241

ملاكو 307

ملوية (وادي) 73، 91، 128، 152

مليانة 55، 56، 75، 76، 81، 179، 185، 186، 193، 259

المناقيب 232، 242

منداس 75، 139، 155، 187، 217، 230، 234، 305

منزل يغود 75

منزل أبيض تيسمرين 238

منهل بئر تاويالا 241

Scanned by CamScanner

منهل الحضرى 242

منهل قطيف 234

مِنى 43، 84

المنية 24، 127، 128، 149، 155، 186، 197، 286، 299

مَيّ 64

ميلة 20

مينة 140

(ن)

النبقة 242

نبقة الخبا 238، 242

نجد 45، 64، 65، 69، 83، 96، 110، 120، 121، 134، 157

ندرومة 17، 38

نعمان 44، 219، 276

النقى 83، 221

نينوالو 253

Scanned by CamScanner

نصيبين 39

(هـ)

الهبور 246

هنين 38، 185

(و)

وادي الأسمام 232

وادي إيسلي 72، 233

وادي تافنا 145، 233

وادي بجاية 171

وادي الجنان 139

وادي الحجل 241

وادي درمل 232

وادي الدوم 191

وادي زرقون 21

وادي الزيتون 47

Scanned by CamScanner

وادي سوف سلم 187

وادي سيج 140

وادي شذّي 230

وادي شلف 55، 75، 76، 189، 193، 195، 224، 255

وادي صا 234

وادي الصفصيف 33

وادي العقيق 42

وادي الغنم 252

وادي فرتونة 16

وادي فيجيج 232

وادي القصب 241، 267

الوادي الكبير 100

وادي مايرتيغن 238

وادي ملوية انظر: ملوية

وادي مسيف 230، 232

Scanned by CamScanner

وادي ملال 21، 28

وادي مينة 140، 188

وادي نرت 232، 242

وادي ورك 230

وادي يسّر 23، 145

وادي يلل 81

وارجلا 21، 27

وارزلف 242

الواسطة 243

وانشريس 55، 75

وجدة 38، 48، 155

واشيلاس 63

وطاط 73 - 74

وهران 24، 47، 49، 74، 86، 87، 188، 268

(ي)

Scanned by CamScanner

اليتيمة 233

يثرب 45، 65، 134، 208، 221، 251

يسّر 29

Scanned by CamScanner

الباب الأول في ذكر سجاياه الكريمة وسيَره الحميدة 7
الباب الثاني في أوليته ومصير الملك إليه 15
الباب الثالث 37
سنة ستين وسبعمئة 37
سنة إحدى وستين وسبعمئة 63
سنة اثنتين وستين وسبعمئة 81
سنة ثلاث وستين وسبعمئة 95
سنة أربع وستين وسبعمئة 119
سنة خمس وستين وسبعمئة 133
سنة ست وستين وسبعمئة 145
سنة سبع وستين وسبعمئة 155
سنة ثمان وستين وسبعمئة 179

Scanned by CamScanner

سنة سبعين وسبعمئة 201

الساعة الأولى 209

الساعة الثانية 209

الساعة الثالثة 210

الساعة الرابعة 210

الساعة الخامسة 210

الساعة السادسة 210

الساعة السابعة 211

الساعة الثامنة 211

الساعة التاسعة 211

الساعة العاشرة 211

سنة إحدى وسبعين وسبعمئة 217

سنة اثنين وسبعين وسبعمئة 229

سنة ثلاث وسبعين وسبعمئة 241

سنة أربع وسبعين وسبعمئة 255

سنة خمس وسبعين وسبعمئة 265

سنة ست وسبعين وسبعمئة 281

[illegible] الأول 305

Scanned by CamScanner

سنة سبع وسبعين و... 306

الملحق الثاني 311

الملحق الثالث 333

الفهارس

1. فهرس الأعلام 361

2. فهرس القبائل والأجناس والدول 381

3. فهرس أسماء الأمكنة.. 389

فهرست الكتاب.. 417

Scanned by CamScanner

صدر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

في إطار تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

Scanned by CamScanner